

حبة القلب

رواية

الطبعة الأولى
2020م - 1442هـ

ديوان العرب
للنشر والتوزيع

ملحوظة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف

عنوان الكتاب: حبة القلب

اسم المؤلف: إيناس جاسم الشمري

التصنيف الأدبي: رواية

رقم الإيداع: 2020 / 16329

الترقيم الدولي: 7 - 41 - 6830 - 977 - 978

تصميم الغلاف: إسلام صلاح الدين

لوحة الغلاف: تيسير كامل

التنسيق الداخلي: إسلام صلاح الدين

رقم الطبعة: الطبعة الأولى

المدير العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com



حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

رواية

حَبْخُ الْفَلْب

ايناس جاسم الشمري

إهداء

إلى الشمس التي أدور في فلكها ..عائلتي ..
مريم ..صديقتي الجزائرية.. ملهمتي في الكتابة..
بطلات روايتي اللواتي تركن بصمتهن في حياتي..
والى من لا يزال يمدني بالإلهام حتى وهو غائب في
طيات الزمن الماضي.

إيناس

مقدمة

تمر بي الأيام وأنا جالسة أهدق في شاشة حاسوبي، صفحة بيضاء تطالعني بصبر نافذ، تنتظر مني أن أطلق ما يسمى فورة إلهامي وأخذشها بغزارة أفكاري ، ولكني ما أنفك وأطالعها بمثل شديد ..لم يكن الملل هو ما يملكني في تلكم الأيام ..كان هناك شعور أجوف يمتص مني أفكاري ..يجعلني أتأرجح على حافات الملل بوتيرة باتت مألوفة لدي . لم أكن شغوفة بالكتابة ..بل إنني لم أكن يوما كاتبة مغمورة ..لم أقرأ في حياتي رواية ما ..لم أهتم قط بالأدب ورواده ..كنت على مسافة بعيدة من الانغماس في ثورة الكتابة ..وماعدا نصوص الإنشاء البسيطة التي كنا نكتبها في المدرسة والتي كانت تتسم بالسذاجة لم أكتب حتى وانتني جرأة الكتابة قبل سنتين تماما.

ثم لا شيء ...

وكان شمعتي في الكتابة قد انطفأت تماما ...!

فاتن

الفصل الاول

تعتيم

كان البرد شديداً وفي الهواء زمهرير يعصف على الأبواب، ويحرك زجاج النوافذ الغير ثابت، وكأنه يوصل رسالة شتائية تنبأ بطقس معتم تماماً، تلبدت السماء بالغيوم و توشحت الشمس بغطاء، كأنها تعبت من إهدار أشعتها الباهتة على طقس شتائي كامل الأوصاف، فتواترت متعبة تنتظر هبوط الليل كي يعفيها من دورها الغير مجدٍ .

كنت أشارك الجو بتعتيمه الكلي، فقد دلفت إلى غرفتي أغلق الأنوار وأشعل المدفئة ليعم المكان بالدفع ثم تلحفت بفراشي وغرقت بين طياته، وكتمت نفسي المتلج بأهات دافئة وأخذت أنصت إلى العاصفة الشتائية التي تهدر من حولي ، كنت أكره الشتاء ..فهو يذكرني بجو المدرسة الطفولي والإجبار اليومي على الخروج من المنزل ..ترك الفراش الهانئ بالدفع والذهاب إلى المدرسة، تضع والدتي فوقى لفات من الألبسة لكي تقيني من البرد فأبدو في النهاية وكأنني دب قطبي..بالكاد أستطيع المشي ، وهناك ..كان علي تمرين أصابع يدي المتلجة للبدء بالكتابة الصفية وأنا أتأمل مضي الوقت كي أعود إلى بيتي حيث الدفع الأسري التام .

ذكرياتي عن طفولتي اتسمت بشتاء قارس كهذا، كرزت على أسناني أذكر أياما مرت بي وأنا أشعر وكأن البرد ملتصق بحنايا قلبي، لم يعد ينبض كما أعرفه ..فقد أصابه الصقيع ككل شيء من حولي ..وقد فكرت حقا ما فائدة قلبي إن كان يضخ دماء مثلجة إلى عروقي ..إلى كلي ؟!.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة عصرا حينما رن هاتفي بوصول رسالة إلكترونية حاولت تجاهلها، فأنا لم أعد أعبأ بها بين كثرة الإعلانات التي تصلني و الرسائل الشبه توسليه من صديقاتي اللاتي غبت عنهن لفترة .. لقد كنت أشعر بالتعب من كل شيء .. لم يعد يهمني دوري في الحياة، افضل العيش في روتين ممل عوضا عن إهدار وقتي في انتظار ما لم يحصل إطلاقا.

ثم مددت يدي نحو هاتفي الخليوي وتقلبت في فراشي أضمه معي وأنا أفكر في كيفية انتزاع يومي الكئيب من أفكاري المشوشة ثم أخذ الهاتف يرن بوصول رسالة أخرى .. تملكني الغضب .. فتحتة لأتفقد الرسالتين ثم شعرت بشيء يهتز بداخلي، وكأن العاصفة أصابتنى تماما، انتفضت من مكاني أتعجل فتح إحدهما وقد شل تفكيري.

كانت عتمة الغرفة مناسبة تماما لتلك الكلمات التي ومضت أمام عيني فقد برزت بوضوح تعلن عن تخليها عن ذلك الصمت الأبدي وقد قرأت:

" فائن، لا تتوقفي عن الكتابة .. لم أرَ مثل شغفك " .

وفقط...

الفصل الثاني

بداية

تمضي الأيام بسرعة وتتعاقب الفصول وكأنها تتنافس مع بعضها البعض بينما يضج الفراق في كل موسم، وكأن كل ذكرى مرت لها رائحتها الخاصة المنعشة، أذكر تفاصيل تلك الأيام كما لو أنني عشتها في كل موسم، حتى لحظات الوداع في نهايات القصص لها رائحة خاصة.. رائحة العمر الذي مضى وخلف وراءه ذكريات غزيرة .

لقد عشت شبابي مرة واحدة في العمر كما يقولون، بضع سنوات وضعها القدر كملعة ذهب في فمي وهمس لي بكل شفافية .. عيشي.. هذه حياتك .. ها هي تخطو خطواتها الأولى .. وقد خطوت وسرت بعيدا، وتعثرت كثيرا .. وقمت وسقطت .. وطففت في أجواء ضبابية ثم .. رقدت .. ورقدت أحلامي معي، كل ليلة تمر بي تندس تحت وسادتي تبعث لي عبق الذكريات وتطوف في خيالي .. تهذر وتولول كعواصف الشتاء ثم تموء كقطيطة نعسة وتلتحف معي فتصبح كغطاء ألف به أوجاعي.

حدث ذلك في يوم من أيام شهر نيسان قبل سنوات طويلة وقد حطت قدماي على عتبة مدينة الديوانية ولم يكن ذلك لأجل زيارة خاطفة كعهدي على مر السنوات الأخيرة بل لأجل تعييني الوظيفي الأول كطبيبة أسنان دورية، درت في شوارع المدينة وكأنني أراها لأول مرة.. وكأنني لم أولد بها .. ولم أعش فيها زهاء عشر سنوات كاملة، حتى الهواء الذي ملأ أنفاسي من نافذة سيارة والذي كان منعشا لأول

مرة..فهنا سأجد حريتي المنشودة ..هنا أصبحت شابة في مقتبل العمر أمامها مستقبل مفتوح ، حياة جديدة تنتظرنى ..عالم آخر بعيد عن عالم الكلية المتوتر، بل أصبحت طيبة أسنان ..بكل ما تعنيه الكلمة ..وليس مجرد طالبة طب ...!!..وذلك دفعني لأبتسم طوال طريقي من الحلة إلى الديوانية ..كنت سعيدة وأنا أقوم بإجراءات التسجيل في دائرة الصحة برفقة والدي وحينما أنهينا كل شيء توجهنا نحو المركز التخصصي الذي أزوره للمرة الأولى ، دخلت إليه وأنا أشعر بانفعال شديد من بدايتي المجهولة، كان يعج بالمراجعين والفوضى تعم المكان، جدران البناية قديمة وإن توشحت بأصباغ باهتة .

مررنا بسرعة إلى غرفة المدير وقد استقبلنا ببرود الأطباء المعروف فيما يتأملني بنظرات فضولية سريعة وكأنه يتساءل إن كنت من صنف الأيادي العاملة أم الجالسة ؟!.

لم أحب كادر الإدارة منذ اليوم الأول وقد كان إحساسي في محله بخصوص البرود المتسم في نظرات الأطباء الموجودين في المركز: هم لا يريدون طبيبات دوريات فقط فالمرکز يضج بهن ..وقد ظنوا للوهلة الأولى بأنني لا أعرف عن حياتي سوى الاهتمام بمظهري.

أرسلوني بعدها إلى رئيس المقيمين، وهو الدكتور أحمد فاروق ولم يكن غريبا علي فهو أحد زملائي في الكلية، وإن لم تكن على معرفة وثيقة بل إنني ابغضه بعض الشيء هو ومجموعته التي كنا نتحاشاها، وقد أصابني بعض القلق لأنني سأعمل إلى جانبه ولكنه استقبلنا بحفاوة أنا ووالدي على الرغم من الفوضى التي عمت غرفة الجراحة حيث يعمل وأخبرني بأنني ما إن أباشر العمل حتى يضعني في قسم سهل كي أعتاد على سير العمل هناك، ثم أرسلني إلى وحدة الحشوات كي أتعرف على

المسؤولة عن دار الطبيبات وشعرت بالتوتر أثناء دخولي إليها فيما انتظرني والذي في الخارج ..الوحدة كانت كبيرة تحتوي على ثلاث أجهزة أسنان مع مكتب صغير جلس حوله أطباء يرتدون الزي الرسمي: الصدرية البيضاء معلقة أسماؤهم عليها.

احتوت الوحدة على خزانة عريضة صفت عليه مواد الأسنان الخاصة بالحشوة ، ودولابان كبيران مغلقان. كانت نظيفة وقد انبعثت فيها رائحة المواد المألوفة لدي فشعرت بأني في مكاني الخاص ...! لم أعرف من هي ريهام وتطلعت إلى الأجهزة المنصوبة في الوحدة وتهافت المراجعين والعمل المتواصل للأطباء، أذكر أني رأيت ريهام وهي القريبة من الباب مشغولة في فم مريضة وتتكلم مع أخرى واقفة على الجانب، ثم أبعدت بصرها وألفت علي نظرة فضولية سريعة، اقتربت منها وقرأت اسمها المعلق على صدريتها: **د. ريهام ملاذ** ، وهكذا ألقيت التحية عليها وأخبرتها بأني دكتورة جديدة فتركت عملها على الفور وقامت ترحب بي أيما ترحيب.

كانت ريهام طويلة القامة ..أطول مني بكثير، لها عينان تشبهان العيون الصينية الجميلة غير أنها تخفي جمالهما بنظارة طبية، وبشرة وجهها بيضاء مليئة بالبثور ..بدت جميلة بنظري، ربما لأنني أحببت طبيبتها وثرثرتها اللذيذة عن كل شيء وقد قضت قرابة الربع ساعة تحدثني عن أهم الأغراض التي علي جلبها إلى الدار، حفظت كل ذلك بذهن شارد نظرا لأنني شعرت بتطلع الجميع إلي حتى وهم مشغولون في العمل، كنت أعرف معنى ذلك، فأنا من دفعة المتخرجين للدور الثاني وغريبة كلياً عن الموجودين.

وحينما ألقيت نظرة خاطفة على المكتب لمحت طبيبين جالسين يتطلعان إلي، وقد بدا الفضول عليهما كلياً ، ولم أحب نظراتهما تلك: شعرت بأن نظرات أحدهما مستعلية بعض الشيء بينما نظرات الآخر الجالس باسترخاء على الكرسي الدوار جعلتني أشعر ببعض القشعريرة، فقد ركز بصره علي ..نظراته حادة ..قوية بحيث أنها نفذت إلى أعماق روحي .

ودعت ريهام بعد أن أخذت رقم هاتفها ..دونته باستعجال على ورقة صغيرة، تحاشيت النظر إلى الطبيبين الجالسين، بدا أنهما استمعا إلى حديثنا السريع أنا وريهام وقد أشعرتني ذلك بالتوتر خاصة وإن نظرات الطبيب الآخر لم تتوقف عن بث مساراتها في داخلي. للحظة ارتجف قلبي حينما ألقيت نظرة سريعة عليه فوجدته يتأملني بكل هدوء وكأن عيناه استقرت وهدأت على ملامح وجهي الذي جاهدت لجعله جامدا كلياً ولم أعرف لمَ لم أحب ذلك ..فقد أشعرتني بالانزعاج والتملل أكثر من الطبيب الآخر وقد قررت ان أتجاهلها تماماً وهكذا فعلت في الفترة الأولى من دوامي .

بعد أن خرجنا من المركز توجهت مع والدي إلى بيت جدي القائم في منطقة العروبة وهناك احتضنتني بيت طفولتي وقد استقبلني خالاتي بالزغاريد وكأنني عروس جديدة، كن سعيدات لأنني قبلت في المدينة ولكن سعادتهن لم تستمر طويلاً حينما أخبرتهن بأنني سأستقر في الدار منذ الأسبوع الأول.

اعترضت خالتي سعاد -الأكبر سناً- ..كانت مكتنزة الجسم، ذات وجه عريض وشعر أسود فاحم ..لطالما أشعرتني بالرهبة نظراتها الواسعة الصلبة خاصة وهي قد ربت أولادها الثلاثة على طريق مستقيم لم

يحيّدوا عنه ..وبختني لأنني اتخذت قرار سريعا كهذا و أخبرتني بالحرف الواحد بأن أبناءها وجدتي لن يقبلوا بأمر كهذا وقد صدقت بكلامها، فقد تلقيت توبيخا آخر من جدتي والتي تركت غرفتها لتستقبلني أنا وأبي.

وبعد محنة الغداء معهم شعرت بأنني سأعاني كليا من تسلط الجميع، وقد بدا أبي واعيا لهذا الأمر ولكنه ترك لي الخيار لأنني أصبحت كبيرة بما فيه الكفاية لأتخذ قرار مصيريا كهذا، كنت قد أقنعت عائلتي بأنني أفضل دار الطبييات لأنه سيحوي صديقتي من الحلة وبأنني لن آخذ حريتي الكلية في بيت جدي خاصة لأنه يحوي ثلاث شباب عزاب وقد أقتنع أبي بوجهة نظري، لكن الأمر هنا ..اختلف تماما ..ولم تقل خالاتي شيئا فقد ساد الصمت في فترة تناول الطعام وأردت استعجال العودة إلى الحلة كي لا أصادف أحدا من أولاد خالتي مدركة بأنهم لو علموا بالأمر فلن يمر بسلام.

وما إن عدنا إلى الحلة في ذلك اليوم ..تنفست الصعداء أخيرا.

الفصل الثالث

مباشرة

في التاسع عشر من شهر نيسان باشرت يومي الأول كطبيبة أسنان، كان يصادف من الأيام الثلاثاء حسب أجندتي الملقاة في حجري، كنت أبحث في أجندات ماضية وقد وقع بصري على تاريخ ذلك اليوم المشار إليه بعلامة حمراء، كان يوما مهما في تاريخ حياتي العملية، ذهبت مبكرة منذ الصباح بمفردي لأن والدي لم يستطع التفرغ لأجل إيصالني إلى الديوانية .. استقلالي بنفسني منحني فرصة الذهاب إلى هناك لوحدي وقد كتبت علي معاناة جديدة متمثلة بالمرآب العمومي .. فقد رحب بي منذ اليوم الأول حينما انحشرت في سيارة الكيا KIA ذات الأحد عشر راكبا وقد ضمنت حقيبتي الخاصة وحقيبة حاسوبي المتنقل معي، كنت أدعو في الدقائق الأولى لجلوسي أن تستقر امرأة إلى جانبي، لا أعرف كيف أتصرف لو جلس رجل غريب إلى جانبي لأول مرة ، كانت تجربتي الأولى في السفر صعبة، فلم أستطع أن أحرك ساكنا طوال الطريق ولم أطلق أنفاس الراحة حتى وصولي إلى الديوانية في مدة تقارب الساعة وهناك ما إن نزلت في نقطة الاستدارة حيث ينتظرني ابن خالتي علاء شعرت بالارتياح .. نجوت هذه المرة بالرغم من صعوبتها، كغيرها من المرات التي تلتها حتى اعتدت على الذهاب كل أسبوع والعودة يوم الخميس ولم ينتظرني علاء كما في المرة الأولى، فلقد أيقن الجميع بأني سأعتاد على السفر ولكنني لم أعتد على المرآب ولا حتى بعد سنوات من ذلك اليوم !.

أُقلني علاء إلى المركز مباشرة وهذا لأنني لم أكن أرغب بالتأخر في أول يوم لي.

كان ابن خالتي هذا الأكبر سنا بين أولاد خالتي، رجل من طينة فريدة.. حقا .. هكذا والدي يمتدحه حينما نتحدث عن أولاد خالتي، رجل في الواحد والثلاثين من عمره ذو رزانة غير معهودة وثقافة غير طبيعية .. ربما يهتم بالسياسة .. من يعرف .. أو ربما هو ذو اهتمام كبير بالدين .. أو قد تكون ميوله فنية ..؟.. من يهتم !.. هو يملك التكوين الخاص به .. وقد كنت معجبة جدا بهيئته الجادة وسلاسة حواراته .. اهتمامه البسيط ببیت جدي .. واعتماد خالتي عليه ..

يومها كنت فخورة بامتلاكي ابن خالة مثله..!

لم يتركني علاء حتى دخولي المركز، ربما لأنه لاحظ توتري وارتباكي الشديد ما إن وصلنا وهكذا ركن السيارة عند باب المركز وسألني بهدوء: " فأتن هل تعرفين أحدا في المركز ؟"

أومأت وقد منعني الانفعال من قول شيء و شعرت به يتنهد ثم ينزل من السيارة ليقول: " هلمي بنا " وأنزل حقيبة سفري اليدوية الصغيرة .

بعدها دخلنا إلى المركز، ولكوني لم أعرف تماما أين علي الذهاب وقفت أنا وعلاء عند باب وحدة الذاتية، وكان منظرنا يجلب الفضول إلينا، أنا بوقفتي المرتبكة وعلاء الرزين الضخم الجثة واقفا قربي وهو لا يزال ممسكا بحقيبة سفري.

عاد يسألني: " أين ستذهبين ؟.."

أردت أن أخبره (لا أعرف) ولكنني انتهيت لأقول بتوتر: " إلى وحدة الجراحة "

" هناك أحد تعرفينه ؟ "

أومأت له، فتنهد مرة ثانية وكأنه غير مقتنع بإجابتي، ولكنه أخبرني أن أسير أمامه لأنه لا يعرف الطريق وهكذا قدته نحو وحدة الجراحة وقد قاربت الساعة الثامنة صباحا، وامتألاً المركز بالمراجعين، كان عدد هائل ينتظرنا عند الوحدة وجعلني ذاك العدد المهول أزدرد ريقى، فأنا لم أكن خبيرة بعد في التعامل مع المراجعين ولدي خلفية ضئيلة في الجراحة، بل أنها كانت نقطة ضعفي وعلامتي السوداء في سجل معاناتي في الكلية.

حينما رأيت أخيرا الدكتور أحمد فاروق شعرت بالارتياح لأنه لا يزال يتذكرني وهكذا عرّفته بعلاء بشكل سريع نظرا لكونه كان منشغلا بفحص المرضى، وحينما وقفت جانبا لا أعرف ما علي فعله بينما علاء ينظر إلي باستفهام، تنحنحت أخيرا وقلت للدكتور: " أين علي الذهاب؟.. في أية وحدة سأبدأ أولا ؟ " .

كان الدكتور أحمد غير مدرك لوقفتي الحائرة مع علاء حتى تدارك الأمر أخيرا وقال لي باستعجال: " أه نعم .. ما رأيك أن تذهبي إلى قسم الأطفال ؟ "

الأطفال ؟!.. حسنا كنت أجيد التعامل مع الأطفال في الكلية، لكنني اعتمدت في عملي هناك على أطفال متعاونين أمثال شهد بنت جيراننا الصغيرة وآلاء بنت عمتي المتعاونة تماما. لكنني لم أستطع الاعتراض فقلت للدكتور دون تردد: " هذا جيد .. " ثم تابعت غير واثقة وأنا أنظر

إلى علاء وكأنني أستمد منه شجاعتي: " و.. ولكن ..أنا لا أعرف أين سأجد الوحدة ؟ " .

في النهاية قامت المريضة من كرسي الأسنان بعد أن أنهى الدكتور تخديرها وسمعته يقول لي: " حسنا تفضلي ..سأدلك عليها " فشكرته هامسة، وخرجنا من هناك.

لم تكن وحدة الأطفال تبعد سوى خطوات عن تلك الخاصة بالجراحة، كانت الغرفة الأخيرة في القاطع وليس هناك سوى مراجعين طفلين مع عائلتيهما، وقبل أن أدخل الوحدة مع الدكتور ناولني علاء الحقيبة وقال لي هامسا: " فاتن أنا ذاهب إلى عملي، لو احتجت شيئا اتصل بي..لديك رقم هاتفي أليس كذلك؟ " أومأت له فتابع يقول: " أين ستبقيين بعد انتهاء الدوام ؟.. " سارعت لأقول: " سأعود للبيت ..سأتدبر أمري لا تقلق .. فهمس لي مشجعا: " ابحثي عن البنات ..لا تبقي لوحداك اتفقنا ؟ " .

أومأت ثانية وأنا أشعر بالانفعال يهزني ..كان اليوم الأول صعبا بكل ما فيه، الكذب على علاء ليس أمرا مستحبا ..ولكني فعلت ذلك ريثما أتدبر أموري وأستقر بالدار ثم أخبر الآخرين بأنني لا أعود إلى الحلة كل يوم.. ودعني علاء مبتسما لي ودخلت الوحدة..

كانت غرفة الأطفال معدة بشكل مميز لاستقبال مراجعيها الصغار، على الجدران رسمت لوحات لبعض أفلام الكارتون المعروفة وقد استخدمت في ذلك ألوان جاذبة للأطفال، و تدلت من السقف لعبة للرجل العنكبوت وأخرى للرجل الخفاش وكان كرسي الأسنان في الوسط، وفي نهاية الغرفة علقت شاشة مسطحة كانت تعرض في تلك الأثناء برنامجا كارتونيا شهيرا.

كان الدكتور أحمد يتحدث إلى مسؤول الوحدة فاقتربت منهما وسمعتة يخبره باسمى وبكوني متوظفة جديدة، بعدها عرفني بالدكتور عماد، شعرت بترحيبه الدافئ وابتسامته اللطيفة بعيدا عن شرود الأطباء وملامحهم الباردة، أدركت وقتها بأن اختيار الوحدة كان صائبا، فبالرغم من إنها تحوي كرسي الأسنان المعد لاستقبال الأطفال وهم غير متعاونين أحيانا، بحيث يبدأ بالعويل والبكاء كل من يجلس عليه ولكني أحببت البدء بها.

الدكتور عماد كان النسمة الهادئة لتلك الوحدة، رحب بي أيما ترحيب وجعلني أجلس وهو يسألني عن اسمي بشكل أوضح و عن المحافظة التي جئت منها، فيما كانت المساعدة تجلس إلى جانبه وهي تبتسم لي بمودة، فتنفست الصعداء واستطعت الإجابة على أسئلته الودودة بينما عيناى تنتقلان إلى كرسي الأسنان حيث كانت طبيبة تعالج طفلا صغيرا، كان يبدو عليها الجد وبعض الحزم، أعجبت على الفور بصرامتها وخبرتها في التعامل مع الأطفال فكانت تدخل الواحد تلو الآخر دون كلل، تعمل بصمت وتعاملهم بمزيج من الرقة والحزم.. بدت كفنا للعمل معهم وفكرت في داخلي: ليس الممكن أن أصبح مثلها، فأنا خجولة كليا و تعاملتي مع الآخرين يتسم بالكاد بالجدية المطلوبة.

مرت ساعات الصباح بسرعة، تعرفت بالدكتورة التي تشاركني العمل بالقسم: داليا ، بغدادية ذات أصول كردية، كانت ممشوقة القامة لها وجه جامد الملامح ببشرة حنطية وعينين نرجسية شاردة، تجولت بي بعد انتهاء العمل في قسمنا وقد أصبح بمقدورنا التحرك بحرية دون وجود المراجعين وأخذت تصف لي كل وحدة ومن يترأسها و تعرفني على الموجودات من البنات حتى وصلنا إلى وحدة الحشوات فقالت لي : " هنا نجتمع عادة في نهاية الدوام".

عندما دخلنا وحدة الحشوات الواسعة، كان العمل متوقفا وكما وصفت داليا فقد كانت ممثلة بالأطباء، لكنها لم تهتم لذلك فألقت التحية على الجميع وتوجهت إلى حيث جلست ريهام التي قامت للترحيب بي بكل ود ما إن رأنتني، الأمر الذي جعلني أشعر وكأنني مراقبة من الجميع وكنت لا أزال أشعر بالخجل لأنني حديثة العهد ولا أعرف أي منهم. عرفتني ريهام على رفيقتيها: سوسن وسحر فسلمتا علي وجلست إلى جانبهن، سحر زميلتي من الكلية ..ومن أهالي الديوانية، كنت أعجب بشخصيتها القوية وابتسامتها وطلاقتها في الحديث، بينما سوسن.. شعرت بأنها تنظر بتركيز لم أحبه، كانت فتاة مكتنزة بعض الشيء، لها وجه عريض، عيون سوداء واسعة وحادة، لم تتقوه بكلمة معي حتى أنني شعرت بالوحدة برغم الغرفة المزدحمة ، لم أستطع لخبلي أن ألتفت ناحية زملائي، كان أغلبهم منشغلا بهاتفه أو يتحدثون إلى بعضهم ، وآخرون يستمعون للأغاني الدارجة .. بينما اندمجت زميلاتي بالحديث عن ما صادفته كل واحدة منهن في العمل، تحدثن عن الحالات المرضية الغريبة التي مرت بهن خلال اليوم وأحيانا أشركن بعض الزملاء في الحديث، بعدها تحول حديثهن إلى موضوع الطعام وضرورة تسويق بعض الأشياء المهمة وبينما هن يتحدثن جاءهن أحد الأطباء الجالسين في الغرفة، كان طويل القامة نحىلا بعض الشيء، وجهه ينم عن الصلابة والكبرياء وحينما تطلعت بعينه الذهبية تذكرته على الفور، لقد كان نفس الطبيب ذي النظرات الحادة الذي رأيته قبل أسبوع حينما أتيت أول مرة إلى المركز، تذكرت نظراته تلك وتساءلت إن تذكرني بدوره على الرغم من إنه لم يلقي علي نظرة واحدة ، وانشغل بالتحدث مع البنات ثم فجأة التفت إلي وسألني وكأننا نعرف بعضنا منذ زمن : " صحيح... هل تملكين معاملة الإعاشة الخاصة بك؟".

أجفاني سؤاله في البداية، فقد تعلقت عيناه اللامعة بي وكأنه تعمد أن يأخذني على حين غرة ويشركني بالحديث، وحينما فهمت سؤاله أجبته بكل هدوء: " كلا .. " وشعرت بأن التوهج ازداد فيهما وهو يجيبني برصانة: " إذن عليك أن تقومي بإنجاز واحدة في دائرة الصحة دكتورة... " وتوقف متعمدا كي أذكر اسمي وشعرت أن تلك اللحظات الممدودة تطول بيننا ثم أومأت وأجبهته بصوت متحشرج: " فائن .. "

بدت الثقة واضحة عليه وهو يقف منتصبا وكأنه حصل على ما أراد: " أهلا بك دكتورة فائن، أنا الدكتور نبيل ..مسؤول الإعاشة في الدار ! " .

الفصل الرابع

الدار

الشقة التي تأوي طبيبات الأسنان عبارة عن غرفتي نوم تتسع الواحدة منهما لأسرة أربعة.. ودولابين تشغل كل منهما زميلتان معا، وتحتوي الشقة أيضا على مطبخ هو في الأغلب مهجور تقريبا نظرا لعدم توفر الطباخ، فقد كن يحصلن على وجبات الطعام جاهزة من المطبخ الرئيسي في الدار.

وفي الشقة غرفة جلوس واسعة يشغلها تلفاز وأثاث بسيط للغاية، حين حضرت أول مرة شعرت بالألفة، خاصة وأن البنات رحبن واهتممن بي دون أي تقصير، استقرت في الغرفة الرئيسية مع داليا وريهام وشغلت سريرا في الجهة البعيدة عن الباب، ساعدتني داليا في توضيب حقيبتي وعلقت ملابسني في الدولاب القريب مني، وحين جنن بالغداء من المطبخ القريب أخذت أصلي وقد شعرت بحاجة ماسة لأن أنفس عن بعض المشاعر التي اكتنفتني، كنت متوترة، خائفة، خجلة وحيدة.. محاطة بفتيات غريبات عني وإن كن لطيفات المعشر، لكنني أمر بتجربة فريدة لأول مرة، أتذوق طعم استقلاليتي بمرارة فائقة، وحين سجدت إلى ربي بعد انتهائي من الصلاة شعرت بدموعي تلامس تربة الصلاة، بكيت لحظتها.. بكيت وأنا أتمنى لو أنني في منزلي.. وفي حضن أمي.. أسجد على تراب بيتي وأبكي !..

الغروب في الديوانية له بالغ الأثر في نفسي، لطالما أحببت منظر الشمس المتوارية خلف الظلال، خلف أبواب الليل الخجلة.. منذ أن كنت

طفلة صغيرة أصدع إلى سطح بيت جدي، أتأمل غروب الشمس وأنا أشعر بالسكينة تملنني، هناك لحظات خاصة تملئ قلبي حين أستمع إلى صوت المؤذنين المعلنين عن صلاة المغرب، تنتثر أصواتهم من مآذن قريبة وبعيدة .. فأنصت .. أنصت إلى الهدوء الممتزج بإيقاع رוחي .. في تلك الليلة شعرت بكل ذلك وأنا أذهب مع داليا إلى المطبخ كي نأتي بوجبات العشاء المبكر، توقفت قدمي في الساحة الواسعة المؤدية إلى المطبخ ، ورأيت الشمس المتوارية .. أدركت لحظتها بأني ربما بالغت في شعوري بالسوء .. فهناك لحظات خاصة من طفولتي الغرة لا تزال ترافق كياني، ربما لذلك تأثرت في ذلك اليوم ، كنت مولودة من جديد في أحضان مدينتي الأم .. الديوانية !..

البنية التي تحوي المطبخ تضم أيضا غرف الأطباء المتزوجين بالإضافة إلى بهو كبير وصالة ألعاب رياضية صغيرة، وهناك كافيتريا مختلطة وقد أخبرتني داليا إنهن نادرا ما يتناولن طعامهن فيها بسبب عددهن الضئيل مقارنة مع أعداد الأطباء الذكور، وكنت سأنضم إليهن بدوري، فلم أكن من محبي الاختلاط ، فقد وجدت صعوبة كبيرة في الجلوس في غرفة الحشوات مع بقية زملائي الجدد على الرغم من ان البنات كن مرتاحات في جلوسهن معهم، ولذلك استغربت سبب استيائهن من الكافيتريا، ولكن داليا أخبرتني هامسة قبل دخولنا المطبخ : " تحتوي الكافيتريا على بعض النماذج من الأطباء المربين ولذلك .. توقفت بتعبير ملتوي من شفتيها .. ففهمت .. وشعرت بالقلق لأنني لا أعرف أحدا ولا أستطيع أن أضع ثقتي في أحد .

دخلنا المطبخ وكان يسبقه بهو صغير يؤدي إليه حيث الطباخون والعاملون في المكان، يحتوي البهو على خزائن من الألمنيوم فتوقفنا خلف القاطع و سحبت داليا ورقة الإعاشة الخاصة بأسماء الأطباء

وأخذت تنظر إليها ثم قلبت الورقة بينما دخل أحد عمال المطبخ وألقى التحية علينا فردت عليه دون أن تنتظر نحوه : " مرحبا علي .. هذه دكتورة جديدة واسمها غير موجود في القائمة .. سأخذ وجبة إحدى الطبيبات المجازات مؤقتا ريثما تأتي الدكتورة بمعاملة الإعاشة " .

نظر إلي العامل الطويل النحيل وسألني بارتباك : " الدكتورة طبيبة أسنان ؟ " .

حينما أومأت له تتنحج قائلا : " أ .. أ .. لقد وضع الدكتور نبيل اسمها في القائمة ، حضرتك الدكتورة فاتن ؟ " .

لم أستطع أن أومأ له .. أصابتنني الدهشة بينما ندت صيحة قصيرة من داليا وهي تقرأ بصوت عالي : " فاتن سلام نور الدين .. آه .. ها هو أسمك .. ! " .

وبالفعل رأيت اسمي واضحا على ورقة الإعاشة .. مكتوبا بأحرف بطيئة مهندمة، تطلعت به وكأنه ليس اسمي وبأحرفه المكتوبة بدقة، كان الخط جميلا منمقا يدل على ثقة عالية بالنفس، لم تتطلع داليا إلى اسمي كما فعلت .. تركتها تتحدث مع علي عن استلام وجباتنا للعشاء بينما كنت لا أزال أمسك بالورقة وكأنها تشدني إليها، لم تستغرب داليا أمر وضعه في القائمة، اعتبرته أمرا عاديا فيما بلعت ريقِي وأنا أنظر إلى اسمي كاملا .. وفكرت .. يا ترى من أين للدكتور نبيل معرفة اسمي الكامل .. فاتن سلام نور الدين .. ؟ !

لم نتأخر في المطبخ كثيرا وسرعان ما خرجنا محملتين بوجبات العشاء، وما إن مررنا على بهو الأطباء حتى رأينا الدكتور نبيل خارجا من المكان وحيانا في الحال، كان لا يزال مرتديا ملابس العمل، قميص

أبيض بربطة عنق قصيرة ، وجينز غامق اللون ، بدت عليه الجديدة، ولا أعرف لمَ شعرت بالخلل من نظراته التي عادت ترمقني بهدوء عجيب، كنت أهمس لنفسي بأني أتخيل أن لنظراته تلك معاني خاصة، توقفت مع داليا وأنا أشعر بالتوتر ذاته يغشاني في حضوره ..حاولت أن أجعل نظراتي حيادية، جامدة بعض الشيء وهكذا استمعت إليه يخاطب داليا بمرح : " مازال الوقت مبكرا على العشاء " ونظر إلى ساعته وهو يقول مبتسما : " لابد أنكن جائعات " .

ابتسامته تلك أزالت الجمود من وجهه ، وبدا أكثر شبابا و ..تقبلا ..نظر إلي وهو يقول كلمته الأخيرة فغضضت بصري شاعرة بالخلل، كان الدكتور نبيل وسيما ..مهيبا بقامته الطويلة، أنيقا، ولا بد وأنه أعزب .. ذاك ما أوحى لي به نظراته المهتمة بنا..، و مع شعره الذهبي الداكن اللون المصفف بأناقة بدا لي أشبه بالطبيب الكفوء ..وذلك جعلني أنظر إليه بخجل ورهبة ..ماذا أعرف عنه ..؟..لا شيء ..مظهره قد يكون خادعا ، اهتمامه بي قد يكون لأنني جديدة ..ربما هو فضولي بشأني وهذا أمر طبيعي ..بل إنه طبيعي بحت ..فلماذا أشعر بالتوتر وأفسر اهتمامه بشكل آخر ..؟.

أجابته داليا مبتسمة : " أجل ..نحن اليوم مبكرات، كما إن فاتن أحببت أن ترى المكان " .

شعرت بسخونة خدي حينما أشارت إلي داليا، تركزت علي نظرات الدكتور هذه المرة بطريقة أشد ..تمنيت أن لا يظهر علي أدنى انفعال وأنا أسمعه يقول لداليا : " لا بد وإنها تشعر بالغربة في اليوم الأول " ثم تابع بصوت ودود : " من أي محافظة حضرتك ؟ " .

كان سؤالاً واقعياً .. لا يضمّر أي شيء ، أجبت بصوت هادئ : " من الحلة " ليس من الضروري أن أخبره بجذوري الممتدة في تربة الديوانية ..

أوماً لي بابتسامة ذهبية وقال : " تشرفنا .. أهل الحلة طيبون ، كما أنهم مضيفون للغاية " .

شكرته بهمسة مختنقة وتمنيت أن يتوقف الحوار هنا ولكنه تابع بكل طيبة : " وأنا من كربلاء .. جيرانكم المقربون " قالها بود لم أحبه كثيراً .. كنت غريبة عنه .. فلماذا يتصرف بتلك المودة الفجة؟

أخذت داليا تقول : " لا تبعد الحلة عن كربلاء كثيراً ها ؟ " وتنقلت ببصرها بيننا فأجابها الدكتور : " بضعة كيلومترات ، الحلة هي الجسر الذي يربط محافظات الجنوب ببعضها " قالها وهو ما يزال يطالعني بفضول .. وبشي من التركيز جعلني ازداد توتراً ..

أومات موافقة فتابع يقول بود : " لقد أضفت اسمك في القائمة ريثما تأتين بالمعاملة وقد أمرت المطبخ أن يجهزوك بكافة الوجبات كأية طيبة " .

شعرت بأنه بالغ في جملته ، شكرته بهمسة خافتة بينما توقف الحديث بيننا لبضع لحظات ، بعدها نددت من داليا حركة وسمعتها تقول مجاملة : " نعم نبيل ، سلمت يمينك " ثم تحركت من مكانها وهي تتمتم باختصار : " عن إذنك علينا العودة إلى الدار " .

أوماً لنا وتحركنا أخيراً لنخرج من البناية وهناك استطعت أن أتنفس هواء الليل العليل ، لكن ذلك لم يدم إلا لحظات وأنا استمع لداليا تقول معلنة : " خذي حذرك من الأطباء هنا فائن .. بعضهم مريبون وبعضهم

ينوون الصدق، ونبييل شاب معتدل متدين، تعرفين أهل كربلاء هم متشددون في بعض الأحيان، ولكن نبيل معتدل " مطت شفيتها فسألتها بهدوء: " ولم تقولين لي هذا؟".

أجابتنني ببساطة: " هو يبحث عن عروس منذ فترة، وأرى من المحتمل أن يضعك أنت تحت الاختبار بما إنك طبيبة جديدة هنا، وسيدرسك.. انتبهى.. سيلتف حولك في الفترة الأولى " وقالت وهي تدخل إلى الدار: " لقد فعل معنا جميعا، ولكننا لم نكن المطلوبات على ما يبدو " وضحكت وكأنها تتحدث عن موضوع عادي: " لذلك ربما ستجدين اهتمامه مزعجا بعض الشيء! ".

شعرت بالاختناق وأنا أدخل الدار معها، لقد حذرتني وقد استجابت كل حواسي لتحذيراتها.

الفصل الخامس

نرجس

في اليوم التالي من بقائي في الدار جاءتنا طيبة أسنان جديدة عُينت حديثاً معنا، دعتها ريهام إلى الشقة لأنها تعرفها من الكلية، وتمنيت أن لا تأخذ السرير المتبقي في الغرفة فقد حجزته لصديقتي منال التي انتظرت قدومها من بعدي ..

تعاملت بحذر معها ولكن نرجس هذه .. غيرت جو الدار بقدومها .. أو تقريباً غيرت فكري عنها ، كانت بدورها جديدة هي الأخرى وتبدو وكأنها أخذت عنوة من بيت أهلها، فقد حملت كافة ملابسها وأغراضها ومقتنياتها الشخصية في عدة حقائب، وكأنها قادمة لكل العمر .. عطفت عليها ما إن رأيت الدموع مخفية في عينيها وهي تقول لريهام بأنها تتمنى أن لا تتقل على أحد. شعرت بمدى أنانيتي .. رحبت بها مع ريهام.. ثم قررنا أن تأتي إلى غرفتنا مؤقتاً.

كانت نرجس أقصر مني بقليل، ممتلئة الجسم بعض الشيء .. حنطية البشرة، عيناها صغيرتان جميلتان .. وتقاطيع وجهها مليحة للغاية، شعرها أسود طويل يلمع دون تقصف .. وتبدو كالطفلة الجميلة التي فارقت والديها، طيبة التعامل ، وتصورت للاهتمام المنصب عليها بأنها لا تعرف شيئاً.

وحين علمنا بأنها غير محبة وستبقى كذلك .. انقلب الدار رأساً على عقب !.

لم تكن نرجس الوحيدة الغير محجبة، فداليا كذلك أيضا ولكنها ترتدي الحجاب في الديوانية، تخيلنا ما سيحصل لو ذهبت نرجس للمركز بمظهرها هذا .. حينها سيتوافد المراجعون بأعداد هائلة .. ولم نكن مخطئين في ذلك !.

لم نستطع أن نؤثر على قرارها بعدم ارتداء الحجاب. في النهاية وقفنا إلى جانبها معتبرين الأمر حرية شخصية وقناعة داخلية ، لكن ريهام أسرتني ونحن ذاهبتان إلى المركز في الصباح أن الأمر لن يمر على خير وبأن نرجس ستلاقي استهجانا كبيرا لدى العاملين في المركز وكذا المراجعين .

حصل هذا في ظرف أسبوع فبعد توافد الناس لرؤيتها من كافة المناطق، شعرت نرجس بالانزعاج حتى إنها أثارت اهتمام جميع الزملاء ، فهي باهرة الجمال وتخطف الأنظار إليها بمجرد رؤيتها ، وتمنيت أن يحول الدكتور نبيل اهتمامه إليها ، ولأنني أملك خبرة سابقة متمثلة بصديقتي منال .. فقد عرفت أن الفتاة هذه لن تبقى عزباء طوال مدة بقائها في الديوانية. ففي ظرف أسبوعين تهافت عليها اثنان من زملائي، واحد من النجف الأشرف .. والثاني من مدينة الديوانية .. ولكل منهما مواصفات خاصة به ..

أسرتني مرة من دون جميع البنات بأن الدكتور أحمد من الديوانية يهتم بها بشكل خاص .. وبأنها تخشى على سلامة قلبها من اهتمامه !.

ومنذ تلك اللحظة ولا أعرف كيف .. أصبحت نرجس صديقتي المقربة !.

في الأسبوع الثاني من دوامنا قررنا أنا وهي الذهاب إلى دائرة الصحة من أجل إجراء معاملة الإعاشة، ولأنني لم أرد أن نذهب بمفردنا، اتصلت بابن خالتي علاء كي يأخذنا إلى الدائرة ولكنه اعتذر مني لأنه في عمله ، ولم أتجرأ على الاتصال بسرمد -شقيقه- فلا بد وأنه مشغول فأنا لم أقابله منذ مباشرتي العمل في الديوانية، بل إنه لم يتصل بي أو يبارك لي، وحتى حين قصدت بيت جدي الخميس المنصرم، سلم علي ببرود، وإذ عاتبته خالتي نجاح على خروجه المبكر ولم يقيم بتهنئتي كبقية أشقائه، نظر إلي بسخرية كعادته ولم يقل شيء، و كان ذلك أرحم بالنسبة لي ..فمنذ سنوات كنت أتضايق من تجبره علي وتحكمه بذهابي و إيابي.

كانت الساعة قد قاربت العاشرة، أخذنا أنا ونرجس إذنا من رئيس الأطباء: الدكتور أحمد، ثم موافقة من الإدارة، و كنا نقف في وحدة الذاتية لنكتب ورقة الإذن بالخروج عندما أخبرنا مسؤول الوحدة بأن الدكتور نبيل ذاهب إلى الدائرة ويمكنه إيصالنا في طريقه، لم تكن نرجس تعرف من هو نبيل لكنني سارعت إلى الرفض وأخبرت المسؤول بأن لدينا سيارة أجرة، لكن كلامي ذهب أدراج الرياح حينما دخل نبيل ورائنا وأخبرنا بأنه سيسعد بتوصيلنا ما دمنا ذاهبين جميعا إلى المكان ذاته، وقد شعرت بالإحراج، خاصة وقد رحبت نرجس بعرضه وحينما خرجنا همست لي متعجبة : " لماذا كذبت بشأن السيارة ؟".

أجبتها هامسة وأنا أتطلع إلى نبيل المختال في مشيته : "سأخبرك لاحقا"

وانتظرناه في الكراج الخاص بالمركز ريثما يخرج سيارته وهي من نوع " كيا أوبتما " (Kia Optima بيضاء اللون ، سمعت نرجس

تتمتع بهمس: " وسيم وثري ..! " ، فنظرت إليها بعجب وكدت أقول لها
بأنني فكرت بالعكس: (ثقيل الدم ومغرور!)، ولكنني احتفظت برأيي
لنفسي، فرجس كانت غريبة عني في ذلك الوقت، و لم أكن أعرف
طباعها.

ما إن توقفت السيارة قربنا حتى أشارت لي نرجس بأنها ستصعد في
المقعد الأمامي، وكنت سأطلب منها راجية أن تفعل ذلك، لأنني لم أشأ
أن أجلس إلى جانب نبيل و بعد فإن اللباقة تقتضي أن تجلس إحدانا إلى
جانبه، وحالما تحركت السيارة بنا وخرجنا من المركز أخذت نرجس
تشكره على إيصاله لنا بينما رحت أنظر بإصرار من النافذة شاعرة
بوجود نبيل قريبا مني دون أن أحتاج النظر إليه، كان قويا ..مميزا في
سياقته، وقد سلب لب نرجس بوسامته ..ولكنني شعرت بالنفور مع
ذلك ..فقبعت في مكاني أشعر بنظراته من المرأة الأمامية تشدني إليها
فتجاهلته بكل قوتي ..وفي النهاية نظرت إليه وتشابكت نظراتنا ..أنا
باستهجان ..وهو ..لم أدر كيف أفسر نظراته تلك ..كانت غريبة علي
ككل تصرفاته معي ..ولم أستطع الفكاك منها إلا حينما رن جهاز
هاتفي، فتمسكت كالغريق الذي ساقط إليه الأقدار قشة طافية، لم أهتم
للرقم الغريب الظاهر على الشاشة، فتحت الخط وقلت ببرود: " نعم ..".

جاءني الصوت في الحال: " مرحبا فاتن .." كانت العبارة جامدة ..تكاد
أن تكون مشابهة لـ... تشوش فكري بنظرات نبيل المتسائلة فأخذت أقول
بحيرة: " من؟ ..".

جاءني الرد: " أنا سرمد " . مرة ثانية تجمدت أفكاري و ازدادت
نظرات نبيل إلحاحا بل إنه التفت نحوي شبه التفاته وكأنه يريد أن

يستمتع إلى ما أقوله مباشرة، وذلك جعلني أقول ببعض الارتباك: "أ.. مرحبا سرمد كيف حالك؟".

لا نتبادل أنا وسرمد المقدمات ككل أبناء الخالة، هو يقول لي مرحبا فائن.. وكفى.. لا كيف حالك؟.. ولا ماذا تفعلين هذه الأيام؟.. بعد دخولي الكلية تحررت من سيطرته كليا، فهناك استطعت أن أكتسب الخبرة للرد على زملائي..

رد علي ساخرا: "بخير.. وماذا يمكن أن أكون غير ذلك؟".

هو سياسي حذق أيضا.. وبارع في الكلام.. في الرد والمناورة..

طبعا فهو محام من الطراز الأول، وسمعته يتابع: "اتصل بي علاء يخبرني بأنك ذاهبة إلى دائرة الصحة، أنا قادم في الطريق ويمكنني إيصالك".

اختض قلبي مرتعبا.. وفي المرأة الأمامية، التقت نظراتي بنبيل وهو ينصت إلى ما أقول مقطب الجبين.. كان منصتا بكل جوارحه..

"أ.. أ.. لا داعي.. شكرا" تلعثمت بالكلام.. ماذا يمكنني أن أقول لسرمد؟: زميل لي في المركز يوصلنا؟.. لأن فقط أدركت فداحة ما قمت به.. لم يكن علي الذهاب مع نبيل إطلاقا..

"لماذا؟.. ألسنت تودين الذهاب؟".

لم أعرف كيف أرد عليه، ونبيل يصغي إلي وكانت نرجس تتحدث في هاتفها أثناء ذلك، فشعرت بأني محاصرة، مقيدة بنظرات نبيل الحادة و نبرة سرمد التحقيقية.. ارتأيت أن أكذب في النهاية: "نعم.. ولكن سأؤجل الأمر.. أنا.. كيف هي جدتي؟".

سألته بانفعال وأنا أشعر بوجهي يحمر، لست بارعة في الكذب ولو أن سرمد أمامي الآن لكشفني، بل إنه لم يجبني في الحال.. أترأه كشف كذبتني بكل سهولة؟

"جدتي بخير.. نطق الصوت السلس أخيرا وتابع يقول: "لماذا تودين الذهاب إلى الدائرة بالتحديد؟".

كان السؤال الأكثر صعوبة، كيف علي أن أجيبه.. وقد حذرتني خالتي نجاح من قول شيء لأبناء خالتي، فهم حتى الآن لا يعرفون أنني أسكن الدار.. هم يتصورون بأني أعود إلى المنزل في الحلة بعد الدوام.. تلعثمت قائلة: "أ.. هناك بعض المعاملات الناقصة في أمر تعيني، حقا.. سرمد سأتصل بك لو قررت الذهاب".

رد علي بسخرية فجة: "لست سائقك الخاص يا وردة، لدي مجال حتى ساعة فقط"

أجبتة في الحال: "آه.. إذن شكرا.. ليس هناك حاجة لأن تتعب نفسك، أوصل سلامي إلى بيت جدي" وأخذت أنفوس ارتياحا.. لقد مر الأمر على خير.. أليس كذلك؟

"تبدين مستعجلة للتخلص مني!"

لسرمد راداره الخاص، لم يخطأ من قال أنه ماهر في المحكمة سريع الملاحظة والاستنتاج.

وضعت كل الهدوء في صوتي: "لست مستعجلة.. إنما لدي عمل و.."

قاطعني مستنكرا بصوته الساخر : " آه نعم .. الآن هذه حجة ممتازة
للتخلص مني، العمل!.. ولمَ لا ؟! يحق لك أن ترفعي رأسك بعد أن
أصبحت طبيبة أسنان رسميا !.. "

قاطعته وقد طار الهدوء من صوتي كليا : " لمَ التهمك ؟ .. وهل هذه
جريمة ؟ "

" بل أنت مثالية في رفع الأنف يا وردة "

أردت أن أصرخ به .. (لست وردة)، ولكنني امتنعت لأن نبيل ما يزال
يحملق مستهجنا، مستمعا بكل عصبية لحواري المتأزم مع سرمد !..

ارتأيت أن أرد عليه بصبر : " شكرا على لطفك وصبرك، سأتذكر أن
أصل بك لو احتجت إلى شيء " وتابعت بكل تصميم : " وداعا سرمد،
سأخزن رقمك ! " ... وأنهيت الاتصال بكل فظاظة.

ولم تمر ثوان حتى أرسل إلي يقول باستفزاز (متكبرة ، فظة .. إنها
صفات لا تليق بك وردة) لم أرد عليه، فالصراع مستديم مع سرمد.. منذ
ولادتي على هذه الأرض.

رفعت بصري والتفت نظراتي بنبيل، كان الضيق واضحا عليه، وشيء
من التعجب مرسوما في عينيه، ربما استهجن فظاظتي .. وربما تفاجأ
بكوني أمتلك صوتا في النهاية ولست تلك الخانعة الخجولة التي رآها
منذ أيام، في داخلي تمنيت لو دل ضيقه هذا على كوني قد فشلت في
الاختبار الذي تحدثت عنه داليا، ثم إذا به يلتفت إلي ويفاجئني بإيضاح
سبب ضيقه، كعادته يأخذني على حين غرة في الكلام : " هل لديك
أقارب في الديوانية ؟ "

هو اللفظ ، أجل .. إذ يستمع إلى مكالمتي دون استئذان ..!

أجبتّه باختصار وبوجه جامد : " نعم .. بيت جدي "

" إذن أنت لست حلاوية صرفة ؟! "

قلت مهاجمة : " وإن يكن .. ؟ "

أردت أن أكون الفتاة التي لا تناسب معاييرها ، بل علي أن أخبره
بوضوح إنني لا أناسبه تماما ..

" عفوا لست أقصد .. من جهة الوالدة أعزها الله ؟ "

لا يزال يسأل .. !

" نعم .. أمي من الديوانية "

في تلك اللحظة التفتت إلي نرجس وقالت بدهشة : " حقا ..! لماذا لم
تخبريني بالأمر ؟ "

التقيت مجددا بنظرات بنبييل ، كأنها تخبرني بأنه ليس الوحيد الذي
تعجب من إخفائي هذا الأمر

" ظننتك تعرفين ، اتصلت بعلاء أمامك قبل نصف ساعة "

أجابتي نرجس وهي لازالت مندهشة : " أجل ، لكنني ظننته سائقا
تعرفينه ! "

تحرك نبيل بعدم ارتياح : " علاء ؟! " لأك الاسم كأنما لم يعجبه البتة .

و أجبتّه بانزعاج واضح : " أجل علاء ابن خالتي "

(كم أبن خالة تملكين ؟ ..) رأيت هذا السؤال الفظ في عينيه ولكنه لم ينطقه، وإلى جانبه سألتني نرجس باستفهام : " ومن كان هذا .. ابن خالتك أيضا ؟ " .

كيف لنرجس أن تنتبه إلى فحوى مكالمتي بينما تتحدث هي الأخرى في الهاتف ؟ !

حملقت بها مجيبة : " أجل .. هذا سرمد ! " .

مرة أخرى تحرك نبيل في كرسيه وكأنه يجلس على مسامير، بدا متضايقا وقد تشنج جسمه كله من ذكري لأسم سرمد .. أتراني تخيلت يده التي أمسكت المقود بإحكام كأنه سينطلق في قيادته إلى ما لانهاية ؟ ..

انبرت نرجس تقول بعدم فهم : " هل لك أن تخبريني سبب استقرارك في الدار إذن ؟ .. لو أن بيت جدي في الديوانية لما عذبت نفسي بالبقاء في الدار ! " !

لم أستطع أن أجيبها ونبيل يستمع إلينا ولكني ارتأيت أن أوضح لها : " لأن صديقتي ستأتي من الحلة ، ولا أود تركها وحيدة " !

سارع نبيل لأن يقول ما إن انتهيت : " الدار ليس بالسوء الذي تتصورانه، أنا سأعمل جاهدا لتحسين الإعاشة كما يليق بالأطباء، كما إن دار الطبيبات مريح للغاية وليست هناك أدنى شكوى بشأنه " !

تمت نرجس تقول : " المهم أن تنتهي هذه السنة على خير، الديوانية كلها ليست في عيني ! " !

لقد فهمتها، فهي ما تزال غير مستقرة و غير مرتاحة بتاتا من الانتقادات التي تصلها بشأن عدم تحجبها وملبسها، وهي لا بد وقد

تعودت على حياة خاصة في مدينتها التي تمنحها حريتها الفردية واستقلاليتها بوجود عائلة تسندها ..بينما هنا ..فلا بد وأن تشعر بالغربة والعزلة مع كل الآراء التي تنتقد مظهرها .. من أناس لا تعرفهم حتى..كانت نرجس الأكثر معاناة بيننا نحن البنات.

لحسن الحظ لم نتأخر كثيرا في الدائرة، أنهينا معاملة كل منا في زمن قياسي ولم يتركنا نبيل حتى أتممنا كل شيء وانتظرنا ريثما ينهي أموره المتعلقة بالإعاشة ..وحالما عدنا إلى المركز كانت الساعة قد قاربت الحادية عشر والنصف، وكنا سعيدتين أنا ونرجس بحصولنا على ورقة الإعاشة التي تخولنا استلام وجبات الطعام دون الحاجة إلى الطفل أو فرض أسمانا على المطبخ، سلمنا نبيل الورقتين حيث تكفل بأدراجنا رسميا في القائمة .

شكرته نرجس على لطفه واهتمامه بينما اكتفيت أنا بالنزول من سيارته وأنا أعد نفسي أن لا أكرر فعلتي وأركب معه مرة ثانية، خاصة ووضعي لا يسمح بوجود أبناء خالتي ، لكن أمنيتي تلك طاردها كلمات نبيل وأنا أهم بترك السيارة، التفتت إليه حين ناداني و إذ تأكد بأني مصغية إليه تماما قال لي بصوته الرخيم : " دكتورة ! لو احتجت أية خدمة أو توصيلة لأي مكان فأنا والزملاء في الخدمة ..لا تترددي في طلب المساعدة "

أجبتة بجمود : " شكرا على ذلك دكتور، أبناء خالتي أيضا لن يترددوا في مساعدتي "

قلتها في وجهه تماما ليعرف بأني لست وحيدة ولست سهلة المنال أبدا، فإن ظن أن توصيلة إلى الدائرة تعطيه صفة الألفة والحق في فرض مساعدته ..فهو مخطئ .

اكتفيت بذلك ونزلت من السيارة متوجهة نحو باب الدخول مع نرجس التي ظننت أنها لم تسمع شيئاً من عبارة نبيل أو حتى ردي ، لكنها ما لبثت أن فاجأتني ونحن ندخل المركز: " إنه ينظر إليك بطريقة غريبة ! " .

كيف انتبهت ؟ .. أنا عن نفسي أشك في هذياني بشأن نظراته تلك ..

التفتت إليها فرأيت عينيها تلمعان بنظرات ذات معنى: " وتلك الأسئلة بشأن بيت جدك لم تمر علي مرور الكرام .. ها ؟ " .

أخذت نفساً مختنقاً: " لا أعرف عن ماذا تتحدثين ؟ " .

ابتسمت هي تلك الابتسامة التي تخبرني بأني أتعمد عدم فهمها وقالت : " عليك أن تفتحي عينيك يا فتاة .. كيف يمكنك أن لا تميزي رجلاً معجباً عن غيره ؟ " .

شعرت بالأرض تميد بي .. كانت كلماتها أكثر خطراً من كلمات داليا ، تمنيت أنه إدعاء محض .. لم أكن أعرف نرجس يومها .. فتاة غريبة فاجأتني بذهنها المتوقد .. كيف لها أن تقرأ كل ذلك ببساطة .. ومن لقاء واحد فقط ؟ ..

أجبتها وأنا أزدد ريقى: " لم أعرف الدكتور إلا منذ عدة أيام .. كيف يمكنك أن تقول لي هذا ؟ " .

عادت تبتسم .. وكأنها تجاريني في لعبتي : " أنت إذن لا تعرفين شيئاً حقاً .. يا ابنتي .. الرجل يلزمه لقاء واحد ليولد إعجابه .. حتى وإن كان إعجاباً فطرياً بسيطاً ، بعكس الفتاة التي قد تعجب برجل ما من اللقاء الأول لكنها تتناسى إعجابها فيما لو عودت على رؤيته كل يوم .. " .

وأخذت تقول بكل ثقة: " الحب عند المرأة ليس بشأن المظهر فقط.. يعكس الرجل .. قد يعشق المظهر ويتعمى عن كل الصفات " .

كنت أرتجف فعليا وأنا أستمع لكلماتها .. تمنيت أن تكون مخطئة .. لقد تهربت في الكلية من مواقف شتى مع الزملاء .. ورفضت عددا لا بأس به منهم .. لم أوقع نفسي في مغبة الحب ومشتقاته .. كنت فتاة مسالمة اجتماعيا .. وحينما تخرجت، كنت سعيدة بالمحافظة على سمعتي وعدم إراققتها في طرقات الجامعة ودروب عشاقها .

لم أحب نرجس بشيء، التزمت الصمت بينما اتسعت ابتسامتها وتوقفت عن الحديث وكأنها تفكر بأنه يلزمني الكثير لأتعلمه .. كي أستطيع قراءة ألباز الرجال وقرأتهم في الحب .

الفصل السادس

طفولة

تنوء جعبتي بذكريات عديدة عن طفولتي الغرة، وحياتي التي عشتها في كنف بيت جدي، لقد ولدت في الديوانية منذ ما يزيد عن العشرين سنة .. وتربيت وشبيت فيها، مضت سنين كنت أعتبرها منزلي الأول وحين غادرتها مع عائلتي واستقرينا في الحلة بقيت أحن لبيت جدي، ولجديتي وخالاتي وأبناء خالتي .. كان سبب تغيير إقامتنا هو انتقال والدي المهندس بعمله إلى الحلة بعد أن عمل في الديوانية لأكثر من عشر سنوات في دائرة الري، وكانت طفولتي طبيعية كأبي طفلة شبت في عائلة ترعاها، فقد أخذت من الدلال نصيبا زاد عن حاجتي، واهتماما مسيغا من أبناء خالتي أيضا ماعدا سرمد .. أذكر بأن شعوري هذا رافقني على مدى سنوات بلوغي .. بل إنني أكاد أذكره منذ طفولتي وإن لم يكن بشكل كلي .. أذكر بأنني كنت أخجل من اللعب معه وعمرى ست سنوات .. وأذكر بأنه لم يوليني أدنى اهتمام .. كان يتجاهلني بالمرّة وكأنني لست موجودة .. وحينما تركت منزل جدي مع عائلتي وأنا في عمر الثانية عشر لم يهتز سرمد لذلك .. ولم يسأل عني فقد أصبح بالغا ومندمجا في مجتمع احتوى أفكاره السياسية، كنت أذكره بذلك الشكل .. قاسيا .. متباعدا .. لا يحمل أية ذرة عاطفة في داخله .. المرة الوحيدة التي شعرت فيها بأنه ابن خالتي بالفعل كانت حينما أصبحت في الخامسة عشرة وكنت في زيارة عاجلة إلى منزلهم مع عائلتي .. أذكر بأننا التقطنا صورة جماعية وقد وقفت إلى جانبه نظرا لأنه المكان المتوفر الوحيد وقد اجتمع كل أفراد الأسرة .. أذكر بأنه همس من خلفي

وهو متكئ إلى جدار غرفة الجلوس وقد بدا بطوله الفارع يحتوي قامتي اليافعة.. كان قد قال لي بالحرف الواحد: "كبرت يا وردة تشرين.. لماذا لا ترتدين الحجاب حتى الآن؟"

في تلك اللحظة وأثناء التقاط الصورة شعرت بقلبي يخفق عاليا.. فقد همس تفكيري الساذج بأن سرمد يشعر بالمسؤولية تجاهي.. سرمد يظن أن علي ارتداء الحجاب.. وهذا لأنه يخشى علي.. كأنه أخ كبير لي.. لأنه ما عاد يتجاهلني.. ولأنه أيضا.. دعاني بوردة تشرين..!

بعد ذلك ندمت على شعوري الساذج.. فقد تبين لي بأن ابن الخالة المتباعد.. أصبح أكثر تقاربا.. وأكثر تعنتا.. وأكثر تكبرا على مشاعري.. وأكثر تدخلا في حياتي.. هذا لا يجوز وهذا ممنوع، وفي العطل الصيفية التي أقضيها في بيت جدي كان يحوم حولي، ينتقد كل ما أفعله.. يمنعني عن كل أمور المراهقة التي كنت أروم فعلها، ليس لأسباب دينية.. كلا.. فسرمد أبعد ما يمكن عن الدين، هو رجل يعرف ربه.. أجل.. ولكنه لا يصلي.. ونادرا ما يصوم.. غير أن أفعاله توحى بأنه ملتزم بسراط مستقيم.. أو هذا ما تقوله خالتي سعاد حين تتكلم مدافعة عنه..!

لذا لم يمر يوم وأنا في بيت جدي إلا و شعرت بأنني مقيدة.. مكبلة بدوامة سرمد.. وقد تعودت على ذلك حتى أدمنت سلوكه المتهمج علي.. كنت ذات بنية ضعيفة للغاية ولم أرغب في ارتداء الحجاب لولا إصرار جدتي على ذلك.. ولأنني في النهاية استسلمت لموجة الإلحاح التي طاردتني.. وحين ارتديته ذات يوم شعرت بأنني أصبحت أكثر انطوائية.. وأكثر عزلة عن بيت جدي، وكان أبي-الرجل الوحيد الذي أهابه وأحترمه حقا- قد أخذ يدللني محاولا إخراجي من موجة الكآبة

التي مررت بها، حدثني عن كثير من القصص التي يجب الاتعاظ بها
وبمرور الوقت اعتدت على حجابي.. وأصبح جزء لا يتجزأ مني ..

البلوغ الذي لازمني طوال فترة الثانوية جعلني أنعزل تلقائيا عن أولاد
خالتي ..فليس من المسموح أن ألعب مع قيصر صديق طفولتي ..وليس
من المسموح أن أتجاذب معه أطراف الحديث والممازحة ..وبما أن
علاء كان الأكبر سنا، فقد كنت أخجل من التقرب إليه ..نكتفي بسلام
بسيط وسؤال عن الأحوال، غير أنني لم أستطع قطع جذوري عن بيت
جدي ..واظبت على زيارتهم حتى بعد أن أصبح سرمد سبب شقائي
طوال فترة المتوسطة والإعدادية .. حتى بعد أن أخذ يتحكم بحياتي لم
أستطع أن أقصيه عنها وعن أفكاره، كنت أحاول فهم تصرفاته تلك
معي ..فتارة يصبح قاسيا علي ..ومرة ساخرا ..ومرة متحكما ..وأخرى
حازما ..وكنت في داخلي ومنذ صغري أتمنى أن يكون لدي أخ حقيقي،
يحميني ..ويسندني في هذه الحياة ..ولكن أثناء تلك الفترة ندمت على
أمنيائي تلك، لذا كنت أهرع عائدة إلى الحلة وفي داخلي كل القهر من
تصرفات سرمد الجافة معي، غير أنني وباقترابي من نهاية مرحلتي
الإعدادية ومشارفتي على دخول الكلية أخذت أشجع نفسي على تحدي
سرمد، و كنت أجادله ما إن يحادثني بتلك اللهجة الساخرة ..واستعدت
بعضا من حريتي مع قيصر ..فمضت علي عطلة صيفية رائعة ..فقد
علمني قيصر اللعب بالشطرنج ، الطاولة ، الدومينو ،..وقضيت أوقات
رائعة باللعب معه حتى أصبحت أبرع منه وأخذت أتغلب عليه أكثر
الألعاب ..وكانت خالتي نجاح الحكم بيننا عندما يحاول قيصر أن يغش
..وما إن يأتي سرمد حتى يغلبني التوتر، فأشعر بأنه يملك القدرة على
تشثيت تركيزي وهذا من حسن حظ قيصر الذي يستغل الفرصة للفوز
علي ..!

الأجواء المحببة التي كنا نصنعها أنا وقيصر لفتت نظر علاء إلينا، فأخذ يشاركنا اللعب بعض الأحيان وكنت سعيدة لأنني استعدت جزء من طفولتي معهم ، وبأني الآن شبه بالغه وهم وحتى وإن أصبحوا رجالا ما عادوا يتجاهلونني أو يستصغرون سني، و ظننت بأني قادرة على كسر الحاجز أيضا مع سرمد، لكنه ما إن يشاركنا اللعب حتى يجعلني أخسر متعمدا، هو الوحيد الذي يستهزأ بمحاولاتي للفوز ويخبرني بصوته الجاف: "الأفضل أن تهتمي بدروسك ..و تترك الذكاء لأصحابه !"

لكني لم أتنازل عن التحدي، لم أتخل يوما عن أية لعبة، كنت أتحداه وأتحدى نفسي، وحينما نشترك في لعبة شطرنج يزعم بأنه من ساعدني على الفوز عليه ..تلك كانت لحظات لا تعوض . ظننت بأنه سيصبح ودودا معي بعض الشيء غير أنه في نهاية ذلك العام جعلني أدرك بأني وضعت آمالا كبيرة ..فسرمد لسبب ما يدفعني لكرهه وكأني عاقبته في حياته لجرم ما !..

وبعد دخولي للكلية أخذت أفكاري تتحول إلى قالب آخر، فهو لم يكن شابا لاهيا، بل أنغمس كليا في التيار السياسي وأصبح من النادر رؤيته ..وإن حدث وأن التقينا ذات يوم فهو يكتفي بإيماءة قصيرة ونادرا ما يتحدث معي أو يعيرني أدنى اهتمام، كان ذلك يريحني ويزعجني بعض الشيء، ماعدا تلك اللحظات المميزة الذي يخصني بها في يوم مولدي بتقديم هداياه البسيطة والتي كانت تسعدني للغاية وتزيل قليلا من التحفظ الذي يغلف علاقتنا حتى أنني أظن أنه خلال تلك اللحظات القصيرة يغدو سرمد آخر، سرمد محببا قريبا من القلب، ويستمر ذلك حتى اللحظة التي يملئ فيها التأثر وجهي وأنا أشكره، فيختفي كل ذلك ويعود البرود سيد المواقف بيننا.

خلال كل تلك السنين تمنيت أن أنشأ روابط محبة بيني وبين أبناء
خالتي، وقد نجحت مع علاء وقيصر، لكني مع سرمد فشلت تماماً.
وماضينا المعقد شاهد على ذلك ...!.

الفصل السابع

استقرار

لم أحتج كثيرا من الوقت كي أعود على نظام الحياة في المركز وفي الدار، تعاملتي مع المرضى ازداد تطورا ، خاصة بالنسبة للأطفال و قد ساعدني وجود الدكتور عماد الذي تحمل بصبر عملي البطيء، كنت أتلقى كل نصائحه و أنفذها حرفيا من بداية تعلمي كتابة الأدوية على تذكرة المراجع إلى كيفية وضع خطة عمل مناسبة لكل طفل مريض، كان التعامل مع الأطفال صعبا لكنني تعلمت من داليا كيفية الصبر عليهم والرفق بهم وضرورة جعلهم يألفون المكان والأهم إخفاء أية أدوات حادة و خاصة الإبر...وسرعان ما أتقنت العمل واستطعت إضفاء لمستى الخاصة عليه.

كانت الغرفة التي نادرا ما أغادرها هادئة في نهاية الدوام، تحتني داليا على ضرورة الاختلاط مع بقية زملاء، لكنني خلال أسبوعين من دوامي فضلت البقاء في وحدة الأطفال، وحين داومت صديقتي منال أخيرا جئت بها إلى الوحدة وبقينا لفترة معزولتين عن البقية، لكن صداقتي الوليدة بنرجس أجبرتني على الذهاب إليها في وحدة الحشوات، وهو المكان الذي أحاول تجنبه قدر الإمكان، فقد كانت نرجس تعمل مع نبيل وزملاء آخرين، منهم الدكتور أحمد من الديوانية الذي كان زميلي في الكلية و زميلي الآخر الدكتور حارث من أهالي كربلاء بالإضافة الى الدكتور خالد من أهالي بغداد وريهام أيضا . كانت هذه النخبة من الدكاترة تجذب الجميع من بقية الزملاء، لذا يكون التجمع عادة في وحدة الحشوات. وقد حذرتني نرجس مازحة بعد مجيء صديقتي منال

بأنها ستقتلها لو أنها تمكنت من إبعادي عنها، لكنني وجدت طريقة لنجتمع ثلاثتنا بحيث أصبحنا خلال أيام لا نفترق عن بعضنا سوى نادرا..

في تلك الأيام شعرت وكأنني في أوج حريتي، وأوج شبابي، أستيقظ كل يوم وكأنني على عتبة حياة جديدة، والأجمل من هذا أيامنا الخالية من الروتين..

في وحدة الأطفال تعلمت العديد من الأساسيات مما أهلني للانتقال إلى وحدة ثانية، وهذه المرة لم اخشَ من تعاملي مع المرضى، كانت وحدة حشوات الجذور من نصيبي في دورتي التالية ومن التلقائي أن تأتي معي منال، كانت لصديقتي صلبة العود هذه عينا بلون العسل الذهبي الخالص، بشرتها بيضاء صافية وفمها ناعم، كان شعرها خليطا من الأشقر الداكن والذهبي رغم أنه مجعد، لكنه يعطيها صفة الجرأة وقوة الشخصية، هي أنيقة، مندفعة بكياسة، لها آراءها الخاصة وكنا أنا وهي نشكل خليطا غير متجانس من الصديقات.

في الكلية كانت منال بارعة بتفادي العلاقات وطلبات الزواج المستمرة، ربما لأنها لم تجد ما تبحث عنه، فكل الطلاب والأساتذة والأطباء هم على حد قولها أقل شأنا منها !.

كنا نقول لها مازحين أن نتزوج فقط لتفسح لنا المجال، فقد كانت تقضي على الشباب تباعا، لم يبقَ دكتور وسيم إلا وأطاحت بعقله حتى كرهنا قصصها التي لا تنتهي !. ومع ذلك فقد كانت منطوية اجتماعيا معي في بداية عملنا في المركز ولم يكن لها مزاج للتعرف بأحد، كانت فكرة تعيينها في محافظة أخرى غير الحلة أمرا لم يخطر ببالها، فبقيت تأجل دوامها المحتوم حتى باشرته مجبرة، كما أنها لم تستسغ الدار ولم تألفه

مثلي على الفور، لم تختلط بباقي الزميلات حتى حدث ذات يوم وأن أقمن حفلة وداع لإحدى الزميلات من الطبيبات في الغرفة الثانية من شقة الدار وقد دعينا جميعنا إليها، كان هذا اليوم فاصلا في حياة منال فقد تخلت عن حذرها الطبيعي وانسجمت مع البنات، خاصة حينما أخذن يرقصن على أنغام موسيقى شعبية ، يومها قضينا وقتا ممتعا.

أصبح عددنا مكتملا في الشقة، فبعد منال جاءتنا طبيبة أسنان جديدة اسمها سمية، متزوجة حديثا وقد تذكرتها على الفور إذ رأيتها مرة في دائرة الصحة حينما أجريت معاملة التسجيل، لم تعرف إحدانا آنذاك بأن الأخرى طبيبة أسنان أيضا و لكنها تذكرتني بشكل ضبابي، إذ أن ذهنها كان معلقا بزوجها الذي تركته عند باب الدار بعد مجيئها، لم تكن تحب البقاء في الدار وترك زوجها يعود إلى بغداد، وحينما جلست في غرفتنا لتعدل حقبة ملابسها رأيت دموعها فتذكرت نفسي في أول يوم وعطفت عليها، رفعت رأسها نحوي وقالت مفسرة سبب اختناقها : " ربما لن يفهمني أحد، كلكن غير متزوجات وفراق الأهل صعب .. لكن فراق الزوج أصعب وأشد مرارة " .

أخذت أطمئننها بأن الأيام ستمر وستجد نفسها في نهاية الأسبوع وقد عادت إلى مدينتها. كان التكيف في الدار صعبا بالنسبة لنا جميعا، كنا حذرات في البداية، نحاول معرفة طباع كل واحدة فينا .. من يعرف من أين تتحدر عوائلنا .. جميعنا غرباء في مدينة غريبة ما عداي .. كنت ألفها منذ طفولتي ولكنها اليوم جديدة علي .. بيت أكتشف حلاوة البقاء فيها حرة .. من دون تقييد .. وكان هذا - مع الأسف - شعوري لفترة قصيرة محدودة.

وهكذا فقد استقرت أنا ونرجس مع داليا و ريهام في غرفة، وشغلت الغرفة الثانية منال، سمية ، سوسن وهند وهي الوافدة الأخيرة للدار، طبية أسنان تدرج، فتاة منطقية على ذاتها، لم أعرف عنها الكثير في بادئ الأمر سوى أنها من بغداد، أعجبنى هدونها الفطري وجمالها الغير مصطنع، لصوتها بحة مميزة واهتمامها الدائم بنظافتها ونظافة ملابسها كان يريح الناظر إليها ..وقد اعتبرناها في ما بعد نسمة الدار الهادئة.

سوسن لم أستطع رفقتها إلا بعد أشهر، ربما لأنني شعرت بأنها تختلف عن بقية البنات، فتاة متمكنة من ذاتها، صلبة في تعاملها، لا تبتسم إلا باصطناع ولم نتناغم أنا وهي إلا بعد أن تشاركنا صدفة عشقنا للأفلام الأجنبية، بعدها أدركت بأنني تسرعت بالحكم عليها وهي تخلت عن حذرها وبرودها معي فأخذت تعاملني برفق وأصبحنا صديقتان.

في المركز كنا نجتمع معا بعد مرور ما يقارب الشهرين على دوامي في وحدة الحشوات أو وحدة حشوات الجذور المجاورة، وقد تزايد عددنا حتى قاربنا الثلاثين طبيبا في المركز، كان الصيف حارا ومرت بنا أيام كانت تنقطع خلالها الكهرباء، غير أن الأطباء كعادتهم يتسللون إلى الدار بحجة عدم وجود عمل.

لقد ظننت بأنني سلمت من مراقبة الدكتور نبيل لي، لكنه في الأيام الأخيرة من شهر مايو أخذ يشاركنا أغلب جلساتنا مع قلة من الأطباء الذين يبقون في المركز ولا يتسللون إلى الدار، لكن ولحظي السعيد لم نتحاور إلا نادرا وفيما يخص العمل فقط، ولأنني ملأت رأس منال بأفكار مأساوية عن ضرورة تجنب نبيل لأنه يبحث عن عروس، فقد كان ذلك سببا في جعلها تكرهه قبل أن تراه وفكرة بحثه عن عروس مناسبة لوحدها جعلتها تشمئز منه، "...كأننا بضائع معروضة للبيع أو

فئران تجارب... " قالت منال، لم تتعامل بود معه، وهو أخذ يتجنبها بدوره كأنما أعلنت حرب كراهية بين الطرفين، وقد حاول نبيل بثتي الطرق التقرب إلي، ثم عرف بالصدفة أننا بحاجة إلى سائق من أجل العودة إلى الحلة كل يوم خميس، وبأننا نعاني من إزعاج المرآب المتواصل، فتمكن بسهولة من الاتفاق مع سائق من مرآب الديوانية كان يعرفه حق المعرفة، لقد ترددت في قبول جميله هذا بينما وكزنتي منال وقتها وهي تأشر لي بهمس أن أرفض، كانت منال حادة التعامل مع نبيل بينما فشلت أنا في رفض كل محاولاته، أحاول تجاهله عمدا وكأن كلامه لا يوحى بشيء، وعندما تكون هي إلى جانبي فإنها تتولى الحديث بحزم متصدية لأية مبادرة منه.

في النهاية رضخت منال لعرضه لكنها لم تمنع نفسها من أن تقول في وجهه تماما: " سنجرب السائق هذا الأسبوع وإن لم نرتح لسياقته سنرفض على الفور، عليك أن تتفهم بأن الطرق الخارجية محفوفة بالمخاطر".

فكان أن رد عليها: " هو بالتأكيد لا يختلف عن سائقي المرآب الآخرين " إشارة إلى أننا لابد وقد تعودنا على نمط سياقتهم .

كانت المناورات بين الاثنين تزعجني في بعض الأحيان فقد أخذت منال على عاتقها تولي مسؤولية حياتي العاطفية، فراحت تتصدى لكل محاولات نبيل في التقرب مني .. وهو لم يستسلم قط وقد حدث ذات يوم أثناء عملي في وحدة حشوات الجذور وقد كنا نتخصص في عمل حشوات الجذور للأسنان الأمامية ولم أحضر في يوم ما طريقة عمل الحشوات للأسنان الخلفية كما أنني لم أتعلمها جيدا في الكلية ولم تكن الدكتورة مريم المسؤولة عنا في الوحدة موجودة في ذلك اليوم، فحاولت

أن أغير موعد المريض لكنه ألح على أن أعمل له الجلسة، ووقعت في حيرة من أمري فليس من اللائق أن أخبر المريض بأني لم أتعلم بعد كيفية عمل الجلسة الأولى للرحى الخلفية، فطلبت من المريض أن يجلس وتوجهت نحو غرفة الحشوات لأنادي ريهام فلا بد وأنها تعلمت قبلي ولكني وجدتها تعمل أثناء ذلك، وحينما لاحظت نبيل الجالس خلف المكتب حيرتي توجه نحوى، أخذت أدعو ربي أن لا يطلب أن يساعدني فحينها لن أستطيع الرفض، وانبرت ريهام تقول وهي تراه بدورها: " نبيل هل تستطيع مساعدة فاتن، فهي لم يسبق أن قامت بعملية حشوة للرحى الخلفية " .

من ورائي أجابها نبيل: " بكل سرور " .

لكني لم أسر من تدخله !.

وما إن ولجنا غرفة حشوات الجذور حتى قابلتني نظرات منال الشزرة المستهجنة لدى رؤيتها لنبيل يدخل خلفي، أشرت لها بعيني أن تصمت وبأني مجبرة بينما تولى نبيل على الفور الجلوس على كرسي الطبيب وأخذ يلبس القفاز الطبي ثم يعاين المريض وسألني إن أعطيت المريض إبرة تخدير فأجبتته بالموافقة بعدها قال لي: " دكتورة قفي على هذا الجانب سأحاول أن أعمل كي تستطيعي النظر بسهولة " بعدها أردف وهو يتحنح ويتقرب من المريض ليتخذ زاوية ملائمة للعمل: " سأريك في كل خطوة نتائجها وسأشرح لك بالضبط ما سأفعله " ثم تابع بعد أن أومأت له: " أنت تذكرين الشكل الملائم للرحى الخلفية؟ " أجبتته بنعم ولكنها كانت نعم مشوشة ..ففي الكلية نادرا ما نتذكر الأشياء العلمية و إن لم نجربها عمليا فإننا ننساها بالتدريج.

كان عمل نبيل وكما توقعت مذهلاً، وقد أراني كل خطوة بالضبط ..حتى أنه أجلسني على كرسيه لأحاول أن أقيس عمق القنوات الجذرية وأن أستدلها عن طريق الإبرة الخاصة بها، وبدأت القنوات نظيفة وشكلها واضح ..لم يتركني حتى أنهيت آخر جزء في الجلسة الأولى، فنظفت القنوات وعقمتها بقطعة قطن مبللة بالكحول ثم أغلقت الرحي بالحشوة المؤقتة الوردية اللون. وحينما قام المريض متشكراً لنا شعرت بسرور عظيم فقد خف الألم كلياً عن ضرره، وسعدت لذلك وقد علق نبيل ما إن خرج المريض من العيادة: " تحتاجين لأن تتمرني على مراجعين اثنين فقط، بعدها ستتعلمين بسهولة، وفي أغلب الأحيان تتقنين العمل في عيادتك الخاصة ولكن هنا في التخصصي وما بعدها في التدرج نادراً ما ستعملين حشوة جذر للأسنان الخلفية " .

منعت نفسي من سؤاله إن كان يعمل في عيادة خاصة ، فالأطباء ينتهزون الفرص للتعلم واذكر بأن هناك زملاء لي في الكلية أتقنوا كل شيء منذ البداية نظراً لأنهم كانوا يعملون في عيادات خاصة ولا بد وأن نبيل مثلهم .

شعوري بالضالة تلاشى تدريجياً فمن المعيب أن أدعي بأنني أعرف كل شيء، ولكنني في الحقيقة لا أعرف إلا الأشياء الأساسية وقد لزمني قرابة الشهر لأتقن عملي في حشوة الجذور وكلما أنجزت الكثير من الحشوات كلما كبر الشعور في داخلي وازدادت ثقتي بنفسي كطبيبة بارعة فأشعر بأنني خفيفة في عملي، أعمل بجِد وبنظام، لم يشتك أحدهم مني ومنذ ذلك اليوم ما عدت أخجل من طلب المساعدة من نبيل، فأسلوبه التعليمي في الشرح ممتاز كما أنه لا يتركني حتى أتقن العمل ويثني علي وكأنه المسؤول علي، بينما تقفز منال من العصبية حين يحاول مساعدتها وتطلب العون من الدكتورة مريم نكاية به هو الذي ما

إن ينهي عمله حتى يهب لمساعدتنا في الوحدة، نبهت منال أكثر من مرة أن تكف عن التعامل معه بلوؤم فردت علي بكل وقاحة أن أتوقف أنا عن طلبي لمساعدته ..والحقيقة أنني طلبته مرة واحدة بعد كلامها، وقد عملت الجلسة الأولى لمريض ثان وأردت أن يرى نتيجة عملي وقد سررت حينما أثنى علي وهو لا يعلم بأني أخذت أطلع في الانترنت على أشرطة فيديو تعليمية للرحى الخلفية تحسبا لهذا اليوم، حينما أتقنت العمل شعرت بالفخر بنفسي، ولم أنسَ أن أشكر نبيل على مساعدته.

الفصل الثامن

إحراج

لست أذكر متى بالضبط تنازل نبيل عن مناداتي بالدكتورة، وأخذ يستعمل اسمي بدون لقب، ربما كان ذلك بعد أن خرجنا جميعا لتناول العشاء في مطعم الأرض الخضراء (green land) الذي افتتح حديثا في الديوانية، كانت هي المرة الأولى التي نخرج فيها برفقة أطباء من الرجال وعددهم سبعة مقارنة بنا نحن الثمانية طبيبات، لكننا شكلنا مجموعة مذهلة .. وقتها ابتدأت نرجس تميل للدكتور أحمد بعد أن رفضت الدكتور الآخر وقد كانوا يتناقشون في أمر خطبتها في تلك الأيام، لذا أعتبر خروجها الأول مع أحمد في ذلك اليوم وقد جلس إلى جانبها فيما جلست أمامها وقد أمرتني أن لا أتركها، و شعرت بمبلغ العاطفة التي يكنها أحمد لها من نظراته المتلهفة والتي لم تفارقها قط ، بينما كان الخجل يرافق نرجس ويجعلها مبتسمة بهدوء وقد أحمرت وجنتاها بطريقة جميلة لذيدة .

تعودت سمية على جو الزملاء بعد أن مرت بمرحلة كئيبة بابتعادها عن زوجها، فكننت أرافقها في جلستها بينما جلست منال إلى جانبي الآخر. ريهام وداليا جلستا إلى جانب بعضهما، بينما جلست هند وهي الغربية عن أطبائنا إلى جانب سوسن التي كانت تجلس بدورها إلى جانب الدكتور أحمد فاروق رئيس الأطباء وقد كانا حسب ما سمعت في الفترة الأخيرة على علاقة .

وفي المقابل جلس كل من نبيل والدكتور أنور وهو صديق مقرب له ود. حارث زميلي في الكلية بالإضافة إلى الدكتور غسان من بغداد، ودكتور محمد عبد السميع زميل من الكلية من أهالي النجف.

كان المطعم المبني حديثا يقدم أكالات غربية وعربية، وقد طلب أكثرنا البيتزا وكان الجو في الخارج جميلا للغاية.. ويحتوي المطعم على حدائق خضراء واسعة، وقد طاب لنا المكان فسر أغلبنا من الخروج وتبادل الحياة الاجتماعية، بدأت ألف زملائي الأطباء فهم محترمون ودودون و أخلاقهم عالية، لم يتجاوز أحدهم معنا بكلمة.. بل إننا في حمايتهم و أغلبنا غريبات على هذه المدينة.

كان نبيل يجلس بعيدا عني لكنه ما يلبث ينظر إلي بين حين وآخر، وقد همست لي منال بعد أن انتهت بدورها إلى نظراته: " إن استمر بالنظر إليك هكذا أثناء العشاء فسأصاب بعسر هضم! "

فأطرقت مبتسمة ولم أجبها، فقد مللت كثرة ملاحظاتها الفظة بشأن نبيل، وحينما تأخرت وجبة عشائي دونا عن البقية - فقد طلبت وجبة (كوردن بلو بالدجاج) - سارع نبيل لأن يؤكد طلبي عند النادل الذي تولى معه تسجيل طلباتنا للعشاء من قبل، لكن منال همست مرة ثانية وهي تراه يتكلم مع النادل بصرامة: " آه .. لقد غلبته الحمية "

" منال ..؟! " همست باسمها: " أرجوك ..ستسببين لي أنت عسر الهضم بتعليقاتك "

فردت علي بفكاهة: " هذا إن جاءك العشاء يا مخبولة! "

وكانها تشير إلى عدم كفاءة نبيل وغير أهليته لقيادة أي شيء !.

وفي النهاية جاءني العشاء متأخرا، و اعتذر النادل لعدم تسجيل الطلب بشكل صحيح بينما نظرت منال بهزه إلى نبيل وكأنها تتهمه بكونه السبب في خطأ النادل وتوهمه.

كان العشاء ممتعا برفقة صديقتي وزملائي، كنت أشعر بأني فتاة حرة .. أعيش حياتي الاجتماعية لأول مرة .. أتحدث مع هذه .. وأتجاذب أطراف الكلام مع أخرى، وأنصت باحترام إلى أحاديث زملائي وقصصهم المرححة .. وقد انفرد أكثرهم بسردها نظرا لأنها تحبب الجو لنا نحن الفتيات ويبدو إن أغلبهم بارعون في ذلك.

وقد جذب جلوسنا الحميمي هذا أغلب الأنظار إلينا، فقد افتتح المطعم حديثا وأغلب الناس من أهل الديوانية لم يكونوا منفتحين لجلسات كهذه تضم شبابا وبنات، فأغلب النساء الموجودات في المطعم كن محجبات بالوشاح وعباءة الرأس السوداء، وكن مع أزواجهن أو بقية عوائلهن، فأخذن يرمقن جلوسنا وأحاديثنا وملبسنا وتصرف الزملاء معنا بغير رضا. ولم نرَ في جلوسنا ما يعيب غير أن المجتمع هناك لم يتعلم بعد أن يحترم أو يهادن تلك الحرية الصغيرة .. حتى أصحاب المطعم و الندل فقد لاحظت نظراتهم المستهجنة لجلوسنا جميعا .. بل إن أغلبهم وقفوا إلى الجانب يتفرجون علينا وكأننا عرض سينمائي .. وقد أنزعج البقية من ذلك، لذا فما إن أنهينا وجباتنا حتى تحضرنا للخروج .. لكنني تأخرت حينما ذهبت إلى حمام النساء لأغسل يدي، وقد مررت بجانب قاعة مخصصة للشباب في اتجاهي للحمام، وفي أثناء سيرني التفتت نحوها صدفة و إذا بنظراتي تتعلق من بعيد بشخص أعرفه، وتوقفت قدماي على الفور حينما لمحني هذا الشخص واتسعت عيناه بصدمة لرؤيتي.

كنت متأكدة من أن القدر لن يضعني في طريق سرمد فالأخير لا بد وأن يكون مشغولا بجمعيته الخاصة بحقوق الإنسان، ولن يتفرغ لتناول العشاء في مطعم ما .. كما أنني أسقطت علاء من حساباتي أيضا فهو لا يفضل تناول العشاء الا في المنزل، ويستلذ بطبخ جدتي ووالدته أو الخالة نجاح .. لكنني أبدا لم أحسب حساب لقيصر! ... ابن خالتي الثالث والأصغر سنا، الطالب في كلية الإدارة والاقتصاد، والوحيد الذي أستطيع التحدث إليه براحة دون أي قيود أو حرج، لقد كان ذا لسان معسول، وروح مرحة منعشة تختلف عن الجدية التي يتصف بها علاء أو حالة السخرية التي تحيط بسرمد . كان جالسا مع أصدقائه الشباب على مائدة لا تبعد عنا كثيرا، ولأنه لم يشأ تنبيه أصدقائه إلي، فقد اكتفى بنظرات مصدومة بينما تحركت مسرعة ودخلت الحمام على الفور ..

أخذت أدور في المكان ذاهلة .. ماذا علي أن أفعل ؟! .. لا بد وأنه سيتصل بي، نظرت إلى هاتفي وانتظرت لدقيقتين لكن لم يحدث شيء .. ازدرت ريقى وأنا أفكر بأنني وضعت نفسي في طريق مسدود، كان علي أن أنه في زيارتي الأخيرة لبيت جدي بأنني متعبة من فكرة الرجوع إلى البيت كل يوم، وبأنني أفكر بالبقاء في دار الطبيبات ولكنني ترددت ، فأنا أعرف تشدد أولاد خالتي لن يقبلوا أمر مبיתי في دار آخر، بعدها توقفت أقدامي عن الحركة .. لم علي القلق ؟ .. مادام والداي موافقين على بقائي في الدار ومادامت جدتي قد رضيت في النهاية .. فلم علي القلق من ردة فعل أولاد خالتي .. لم علي القلق لو عرف سرمد ؟! ..

ارتعد داخلي حينما تذكرت بأنني كنت أكذب عليهم طوال الفترة الماضية، وبأن سرمد لو علم .. حينها قد تحين قيامتي .. وهكذا وبقلب متيبس توجهت للمغسلة، شطفت يدي بالماء وضمنتها إلى قلبي كأنني أوقف ارتجافهما أو أسكت دقاته الهادرة .. علي مغادرة المكان قبل أن

يدفعني القدر للقاء قيصر وجها لوجه، مكالمة هاتفية ستوضح الأمر كله.. هذا كل ما أحتاجه.. مكالمة واحدة.. لالقاء عاصف..!

لكن أمنيته تبخرت ما إن خرجت من المطعم ورأيت منال ومعها هند واقفتان تنتظرانني.. فيما توقف نبيل إلى جانبهما بينما سارت المجموعة الأكبر منا نحو الباب الرئيسي، توجهت نحوهم لكن صوت رنين هاتفي أوقفني.. وكما توقعت.. كان قيصر..

ولأنني انزعجت من فكرة تلقي المكالمة في حضرة نبيل، فقد فتحت الخط وأنا أشعر بتيبس في أطرافي، واستدرت إلى الخلف وقلت: "مرحبا".

ثم توقفت متجمدة.. فقد كان قيصر أمامي مباشرة، وكأنه تعمد أن يتصل بي ويأخذني على حين غرة.. التقت نظرانا فشعرت بقلبي يخفق عاليا، كان قيصر ينظر إلي بصدمة ممزوجة بنظرات غاضبة.. وهتف بي ما إن أبعدت الهاتف عن أذني: "فاتن..!".

كان قيصر طويل القامة.. أطول أولاد خالتي، نحيلًا، وسيم الوجه، كحيل العينين، به فتنة تجعلك تذوب من نظراته الحنونة، كان دوما لطيفا معي.. مرحا.. ودودا.. ولكنها المرة الأولى التي أراه غاضبا بها ومني أنا بالذات..!

"ق.. قيصر..!".

تحركت شفطاي لتهمسًا باسمه وضممت يدي لأدعم جسدي المرتجف.. إن كان لقائي بقيصر أقرب الناس إلي كارثيا بهذا الشكل، فكيف تراني سأواجهه علاء.. يل سرمد..!؟.

اقترب قيصر مني و سألني بدون مقدمات : " هل لك أن تخبريني ماذا تفعلين هنا ؟ .. وفي هذا الوقت المتأخر من الليل ؟ " .

لم يكن الوقت متأخرا .. كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءً، لكن في الديوانية .. القوانين تختلف، فالفتاة ممنوعة من الخروج بعد الساعة مساءً، ولو خرجت فهي بالتأكيد لن تكون لوحدها بل مع والديها أو زوجها.

كان المكان المحيط بنا فارغا لحسن الحظ ، فلا بد وأن قيصر خرج من الباب الأخرى الخاصة بقاعة الشباب، لذا لم أنتبه لوجوده أو أشعر به خلفي، وحينما أقترب خطوة مني ازداد ارتبائي لأنني التفتت ورأيت نبيل وقد أصبح إلى جانبي في أقل من الثانية، هزتني نظرة الحماية في عينيه .. بدا باردا .. صارما وقد ظن بلا ريب أن قيصر شاب عابث متعدي، حتى وقف أمامي تقريبا وهو يقول : " فاتن عودي إلى البنات " .

" أستمحك عذرا ؟ ! " اشتد غضب قيصر، وبدا وجهه أحمرًا قانياً وهو يرى جرة نبيل الشاب الغريب .. وللحظة خالصة من الرعب قرأت أفكاره وهو يتنقل ببصره بيني وبين نبيل .. وكأنه تخيل أسوء السيناريوهات فسارعت لأقول وإن ارتجف صوتي : " لا .. لا داعي دك .. تور ، هـ .. هذا ابن خالتي " وهمست باسمه بصوت خافت ..

لأول مرة شعرت بالخوف يزلزل كياني .. لم أتصور قط أن تسوء الأمور لهذه الدرجة .. لكنه ذنبي .. وبخت نفسي وأنا أستمع لصوت قيصر يمتلئ بغضب أعمى : " فاتن .. من هذا ؟ .. بل ماذا تفعلين هنا ؟ ألا يجب أن تكوني في البيت الآن ؟ " .

اكذبي .. اخترعي أية كذبة .. حثت نفسي لكنني لم أستطع .. كان نبيل الآن واقف في وجهي كليا وغاب عني قيصر، شعرت بأنني أتهاوى داخلها .. ماذا يحصل يا ترى .. هل هو حظي السيء أيضا ؟ .

" أهلا وسهلا أستاذ قيصر .. أنا الدكتور نبيل زميل لفاتن .. ونحن خرجنا مع المجموعة لتناول العشاء " وكان يصافح قيصر المتجمد في مكانه، بينما التفت نبيل نحو منال وهند وسمعتة يقول بعفوية وكأنه التقي بزميل له : " لقد تأخرت فاتن في الحمام فانتظرناها بينما سبقتنا المجموعة في الخروج " وأشار إلى البقية الخارجة من بعيد قرب البوابة الرئيسية .

كنت لا أزال متجمدة في مكاني حينما أبعد قيصر ذراع نبيل وهو يقول بوجوم : " تشرفنا " . وعاد ينظر إلي ثم إلى نبيل بعدها قال : " هل لك أن تعذرني دكتور .. أود التحدث مع ابنة خالتي " .

" بالطبع .. سنتنظركم على مسافة " .

انبرى قيصر يقول ببعض الحدة : " لا داعي .. الحديث سيطول " وألقى علي نظرات مرعبة وكأن نبيل فهم ما يجري .. فيما أنا الواقفة شاحبة الوجه اقتصر كل تفكيرى على العقاب الذي سأناله .. أنا لوحدي .. ! .

فأخذ يقول بكل هدوء : " أستاذ قيصر، الدكتورة ستعود معنا إلى دار الطبييات، فليس من اللائق أن نتركها هنا .. كما أن أكثر الزملاء في الخارج يعرفون بأنها تأخرت .. وإن لم تأتي بصحبتنا فسيثار لغط حول الموضوع، أرجو أن تكون واعيا لهذا الأمر " .

كان غضب قيصر قد وصل إلى حده، أراد أن يصب جامه على هذا المتدخل اللعين .. ولكنني سارعت لأقول بعد أن وجدت صوتي أخيرا : " قيصر .. سنتحدث غدا .. أنا أبيت في دار الطبييات " .

" دار الطبيبات ؟.. " تمت قيصر بذلك كأنه يلوك اسما بذيئا، وشعرت بقلبي يغرق .. لا بد وأنه يتصور أن المكان أسوء مما يمكن تخيله، وكأن علامة دار الطبيبات لوحدها تشير إلى دار سيء السمعة.

أومات له وأنا أشعر بوجهي يحترق من الإهانة : " أجل، دار الطبيبات وهو مكان محترم في مستشفى الولادة والأطفال ومعى صديقاتي وزميلاتي " شعرت بالخجل من نفسي بمجرد أن قلت ذلك، فكيف سيري نبيل تبريري هذا الذي وضعته بدون تردد في وجه قيصر .. ماذا تراه سيفكر بشأن ظنون ابن خالتي ؟

أخذ قيصر يقول ببرود : " ولكن سرمد لا يعلم بالأمر "

توقفت عن التنفس : " كلا ، " نفيت وأنا أقول : " ولا حتى علاء، ارتأيت أن لا أقول حتى لا تعترضوا " .

احتدت أنفاس قيصر : " نعترض ..!.. فأتين أنتعرفين بأني كدت أصاب بجلطة في الداخل ؟.. كل ظنوني بأنك في بيت أهلك في الحلة بينما أنت .. بينما أنت .. " وخانه تعبيره وانتفخت أوداجه وكأنه ينفس عن غضبه وأخذ يستغفر ربه وهو يعتذر منا .

ربت نبيل على كتفه وقال : " حصل خير أستاذ قيصر، فأتين بحمايتنا وهي أمانة لدينا نحن زملاءها، لا تقلق .. لا شيء يدعو للغضب، حصل سوء تفاهم وبأذن الله سيحل بالتراضي " .

كان نبيل متحدثا بارعا .. لقد امتص غضب قيصر .. وكأن كلماته تلك ما أحتاج لسماعه .. لم يكن يدرك أنه بذلك قد جعلني أشعر بالدونية .. وبأنى إنسانة غير سوية .. ولست قادرة على الحفاظ على نفسي وسمعتي .. وحينما جاءت هند ومنال أخيرا ليقفن إلى جانبي صمت

قيصر احتراماً لهن وأوماً لي قائلاً: " اذهبي الآن فاتن ..وسنتحدث في وقت آخر " .

أومأت له ..وأنا لا أكاد أشعر بنفسي ..وبقلبي الذي هوى إلى سابع أرض ..وبكرامتي التي تفتتت بعد المواجهة البشعة ..ثم أستأذن قيصر وغادرنا عائداً إلى أصدقائه .

سألتني منال باهتمام: " ماذا هناك فاتن ؟..لقد قلقتنا عليك "

" لا شيء " خرج صوتي هامساً ..وقلت متابعة: " هل لنا أن نعود..سيتساءل البقية عن سبب تأخرنا " .

" بالتأكيد " أوماً نبيل وتوجهنا جميعاً نحو باب الخروج ..رغم أن روحي كانت ترتجف ولكني شعرت بأن قدمي ثابتة على الأرض، والتفتت إلى نبيل الذي توقف إلى جانبي ما إن خرجت صديقاتي من البوابة: " على مهلك .." .

التقت نظرانا في ذلك الليل الأدهم ..حينها شعرت بأن شيئاً يحدث بيننا ..ذلك الشعور المحرج الذي تولاني بصحبته ..أصبح مرئياً في تلك اللحظة ..أكاد أتنفسه وأراه ..وأشمه ..ونبيل المتجمد في مكانه ...يبدو عليه الشحوب هو الآخر يتمتم قائلاً: " فاتن ..أنت في حمايتي منذ هذه اللحظة "

أكان ما قاله حقيقياً ..أم أني توهمت سماعه ..؟..أو قرأته في عينيه وظننت بأنه قاله ؟..

خشيت أن أتأكد ..وأن أقول شيء ..أشحت بوجهي عنه وخرجت أتبع صديقاتي .

الفصل التاسع

تحدي

يقولون دائما: (إذا تواجه اثنان يظنان أن العالم يدور حولهما فسيبدوان كأنهما في حلبة للقتال) لأن كل منهما سيظهر سيئات الآخر حتى يعدو الأمر سجالا بينهما، لم يكن سرمد البادئ في كل هذا، وكان علي أن أدرك أن معركة ما ستحدث في القريب العاجل، لكن أن يستمر ذلك لحرب كاملة .. أبدا لم أتوقع هذا.

فبعد يومين من الصمت تحاشيت فيهما نبيل تماما، وكان قلبي يقفز مذعورا إذ يرن هاتفي خشية اتصال سرمد أو حضوره المفاجئ إلى المركز، تمنيت أن يحدث ذلك في الدار أو في بيت جدي .. وعرفت أن المواجهة ستكون صعبة .. وهذا ما حصل في يوم الخميس، يوم نزولي إلى الحلة .. وقتها خرجت من غرفة الفحص حينما تقابلت وجهها لوجه مع علاء وسرمد.

توقفت أقدامي على الفور و اختض قلبي برعب، لكنني كسوت وجهي بالجمود .. فخلال اليومين الماضيين عززت نفسي بأسلحة للرد على أي حوار قد يطرق الموضوع .. عليهم أن يعرفوا بأن الفتاة التي كانت تركض حافية في شارع منزلهم قد كبرت الآن، وأصبحت طيبة .. ولديها شخصية وعائلة وصديقات .. لم أعد تلك المجهولة التائهة التي كانوا يحمونها من كل سوء.

علاء كما هو منذ أن رأيته قبل أسبوعين في زيارة سريعة إلى بيت جدي، يبدو جديا .. رزيناً، هادئاً .. لم يكن غاضباً قط وذلك رفع

معنوياتي.. بينما سرمد المتوقف إلى جانبه بدا مختالا بوقفته، جبارا بنظراته التي اكتسحتني متفحصة وتوقفت طويلا عند الهوية المعلقة على صدرיתי، تلك التي تعلن اسمي وكنيتي ومهنتي كطبيبة أسنان دورية .

ولأن علاء موجود ..كنت أعرف بأن الأمور لن تتأزم، فهو سيحاول ردع أي تصرف غير لائق قد يبدر عن سرمد الفظ، لكن كيف يمنعه لو تجاوز معي في الكلام، لو أنه أطلق كل غضبه الدفين بشأن كذبي وإخفائي الحقيقة عنهم ؟

حينما تحركت إليهم في الممر الصغير، شعرت كما لو أنني جنبيه صغيرة في حضرة ماردين، علاء تحدث أولا بعد أن حياني برقة..سألني عن أحوالي ..وإن اتسمت أجوبتي بالارتباك إلا أنني استطعت الإجابة والرد عليه وسأله أيضا عن صحته وصحة بيت جدي.

تطرق علاء أخيرا إلى الموضوع بكل هدوء، فهو رجل متمكن له شخصيته القيادية وتحدث معي بأسلوب يشبه العتاب، سألني إن كنت أظن بأنني لن أرتاح في منزلهم ولهذا اخترت الدار مفضلة إياه على البيت الذي ولدت وترعرعت فيه.

كان سرمد صامتا أثناء حديث علاء، يراقب الوضع كله كأنه يقيم المكان بعينين يقظتين .. وقتها لاحظت بأن عينيه تعلقتا بشيء ما، تبدل مزاجه في الحال و أومضت عيناه بسخرية.

كنت قد حضّرت ردا مناسباً لأعفي علاء من الموقف المحرج، فهو من الشهامة بحيث سألني إن كان سبب رفضي هو لوجودهم في المنزل،

فليس من الملائم أن تسكن فتاة عزباء في بيت مليء بثلاثة شباب عزاب، وقد حاول علاء أن يخفف من إحراج طرح الموضوع بقوله بأنه هو وسرمد جاءا ليخبراني بكوني مرحبا بي في أي وقت للعودة إلى بيت جدي، وبأننا جميعنا إخوة...!

شعرت بالخجل للموقف السخيف الذي وضعت نفسي به فغاييتي قد كانت البقاء مع صديقاتي في دار الطبيبات ولست أحب وضع حواجز بيني وبين بيت جدي، لم يخطر ببالي ذلك أبدا.

أخذت أفسر لهما الموضوع، لكن نبيل الذي كان يقف خلفي كما اتضح قاطع حديثنا وأستفسر عن شيء معين لم أذكر ما هو، حتى أنني صمت من شدة شعوري بالحرج، لقد تمنيت لو أن الأرض تبلعني حينما رأيت التهكم في عيني سرمد وكأن تقييمه لنبيل لم يثر سخريته فقط بل بعث فيه روح التلذذ بتعذيب الآخر، وحتى أنا كان لي نصيبا من تلك النظرات.

بعدها وعيت على كلمات نبيل الودودة بقوله: "هل أنت مشغولة فائن؟" لا بد وأنه يحاول تطبيق كل كلامه المتعلق بالحماية أو ما شابهه !.

شعرت بالخجل يسيطر علي خاصة وأن سرمد لم يخفِ نظراته الفظة تلك وخشيت أن ينتبه نبيل لذلك فتداركت الموقف بتعريف الطرفين على بعض... ولم يخلُ صوتي من الارتباك.

أصبح علاء هو الطرف الصامت هذه المرة، تساءل نبيل بصوت ودود لم أرتح له: "هل أنتما في مراجعة؟.. يمكنني تحويلكما إلى قسم الفحص"

رد سرمد قبل أن أقول شيئا: " نحن في زيارة عائلية " ووضع يده في جيب الجينز بحركة كسولة.

تمنيت لو يتحرك نبيل من مكانه ويستأذن معتذرا ولكن بعد الذي حصل في المطعم لابد وأنه ظن بأن الاثنين قادمان ليضرباني في وضح النهار...!! لكنه ولدهشتي أخذ يقول بلهجة من اكتشف شيئا: " الآن تذكرت أين رأيته، أنت المتحدث الرسمي لجمعية حقوق الإنسان في المدينة.. لقد رأيت التقرير الإخباري أثناء عرضه في التلفاز الأسبوع الماضي "

لم يتأثر سرمد، عرفت أنه سيقول شيئا مشينا ..ومسكت قلبي في الحال. تشدق قائلا: " إنهم يقولون ذلك أيضا " .

لم يوضح كلامه إن كان هو المتحدث الرسمي أم لا ..ووقع نبيل في ارتباك فوري، لكنه قرر أن يأخذ كلامه كموافقة: " حسنا ..أنتم تقومون بعمل جبار هناك "

تنقلت عينا سرمد بين المارين كأنه لا يقيم لنبيل أي اعتبار ورد هازلا: " لماذا؟ ..لأننا نظهر على شاشة التلفاز؟ أم لأننا لا نتملق الحكومة؟ "

كانت جملة مستفزة، عليهما أن يتركا المجال للنساء لإدارة الحديث...

" ربما الاثنين معا " زودت نفسي بجرعة أدرينالين كبيرة...

حطت علي النظرة الفولاذية الهازلة، انكمشت في داخلي وتمنيت أن يتدخل علاء قبل حدوث كارثة ما.

" أتريد القول بأنكم لا تخشون السلطات ؟ " خرجت تلك الجملة من فم نبيل، لم أستطع هذه المرة إخفاء انزعاجي، كيف تحول الحديث إلى السياسة بحق الله ؟ !

" نحن جمعية حقوق الإنسان: " واجبنا الدفاع عن حقوق الإنسان الشرعية والمشروعة .. والسلطات ليست بعيدة عن مجالنا ذاك "

وضع نبيل يده في جيب الصدرية وقال : " لقد سمعنا بعض الأقاويل عن تحديكم لسياسة المحافظ .. علي القول إن هذا لا يشمل حقوق الإنسان على الإطلاق " وأطلق ضحكة قصيرة وكأنه يعتبر سرمد صديقا قديما له...

لقد تأزم الوضع كثيرا ..

" من أية محافظة أنت عزيزي نبيل ؟ .. لست من الديوانية صح ؟ " سأله سرمد وكأنه يتحدث إلى طفل.

" من كربلاء المقدسة " قالها نبيل مفاخرا !..

تحرك سرمد ليقف إلى جانبه ويربت على كتفه، فأجفل نبيل للحظة بينما سرمد يقول : " لا تنتقد ناشطا في حقوق الإنسان دون أن يكون لديك دليل، الوضع هنا في الديوانية يختلف .. نحن نقف في وجه الظالم دون خوف وهذا يعني أننا لا نأتمن لسياسة محافظة تتخذ من الدين وسيلة لتحقيق مآربها الشخصية "

رمش نبيل مجفلا للإهانة الصريحة، ألقى نظرة ذعر على علاء مستنجدة بعقله الرزين، فاستجاب في الحال وقال بلهجة سريعة: " فأتين سنحاول أن نتفهم قرارك .. لا تقلقي كل شيء على ما يرام .. سرمد .. "

وحول حديثه إلى الأخير: " لا نريد أن نؤخر الدكتورين عن عملهما " جملته تلك: (كل شيء على ما يرام) أنبأتني بأن الأمور كادت أن تتحول إلى منحى آخر لولا تدخله في الموضوع ..تخيلت ردة فعل سرمد حينما عرف الحقيقة لأول مرة و اقشعر بدني.

شعرت بأن واجب الضيافة يناديني فقلت: " لا تذهبا الآن ..لم أضيفكما بعد " وألقيت نظرة وجلة على سرمد متحاشية النظر في عينيه، تولى علاء الإجابة بينما هدأت دقات قلبي حينما ابتعد سرمد عن نبيل وعاد إلى مكانه: " في وقت لاحق فائن ، مري على البيت لرؤية جدتي ..إنها مشتاقة لك " .

اختلفت بردي: " سأفعل .. " ..في وقت لا يكون فيه سرمد موجودا طبعاً !.

شيعني سرمد بنظرات ساخرة وكأنه قرأ أفكارى، فبلعت ريقى ولم أطلق أنفاسى المكتومة إلا بعد أن خرجا من المركز ..التقتُ إلى نبيل وأنا أتمنى أن لا يتكلم بالسوء عن فضاظة سرمد الغير محتملة ولكنه سألني لاويا شفثيه: " لقد قال ابن خالتك بأنها زيارة عائلية، ليس هناك مريض لا سامح الله ؟" .

نفيت بهزة من رأسي، ولأنى أردت تبديد إحراج ليلة المطعم أخبرته بالسبب الذي دعاهما لزيارتي في المركز فاستفسر منى بلهجة جافة: " هما أعزبان أليس كذلك ؟" .

" نعم، الثلاثة عزاب " أجبته وأنا لا أدرك سبب سؤاله.

" تعرفين إذن بأننا لسنا في مجتمع متحرر، لا يجوز للمرأة أن تسكن في بيت يحتوي ثلاثة رجال غير متزوجين " .

قلت بلهجة مشددة: " ولكننا تربينا صغارا في ذات البيت، كما أن في البيت جدتي وخالتيّ الاثنتين " .

" أتقولين بأنك لو لم تستقري في دار الطبيبات لقطنت في بيت جدك ؟" .
" بالطبع " لم أتردد فثقتي كبيرة بأولاد خالتي .

" فائن، أعذريني لو قلت لك بأنه تفكير خاطئ، بقاء المرأة تحت سقف أيوي رجالا أمر غير مستحب في ديننا .. أنا أعرف أنهم أولاد خالتك، ولكنهم رجال قبل كل شيء .. والدين يوجب على المرأة الستر في هذه الحالة " .

ماذا سيقول يا ترى لو أخبرته بأنني لا أرتدي حجابي وأنا في بيت جدي .. ولكنني اعتبرت الأمر شخصيا ولم أحب إدخاله في صومعة أموري الخاصة.

أجبت به عاطفة: " كنا أطفالا قبل أن يضعونا في خانتين منفصلتين: رجل وامرأة " .

فرك نبيل جبينه ليقول بلهجة رقيقة: " حسنا .. أنا أتفهم عاطفة المرأة وسبب تعلقها بذكريات الطفولة ... ولكننا نتكلم عن الواقع فائن، ذكريات الطفولة هي غشاوة فوق الإدراك والمنطق .. لا يمكننا أن نتجاهل شرائع الدين فقط لأن طفولتنا كانت جميلة وبريئة .. أنت إنسانة واعية وتفهمين ما أقول " .

لا يعرف نبيل كم تعني لي الطفولة التي عشتها .. والبراءة التي عشتها في كنف عائلتي .. ذكريات الطفولة بالنسبة لي هي كنزي الصغير ..

" أنا أفهم ما تقول ..الوضع لن يتغير نبيل فأنا لن أنتقل إلى بيت جدي
لأنني مرتاحة مع صديقاتي " .

ابتسم وقتها قائلاً : " إنه قرار حكيم ..لن تندمي عليه طوال حياتك " .

نظرت إليه وأنا أشعر بأنه يظن أنني أفعل ذلك للأسباب التي
يعتقدها ..وتمنيت في تلك اللحظة لو غيرت رأيي وانتقلت لبيت جدي
فقط لكي أحطم عنجهية نبيل الغير محبة .

الفصل العاشر

دعوة مفاجئة

بعد يومين من زيارة سرمد الأولى لي في المركز، وبعد اللقاء المزعج بينه و نبيل جاء لزيارتي مرة ثانية، يومها بدأت دورتي الجديدة في وحدة الفحص وقد كانت متعبة للغاية، ولم أملك أي وقت فراغ ولكني خرجت في استراحة قصيرة تاركة زميلي أنور في الغرفة والساعة تشير إلى الواحدة ظهرا، قصدت الكافيتريا لأشتري زجاجة مياه حينما فوجئت برؤية سرمد واقفا على بعد عدة خطوات مع نبيل، وبدا من الحديث بينهما أن سرمد لم يحضر لتوه ..وبأنه موجود منذ أكثر من دقيقة.

حينما تقدمت إليهما أخذت أفكر في سبب زيارته المفاجئة، وجل ما بخاطري أنه لم يتجاوز بعد مسألة المبيت في دار الطبيبات ..أو لم يتجاوز كذبتني الشنيعة تلك بوجه أكثر دقة ..وحينما توقفت عندهما تساءلت بجمود : " سرمد أنت هنا ..! " .

حطت علي نظراته الفولاذية و شعرت بشيء ينكمش في داخلي، بدا وكأنني ارتكبت جريمة ما ..شيئا سيئا قمت به دون أن أعرف حتى و هو يقول بصوته المتسلط : " مرحبا ..ظننتك تعملين " .

شيء في داخلي أجفل ..ربما هي نبضات قلبي التي تسارعت وأنا أراقب الاثنين بتوتر : " لـ.. لماذا ؟ " .

من جانبه علق نبيل بلهجة ودودة: " أنا أخبرته بأنك تعملين في أسوء الأقسام "

حسنًا ..وماذا يعني هذا ؟ ! إن قسم الفحص كذلك لأنه المكان الأول الذي يتوجه المراجع إليه ويعتبر آخر الأقسام التي تغلق أبوابها في نهاية اليوم .

أردت أن اسأل سرمد عن سبب زيارته ولكني تحرجت من وجود نبيل ..مرة أخرى كان الموقف خارجا عن إرادتي ...قلت موضحة بابتسامة باهتة : " هذا صحيح، لم أفرغ إلا للتو " ونظرت إلى سرمد شاعرة بوجهي يتورد قليلا من نظراته الحادة التي لم تفارق وجهي حتى وهو يقول بجفاء : " إذن يمكنك الخروج معي ؟ " .

لم أتفاجأ وحدي ..الحركة المجفلة التي ندت من نبيل جعلتني أعلق بصري عليه وأنا أشعر بعدم الفهم ..

هل قال ..خروج ؟! .

لا أعرف كيف قرأت نظرة الامتعاض في عيني نبيل ..ولكني لم أركز فيها ..كل ما همني هو طلب سرمد ..ومجيئه المفاجئ ذاك ..سألته مستفهمة : " لماذا ..هل حصل شيء في البيت ؟ ..جدتي بخير أليس كذلك ؟ " .

بحركة كسولة دس سرمد يديه في جيب سرواله الجينز : " بخير ..خالتك بعثت بطلبك، أنت مدعوة للغداء عندنا " .

تنفست الصعداء ولكني جفلت من رد نبيل البارد: " لا أعتقد أن المدير سيسمح لك بالخروج فائن ..أنت تعرفين كم هو متزمت في هذه الأمور "

أنا أعرف ..وأعرف ذلك جيدا ..ولكن لم أحسست بأن نبيل شدد على كل كلمة قالها ..أترأه من وضع أسس العداء بينه وبين سرمد ؟.

علق سرمد بابتسامة ساخرة : " لا عليك .. لقد تحدثت إليه وأنت حرة في الخروج ".

هكذا إذن، لقد قرر سرمد ..وتصرف من تلقاء نفسه دون أن يخبرني حتى، شعرت بأني عدت إلى قيود ظننت بأني تحررت منها ..في تلك اللحظة الباردة فقط شعرت بأن تعييني في الديوانية كان له اعتبارات كثيرة لم أضعها في الحسبان قط .

أجبتة متممة : " حسنا ..ولكن خالتي لم تتصل بي و.. ".

قاطعني بصوت ساخر : " أنقولين أنك لا تحبين المجيء للغداء ؟ ".

تجاهلت نبيل المتوتر الوجه : " أنا لم أقل هذا ..أنا متفاجئة فقط .. " وأخذت نفسا عميقا منهية حيرتي وقلت : " لا بأس ..سأخبر البنات ثم أتحضر للمجيء معك ..نبيل.. " وتحولت إلى نبيل المتجمد في مكانه ..حاولت أن لا أغير اهتماما لعينييه المظلمتين بتعابير لم أرتح لها ..وأردفت متابعة : " هل يمكنك أن تحل مكاني في الفحص ؟ .. " ونظرت إلى ساعتى وتابعت : " لا أعتقد بأنك ستقابل مراجعين في هذا الوقت ..ولكن من يعلم قد يحدث طارئ " .

لم أنتظر رده ..استدرت نحو غرفة الفحص لأخذ حقيبتى وأخلع عني صدريتى الطبية، كانت الغرفة فارغة ولم تمر ثانية حتى شعرت بنبيل يدخل الغرفة بخطى سريعة، وبادرني بالقول ما إن رأيته أطوي صدريتى بيدي : " اسمعي ..يمكنك الاتصال ببيت جدك والاعتذار منهم، أنت لست مجبرة على الذهاب ".

أجبتة وأنا أبتسم من هجومه الغير مبرر: "ولماذا تقول ذلك؟ ..سأحب بالطبع الذهاب إلى هناك "

رد علي: " لماذا شعرت بانز عايجك إذن ؟.."

لم أرد عليه ..مضت ثانية لم أعرف فيها كيف أجيبه حتى سمعته يقول وعيناه تلمعان ببريق الاكتشاف: " أنت لا تحبين ابن خالتك هذا صحيح ؟.. هذا هو سبب انز عايجك ! " .

أجبتة متوخية بعض من الحقيقة: " أنت تذهب بفكرك بعيدا نبيل، ابن خالتي هذا تربيت معه ومع أشقائه ، وليس هناك أي سبب يدعوني لكرهه ..الأمر فقط .. " .

" ماذا ؟.."

أجبتة وأنا أعلق حقيبتني على كتفي: " تفاجأت من مجيئه ..فهو رجل مشغول ولم أره منذ أسابيع"

ربما كان في نبرة صوتي شيء ما ..لأن نبيل تجمد في مكانه ولكني سارعت بالخروج وأنا أودعه بابتسامة مجاملة: " أنا ذاهبة الآن..سأتصل بإحدى البنات لأخبرها بأنني لست عائدة إلى الدار ..إلى اللقاء غدا "

وحيثما تركته في غرفة الفحص وقابلت سرمد عند الباب الخارجي فكرت بأنني حقا مجبرة على الذهاب، فما كان ليقبل بأدنى رفض مني..وأذكر بأننا قبل صعودنا إلى سيارة الأجرة التي أوقفها اقترب ليفتح لي الباب وقال لي بصوته الهامس ..اللاسع ...: " هذا النبيل يدس أنفه في ما لا يعنيه ..أتراه يضم شينا ؟"

لم أجد له لأنني دخلت إلى السيارة بسرعة .. وكنت طوال رحلتي إلى بيت جدي أعقد أصابعي مع بعض بتوتر، أحاول التشاغل عن وجوده المسيطر في السيارة ولكن ماذا بالنسبة لأنفاسي التي أطبقت بحدّة والمشاعر التي اكتنفتني: .. كيف لسرمد أن ينتبه .. بعد لقاءين فقط، انتبه إلى نبيل .. وتذكرت نرجس .. هي الأخرى انتبهت لاهتمام نبيل بي ونظراته التي تحمل معنى خاص ..

تحركت بعدم ارتياح وقد أثقل الهم كاهلي .. كيف لرجل بعمره أن يعجز عن إخفاء إعجابه؟ .. وأمام ابن خالتي بالذات؟ .. الرجل الذي أخشى جبروته وتعنّته .. لقد انتبه لأمره الغير طبيعي، أنبأتني هذه الزيارة بأنه قد وضع قدمه في حياتي الخاصة .. وبأنه لن ينتشلها حتى يدمر كل ما سيحصل برفعة عين .. ذلك هو سرمد بالنسبة لي .. لا أحد يستطيع فهم شخصيته المتناقضة خلف روحه الساخرة .. ولكنني أقرؤه .. أقرأ وجهه الرجولي المرسوم بحدّة .. عينيه اللامعتين بذكاء شرس، أنفه المعقوف بكبرياء .. ولحيته الخفيفة وشعره الأسود المتموج .. كان كتلة متناقضة من الوسامة والرجولة .. صقلت شخصيته على مدى سنوات من الكفاح والنضال ضد الظلم، كنت فخورة به لفترة خلت، حينما ترأس جمعية حقوق الإنسان، رأيته مرة في مرافعة سريعة على موقع اليوتيوب وأعجبت بإلقائه وهو يدافع عن موكل معروف، ذهلت من مظهره وعباءة المحاماة التي زادته قوة، وأناقته التي بدت من تصفيف شعره الأخاذ إلى حدائه اللامع الأسود، كان كتلة شرسة في المحكمة، ومنذ ذلك اليوم اهتممت بالاستماع إلى أخباره السياسية وتتبع مقالاته التي ينشرها عادة في الصحف والمجلات، لقاءاته التلفزيونية كنت أتابعها سرا، تارة على موقع اليوتيوب .. وتارة أشاهدها في التلفاز مباشرة .. ربما أعجبت بالهالة التي يكونها سرمد .. ولكنني أيضا

أخشاه..وأهابه..وأزدرى نظرتة الساخرة وهزئه الدائم بي..وقد حاولت
جاهدة أن لا أجعل منه عدوا لي..ولكن بعد ما حصل قبل يومين
والآن..أيقنت بأن سلامي الداخلي أخذ في التذبذب وبأن أياما شائكة لا بد
وأن تطرق أبواب قلبي الصدئة.

وصلنا إلى بيت جدي في غضون نصف ساعة، كنت لا أزال أشعر
بتأنيب الضمير في كل مرة أدخل بها إلى هناك وهذه المرة شعوري
مضاعف، لأنني فضلت عليه منزلا آخر.

نزلت من السيارة بهدوء ولم أنتظر سرمد الذي وقف ينهي سيجارته
باستعجال وكانت هذه عادته ، فهو لا يدخن داخل المنزل اللهم الا في
غرفته، (احتراما لجدتنا ووالدته) قالها مرة لي، وكنت أفكر بأن قراره
هذا منتهى الخطأ، فالجميع يعرف بتدخينه الشره ولا حاجة لإخفاء الأمر
او التظاهر بعدم فعله، الخطأ يجهر به وإلا فلا يعتبر خطأ بتاتا بل
خطيئة !.

ما إن دخلت وصلنتي رائحة السمك المشوي وشعرت ببعض التفاؤل
وأنا أطلع الحديقة الصغيرة والباحة الخارجية التي لطالما حضنت
طفولتي المنسية..صوت انغلاق الباب الخلفي أنبأني بدخول سرمد .

" تفضلي دكتورة ..أم أنك تحتاجين أن أفتح لك الباب؟!".

أجبتة بفتور " أنا داخلة "

الحق علي ..منحته فرصة للهزء بي ..كان علي أن لا أتأمل الماضي
السحيق!.

رأنتي خالتي نجاح .. وهي الابنة الصغرى بعد والدتي، لازالت شابة بالنسبة لي وهي بمنتصف الأربعين من عمرها .. عطوفة تضج بالحنان، صديقة للكل ، لاحت على شفتيها ابتسامة صغيرة مرحبة بي وحينما انحنيت أعانقها همست في أذني بعجل: " حبيبتي إياك أن تعانديه .. فقط قللي نعم وأنهى الأمر " .

ثم دخل سرمد وانزويت إلى الجانب وأنا أنتفض قهرا، هذه الدعوة المغلفة بالمجاملة لم تكن سوى فخ مشيت إليه مغمضة العينين..!

" أهلا .. أهلا نجوحه .. " كان هذا ترحيبه .. بدون ألقاب، غاية في الاستفزاز المرح .

" أهلا حبيبي " ارتسمت ابتسامتها البشوشة وغادرها التوتر " هل أتيت لنا بالخبز؟ " .

نفى قائلا " كلا، قيصر تبرع بالأمر .. لقد جئت بفاتن ! " ونظر إلي وكأنني الجائزة .

أهذا يعني بأن قيصر من كان يفترض أن يأتي بي؟

أجبتة ردا لكرامتي المجروحة "ليس هناك داع لتتعب نفسك، كنت سأتي بمفردي "

التقت نظراتنا بحدة .. لم يجبني لأن خالتي نجاح سارعت لتقول بسرور " آه .. دعك من هذا الكلام، هذه الأيام نرى سرمد كثيرا، الحمد لله أنه يتفرغ من أعماله قليلا "

وهذا من سوء حظي !.

" ماذا عن الجمعية؟ لقد كانت تأخذ كل أوقاتك " سألته وأنا أنظر في عينيه مباشرة، لكنني كنت جبانة فسرعان ما أشحت بها وأنا أرتجف هلعاً من نظراته الحادة اللاسعة.

" الجمعية بخير، أنا فقط تفرغت لأرى شؤوني الأخرى "

إحساس في داخلي أنبأني بأنه يقصدني أنا بشؤونه الأخرى !

يا ويلى !! هل سأعود لأقع تحت رحمته ولسانه اللاذع ؟ .

كان المطبخ صغيراً للغاية وكنا نقف متواجهين: هو عند الباب الخارجي له وأنا عند الباب الداخلي المؤدي إلى باقية أجزاء المنزل، ابتدأت أخلع حجابي وسألت خالتي نجاح "أين الخالة سعاد ؟ عند جدتي ؟"

أومأت لي وهي تغسل الخضراوات بمياه الصنبور " أجل حبيبتي، أدخلني لتسلمي عليهم "

ومن دون أن انظر إلى سرمد أنهيت خلع حجابي ودخلت إلى المنزل متوجهة نحو غرفة جدتي، ولكنه تبعني وناداني باسمي ما إن ولجت غرفة الجلوس: " فأتني انتظري "

دوما يشدد على اسمي .. وكأنه يمهد للقادم .. توقفت قدماي على الفور.. أترأه سيبدأ بتعنيفي لأنني كذبت عليهم ؟

استدرت إليه أحاول أن أبو قوية : " نعم ماذا هناك ؟ " سألته ببرود وأنا أخفي توترتي بصعوبة .

ألقي علي نظرة شاملة وبدت عيناه لاسعتان كلسانه تماماً : " ماذا ترتدين ؟ " .

أصابنتي الدهشة .. فتحت فمي لأقول شيئاً، لكنني أغلقته بقوة .. ها قد ابتدأ أسلوبه التهجمي بشأن ملابسي ومظهري، يتعمد أن يأخذني على حين غرة ..

ضاقت عيناه وغمغم قائلاً: " انتبهي إلى ملابسك .. أنت تبدين متحررة تماماً " .

تمنيت فعلاً لو أنني تحررت من جبروته .. لو أنه أطلقني في حال سبيلي فقط .

أجبتّه بوجوم: " إنها ليست ضيقة " .

رد علي بحدة خافتة: " إنها ليست ضيقة فحسب .. بل قصيرة أيضاً ! " .
حقاً ... !

كافحت لئلا أنظر إلى قصر قميصي الملقى بأناقة على سروالي الجينز .
" إنها الموضة .. "

لاك الكلمة بعجرفة: " الموضة .. أم أنها فتوى صديقاتك البغداديات ؟ " .
انبريت أقول بحدة: " ماذا يعني هذا ؟ " لابد وأن وجهي احمر غضباً،
سرمد قادر على إشعال كل غضبي الدفين.
أجابني وهو يجلس على الكنبه ويمد ساقه بحرية: " افهميها كما يحلو لك .. "

أجبتّه: " سرمد .. أنت تعرف بأنني لست فتاة متحررة، كما أن صديقاتي محجبات ومحشم .. "

قاطعني ساخرا: " أجل... بالنسبة لئرجس وداليا، الأمر مختلف !"

انقطعت أنفاسي: " كيف لك أن تعرف بشأنهن ؟! "

أجابني باختصار: " الناس يتحدثون " ثم رفع بصره نحوي و التمعت
عيناه بتهكم وهو ينظر إلى صدمتي وعدم تصديقي.

قلت بصوت باهت: " أنت تكذب " .

" صحيح .. فأنا لست أعيش في مجتمع مثالي .. أنسيت بأننا هنا في
الديوانية نعرف بعضنا البعض ؟ " .

" لم أنسَ .. ولكننا بمعزل عن .. " .

أجابني مقاطعا: " أنتم توظفتم هنا .. في مركز الديوانية، مجمل فتيات
بغداد .. متحررات، بعيدات عن عوائلهن، ولكن -على ما يبدو- أنت
نسيت نفسك" وهز ساقه وهو ينظر إلي بخطر: " بقاؤك في دار
الطبيبات دون علم منا، خروجك في الليل إلى المطعم وتفسحك مع باقي
الزملاء (قالها ساخرا) وملابسك القصيرة الضيقة هذه، تبين بأنك
نسيت تماما بأن لك عائلة هنا .. " .

لقد تحدث بكل وضوح، التهديد باد في كل كلمة قالها .. من جانبي رأيت
وقفة خالتي نجاح عند باب المطبخ، كانت تشير إلي أن ألتزم الصمت
وأن أستمع لمحاضرتة دون اعتراض.

ربما فاتن الماضية ستفعل ذلك .. ولكني لم أعد تلك الخانعة .. أصبحت
طبيبة .. ولدي استقلاليتي الخاصة .. ولذا تحركت لأجلس على الكنبه
المقابلة له، جلست ذات جلسته .. وضعت ساقا فوق الأخرى وأجبتة دون
أن يرف لي جفن: " أولا .. أنا لم أسكن في دار الطبيبات دون علم

أحد.. عائلتي تعرف، وهذا الأمر قراري وحدي.. ثانياً أنا لم أخرج مع زملائي لأتفصح.. تناولنا العشاء في مطعم ومعى كل صديقاتي وبعلم عائلتي، وبالنسبة لملابسي الضيقة كما تقول فهذه ليست فتوى من زميلاتي البغداديات (ولكت الكلمة كما يقولها هو) بل هي ملابسي ذاتها أرنديها في الحلة وأنا عادة أرندي الصدرية أثناء الدوام " . توقفت عن الكلام حينما رأيت الرعب في عيني خالصة نجاح، كانت تعض أصابعها تحذرني من الاستمرار ولكني لست خائفة .. فيحصل ما يحصل .. أنا لن أعود إلى سيطرة سرمد مرة ثانية.

عم الصمت للحظات .. توقف سرمد عن هز ساقه وسكنت نظراته، فيما أخذت خالتي تطرق على وجنتيها تخبرني بحدوث الكارثة، أشحت ببصري وعدت أنظر إليه فالتقت نظرانا .. ازدردت ريقى .. و لا يزال الصمت مستتباً بيننا .. تمنيت لو أعرف ردة فعله .. ما سيقوله .. أتراه سيغضب .. أم سيستهزأ بي ؟ ..

ولكنه عاد يهز ساقه وقال: " جيد .. إذن فلنترك الأمر كما يحلو لك، ستبقين في دار الطبيبات، وستخرجين كما شئت وستلبسين ما ترغبين ولكن بشرط " وانتظرته ليقوم من مكانه وأصبح يعلنونى بقامته المديدة الضخمة، كدت أنكمش من النظرة الخطرة المهددة في عينيهِ وتابع يقول: " أن تستمري في زيارتك هذا البيت، الكل يلاحظ انقطاعك التام وجدتي تشكو غيابك المتواصل وأيضا .. "

قاطعته بهدوء: " كان شرط واحد " .

توقفت نظراته على وجهي، ثم ابتسم فجأة: " أنت تساومين بشكل فظيع يا وردة " .

وردة ..كانت دوما نقطة ضعفي ..!

" أنا أتحدث بالمنطق .." .

اتسعت ابتسامته: " كان عليك أن تدرسي حقوقا إذن !" .

ابتسمت بدوري: " شكرا ..أنا راضية باختصاصي " .

استقامت قامته وتحول نحو السلم: " حسنا ..هناك شرط أخير حضرة
الدكتورة " والتفت نحوي مضيفا: " لا تغيري رقمك قط .." .

لم ينتظر إجابتي وصعد السلم متوجها إلى غرفته، وما كدت أطلق
أنفاسي راحة حتى هاجمتني خالتي نجاح: " ماذا دهاك يا فاتن لتكلميه
بهذه الطريقة ؟..هل جننت ؟" .

قمت من مكاني : " خالتي ..لا يحق له أن يحدثني هكذا، أنا لم أعد
صغيرة " .

هزت رأسها معترضة: " فاتن، سايريهم يا ابنتي ..العناد لا ينفع خاصة
مع سرمد، تظنين بأنه يهتم لما تقولين ؟..إنه يختبرك فقط " .

لابد وأنه كذلك ..خدعني بمسألة الوردة ..وجعلني أبتسم حتى !.

" لا أعرف خالتي ..المهم أنا وضحت له رأيي الخاص، أنا ما عدت
صغيرة وهو لا يملك الحق لمحاسبتني " .

عضت خالتي نجاح شففتيها وارتأت أن تتوقف عن مجادلتني لكنها
تمتعت تقول: " الحمد لله أن الأمر حدث بهذا الشكل، لقد جن جنونه
حينما أخبره قيصر بالأمر وقد هدد بأن يفعل الصواب وأن يأتي بك إلى
هنا ولكن .. الحمد لله لابد وأنه اقتنع بشكل ما " .

اقتنع ؟..وتذكرت زيارتيه القصيرتين إلى المركز ..لم يكن فقط مقتنعا،
إنما بدا ماكرا ..كالثعلب ، لا بد وأنه يخطط لشيء، وشعرت بالقلق من
تعرفه بنبيل ..

دخلت لأرى جدتي فقابلتني خالتي سعاد عند الباب، سلمت عليها
وسمعت جدتي تقول: " ها قد أتيت يا حبتي .. " .

التفتت إليها ورأيتها جالسة على سريرها لم تكن كمعظم الجدات، فهي
لا تزال قوية العود ..حادة البصر ..عينها واسعتان نجلاوتان ولولا
التجاعيد المحيطة بهما لقلت أن وجهها لازال محافظا على جماله .

وكعادة الأرامل ..فهي متشحة بالسواد .

اتسعت ابتسامتي وأنا أسرع لمعانقتها: " مرحبا جدتي ..كيف حالك؟" .

" بخير وأنت يا حبة عيني؟" .

أومأت لها بأني بخير ولكنها حدجتني بنظرة أعرفها وقالت وهي تسبح
بمسبحتها السوداء: " رأييت نتيجة عنادك يا فاتن ؟!..لقد غضب أولاد
خالتك من اختيارك لدار الطبيبات ..وكنت أعرف بأنهم لن يتقبلوا الفكرة
" واستمرت تعد بالمسبحة: " ما فائدة بيت الجد إذن، أيمن أن تفاضلي
بينه و بين دار للطبيبات لا نعرف عنه شيء ؟" .

توسلت بها: " جدتي أرجوك، أنا مستقرة حاليا مع البنات وقد أخبرتك
بأنه دار مريح ونظيف، كما أنني لست بعيدة عن هنا و .. " .

قاطعتني عاتبة: " ولكنك لم تأتي لزيارتي منذ أسبوعين "

غمغت قائلة: " أجل، لم يكونوا يسمحون لنا بالخروج وقت الدوام يا جدتي ولكني أعدك أن آتي إليك في الأيام القادمة، ما داموا قد عرفوا بمكوثي في الديوانية فأستطيع القدوم وقت العصر " .

نظرت إلي بطرف عينيها: " لا بأس، هل تحدث معك سرمد ؟ .. " .

" أجل، وهو مقتنع حاليا ببقائي في الدار .. وأظن بأن علاء وقيصر لن يمانعوا أيضا ؟ " .

" بالطبع لن أمانع .. ما دمت تنيرين الديوانية ببقائك ! " .

التفتت فرأيت قيصر واقف عند الباب، ابتسمت حينما لاحظت وجهه البشوش واستمعت لنبرة صوته المرححة، هذا قيصر الذي أعرفه وليس ذلك الغاضب .. ذا النبرة الخشنة .

اقترب ليدخل وحينما ظللتني قامته مد يده وبعثر شعري المشدود وأخذ يقول: " مرحبا يا حلوة .. " .

" مرحبا بك " والتقت نظراتنا وقرأت الندم في عينيه وهو يقول: " آسف لأنني تصرفت برعونة قبل أيام .. لقد أخرجتك أمام زملائك " .

من الجيد أنه فهمني في النهاية .. بعكس شقيقه الذي يعتمد إحراجي علنا .. وسرا .

" لقد كنت غاضبا لرؤيتك بتلك الطريقة .. ولكني فيما بعد أدركت خطئي .. " وابتسم: " أرجو أنك لم تواجهي الأسد بمفردك " .

ضحكت: " مع سرمد ؟ .. أجل .. لقد تمت المواجهة ولكنها مرت على خير " .

رفع حاجبه: " كان غاضبا كالجحيم " وجلس قرب جدته وقبلها على رأسها بينما كانت تنظر هي إليه بسعادة ..لابد وأنها سعدت بحديثه معي بتلك الطريقة.

وتابع: " لقد كاد أن يأتيك ليلتها ..ولكننا أقمناه بضرورة الانتظار لعدة أيام ..تعرفين يكفي ذاك الكم من الإحراج لليلة واحدة " وضحك حينما حدجته بنظرة باردة.

بعدها سمعنا نداء خالتي نجاح من أجل الغداء وقمنا نحو المطبخ، تشاركنا بتجهيز السفرة بينما جاء علاء من عمله، وعلى سفرة الغداء اجتمعنا كلنا وقد حضرت المائدة من شتى المأكولات العراقية البيئية، على رأسها السمك المسقوف ..والرز مع الحشو الخاص به، الدولة العراقية بالإضافة إلى السلطات والمخللات ..وإذ جلس قيصر إلى جانبي أخذ كعادته يسرق من إناء المخلل الخاص بي، على الرغم من انهائه الخاص به وأغار على إناء والدته ..

كان يعتمد التحرش بي من أجل المخلل ثم أخذ يضحك حينما أبعدت إنائي بعيدا عن متناوله، بعدها أعلن في نهاية السفرة بأنني فاتن الأكلة واتهمني بالاستيلاء على كل مخلات السفرة ! الجو المازح الذي أضفاه قيصر بدد قليلا من توترتي أثناء الغداء ..وإن لم يتفوه سرمد بشيء لكن نظراته كانت لا تنفك تزعجني بين الحين والآخر، لابد وأن عقله لا يتوقف عن العمل حتى أثناء الطعام .

وعند حلول العصر قام علاء بإعادتي إلى دار الطبيبات في المستشفى، لعلاء سمة خاصة ..هادئ إلى درجة الراحة ..وكان ذلك ما أحতاجه خاصة بعد عودتي من محنة غداء ومواجهة كادت تكون غير حميدة لولا ..لولا ماذا ؟..

بمَ كان سرمد يفكر حينما طلب مني أن لا أغير رقم هاتفي أبداً ؟ ..

كان السؤال يراودني أثناء العودة، وإذا برسالة تصلني ما إن دخلت إلى الدار وودعت علاء، كانت الرسالة من سرمد ..فتحتها وأنا أشعر بأنني لن أرتاح من قراءة مضمونها وهكذا كان: رسالة موجزة كانت ..لكنها تعد بالكثير .

" التزمي بالشرطين دائما ..قد أحتاجك لشيء مهم يا وردة " .

وهكذا فقط ..!

جيد من أنه لم يأتي على سيرة نبيل قط .

بعد ذلك اليوم شعرت بأنني دخلت حرب مجهولة ..وصراع حول إثبات وجهات النظر ولأنني بعد دخولي الدار فاجأتني منال بحديث جانبي عن نبيل وكيف أنه جالسها في غرفة الفحص بعد خروجي وأخذ يستفسر منها عن سرمد ظانا بأنها تعرف شيئا عن ابن خالتي ...!..

وقد كان سرمد محقا في استفساره ..فنبيل كان يتدخل في حياتي ..وأیضا ..كان يضمّر شيئا تجاهي ...!

الفصل الحادي عشر

مكاشفة

كان يوم خطوبة أحمد لنرجس يوما مشهودا .. لا يخلو من بعض المشاهد الدرامية.. و لأننا لم نجهز أنفسنا فقد حصل الأمر فجأة .. أخذت إجازة قبلها لأفاجأ برسالة من نرجس تقول : "لقد تمت المشية.. غدا سنعقد لدى السيد ..!".

كانت الرسالة مفاجئة بالنسبة لي .. فأخر مرة أخبرتني أن عائلتها ليست موافقة كليا على الخطبة و ذلك بسبب اختلاف طباع الاثنين، وأيضا لأن نرجس ستسكن في مدينة أخرى تبعد عن بغداد .. وتختلف عنها بكل شيء .. وستجبر على ارتداء الحجاب رسميا.

لم أعرف تفاصيل ما حدث بعدها .. لكنني اتصلت بها لأهنئها .. سعدت لأننا سنشهد خطوبة أول فتاة من الدار .. وهكذا اتفقنا على أن نعمل لها حفلة خطوبة صغيرة في المركز وحفلة خاصة بنا نحن .. بنات الدار ..!.

وتمت الخطبة في بغداد في منزل نرجس، تشوقت لرؤيتها بفستان الخطوبة .. وقد أصبحت غالية على قلبي وإحدى صديقات عمري، لذا تمنيت أن أشاركها فرحتها في ذلك اليوم .. ومع حلول صباح الأحد .. التقيت بها في الدار وتعانقنا .. ولسبب ما طفرت الدموع من عيني .. تأثرت برؤيتها مشرقة الوجه تبدو الفرحه عليها .. وكأنها وجدت ضالتها المنشودة خاصة وأن الحجاب الذي ارتدته بدا لائقا بها وزاها جمالا وأناقة.

في ذلك اليوم ارتديتُ فستانا داكنا فيروزي اللون ..طويلا يبلغ إلى أسفل قصبة ساقي مع حذاء ذي كعب عال وجورب طويل أسود اللون وكحلت عيني لأول مرة بكحل عربي أهدتني إياه صديقتي ريهام ، كللت رأسي بوشاح بلون الفيروز مع خطوط سوداء عريضة ..بينما ارتدت نرجس فستانا طويل قرنفلي اللون ..وبدت أنيقة وسعيدة ..بينما ارتدى أحمد سترة سوداء وربطة عنق بلون القرنفل ..وتمنينا أن لا يضح المركز المراجعين كي يتسنى لنا الاحتفال بهما.

دخلت عيادة الجراحة التي باشرت بها منذ أسبوع تقريبا وألفيت نبيل يعمل منذ الصباح الباكر.. ارتبطنا هذه المرة في دورة الجراحة ..والشك في داخلي اخبرني بأنه تعمد وضع اسمه معنا أنا ومنال . لم ينظر إلي وأنا أدخل وذلك أفضل فقد شعرت بالخجل من فستاني على الرغم من أنني واثقة من أناقتي، لكنني خشيت أن يكون لباسي مبالغا به بعض الشيء أو أنه لا يناسب العمل مثلا.. وهكذا سارعت لارتداء صدرיתי البيضاء وفتحت السجل لأرى عدد المراجعين وكان قد وصل إلى خمسة عشر وقد أنهى نبيل العمل مع خمسة منهم وما إن فرغ مما بين يديه التفت إلي وطلب مني أن أكتب للمريض علاجا خاص في ورقة خارجية، و إذ بقينا لوحدنا سألني عن منال فأخبرته بأنها في حشوات الجذور تحل محل نرجس لأننا لم نكن نريدها أن تعمل في يوم احتفالنا بخطوبتها.

فقال لي: " علينا أن ننهي مراجعينا إذن بسرعة " .

أومأت موافقة و انكفأنا نعمل، عاونني نبيل مع أكثر من مراجع، فعملي بطيء ويحتاج للخبرة والممارسة المتواصلة، كنت أحوم حوله في كل مراجع يستلمه، أتوسل به أن يدعني أعمل بمفردي كي أتعلم ..وهكذا

أهداني خمسة مراجعين مع حالات بسيطة فيما تولى الحالات الصعبة والمعقدة، وحين خلت الغرفة كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف.. فسألني إن كنت تناولت إفطاري فأجبتته بالموافقة ثم قلت له " إن أردت تناول الفطور اذهب ..سأبقى في العيادة " .

هز رأسه نافيا " كلا، أنا أحتاج لرشفة شاي ليس إلا .. لحظة ..دعيني أتصل بغرفة المعين " .

وطلب لنا كوبيين من الشاي، تقبلته شاكرة، وحينما تولانا الصمت شعرت بتملل نبيل حتى مجيء الشاي ..أردت أن أستأذن منه كي اذهب إلى نرجس أو منال فربما هو محرر من الجلوس معي بمفردنا..فمنال نادرا ما تتركنا لوحدها ..عمدا بالطبع ..!

ثم رن هاتفي معلنا وصول رسالة هاتفية ..فتحتها فوجدتها رسالة من سرمد وكان مكتوبا بها " سأغيب انتبهي لنفسك هذه الفترة" .

حقا؟!!

وتهللت أساريري ..سيغيب ..سيغيب ..فاتن أنت حرة الآن، فخلال الفترة الماضية كان يظهر أمامي في كل مكان ..في المركز وفي الدار متسلحا بالأعذار كافة من دعوة والدته إلى أوامر جدتي بالمجيء ..وفي الأسبوع الواحد زرت بيت جدي لأكثر من أربع مرات ..!

انتبه نبيل لتغير وجهي فسألني على سبيل المجاملة: " أراك تبتسمين..أرجو أنها أخبار سارة " .

اتسعت ابتسامتي " لا أبدا ..إنها رسالة من قريبي " .

شعرت بتغير الجو بيننا .. أدركت بانني قلت جملة الساهية بطريقة خاطئة .. بدا على نبيل وكأنه أجفل .. سرعان ما استفسر مني بلهجة جامدة " من أولاد خالتك ؟ " .

" شيء كهذا " .

لا داع لأخبره بأنها رسالة من المجلل سرمد ! .

" كيف هي أحوالهم ؟ .. قريبك ذاك .. سرمد .. كيف حاله ؟ .. لقد رأيت له تقرير إخباريا قبل يومين " .

" حقا .. أين عرض ؟ ! " .

" على قناة الحرة " أجابني بوجوم وهو يراقب سروري من كلامه .

ربما أكره تواجد سرمد حولي ، لكنني أسعد حينما أراه مشغولا ، لديه خلفية ثقافية ومعروفا في الأوساط الإعلامية .. علقت على نبيل قائلة : " إنه مهتم بالسياسة كثيرا .. لقد ظهر في قنوات عديدة .. هو محام بارع أيضا " .

أجابني بلهجة لسعتني قليلا .. وكأنه يزدري الحديث عنه : " أجل هو معروف في الديوانية .. إنه لا يخشى البوح بأرائه السياسية " .

أجبت ببساطة " هذا هو سرمد .. إنه لا يهاب شيئا " .

رأيت قبضة نبيل تشتد : " قد يكون كذلك .. ولكنه يجلب الأنظار إليه .. الأقاويل التي تدور حوله ليست سارة على الدوام " .

هزرت كتفي : " ربما .. لكن كل سياسي معرض لأمر كهذه " .

بدا على نبيل وكأنه يريد قول شيء، لكنه صمت بعدها مغيرا الموضوع
" ستقيمون حفلة لأحمد ونرجس ؟ "

أومأت له فقال لي " الحقيقة تقال .. لم أظن أن ما بينهما قد ينجح. لكنهما
أثبتنا للجميع أن الارتباط يتخطى كل الفوارق "

ابتسمت " و أنا أظن هذا أيضا .. أنا سعيدة لأجلهما .. "

توقف الحديث بيننا .. لم أنظر إلى نبيل مرة أخرى .. لكن شعور في
داخلي أنبأني بأنه لا يزال ينظر إلي .. تلك النظرات القوية التي
أخشاها .. لم أعود في حياتي على نظرات أي رجل .. كنت أضرب ..
لكن مع نبيل أشعر بقلبي يطرق عاليا .. وبأن يدي التي ضممتها في
جيب صدريتي ترتجف لسبب أجهله ..!

تتحنن نبيل بعدها: " أتمنى أن تتوفر لنا فرصة كهذه للكلام يا
فاتن .. أحب التعرف بك "

كنت أعرف بأنه جاء معنا إلى الوحدة لأنه أراد التقرب مني .. ولكن أن
يصارحني بالأمر فجأة .. كان الأمر بعيدا عن خيالي.

استجمعت شجاعتي وقلت بصوت طبيعي: "إننا نجتمع كلنا في وحدة
الحشوات على الدوام "

تحرك نبيل بكرسيه قليلا: " أجل ، لكن أغلبنا مشغول مع الآخرين ..إننا
مثلا لا نعرف سوى أشياء محددة عنهم ..أذكر أنني اكتشفت أن لك
جذورا في الديوانية بالصدفة "

أطرقت برأسي: "أجل ..أتذكر هذا "

"هذا ما أعنيه ..نحن معا منذ أشهر ولكن ..لا أعرف شيئاً عن حياتك ..أو حياة منال مثلاً " .

" لا شيء مهم في حياتي، أنا من الحلة ولي أصول من الديوانية فقد ولدت فيها وعشت لأكثر من عشر سنوات " .

تغير وجه نبيل: " حقا ...!..لابد وأنت اخترتها بعد الحلة " .

أجبتة: " ربما ..لقد وضعت اسمها بعد بابل مباشرة ..إنها مجرد صدفة ليس أكثر " .

ابتسم نبيل: " إنها صدفة جميلة إذن .. " .

أردت أن أسأله إن كان يؤمن بالصدف ..ولكنه أخذ ينظر إلي نظرات متأملة وقال بعدها: " لا أراك تحدثت مرة عن طموحاتك ..أو عن أحلامك " .

وهل لي أحلام فعلاً ..؟.

كنت ضائعة في دوامة الحياة الاعتيادية ..أسير معها إلى حيث تريد لي أن أسير ..

لويت شفتي: " أنا لا أفكر في هذه الأمور كثيراً.. " .

قاطعني وقد لمعت عيناه: " وبم تفكرين إذن ؟ " .

أخذت أقول : " لا شيء ..منذ أن كنت صغيرة كانت اهتماماتي محدودة ..أنا فتاة عادية ..ولست أقولها لأنني أريد أن أقلل من شأن نفسي ..ولكنني أحب أن أكون هكذا على الدوام " .

سألني مستفسرا: " لأنك لا تحبين أن تكون الأنظار عليك ؟".

" ربما ..في الحقيقة لست بارعة في التحدث عن نفسي .." لم أكن متوترة ..ربما لأن نبيل كان يحدثني بأسلوب اعتيادي ..ودود .. ولم أشعر بأني غير مرتاحة معه .

سمعتة يسألني برقة: " لديك شقيقات ؟".

نفيت بهزة رأسي : " أنا وحيدة أهلي " .

ابتسم : " وأنا كذلك " .

أردت أن يستمر الحديث بشكل طبيعي فقلت: " ومنال أيضا .." :

قطب جبينه للحظة ثم فتح الباب فجأة ودخلت علينا منال كالعاصفة و قد سمعت اسمها في الحال: " ما بها منال ؟" وتأوهت جالسة وأردفت قائلة : " حشوات الجذور دمار جسدي للطبيب ..إن المرضى ما يزالون يتوافدون حتى الآن !".

قمت من مكاني: " ابقِ هنا .. سأذهب أنا بدلا عنك " .

شكرتني بسرور بينما وجدتها فرصة عظيمة للهرب مما كان يقوله نبيل ..

كنت جبانة تماما ..حتى أنني أرسلت لمنال رسالة ما إن خرجت (شكرا لقدومك ..إياك أن تغليها وتتركينا بمفردنا) أرسلت لي بصراحة (ماذا كان يفعل المعتوه؟) .

أجبتها برسالة مختصرة (يريد التعرف .. حقا ..ماذا يظن ؟..أننا جننا من مدن بعيدة لنتعارف !).

أرسلت تقول (معتوه) .

ضحكت على كلمتها وأنا في طريقي إلى حشوات الجذور ..منال صريحة في كرهها لنبييل وأشعر بأنه يتحملها إكراما لي فقط .

بعد أن أنهينا العمل في الثانية عشرة عدت إلى وحدة الجراحة ورأيت نبييل بمفرده وكان ولحسن الحظ يتكلم في الهاتف، لا أثر لمنال هناك ..أترأه أغتالها ورمى جثتها من النافذة ؟! ما كان علي تركهما ..فنبييل ومنال ..نار وبارود !.

لم أتقوه بكلمة ..خلعت صدريتي لأعلقها على المشجب في الوحدة ولكنني شعرت بنظراته الكاسحة، وندمت لأنني ارتديت الطقم الفيروزي ...

أغلق نبييل هاتفه للتو فسمعته يقول لي: " هل بدأ الاحتفال ؟"

التفتت مرغمة : " سيحصل، لقد أخذ أحمد موافقة الإدارة لساعة فقط، أتمنى أن لا يتوافد المراجعون أثناءها " .

تحرك نبييل من مكانه وأخذ يخلع صدريته بدوره: " حسنا .. ذلك مستحيل، ولكن المهم أننا أنهينا عملنا مبكرا " .

"أين منال إذن ؟"

أجابني: " خرجت من بعدك .." ثم توقف ليضيف: " إنها لا تنفك وتجادلني بشأن تنظيف الأدوات ..أنظري الآن، لست معنيا بتعقيم الأدوات التي استخدمتها " .

وكان محقا ..فأدوات القلع مرمية بفوضى على القاعدة المتحركة لجهاز الأسنان، تغيرت معالم وجهي : "لابد وأنها حالة صعبة ها؟".

تأفف نبيل : " جءا، ومنال حالتها أصعب ..لقد رفضت كل محاولاتى لمساعدتها ".

ابتسمت وتوجهت نحو الجهاز لأرتدى القفاز وهممت برفع الأدوات فدفع نبيل القاعدة المتحركة بعيدا عني وهو يقول معترضا: "إياك..دعيها، سنتلفين ملابسك ".

قلت وأنا أعيد القاعدة لمكانها: "لا بأس ..لا مانع لدي، نحن نتعاون فيما بيننا ".

نظر إلي ضاحكا بشك: " أظننني إني لست متعاوننا مع منال؟.. عليك أن تعلمي بأني أبذل جهدي ولكنها ترفض باستمرار ".

قلت بابتسامة خفية : "إنها هكذا ..ولكنها تملك قلبا طيب ".

سمعته يقول وهو يلبس قفاز: " أنت من قلبها طيب ..هات عنك " ورفع معي الأدوات وقال يتابع دون أن ينتبه للاحمرار الذي لابد وقد غلف وجهي : " لو اتسخت ملابسك فلن ترحمني نرجس .." وألقى علي نظرة سريعة وتابع هامسا: " لابد وأنتك اعتنيت بنفسك لأجلها " وابتعد نحو المغسلة فشعرت بقلبي يقفز اعتراضا على كلماته تلك ..كان يشير إلى ملابسى والحمد لله أنه لم يجد في الأمر مبالغة ..لو كنت أملك ثقة عالية بالنفس لارتحت تماما.

أنهينا غسل الأدوات ووضعناها في فرن التعقيم وقال لي نبيل بعدها: " لا تخبريها أنني ساعدتك ... اتفقنا ؟".

أومأت مبتسمة فرد لي الابتسامة و سألني عن سيارة الخط التي تقلنا
للحلة أنا ومنال وإن كنا مرتاحين فيها فأجبتنه بأننا كذلك وقال بعدها:
"اسمعي... لو واجهتما مشكلة في المستقبل- لم لا تخزين رقمي
عندك ؟".

أين أنت يا منال ؟.

شعرت بالارتباك ..ازدردت ريقي وأجبتنه بكل أدب : " لا أعتقد أننا
سنواجه مشاكل، السائق جيد و سياقته مريحة ..".

قال لي: " أهذا يعني أنك ترفضين الاحتفاظ برقمي ؟".

فتحت فمي لأقول : "كلا ..أقصد ..أنا لست أعرف ..".

تقدم نحوي وطلب هاتفي فشعرت بجرائته ووجدت شخصيته واثقة و
مسيطرة.. ناولته الهاتف بفتور داخلي ..لا يجب علي أن أرفض ..كي لا
يظن بأنني أشك في شيء ..أخذ يسجل رقمه في هاتفي وقال لي : " فاتن..
انه مجرد رقم هاتف ..".

قلت له بارتباك : "أنا أعرف ..ولكني ..". قاطعني بهدوء: " لقد
أخبرتكم بأنني أحب أن أتعرف بك "

: "لأجل ماذا ؟".

التقت نظراتنا .. شعرت بقلبي يطرق بقوة ..والعرق ينضح من يدي
المعقودة مع بعض..قرأت في عيني نبيل كل الأشياء التي زادت من
حيرتي ..

أجابني بعد مضي وقت تأمل فيه وجهي وعيني الحائرتين : "لماذا برأيك ..ربما تعرفين بأني رجل صريح يا فاتن.. قد لا أتصف بالتسرع كما فعل أحمد ..أنا أحب التريث ..أحب أن أتعرف بك لأنني أتمنى ولأسباب عديدة أن تكوني المرأة المناسبة لي " .

شعرت بامتناع وجهي ..لم أستطع التفوه بكلمة ..ناولني الهاتف بهدوء وخرج من العيادة تاركاً إياي ..كدت أنهار ..جلست على أقرب كرسي أطلق أنفاساً سريعة ..أحاول التفكير بأي شيء غير جملة الأخيرة تلك.. شعرت بأن نبيل هذه المرة ..قد وضع النقاط على الحروف .

الفصل الثاني عشر

شروء

بدأ الاحتفال بكل بساطة، تجمعنا حول المخطوبين .. شغلنا أغاني رومانسية خافتة وقطعت الكيكة ووزعت المشروبات بين الأطباء.. بعضهم أخذ يتمنى السعادة لهما والبعض الآخر مازحوا أحمد وأخبروه بأنه أصبح متورطا رسميا .. خاصة المرتبطين منهم ...!

وبعيدا عن الاحتفال .. عشت في عالم لوحدي وقد مرت الدقائق كما لو أن الوقت توقف تماما، كنت بحاجة للعودة إلى الدار، المتنفس الوحيد لدي في تلك اللحظة، كل ما أوحى لي به عقلي العديم التجربة هو الهرب بعيدا عن نظرات نبيل المختلصة إلي، أشعر بها وكأنني أراه متجردا .. لا فواصل بيننا .. لا حدود .. لم أظن أن مصارحته لي قد تشعل في داخلي حرب مستعرة .. وشعورا مرعبا لا أعرف كيف أوصفه، بقيت ساكنة في مكاني، تساورني أفكار المحمومة فيما ارتسمت على وجهي ابتسامة جامدة لأجل نرجس وتلك اللحظة حيث تطلعت إلي من بين غمامة اهتمام أحمد بها .. أتراها ستفهمني وهي في أوج لحظات السعادة؟! ..

بعد ذلك وكأن الهاتف الملقى في جيب صدريتي أنقذني من حالتي العصبية تماما .. كنت سأسر لأية مكالمة حتى وإن كانت من سرمد ..

عجزت عن إيجاد كلمة لوصف سرمد الذي سعدت برسالاته التي أخبرني فيها بأنه سيخفني هذه الفترة .. إلى أين سيذهب يا ترى ..؟

خرجت من عيادة الحشوات بخطوات عجلى وتفحصت جهازي لأجدها
مكالمة من خالتي نجاح، استبد بي القلق فجأة: رسالة سرمد الغريبة ثم
اتصال خالتي بي، سارعت لفتح المكالمة وقد اختض قلبي بقلق:

" مرحبا خالتي .. "

سارعت خالتي لتقول: " فتونة، كيف حالك حبيبتي؟ ... أرجو أنني لا
أعطلك عن عمك "

" كلا خالتي، هل هناك شيء؟ "

رد علي صوتها البشوش: " لا يا عمري .. اتصلت لأسألك إن كنت
تحبين المجيء إلينا اليوم، خالك سعاد اقترحت أن تقضي الليلة معها،
فالشباب غير موجودين اليوم "

شعرت بقلبي يخفق عاليا: " لماذا؟ .. إلى أين سيذهبون؟ "

أجابتنى خالتي: " آه كما تعلمين، سرمد مشغول في الجمعية وقد سافر
إلى بغداد قبل ساعة وقيصر سيقضي ليلته عند أصحابه "

سألتها: " حقا .. وعلاء؟ " ضحكت: " وما شأنك به؟ .. علاء كما
تعرفين ينام عند العاشرة مساءا ولن تشعري بوجوده قط "

منذ متى وبيت جدي يحتسبون لوجودي بينهم حسابا؟

أكل ذلك لأنني فضلت الدار عليهم .. ولأنني من وضع أول الحواجز بيني
وبين أولاد خالتي؟ سمعت خالتي تتابع: " ها ما رأيك هل تحبين قضاء
الليلة مع العجائز؟ ، ستسعد جدتك لو حضرت "

استنكرت في الحال : " خالتي .. لا تقولي ذلك ، سأسعد حقا بالمجيء .. متى علي أن أحضر ؟ " .

امتلى صوت خالتي بالفرح : " أسعدتني جدا فتونة .. ما رأيك أن يمر عليك علاء وقت العصر ؟ .. " .

شعرت في تلك اللحظة بأن هذه فرصتي للهرب من أفكار المتعلقة بنبيل وصوته الذي ما يزال يرن في أذني .. وأيضا سأستغل فرصة سفر سرمد وغيابه المؤقت عن حياتي المتأزمة .

أجبتها بأني سأكون بانتظار علاء في تمام السادسة .. ثم أنهيت الاتصال . حينما استدرت لأعود إلى الوحدة فتح الباب فجأة وخرج نبيل .. فسارعت لأدخل ولكنه أشار إلي أن أتبعه .. كنت أعرف بأنه يود التكلم معي نظرا لأنه لم يتوقف عن النظر إلي طوال الاحتفال .. ازدردت ريقى وتبعته نحو الممشى الخارجي وكان هذا أفضل نظرا لأن الكل منشغل بالحفلة ولا أعتقد أنهم سينتبهون لخروجنا .

كنت أتصرف بكياسة تامة مع نبيل .. كأن لا شيء يدور بيننا ولكن كأنني أخدع نفسي ، فهو كان واقفا بكل ثقة في الخارج ينتظر مجيئي إليه ، كسوت وجهي بتعابير جامدة ولحقت به .

بادرني بالقول : " لماذا خرجت من الوحدة ؟ " .

شعرت بالذهول : " أستمحك عذرا ! " .

وضع نبيل يده في جيب بنطلونه وأجابني بهدوء : " فأتني .. الحق يقال .. ربما فاجأتك بكلامي قبل ساعة .. ولكنني ارتأيت أن أمهد لك الأمر حتى لا تشعري بالصدمة " .

لم أستطع قول شيء، شعرت بانحسار الدم من عروقي .. هذا كثير علي في يوم واحد أنا التي تعودت على أيام فاتن المملة .. كيف لذلك أن ينقلب بكل بساطة ؟. أخفضت بصري إلى الأسفل وتعمدت أن أبقى صامتة حتى ينهي حديثه.

" أنا أدرك بأنني ربما استعجلت .. ولكن الوقت يمضي هنا بسرعة، مرت أشهر على تعارفنا وأنا لا أزال أتحين الفرصة للحديث معك " .

خرج صوتي متعثرا: " أنا .. لست مستعدة .. " .

قاطعني بعجل : " أعرف .. أنا أدرك هذا الآن .. لقد راقبتك خلال الساعة الماضية وعرفت بأنني ربما استعجلت بقول كلامي .. أنا لا أريدك أن تتهربي مني .. اسمعي ... " .

وتحرك ليصبح أمامي وأخرج يديه ليعقدهما على صدره: " ما رأيك أن نكون مجرد أصدقاء ؟ .. أنا أراقبك ولاحظت بأنك تتعاملين بحذر معي فيما تتصرفين بأريحية مع البقية " .

كلمة مراقبته لي جعلتني أشعر بخجل شديد ولكني حاولت أن أقبع ساكنة .. أن لا أحرك أي من تعابير وجهي .. وليفهم هو ما يريد .

خفت صوته : " أنت منزعجة مني .. " . لم أقل شيئا .. فشعرت به يتنهد و أخذ يقول : " هلا نبدأ من البداية .. ؟ .. صفحة بيضاء لا شائبة فيها " .

في النهاية وجدت صوتي يقول : " حصل خير " .

إن كان الخير قد جلب لي كل هذا التوتر .. فإنه خير مشكوك به .

استأذنته قبل أن يقول شيء آخر يصدمني به وعدت إلى الاحتفال وأنا أطلق أنفاسا مكبوتة ومشاعر بت غير قادرة على السيطرة عليها.

وتماما كما توقعت ..بيت جدي الخالي من سرمد أصبح الملاذ الآمن لي..بعد لقائي المتوتر مع نبيل حاولت إقصاء كلماته عن ذهني، لدي الكثير من الوقت لأفكر في كل كلامه ..لأتحدث به مع منال ونرجس، وعند حلول وقت العصر المطيب للنفس حاولت تجاهل ما حصل ..وقد وافاني علاء في السادسة تماما، ودعت زميلاتي النائمت بعد تعبهن من يوم فائض بالعمل تلاه الاحتفال، وحضرت ملابس للمبيت وأيضا ملابس عملي لليوم التالي، سررت لأنني ولأول مرة بعد توظيفي في الديوانية سأعود لأبيت عند بيت جدي ..وكان ذلك كل ما أحتاجه.

علاء هو الآخر بدا منشغلا في أفكاره الخاصة وعالمه الانعزالي الذي يثير فضولي أكثر الأحيان ..هو انعزالي جدا ولكنه في الحقيقة واضح وضوح الشمس ..ليس من النوع الذي يخفي أسراراً ..ولا أراه رجلاً إتكالياً ..بل هو رجل مسؤول عن نفسه وعائلته، كنت أفكر في تلك اللحظة أن المرأة التي سترتبط به محظوظة فلست أراه من النوع المترمت الذي يفرض شخصيته ورجولته على امرأته ..أو هذا ما تخيلته وأنا ألقى عليه نظرة بين الفينة والأخرى ..

وبعد دقائق من خروجنا من الدار شعرت به يتحنح وكأنه يحاول تجميع أفكاره ..بعدها سألني كعادته عن أحوالي وحياتي الاجتماعية ودوامي وعملي ..وكنتم أجباه براحة تامة وهذه عادتي مع علاء ..لا حواجز في الكلام معه ..لا توتر أو ارتباك ولا مزاح من أي نوع ..فهو يختلف تماما عن سرمد الحاد الطبع وقصير المرح بطبعه ..كان يترك لي

المجال للتحدث بكل ثقة ويصغي إلي بكل اهتمام واحترام .. غير أنني شعرت بأنه غير مرتاح هذه المرة .. أتراني لست بوضعي الطبيعي فاتخيل أن الجميع على غير ما يرام ؟.

لقد شعرت بأنه جعلني أتحدث حتى يستطيع تجميع أفكاره، وبعد فترة صمت قصيرة أخذ يقول : " فائن ، هل لي أن أسألك شيئاً ؟ " .

تولاني التوتر .. وشيء من الانقباض مس قلبي : " أجل .. تفضل علاء " . تنهد ليقول بعدها : " هل تحدث معك سرمد خلال هذه الأيام ؟ " .

تشابكت أفكارني : " عن أي شيء ؟ " والتفتت لأراه مقطب الجبين .. كان منزعاً .. أو ربما هو قلق ..

قال : " أنا أعني إن اتصل بك ؟ " .

ازدردت ريقني : " كلا، لم يتصل ولكنه أرسل لي رسالة بعد الظهر " .

رأيت القلق واضحاً في عينيه : " هل لك أن تريني إياها ؟ " .

أخرجت هاتفي في الحال وأنا اشعر بقلبي يخفق عالياً، فتحت الرسالة دون أن أهتم تماماً لما كتبه سرمد ولكن حين تطلع علاء بالرسالة باهتمام شعرت بالحرص قليلاً .. فقد بدت رسالة سرمد وكأنها شخصية بحتة، خاصة وهو يكتب لي انتبهي لنفسك هذه الفترة .

تمنيت أن لا يقرأ بين السطور، وسمعته يسألني بقلق : " هل لديك هذا الرقم له فقط ؟ " .

أومأت فسألني : " هل لك أن تتصلي به ؟ " .

" علاء .. هل حصل شيء ؟ .. " قلقت إلى درجة إن يدي أخذتا ترتجفان وأنا أتناول هاتفي منه. وسمعتة يجيبني بعناية: " أتمنى أن لا يكون شيئاً خطراً يا فاتن .. ولكن مكالمة واحدة بينكما قد تنهي شكوكي " .

ازدردت ريفي مرة ثانية وسارعت لأقول بارتباك: " سأتصل " .

وما إن ضغطت زر الاتصال حتى سارع علاء ليقول: " اسمعي لا تقولي له أنك معي .. اتصلي به وكأنك تريدين منه خدمة .. أو ربما تسألين عن حاله " .

من المستحيل أن يكون اتصالي بسرمد بكل هذه الطبيعية ولكني أدركت بأن علاء لا يعرف شيئاً عن وضعي المتأزم مع شقيقه، استجمعت شجاعتي واتصلت به ولكن ولد هستي الشديدة كان الرقم مغلقاً وحينما أخبرت علاء بذلك تغضن جبينه وبدا غاضباً فسألته بهدوء : " هل لك أن تخبرني ماذا يحصل .. سرمد في بغداد كما أخبرتني الخالة نجاح " .

تمتم يقول بعد ثواني: " أنا أخبرتهم بذلك " .

كدت أشهق ولكنه تابع يقول بحذر: " اسمعي أنا أخبرك بهذا لأنني أعرف أنك فتاة عاقلة ولا يمكن أن توصلني شيء للبيت " .

سألته وأنا ارتجف: " هل سرمد بخير ؟ " .

أجابني وهو يضغط على مقود السيارة: " ما دام قد أرسل لك هذه الرسالة فهذا يعني أنه بخير " وتابع يقول دون أن ينظر إلي: " هو في الحقيقة مختلف منذ أسبوع، المنزل متعود على أيامه التي يغيب بها .. فبعض الليالي يقضيها في الجمعية وأخرى يسافر فيها إلى بغداد ولكن في الآونة الأخيرة قل نشاطه في الجمعية تماماً " .

سألته: " وكيف تعلم ذلك ؟".

أجابني وعيناه تلمعان : " صديقه وشريكه في الجمعية رافد أخبرني بذلك منذ ما يقل عن الأسبوعين ولكني ظننت أن الأمر عابر .. غير أن الشكوك راودتني لكثرة غيابه عن المنزل .. هو عادة يتصل بنا حين يسافر .. لكن هذه المرة لم أتلق اتصال منه منذ أربعة أيام " . وأخذ نفسا عميقا: " كل أرقامه لدي مغلفة تماما .. تأملت أن يكون قد اتصل بك .. هو لا ينفك يغير أرقامه ولكنه أخبرني بأنه سيحتفظ بالرقم الذي خصصه لك " .

الرقم المخصص لي ؟!

اكتسحني الذهول تماما: " ماذا تقول علاء .. أترأه قد تعرض لأذى ما ؟".

هز رأسه نافيا : " كلا، أنا أشك في ذلك .. ربما هو متورط في قضية ما، اسمعي قد يكون الأمر عابرا ولكن إن حاول الاتصال بك أو إرسال أي رسالة أبلغيني، أنا لدي معارفي أيضا وخلال يومين سأستطيع تحديد مكانه، ا بقي متيقظة فقط " .

" وإن اتصل بي .. أو حصل العكس ؟".

التفت علاء إلي .. برقت عيونه تماما : " أخبريه بأنك تحتاجيه في أمر ما، قومي باختراع أي كذبة كي تجبريه على العودة " .

هزرت رأسي: " أمتأكد من أن سرمد سيفعل ذلك بكل سهولة ؟".

توقف علاء عن القيادة بعد أن وصلنا إلى بيت جدي وأخذ يجيبني وهو يشدد على كلماته: " صدقيني فانتن ..سرمد سيهرع لأجلك لو شعر بأنك في خطر ما ".

نزل من السيارة فيما قبعت في مكاني تماما ..كنت متأكدة من شيء واحد بعد كل تلك السنوات لي مع سرمد ..لم أكن الشيء الأكثر أهمية له بتاتا .. فلماذا يتصور علاء العكس يا ترى ؟.

الفصل الثالث عشر

استبعاد

لم أكن يوما مخالفة لقوانين الطبيعة، كنت منظمة جدا .. انطوائية بعض الشيء ولكني اتبعت نهجا واحد .. لا أحب الالتفاف حول الأمور .. ولكن منذ ذلك اليوم العجيب شعرت بأن حياتي أخذت تسير في درب لم أكن آلفه .. من اعتراف نبيل المباغت إلى اختفاء سرمد الغامض .. إلى شكوك علاء وقلقه بشأن ذلك.

هل من الممكن أن نصبح أنا ونبيل أصدقاء؟..كنت أعجن الفكرة في بالي ولكني لم أرتح لمعنى تلك الكلمة ..نحن من بيئتين مختلفتين ..بل لا أرانا نتشابه ..أو ربما لأنني لم أترك له المجال كي نتعرف جيدا ..في الأيام التي تلت، قمت بتجنبه بالرغم من صعوبة الأمر ..فنحن معا في الوحدة ..نتشارك العمل بشكل متناسق، وحدها منال تشد عنا ..كنت أتمنى لو أملك طبعها الحاد ..وأتعامل مع نبيل بتلك الطريقة الفظة، ولكني كنت هادئة ..أفكر كم من الوقت أحتاجه حتى أعتبر نبيل صديقا لي؟..وكان الجواب في الأسابيع التالية ..مضى علينا شهران في الوحدة..أنهيت دورتي في الجراحة وتخرجت منها بكفاءة وكنت ملتزمة في قوانين الوحدة والعمل حتى ساعة متأخرة ..غياب سرمد أراحني بعض الشيء ولكني شعرت بأن غيابه المؤقت كان يعني بأنه يمر بأزمة ما، لقد أرسل لي علاء بعد ثلاثة أيام من حديثنا يقول بأنه توصل إلى مكان سرمد وبأنه بخير وهو مشغول بمشاكل الجمعية فقط ..ولكني لم أرتح لرسالته لأن هاتفه استمر مغلقا. اتصلت به لعدة أيام ثم كففت عن

المحاولة، فسرمد أين ما يكن فهو لا يريد لأحد أن يصل إليه ..ولابد أنه يملك الأسباب لذلك.

رغم الجو الصيفي الحارق إلا أن ذلك لم يمنعنا نحن البنات من الخروج إلى الأسواق والمطاعم ، وقد تكررت زياراتنا لمطعم الأرض الخضراء لأكثر من مرة حتى تعود رواد المطعم علينا ولم يعودوا يرمقوننا بنظرات ذات مغزى من تجمعنا نحن البنات والشباب سوية، وقد عززت هذه الزيارات إلى المطعم من علاقة نبيل بنا ..وكان يريحني بأنه لا يحصر اهتمامه بي كما كان يفعل في السابق، بدا أنه يبذل جهده ليجعلني آلفه كزميل ودود فقط، ولكنه وفي بعض الأحيان ينظر إلي نظرات مختلطة سريعة، عادة ما تنتبه لها منال، أراها تتحرك بعدم راحة على الكرسي وهي تقول بتبرم : " ها قد بدأنا " .

فأغض النظر وفي داخلي أشعر بتوتر لا حدود له ..ولكن متى بدأ نبيل يتدخل في حياتي ..بعد أن قلت زمام الأمر ..ربما منذ أن باع سيارته الخاصة وأخذ يأتي معنا في الخط ..ومن هناك يعود إلى كربلاء ..وبدت رففته لنا دائمة، من نزولنا المعتاد كل أسبوع معه إلى مجيئنا معه يوم الأحد، وقد حدث أن أخذت إجازة اعتيادية ليومين فأرسل لي رسالة مساء الاثنين قال لي فيها (أتحبين أن أتصل بالسائق كي يمر عليك غدا ؟).

أرسلت له بإيجاز (كلا، شكرا سأتي بمفردي).

فوصلني رسالة منه تقول (سأنتظرك عند الاستدارة إذن).

انتقيت كلماتي بعناية (أشكرك، ابن خالتي سيلاقيني).

فعاد يسأل (من .. سرمد ؟).

تمنيت لو أتجراً وأوهمه بأنه سرمد ولكني اكتفيت بأن قلت (علاء).

ثم ذهلت حينما أخذ هاتفني يرن، كان الاسم سرمد هو ما خطف لوني وجهي وجعلني أقفز واقفة، أسرعت لأغلق باب غرفتي وتلقيت المكالمات وأنا ألهث من فرط انفعالي...

" سرمد !! " .

لم أستطع أن أخفي لهفتي الشديدة لسماع صوته، فرد علي الصوت الكسول : " مرحبا يا وردة " هو ليس بخير فقط بل إنه سماني الوردة ..!

أخذت أدور في الغرفة كالمحمومة : " مرحبا بك ..كيف حالك ..أين أنت ؟ " .

سمعت ضحكته الماكرة وشعرت بالانتعاش، لا يهمني مقدار تسلطه علي ..المهم أنه بخير، رد علي يقول: " أنا في طريقي إلى البيت، هل أمر عليك في الدار ؟ " .

شعرت بخيبة أمل لأنني لست في الدار ..كنت أشعر بطاقة إيجابية وأنا أستمع لصوته الضاحك المرتاح : " كلا، أنا في إجازة ..سأنزل غدا بإذن الله " .

" جيد، إن لم يكن هناك أحد ليستقبلك سأتيك أنا " .

لم أستطع إيقاف دقات قلبي عن الارتعاش : " لقد أرسلت لعلاء رسالة "

شعرت به يأخذ نفسا عميقا، وكأنه يملأ رئتيه بهواء حر : " لا بأس إذن سأنتظرك عند الاستدارة كالمعتاد ..في أية ساعة تصلين ؟ " .

استطعت أن اجلس في النهاية: " عند الثامنة " .

سمعتة يقول بلهجة غريبة: " لقد وصلتني مكالماتك الهاتفية ..لماذا كنت تتصلين؟"

سألته بقلق : " لماذا كان جهازك مغلقا؟ لقد قلقتنا عليك " .

غدا صوته ينضح بالرضا : " أشعر بأنك تدلليني للمرة الأولى .. كم مرة قلقت علي؟ " .

أجبتة مأكرة : "مرتان " .

رد ضاحكا : " بخيلة " .

ضمنت هاتفي إلى أذني أنصت إلى صوته السعيد ..كانت تلك المكالمة غريبة علي، شعرت بأني أحدث سرمد آخر ..ليس بالتأكيد اللفظ الساخر الذي أعرفه وكنت مسرورة لأنني أتحدث بأريحية معه ..ربما لأنني اطمأننت بأنه بخير مما جعلني أترك الحذر جانبا وحينما ودعني قائلا بأنه سيتصل بعلاء ليطمئنه أدركت حينها أنه لم يخبرني أين كان ..ولم كانت أجهزته مغلقة ...

في اليوم التالي وصلت في مواعي المعتاد إلى التقاطع، مددت بصري أبحث عن سرمد ولكنه لم يصل إلا بعد بضع دقائق، رأيت سيارة علاء من بعيد يقودها سرمد وشعرت بالراحة، فلم أكن أحب الانتظار لوحدي... وحينما توقفت السيارة عندي أسرعت لأضع حقيبة سفري في المقعد الخلفي ثم صعدت إلى المقعد الأمامي والتفتت أسلم على سرمد

فألفيته ينظر إلي متأملا مظهري وشعرت بشيء من البرود...إلهي دعه
لا يعلق على ملابسني أو يتحول إلى سرمد الفظ من جديد !!
" أهلا دكتورة ..تأخرت عليك؟".

أجبتة بحذر: " كلا ..كيف الحال ؟".

هز كتفه ..بدت عيناه تنضحان بالنعاس ..تابعت اسأله: " استيقظت
متأخرا ؟".

تحرك بالسيارة: " نعم ..حينما قمت من فراشي قبل عشر دقائق أخذت
أفكر، كم كنت أحمق حينما أقترحت توصيلك بنفسني !".
شهقت بذهول: " ماذا ؟!".

لاحت ابتسامة ساخرة على شفتيه: " النوم يا وردة ..أنا محروم منه منذ
زمن " ثم ألقى علي نظرة متأملة سريعة وكم من التهمك الهائل يلمع في
عينيه: " تبدين منعشة للعينين ..إنني أحسك على صحتك التامة "
صحت مستنكرة: " أتعرف أنني استيقظت منذ الساعة الخامسة فجرا !".

هز كتفه: " وإن يكن ..لابد وإنك نمت منذ التاسعة مساء " .

التفتت إليه ساخطة: " كلا، سهرت حتى الواحدة صباحا " .

" أف ..أف ..أف ..لماذا يا وردة ؟..ما سبب أرقك؟ "

نظرت إلى النافذة: " أنا معتادة على النوم في هذا الوقت ..ولكن شكرا
على تعبك، كان عليك أن تدع علاء يأتيني " .

تثأب بصوت مسموع: " علاء خرج مسرعا للدوام ..".

في تلك اللحظة خطر على بالي نبيل .. كان علي أن أدعه يوصلني .. مع إنه يستحيل أن أقبل بذلك، لم ألقى نظرة على سرمد ولكني سمعته يسألني: " إذن ماذا فعلت في غيابي ؟ " .

" نلت حريتي ! " . خرجت جملتي قبل أن يوقفها لساني الأحمق .. كنت فظة تماما ولكن ولدهشتي أخذ هو يضحك .. تلك الضحكة الملتاعة التي أكرهها ..

" أيتها العفريتة الصغيرة .. لا أراك تكذبين في ذلك " .

ابتسمت بظرف: " تعلمت منك الصراحة " .

" ولكن على ما يبدو... تمردت كثيرا .. كم مرة خرجت مع صديقاتك ؟ " .

كذبت: " مرة واحدة " .

" ومع زملائك ؟ " .

" مرة واحدة " .

ابتسم بتهكم: " إذن فأنت تكذبين بجدارة .. المجموع مرتان مع صديقاتك .. ! " .

كان سرمد داهية .. كيف لي أن أنسى ذلك ؟ .

تحركت بعدم راحة وأنا اسمعه يسألني: " وكيف أنت في المركز ؟ " .

أجبت بفتور: " أعمل دون توقف .. ماذا عنك أنت ؟ .. لم تخبرني أين كنت مختفيا ؟ " .

أجابني دون أن يرف جفنه: " في مكان ما ..أتحبين أن تعرفي حقا ؟"
والتفت يرمقتي بنظره الحاد ..شيء في عينيه إلتمع ..وكأنه تحد ما
..التقت نظرانا وأجبتة: " أجل أحب أن أعرف "

لم يجبني للحظة ..تابع القيادة بسلاسة وهو يقول: " عليك أن تنفذي
شرطا ما لأخبرك "

تأوهت متبرمة: " آه لا بد وأنها شروط تعجيزية ..اسمع .." والتفتت إليه
بجسدي: " رقمك مخزون عندي ..لن أغير رقمي مهما حصل، لا
أتصرف بحرية دون أن أستشيرك ..ماذا بعد ؟"

وقبل أن يقول صحت بانتصار: " آه لا أنقطع عن بيت جدي ..لا بد و أن
يكون هذا هو شرطك "

ألقي علي نظرة متأملة وكأنه يتفحصني لأول مرة، ينظر إلى وجهي
المعلن للتحدي ..وابتسم ..ابتسامة نادرة تماما ..: " إنها أمور أساسية يا
وردة ..الشروط تختلف "

أخذت أتأمل وجهه كي أفهم ما يقصده ثم فشلت: " حسنا ..هات
شرطك ..أنا مستعدة تماما لتنفيذه "

رفع حاجبه بمرح : " يا للروح الرياضية العالية ..أنت فعلا منتعشة هذا
الصباح "

ابتسمت غير مصدقة ..كنت أتصرف مع سرمد وكأنني إنسانة أخرى،
لست هادئة أو انطوائية ..أنا فتاة أخرى تماما .

تحرك ليقول : " هل أوصلك إلى المركز ؟ " أومأت له قائلة: " أجل .. قد أتأخر لو عدت إلى الدار ، البصمة الإلكترونية تغلق عند الثامنة والنصف "

وكنا وصلنا تقريبا إلى الشارع الرئيسي المؤدي إلى المركز فعاجلته قائلة بإلحاح: " هيا أخبرني بشرطك .. "

لوى شفتيه قائلا: " أخشى أنك ستصابين بصدمة لو أخبرتك إياه .. " التفت إلي ليلقي علي نظرة سريعة وكأنه يقرأ ردة فعلي: " حسنا .. استعدي .. "

أخذت نفسا عميقا وتحضرت لسماع الأسوأ : " ما رأيك لو تطبخين لنا طعام العشاء ؟ " والتفت نحوي ينظر ببراءة كلية، وابتسامة ساخرة تلوح على شفتيه بينما حدثت به ذاهلة: " أنت تمزح ..! " .

اتسعت ابتسامته: " اعتبريه تحدي اليوم .. ما رأيك ؟ "

بسطت يدي: " أنا لست فاشلة تماما في الطبخ، أنا فقط معتادة على الطعام الجاهز "

" إذن دعينا نختبر مهاراتك، في المكان الذي كنت فيه اشتهيت مختلف الأصناف من الطعام ثم فكرت بأنني لم أذق طبخ يديك قط "...كانت نبرته مغايرة عن سرمد الذي أعرفه ..لقد حصل تغيير جذري على الإنسان المتسلط الذي لا يعرف الرحمة معي، التفتت إليه وكررت كلامه مستفسرة : " المكان الذي كنت فيه ؟ ..أي مكان تقصد ؟ "

ضاح سؤالي أثناء توقف السيارة عند باب المركز، ألقى علينا شرطي الاستعلامات نظرة سريعة يتأكد بها من هويتي ثم سمح لسرمد بالدخول إلى الموقف الخاص بالمركز.

شعرت بالتوجس من نظرة سرمد التي تحولت إلى جمود تام ..حتى وهو يقود بسلاسة كنت أشعر بموجات حادة آتية من داخله ..سألته بحذر: "سرمد ؟"

لم يلتفت إلي وهو يوقف السيارة قرب وحدة الذاتية بل قال: " لم توافقي بعد على شرطي "

كدت أزفر بحنق، لم أكن أفهم شيئاً ..تهياً لي إن سرمد يلعب معي لعبة ما ، لن ينتج منها إلا سقوطي في فخ من التهكم والسخرية اللاذعة.

حررت جواب في الحال: " متى ترغب ؟"

التفت نحوي وهو يخرج سيجارة من جيبه: " ما رأيك الليلة ؟..أنا حالياً في مزاج ملائم لتحمل كل مساوئك في الطبخ .."

قاطعته محتدة: " ليست مساوئ ..أخبرتكَ .."

قاطعني وقد لفت انتباهه شيء ما: " أتساءل عن سبب وقوفه هناك ينظر إلينا بفضاظة ؟!"

ابتدأت أقول بحيرة: " من ..أوه .." خرج تأوهي دون أن أنتبه، وحينما التفت سرمد إلي محتدا شعرت بالاحمرار يغلف منابت شعري ..فقبعت في مكاني وأشحت وجهي عن نظرات نبيل التي كانت تكتسح زجاج النافذة، تبث لنا رسائل غير محببة على الإطلاق.

لم أقل شيئا ..حتى وأنا أسمع سرمد يقول بصوته المتهكم: " كيف لك أن تتحملي وجوده ؟ لو لدينا نموذج منه في الجمعية لأغلقناها وشكرنا الجميع ..إنه ثقيل على المعدة "

لم يرفع سرمد يده لتحية نبيل على الرغم من وقوفه القريب منا في الموقف وهذا جعلني أصمت و لا أدافع عنه وأخبره بأنه إنسان محترم على الرغم من تصرفاته المزعجة بعض الأحيان.

أخذت نفسا عميقا وقلت: " حسنا سأنزل ..يمكنك أن تخبرني عن مكان اختفائك الليلة "

" لا تنس حقيبتك " أومأت له وأنا أخرج من السيارة، كنت أشعر بمراقبة نبيل ..فما معنى أن يقف لوحده وكأنه ينتظر قدومي؟ ..أتراه لا يدرك كم الإحراج الذي سيطالني بسببه ...

غضضت بصري عنه وأسرعت أنزل حقيبتني وما هي إلا دقائق وابتعد سرمد خارجا من المركز، أردت الدخول كي لا أستمع إلى صوته وهو يوقفني، ولكني ما إن تحركت خطوتين حتى شعرت به يسير إلى جانبي..أمرني دون أن يسلم علي حتى: " هات عنك " وأخذ مني الحقيبة عنوة ..رفعت بصري فرأيتَه جامد الملامح يكافح كي لا ينفجر غضبا ..فشعرت بالانزعاج يكتنفني .

" ماذا كنت تفعلين معه ؟"

رفعت بصري محتدة: " عفوا ..!"

خرج اسمه من فمه مشمئزا: " سرمد ..أليس هو من كان في السيارة معك؟ "

توقفت بغتة .. نظرت إليه ذاهلة فيما الغضب يسري في عروقي
كالهشيم: " إنه ابن خالتي .. ثم كيف تجرؤ على محاسبتي؟ "

توقف نبيل بدوره .. وجابهني بنظراته المحتدة العنيفة: " أنا أعرف أنه
ابن خالتك .. ولكنك أخبرتني بأن علاء من سيوصلك وليس هو "

رفعت رأسي محتدة: " وما الفرق إن كان علاء أو سرمد "

ضغط نبيل على أسنانه: " هناك فرق .. أنا لست أثق به، ابن خالتك هذا
سمعته تسبقه ! "

شعرت بالاحمرار يغلف وجهي .. ماذا يقصد ؟ .. " كيف تجرؤ ؟ "
خرجت كلماتي هامسة كالفحيح .. إنه فقط لا يقصد ما أظن أنه
يقصده .. !

ابتدأ يقول: " سرمد هذا إنسان متدن .. " قاطعته قبل أن يقول الكلمة:
" احترم حدودك يا نبيل .. أنا لن أسمح لك بالتعدي على سمعة أولاد
خالتي .. " قلتها وقلبي يموج بغضب كاسح .. لقد تجاوز نبيل حدوده هذه
المرة ولم أكن لأسكت عنه .. عليه أن يعرف بأنني لست فاتن الهادئة التي
يخدعها بمسألة الزمالة ليتقرب منها !

ثم دون أن أنتظر ثانية واحدة، أخذت حقيبتني منه وقلت بفضاضة: "
شكرا لست بحاجة لمساعدتك "

ودخلت المركز أجر حقيبتني وأنا أشعر بنيران الجحيم تلاحقني .

الفصل الرابع عشر

ماضي

كل كلمات نبيل المسيئة لسرمد لم تغب عن ذهني طوال اليوم، صدمتي بأرائه منعنتني من التواصل مع الآخرين فبقيت شاردة طوال النهار، أعمل بصمت في وحدة الحشوات التي انتقلت إليها بعد الجراحة .. لماذا وصفه بأنه إنسان متدن؟ ولماذا غضب حينما اكتشف أنه من قام بإيصالي وليس علاء؟ لقد شعرت مرة بأنه لا يكن المودة لسرمد .. ربما منذ اللقاء الأول .. وربما تكلم بحذر مشيرا عنه لمرة أو مرتين .. ولكن انفجاره بغضب وطريقة تصرفه وكأن سرمد قام بفعل شيء ما .. هل يتعلق الأمر باختفائه؟ .. تمنيت لو أنني لم اغضب كي أدعه يفسر لي سبب رأيه المشين به .. ولكن بعد عودتي للدار وتحضري للذهاب لبيت جدي خف الغضب في داخلي .. نبيل يعرف شيئا عن سرمد .. هذا ما استنتجته من كلامه .. وربما سأقدر على اكتشاف هذا بعد أن يفسر لي سرمد سبب اختفائه .. أما فكرة الشرط الذي وضعه وطريقة كلامه واعتباره بأنني فاشلة في الطبخ، فقد حفزني طوال ساعات الظهر فأخذت ابحث عن وصفات للعشاء .. تكون سهلة وفي ذات الوقت لذيذة .. واستمعت إلى اقتراح الفتيات .. ووقع اختياري على عمل طبق الزانيا باللحم والفلفل مع خضار مشكلة من الجرجير و الخس .. تسوقت المواد من المحل القريب من الدار وانتظرت مجيء سرمد عند الساعة السادسة .. وحينما جاء رحبت به بابتسامة غامضة متحدية .. أصبح سرمد الآن في أوج نشاطه .. ربما قضى ساعات الظهر في نوم عميق

لأنه ابتسم لي هازلا وهو يتطلع إلى الأكياس التي حملتها معي ووضعتها في المقعد الخلفي.

" أحسنت دكتورة .. لا بد وأنت ستطبقين معنا نظاما صحيا ممتازا " وفتح أحد الأكياس وهو يتابع راضيا: " الخس .. اختيار موفق " ونظر إلي بينما حاولت إبعاد الأكياس عنه: " هل تتوين تجويعي ؟ .. عليك أن تأخذي بالحسبان أنني أصرف طاقة كاملة أثناء اليوم لذلك احتاج لوجبات دسمة ! "

" أنت بحاجة لأن تغير من نظام غذائك يا سرمد .. أكل صحي .. تقليل السجائر، تفكير إيجابي " ونظرت إليه بتحدي . فضحك وقاد السيارة : " كلها أمور واردة .. إلا التفكير الايجابي .. العراقيون مجبولون على التفكير نحو الأسوأ "

" وهذا سبب الحروب والظلم طوال السنين الماضية .. إضافة إلى الحصار والتجويع ونقص الخدمات "

" ماذا أيضا يا وردة ؟ " قالها وهو يعدل المرأة وينظر إلى الشارع والسيارات المارة.

" الأمر بحاجة إلى توعية في كافة المجالات لينهض الشعب من الجهل المتسم به .. علينا أن نثقف الناس في ندوات .. ندربهم على التفكير الايجابي .. "

هزل قائلا: " حينما تجتمع كل تلك المساوئ في بلد واحد .. أتظنين أن الناس سيفهمون معنى التفكير الايجابي، الكل يركض وراء لقمة العيش .. الشعب بحاجة لأن يملئ بطنه حتى يفتح هذا .. " وأشار إلى دماغه.

" كلما أتخمت البطون .. زاد الكسل وانتشر الفساد والجشع .. " نظرت إليه : " إنها معادلة صعبة "

" أحسنت .. " وابتسم لي بصدق .. ولمعت عيناه بإعجاب : " سأفكر أن أصطحبك معي إلى واحدة من الندوات في الجمعية .. إننا بحاجة لكادر نسوي "

امتلأت غرورا .. دام ذلك لثواني حينما رأيت المكر الكاذب في عينيه .. من يصطحبني .. سرمد؟! .. ربما جننت فعلا ..

" أنت لست من أنصار المرأة يا سرمد .. "

" أوف .. أوف .. لماذا ؟ "

" لأنك تفكر بأن عملها الأساسي يقتصر على مهارتها في الطبخ .. " وأشرت إلى الأكياس ولدهشتي انفجر ضاحكا وقال : " أيتها المشاكسة .. إنها مناورة منك كي تهربي من مسؤوليتك والشرط الذي فرضته عليك .. أليس كذلك ؟ "

هزرت كتفي باسمه : " بل أنا سعيدة لأنني سأثبت لك مهارتي في الطبخ .. "

ابتسم لي وتراقص قلبي فرحا .. من كان ليتوقع أن غياب سرمد لشهر قد جعله أكثر ليونة معي .. يبتسم ويضحك ويدعني أتكلم براحتي .. ربما كنت احلم ... !

إثبات مهارتي في الطبخ لم تقف على رأي سرمد فقط .. بل على آراء بيت جدي بأجمعهم .. خالتي سعاد استهجن فكرة العشاء واعتبرته صحنًا بسيطًا يقدم كمقبلات بينما ضحكت خالتي نجاح وقالت لي بأن

اعتمد عليها فهي تعرف ما يفضلهُ سرمد ..وتركني هو ضاحكا بهزل عارفا بأنني سألاقي صعوبة في إقناع البقية بالطبق المقرر.

وأثناء العشاء كدت اقفز لأقبل قيصر الحبيب الذي استمتع بوجبه المميّزة من طبق اللزانيا باللحم ..شكرني بابتسامة عريضة: " فتونة الجميلة ..كيف عرفت أنها وجبتي المفضلة في المطاعم؟"

ندت صيحة استهجان من خالتي سعاد: " أأأكل مثل هذه الأشياء هناك؟ .. أتفضلها على طبخ يدي يا ملعون؟ "

انفجر قيصر بالضحك وشعرت بالحرج الكلي من توبيخ خالتي، اختلست النظر إلى علاء فوجدته يأكل بهدوء ورضا كلي ..بينما سرمد .. حسنا ..كان يأكل وعيناه اللامعة بمكر تنتظر إلى إحراجي..كان مستمتعا تماما بأراء خالاتي المستهجنة لطبقي الخاص ..جدتي وخالتي نجاح تناولن القليل منه وهذا أشعرنني بالإحباط وحينما غسلت يدي في المغسلة الخارجية تبعني سرمد في الباحة ليدخن ..قلت له بتحذير: " إياك أن تخبرني بأنني فشلت بالتحدي ..نفذت الشرط وعليك الباقي "

" سأأذكر في المرة القادمة أن لا أورط نفسي بشرط كهذا !" واثكأ على جدار المطبخ الخارجي ناظرا إلي بهزل فأكملت عملي وأغلقت مياه الصنبور: " لماذا تحبين استخدام هذه المغسلة؟"

تجمدت يدي أثناء تنشيفها .. لا أعرف حقا ..أنا أفضلها لأنها قديمة ربما ولم أتصور أن ينتبه سرمد لذلك .

" كنت استعملها منذ أن كنا نعيش هنا .." وطافت ذكرياتي عن طفلة صغيرة ناعمة ضعيفة البنية تجاهد لكي تثبت نفسها بين الذكور .

والتفتت إلى سرمد وأنا أبتسم قائلة: " إنها الوحيدة التي استطعت الوصول إليها ..بينما تلك في الداخل كانت عالية بالنسبة لي .. "

استمر يدخل : " اذكر بأنك تفضلها لأنك تحبين الخروج إلى الباحة والحديقة على الدوام، تستعملينها حجة لتهربني من خالتي "

لم أتصور أنه يتذكر أي شيء عني ..ظننت بأني غير مرئية بالنسبة إليه.

"ربما أنت على حق، لطالما فضلت اللعب في هذه الحديقة " تأملتها بعينين مليئتين بالشوق، مكاني المفضل رغم قدمها ..مساحتي التي تتسع لكل حريتي. حديقة بيت جدي لم تكن كبيرة ..ولكنها لا تزال محتفظة بهدوئها الفطري ..خالية من الحشائش وقد اعتنت خالتي نجاح بها على مر السنين فهي مولعة بزرع أشجار الورد ..الجوري خاصة.

" وكنت تستنشقين الورد أثناء فترة الراحة .. " وأشار إلى وردة الجوري التي لا تزال شامخة على مر السنين: " تلك بالأخص ..شجرة الورد المفضلة لديك .. "

خفقان قلبي المتزايد أعلمني بأن سرمد لم يكن يتجاهلني كما تصورت ..كيف انتبه إلى ذلك وأنا بنفسني لم أكن أعتبره شيئاً مميزاً ..نظرت إليه بفضول بينما عيناه لاهية على شجرة الورد ..يتأملها بصمت ودخان سجائره ينتشر وكأنه يشاركه ذكرياته تلك.

التفت نحوي فجأة وقال باسماء: " بينما تفعلين ذلك في وقت راحتك كنت أتهرب من الدراسة وانظر إليك من النافذة " وأشار إلى نافذة غرفته المطلّة على الحديقة: " صوتك أثناء اللعب كان يشدّ دراستي المجبر عليها، فأمي كانت تقف لي بالمرصاد ..تمنعني من الخروج واللعب

وكنيت أحسبك لأن خالتي سهام تمنحك الحرية بينما أوقات اللعب الخاصة بي كانت محددة " .

ابتسمت بعذوبة : " حسنا، أنا كنت أخشى خالتي سعاد منذ الصغر " و اتسعت ابتسامتي حينما ألقى علي نظرة هازلة: " ولا زلت حتى الآن " انفجر ضاحكا متذكرا ردة فعل والدته حينما قدمت لهم طبق العشاء.. شاركته الضحك بطريقة نادرة .. كيف استطاع سرمد في تلك الدقائق الم معدودة أن يجعلني حرة في التعبير عن دواخلي؟، مشاركتي كل تلك الذكريات .. أمر مراقبته لي من النافذة جعل قلبي يخفق بعنف.. لقد حصل شيء ما .. لا بد وأنه يتعلق بأمر غيابه .. الأمر الذي جعله مطوعا في الحديث معي .. يشاركني أمورا لم يخبرها لأحد من قبل .. طفولتنا الشائكة التي ظننت أنها جزء غير مهم في حياة سرمد.. أتذكره أثناء مغادرتنا منزله وانتقالنا للحلة .. كان سعيدا بذلك .. لم يحزن .. لم يودعنا .. قبل والدتي بفرح وغادر المنزل دون أن ينظر نحوي أو يخبرني أبسط الأشياء التي تاق قلبي الطفولي لها .. رافقتك السلامة .. !

ارتجف قلبي وأنا انظر إليه برهبة داخلية .. سرمد الطفل قد كبر وأصبح رجلا قادرا على التحكم بحياتي واضعا قوانينه وشروطه في كل ما يتعلق بي .. متحكما .. متمزتا .. والأكثر من هذا هازنا وساخرا بكل أقواله وأفعالي ..

أنهى سيجارته الأمر الذي جعلني أفكر فيما سيخبرني به وسألته بتوتر : " متى ستخبرني عن فترة غيابك ؟ "

أشار إلي وهو يدخل : " أتمي معروفك واصعدي لي بالشاي .. سنتحدث في غرفتي .. "

لدقيقة كاملة لم أستطع التحرك .. غرفته كانت المكان المحرم علينا دخوله .. خلال سنواتي المنصرمة ربما دخلتها مرة أو اثنتين .. كان سرمد يمنعنا أنا وقيصر من الاقتراب من عتبتها حتى .. وخلال زياراتي القصيرة إلى بيت جدي نادرا ما وصلت إلى الطابق الثاني .. والآن أنا مخولة رسميا لدخول غرفته .. أعددت الشاي بسرعة وانتظرت انشغال الجميع على التلفاز وخروج قيصر حتى صعدت إلى سرمد ومعني كوبان من الشاي، غرفته كانت في الجهة المقابلة للسلم، بابها مغلق .. بينما غرفة علاء وغرفة قيصر وزعت على جوانب السلم في نفس ترتيب غرف الطابق الارضي.

توتري كان يزداد باقترابي من الغرفة .. لماذا قرر التكلم هنا ؟! لماذا لم يستطع التحدث ونحن في الخارج ؟! .. وصلت إليه وطرقت الباب، سمعت صوته الخشن يأذن لي بالدخول وحينما دخلت لم أستطع رؤيته بشكل أوضح من دخان سيجارته وفوضى غرفته، لم تكن واسعة والحمد لله .. سرير مواجه للباب .. نوافذ عريضة وستائر قديمة لم تتغير منذ سنين .. دولا ب ثلاث أبواب في الركن المقابل للسريير .. والى جانبي الأيسر رقد مكتب قديم صفت عليه كل أنواع الفوضى .. من كتب وأوراق .. أقلام ومسودات .. منفضات عامرة بسجائر قديمة وأيضا .. تيبس قلبي .. فقد رقد مسدس شخصي بين فوضى الأوراق .. مسدس؟!!!

لابد وأنه لاحظ تجمدي وذهولي لأنه قال لي : " أدخلي وأغلقي الباب .. "

لم أستطع التحرك .. وحينما تابع يأمرني وقد اكتسى وجهه بتعبير واجم يختلف تماما عن سرمد الذي سلب لبي أسفل في الحديقة : " فاتن .. ضعي الشاي على المكتب "

كيف تحركت .. ووضعت الصينية على المكتب .. لا أعرف .. فهذه هي المرة الأولى التي أرى فيها سلاحا على الطبيعة .. ماذا يفعل عند سرمد ؟ ..

كنت أنظر للسلاح وكأنه حشرة قاتلة .. حملت كوب الشاي وذهبت إلى سرمد كالمغبية .. وهناك فقط لاحظت بأنه يمسك بدفتر أشبه بالمفكرة يدون فيه وحالما جلست أغلق المفكرة ووضعها جانبا .. قلت لألف الجوّ : " لو بدأت بتغيير نظامك الصحي عليك البدء من غرفتك "

أخذ يرتشف من كوبه : " الآن دعينا من تغيير النظام في الوقت الحالي .. ما سنتحدث به سيبقى طي الكتمان ، سأنهاي الكوب وستخرجين من الغرفة وكأنك لم تسمعي شيء "

لا بد وأن حديثنا سيكون قصيرا للغاية إذن .. تغير الجو اللطيف .. الآن أنا أمام سرمد آخر ، المحامي الجاد والشرس .. هل من عادة المحامين أن يخفوا سلاحا في غرفهم ؟

ازدردت ريتي وأنا أومئ له .. فتابع يقول : " السبب الأول الذي يجعلني أخبرك هو أنني لا أود أن يصل الأمر إلى علاء ، أخي رجل عملي وأنت تعرفينه .. في الفترة الماضية حاول التوصل إلى مكاني وعرض نفسه للخطر .. "

" للخطر ؟ .. " شعرت بالقلق وتذكرت علاء وخوفه من حصول شيء لسرمد ، تأكد لي بأن علاء كذب علي .. ولكن لماذا ؟

ارتشف مرة ثانية ولمعت عيناه بالموافقة: " أجل .. " نظر إلي للحظة:
" هناك من قام بالتوصل إليه .. حاول زرع الخوف في قلبه .. ولأنني لا
أود إدخال علاء في دوامة حياتي سأحاول إبعاده قدر الإمكان "

كيف ولماذا ؟ .. وما دوري أنا في هذا كله ؟ .. أخذت أسأل نفسي وأنا
أتلهف لسماع ما سيقول بالرغم من اتساع رقعة القلق بداخلي.

" منذ مدة تلقيت عدة تهديدات .. " توقف لينظر إلي بخطر: " هناك
بعض الأمور التي لا تعرفينها عن مهنة المحاماة .. خاصة في هذا
الزمن، المحامي معرض لكل أنواع التهديد من الأطراف المعتدية على
موكليته وهذا شيء وارد جدا ... "

لا بد وأنه رأى الرعب في عيني " القضية لم تكن تستحق التهديد ولم
أعبأ بدوري .. هذا المسدس للحماية فقط .. " أشار إلى المكتب و اختض
قلبي برعب : " ماذا تقول سرمد ؟ "

" عليك أن تستمعي إلي حتى النهاية .. " قاطعني بهدوء .. وماعدا عيناه
المشتعلة بنار، لم يكن هناك أثر لخوفه أو قلقه ... " لم يتوقف الأمر
على التهديد فقط بل كنت في ضيافة خاصة لثلاث أسابيع "

ضيافة خاصة؟! ..

هتفت بذعر : " هل كنت مختطفا ؟ "

أوقد سيجارة أخرى : " بل محتجزا .. لم يحصل الأمر كما في الأفلام "
هزل مردفا: " لم يكتموا فمي ولا أوثقوا يدي .. كنت حرا في المجيء
متى شئت، غرفتي في الحجز تطل على حديقة واسعة غناء وفيها كل
وسائل الراحة .. "

علقت بصوت مرتجف: " هو ليس اختطافاً؟ .. " وسرعات ما اتضحت الصورة لدي: " لديهم ..شروط أليس كذلك؟ "

أوماً لي وسحب المفكرة ليخرج شيئاً من داخلها ..سألته أثناء ذلك: " هل عرفت من هم ؟"

ناولني ورقة بيضاء فتحتها وقرأت فيها شيئاً أشبه بتعهد ..لمنع سرمد من التعرض لهم ..رفعت رأسي نحوه: " هل هذه قضية عشائرية؟ "

أخذ يدخل ويرتشف من الشاي رشفة أخرى: " إنها ليست كذلك، فهم لم يقوموا بتهديدي خلال الفترة الماضية ..أشخاص حاولوا زرع الفتنة بيننا "

سألته وأنا أعيد الورقة إليه : " ما علاقتك بهذه العشيرة بالتحديد؟ "

" لقد التزمت لهم بقضية قبل سنين ..قضية شرف " نظر إلي ببرود وشعرت بالقشعريرة ..تلك الأمور نادراً ما أحب الإطلاع عليها في الصحف ..جرائم الشرف ..عشائر ..الخطوة ..الفصل العشائري ..كلها أمور تثير نفوري وغضبي ..وتورط سرمد في تلك الأمور جعلني أفكر إلى أي مدى وظيفته خطيرة ..

" وماذا حصل ..؟" سألته بذات اللهجة ...

" هم يظنون بأنني انقلبت ضدهم ..و بأنني سأقوم بفضح أوراقتهم وكشف الحقيقة للقضاء "

تذكرت نبيل ..وهو يقول لي بصوته العنيف أن سرمد رجل متدن ...

" دعني أفهم .. هل أصبحت محاميا لشخص متورط في جريمة شرف ؟ "

رمش بعينه ولم يجبني في البداية، شعرت بالانزعاج ..: " سرمد ، هل لك أن توضح لي الأمر بشكل واسع .. ؟ أود أن اعرف إن ارتبط اسمك بهذه القضية فعلا ؟ "

ذر الرماد في المنفضة القريبة وأجابني بصوت خشن: " كانت قضيتي الأولى في الحقيقة، ولم تكن لدي أية تجربة عما يعني هذا، اندفعت متهورا نحو تحقيق غايتي وكسب القضية بأي ثمن .. وقبل ثلاثة أشهر فقط وصلت إلي رسالة من طرف مجهول .. تخبرني بأني القضية لم تكن بالصورة التي تخيلتها .. وبأني خدعت في الأمر كله .. وبأنهم سرعان ما سيقومون بتشويه سمعتي كمحامي إن لم أعد فتح القضية وتحقيق العدالة هذه المرة "

ازدردت ريقي بخوف: " هل هم عائلة الفتاة .. يعني .. التي دارت حولها القضية ؟ "

" كلا، لقد هاجروا منذ سنين .. "

" وعشيرة المتهم .. هل حاولوا شراء صمتك الآن ؟ "

هزل قائلا: " شيء كهذا .. لقد طلبوا مني التعهد بعدم التعرض لهم .. وعدم فتح القضية مرة ثانية "

" مقابل ماذا ؟ " سألته بشك

" مقابل حريتي طبعاً وعودتي سالماً .. "

حاولت التفكير فيما يعنيه هذا ... " وماذا بالنسبة لعلاء ؟"

أنهى السجارة وأجابني: " لقد قاموا بالوصول إليه، تركوا له عدة رسائل مجهولة يحثونه على فتح القضية وتتبع أثري وبأني رجل غير نزيه بالمرّة .." ولمعت عيناه هزلا ثم تابع وهو يرتشف من الشاي: " و أنا لا أرغب له أن يتورط أبدا ..لأني حتى الآن لا أعرف من يبحث في القضايا القديمة "

فكرة أن يكون لسرمد أعداء كثر جعلتني اشعر بالرعب، خاصة وهو يتابع بنبرة حادة: " ولهذا وددت منك أن تعرفني ..كطرف بعيد محايد في حالة حصول .." وتوقف عن الكلام وأنهى شرب الشاي ليقدم لي الكوب وكأنه يتحدث بموضوع عادي وليس عن حياته الخطرة: " ستكونين مجبرة على إقناع علاء بأي أمر ثان ..أنا موقن بأن الطرفين لا يلعبان لصالحه .." .

استوعبت بصعوبة: " أنت تخشى على سلامة علاء ولا تهتم بسلامتك ؟"

" أنا محام يا وردة وأعرف خطورة مهنتي ..وسأعمل جاهدا على معرفة من يلعب من وراء ظهري " كلماته أرسلت القشعريرة إلى جسدي ..سرمد رجل خطير ..وعدائه غير هين أبدا ولكن يبقى أن الطرف المجهول قادر على فعل أكثر من ذلك، قد يصل إلى الإجرام.. اختض قلبي برعب ..هل يمكنه أن يلعب بالنار؟ ..يطارد المجهول ليعرف من يقوم بالنبش في ماضيه ..من يستفيد من هذا الأمر ؟

" ستنتبه لنفسك ..ألن تفعل ؟"

ابتسم.. ولكنها ابتسامة شاردة: " لا تقلقي ..أنا قادر على مواجهتهم ..هم أشباه رجال ما داموا لا يكشفون وجوههم .." اتكأ على السرير ووضع يديه خلف رأسه " لا تخبري مخلوقا بما قلته لك ..الوضع الآن هادئ ومستتب تماما "

قمت من السرير وتوجهت نحو المكتب لرفع الصينية .. وقع بصري على المسدس وشعرت بالحذر والخوف ..منذ متى ونحن نعيش الخطر ولم نفكر قط بمواجهة شيء ..نأمل أن يتحقق العدل بمعجزة ما ..!

" سرمد .." والتفتت إليه : " لو إن هؤلاء المجهولين لم يقوموا بإيهاام عائلة موكلك بأنك ستفضحهم ..أكنت ستعيد فتح القضية ؟"

لم يجبني للحظة .. مدد ساقه براحة وأجابني: " إعادة فتح الماضي يتطلب الكثير يا وردة "

سألته بتوتر: " حتى ولو لأجل قضية شرف فتاة ؟"

بدا عليه الشرود ..ثم نظر إلي بهدوء ..عيناه تلمعان ..تأملني لثواني وتابع يقول : " سيبقى ذنب الفتاة معلقا برقبتني يا وردة ..وربما يوما ما سأقدر على تسوية الأمر، ربما سأخذ حقها وأرد لها شرفها ..!"

شعرت بالدموع تلامس أهدابي ..كنت متأكدة من أن سرمد رجل نزيه.. قلبي يقول ذلك، بالرغم من حياته الخطرة والتهديدات ..ألقيت نظرة خاطفة على المسدس وخرجت من غرفته من دون كلمة أخرى ..فعلا.. النبش في الماضي يتطلب الكثير منا ..ربما حياتنا كلها...!

الفصل الخامس عشر

ريهام

بحلول شهر رمضان تغيرت الأجواء علينا قليلا .. لم أعد أستطيع النزول إلى عائلتي بسبب التعب في الطريق، وفي المركز قُلت تجمعاتنا وانخفض عدد المراجعين بشكل ملحوظ .. وما إن تحل الساعة الثانية عشر ظهرا حتى ينزوي سكان المركز إلى أية وحدة متاحة للنوم، وبما إن الحشوات لم تكن مناسبة لذلك فقد كنا نتخذ من وحدة الأطفال ووحدة الجراحة مكانين مناسبين للنوم الخفيف منتظرين نهاية الدوام كي نعود للدار ونستكمل نومنا .. داليا حققت الرقم القياسي في النوم السريع، كنت أناولها هاتفي لتستمع إلى موسيقى حالمة وتغفو في الحال .. وسمية كذلك .. بينما أنا ومنال كنا نتخذ المكتب مكانا لنا .. نضع راحة أيدينا عليه ونصفو لأفكارنا .. ريهام تأتي وتذهب بين الحين والآخر .. كانت الشعلة المتفجرة بيننا، كلها نشاط حتى في الدار فهي المسؤولة عن التنظيف وتجبرنا على وضع جدول يومي لتنظيف شقتنا وتلميعها .. وحينما تدخل لأية غرفة تقلبها فوضى وتجعل النوم يطير من أعين الموجودين.

ليالي رمضان لها طابعها الخاص في الدار .. فبالرغم من أن المذاهب لم تكن متشابهة ، كنا نجلس على سفرة واحدة .. نفطر بدقائق متقاربة مع بعض، نتشارك الطعام من دون فرق .. نتفرج على مسلسلات رمضان شتى .. نتناقش ونضحك ونستمتع ونصلي معا .. وفي وقت السحور، كانت ريهام مسؤولة أيضا عن جلب الوجبات من المطبخ وتحضير سفرة كاملة لنا .. ثم إيقاظنا لتتسحر سوية.

نبيل لم يعد كما كان، فمنذ مواجهتنا الأخيرة عند باب المركز وتدخله في حياتي انزوى هو الآخر بعيدا عنا وكان يأخذ العديد من الإجازات، وخشيت أن أسأل عن السبب حتى لا أبدو مهتمة، ولكني بالصدفة سمعت حوارا جانبيا بين أنور والدكتور محمد عبد السميع وهما يتحدثان عن كونه يجهز أوراقا للسفر .. حاولت أن لا أهتم ولكني أخذت أدور حول نرجس وحاولت أن أجعل حديثي عنه عاديا، وهي استمعت إلي دون أن تتفوه بكلمة وبعد يومين جاءتني تقول بأنه يجهز أوراق سفر عائلته لأنهم سيهاجرون إلى أمريكا، وحين سألتها عن السبب أخبرتني بأنهم ينوون الاستقرار هناك منذ البداية ولكنهم ينتظرون نبيل كي ينهي فترة إقامته.

كان الأخرى بي أن أصمت ولكني لم أستطع، حتى وأنا أحاول عدم لفت انتباه نرجس لما اعتراني من جمود .. إن كان حقا ينوي السفر والهجرة هناك فلم يحاول الارتباط بي أو وضعي في فترة اختبار؟ .. ومن أخبره بأنني قد أرغب يوما في الهجرة والاستقرار هناك؟ .. كنت متجذرة في العراق رغما عني.

أطربتني الفكرة ووجدت عذرا مناسباً للرفض لو تقدم لي نبيل .. هذا إن فعلها ..!

جددت دورتي في وحدة الحشوات وكانت منال معي، ريهام، سوسن، أحمد فاروق و محمد عبد السميع .. أما نبيل فقد استقر في دورة الفحص مع الدكتور حارث .. ونرجس وأحمد استقرا في وحدة الجراحة مع أنور .. داليا وسمية ذهبتا إلى وحدة الصناعة .. كان الترتيب مناسباً للجميع ولأول مرة لم تحدث مناقشات ومشادات حول التحول بين الوحدات وقد تنفس الدكتور أحمد فاروق بارتياح بعد استقرار الجميع.

كنا نعمل بمشقة في وحدة الحشوات وكان كل الذي تعلمناه في الكلية لم يكن مقياسا لما نعانیه في عملنا، بتوافد أعداد كثيرة من المراجعين بعد انتهاء شهر رمضان... لكننا في نهاية كل يوم نجلس جميعنا نتحدث ونضحك وكأننا لم نمر بيوم متعب.

في تلك الفترة أصبحت ريهام من المقربات إلى قلبي، كانت إنسانة دافئة معطاء ذات قلب كبير، حتى أنها تستحق لقب أمنا.. ولأن الدكتور محمد عبد السميع هو الأكبر سنا بيننا فتحول الأمر إلى مزحة إذ دعونا والدنا.. كان طويل القامة بوجه شاحب وعينين واسعتين.. ابتسامته الدائمة واهتمامه بعملنا جعله يستحق اللقب، وقد أخذ دوره بكل جدية في كثير من الأحيان راسما ابتسامة على وجوهنا نحن بناته الأربع.. أنا ومنال.. داليا ونرجس... أذكر أنني ارتديت مرة تنورة قصيرة تصل إلى منتصف رقبة ساقي.. وفي نهاية اليوم أخذني على جانب وأخبرني بطريقة مازحة أنني ابنة غير مطيعة.. وقتها ضحكت وسألته عن السبب فقال لي بلهجة الأب المهتم بابنته أن أنتبه إلى ملابسي.

تدخلت ريهام متخذة دور الأم وزجرته ليتركني وشأني.. وحينما انسحبت منهما ضاحكة وجدتهما يتجادلان حول ما يصح ارتدائه.. وما لا يصح.

كانت شخصيتهما متنافرة.. ريهام فتاة متحررة جدا رغم كل الحدود التي تضعها حول نفسها.. مهتمة بأنافتها وحجابها.. في حين كان محمد متمزنا بطبعه.. متخاذلا في ارتداء ملابس أنيقة نظرا لطوله الفارع، فكانت ملابسه تقليدية بحتة.. ولعه بالتدخين كان يصيب ريهام بالجنون فتجادل معه في كل سيجارة، في النهاية كان يخرج غاضبا متمتما بكون نصائحها بشأن التدخين أصبحت غير معقولة.

وفي إحدى المرات تجادلا في نهاية الدوام حول ذات الموضوع، وحينما أخبرها متعمدا أنه يدخن علبتين كاملتين في اليوم الواحد، قامت ريهام من مكانها بغتة وهي تطلق صيحة صدمة وتمتمت تقول بأنه إنسان مهمل وبأن السجائر ستقتله يوما ما .. وحينما عاد بكرسيه إلى الوراء ضاحكا .. خرجت هي من الوحدة وقد شعرت بأن محمد قد استهزأ بها أمام أنظارنا.

حينما تبتعتها بعد أن تأخرت أكثر من ربع ساعة وجدتها في الممشى الخارجي تجلس وهي تتفحص جهازها عابسة، كانت تهز قدميها بعصبية ولم تقل شيء حين جلست إلى جانبها، بادرتها بأن الجو حار هنا خاصة وأن الساعة قد شارفت على الثانية ظهرا .. لم تقل شيئا أيضا... أخذت نفسا لأبدأ كلام معها، التقتت إلي وقالت بلهجتها العصبية المنفعلة: " هل سمعت ما قاله؟.. هل في الدنيا رجل عاقل يدخن علبتين في اليوم؟"

أجبتها بحيرة: " ظننتك غاضبة لأنه مازحك " ... فصاحت بوجهي: " إنه إنسان معقد لا يعرف الضحك .. أنت لا تعرفينه جيدا، لقد كان هكذا على الدوام، متزمتا ويظن أنه على حق ونحن المخطئون".

قلت في داخلي لابد وأنها نسيت بأني كنت زميلته في الكلية .. لأنها أخذت تتابع بعصبية: " مهمل .. معتوه .. سيقتل نفسه بسبب تلك السجائر المسمومة .." وأخذت يداها ترتجفان بحيث أن الموبايل اهتز للحظة .. حينما لم استطع قول شيء، اكتفيت بالصمت وأنا أشعر بأن هناك شيئا لا أفهمه .. كانا دائما كثيري الجدال ولكن ريهام تتصرف هكذا مع الجميع .. لا يمنعها شيء من أن تطلق غضبها على أحد المشرفين علينا من الدكاترة .. والكل متعود على أسلوبها ذاك لأنها تملك

القلب الأكثر طيبة .. إنها تخشى على محمد لأنها محبة للجميع .. وتهتمها
صحة الجميع .. أليس كذلك ؟

بقي منظرها عالقا في ذهني لأيام طويلة .. ولم أقل شيئا لأحدهم
.. تصرفت بطبيعية وكأنني لم أشعر بشيء يدور في الخفاء .. حتى حل
اليوم الذي أقيم في المركز احتفال صغير بمناسبة عيد ميلاد محمد
وسوسن لكونهما ولدا في ذات اليوم، جاءت ريهام بقلب الحلوى من
بغداد خصيصا للاحتفال وتفانت في جعل المناسبة مميزة .. في صباح
ذلك اليوم وقبل مغادرتنا من الدار أشارت لي أن اتبعها بينما انشغلت
الفتيات في تناول الإفطار، حينما دخلت الغرفة خلفها وجدتها تقف عند
دولاب الملابس الخاص بها، فتحته وهي تقول بصوت هامس: " توته .."
كانت الوحيدة التي تدلني بلقب توته .. " أحببت أن آخذ رأيك في هذه .."
وأخرجت كيسا بلاستيكي ملونا من دولابها، فتحت ما بداخله .. كانت
علبة صغيرة مكعبة الشكل وأرتني ما فيها " ها ما رأيك ؟"

كانت ساعة رجالية مذهبة .. ذات نقوش بارزة .. بدت رجولية أنيقة .. لم
أقل شيئا .. تأملتها وأنا أشعر بأن قلبي أدرك تلك الوسائس التي كانت
الفتيات تبثنها في الأرجاء، تابعت ريهام تقول: " إنها هدية لمحمد ..
فعيد مولده اليوم .."

حينما أشحت بوجهي عن العلبة لأنظر إليها، بدت عيناها السوداوتان
الناعستان أكثر تألقا، سألتني متلهفة: " ها ما رأيك .. هل تبدو مناسبة
له .. ؟"

قلت لها بصوت مرتبك: " إنها تبدو باهضة الثمن " ... ازدرت ريهام
ريقها: " لم تكلفني الكثير .. أنا أخشى أن لا تعجبه .. " ونظرت إلي بتوق
غريب لسماع رأيي، أجبته هامسة وأنا أنظر إلى الساعة: " ذوقك

ممتاز ريهام .. أنا متأكدة من أنها ستعجبه " ... أدارت العلبة لتأملها بلهفة: " أتعنين هذا حقا .. أنا جدا خجلة من أن تكون هدية عادية "

حاولت رسم ابتسامة على شفتي: " لمن .. لمحمد ..؟.. ألا تعرفين بأنه إنسان بسيط؟ "

سارعت تقول بارتباك: " أجل .. أجل .. أنا أعرف " وأغلقت العلبة وأعادتها إلى الكيس وتابعت تقول بصوت عادي: " لسوسن ابتعت لها عطرا .. أتمنى أن يروق لها .. "

لم ترني العطر .. ولم أسأل .. كانت ريهام تلقي اهتمامها على هدية محمد ولم أشأ أن أنبهها إلى هذا الشيء .. لطالما كنتُ بارعة في إخفاء كل ما يدور في داخلي من مشاعر .. وكنت أظن بأن كل الذين عرفتهم يستطيعون إخفاء أرواحهم النضرة خلف قناع جامد لا مبالي .. وقفت هذه المرة أمام ريهام وشعرت بالحياة تدب في عروقي .. ريهام كائن حي يتنفس .. قلبها العاشق مرسوم على ملامح وجهها الفتية الجذابة ... لم أكن بحاجة لدليل آخر .. وبالرغم من كل الأحاديث السرية التي سمعتها من البنات عن اهتمام ريهام المبالغ فيه بمحمد .. كنت أنكر هذا الشيء .. أنكره لأن من غير الممكن أن يلتقي شخصان متنافران، متضادين في نقطة ما .. وأن يقع اختيار ريهام على شخصية غامضة جامدة العواطف مثل الدكتور محمد.

خلال الحفل الذي أقيم في المركز .. كنت أراقبها أكثر الوقت وأنا أتمنى أن لا تظهر شيئا من هشاشة روحها .. كيف لم أقرأ كل ذلك من قبل؟ .. كانت ريهام تتألق في تلك المناسبة وكأن الحفلة مقامة لأجلها .. توهجها يزداد وهي تقف بين محمد وسوسن تساعدهما في قطع القالب .. ترسم ضحكة ناعمة وهي تتحدث بهمس إليه دون أن ينتبه أحد إليها

وحيثما شكرها الجميع على قالب الحلوى اللذيذ قالت وهي تبتسم
بطريقة أخذة: " لأن محمد وسوس يستحقون الأفضل "

وفي نهاية الدوام رأيتها تقدم له الهدية، لم تكن مرتبكة .. وحدي أنا
شعرت بعينها النجلاوين تلمعان ببريق خاص .. فيما تقبل محمد الهدية
بابتسامة وشكرها على لطفها البالغ .. وتمنيت أن يقابل نظراتها
بالمثل ...

ظننت بأني الوحيدة التي انتبهت لذلك .. ولكن نرجس التي لا يفوتها
شيء .. حتى وهي منشغلة مع أحمد فذلك لا يعني أن تكون عمياء تجاه
كل شيء، رأيت ابتسامتها المميزة وعيناها التي تلمع بتلميح عميق .. لم
تنظر إلي أثناء ذلك .. نظراتها كانت معلقة بريهام هي الأخرى ..
وأشعرني ذلك بعدم الارتياح .. تمنيت لو أن الأخيرة ليست واضحة
المشاعر للجميع.

وفي المساء وبعد خلود أغلبية البنات للنوم ذهبت إلى سرير نرجس بعد
أن رأيتها ما تزال مستيقظة .. همست لها بأني أود التحدث إليها .. وكانت
هذه عادة درجنا عليها بمرور الوقت علينا في الدار .. كنا نسهر أغلب
الوقت نتحدث بأخبار المركز و أسرار البنات الأخريات .. يومها كنت
أشعر بالقلق مما رأيت في عيني ريهام .. وحيثما بحث بأفكاري
لنرجس .. ابتسمت هي ولمعت عيناها : " لقد انتبهت إذن .. " . واتسعت
ابتسامتها ..

سألتها بلهفة : " هل يعني هذا أن ريهام تحب .. " ولم أستطع قول محمد ..
شعرت بأني بحث بأخطر أفكارى .. تابعت نرجس ما كنت أقوله : " ..
محمد .. إنها تحبه، أجل .. " .

" وهو ..؟ "

لم تنظر إلي وهي تقول : " اسأليني سؤالاً ثانٍ .. "

شعرت بالقلق : " ماذا تعنين ..؟ "

أجابتنني : " محمد إنسان معقد .. وريهام كائن منفتح .. أترك تظنين أن العلاقة قد تنجح بينهما ؟ "

بلعت ريقِي : " إذن هو يحبها .. ". بشكل ما شعرت بالفراشات تتراقص في قلبي.

حركت نرجس رأسها : " لا أحد يعرف .. أحمد يقول بأن محمد لا ينوي الارتباط بعد تجربته المؤلمة في الزواج "

حسب ذاكرتي المتعلقة في الكلية .. تذكرت بأن محمد كان متزوجاً من ابنة عمه ولكن الأمور لم تنجح بينهما .. فابنة عمه كانت ما تزال طفلة صغيرة حينما أنجبت طفلتهما .. لم تكن أما جيدة، وبسبب إهمالها ماتت الطفلة وهي رضيعة بعد أو شيء كهذا .. بعدها روت لي نرجس بأن محمد وزوجته لم يتفقا مما أدى إلى انفصالهما بعد سنة ونصف من الزواج.

سألتها وأنا لازلت أدور في فلك ريهام : " ولكنه يميل إليها .. ألا ترين ذلك ..؟ "

لوت شفيتها : " بل إنه ينظر إليها كما ينظر المسكين نبيل إليك "

شكرت الظلام الذي أخفى احتقان وجهي .. لم أعلق بشيء عن نبيل .. فكرت بمحمد .. ونظرته تلك ...

" حقا؟..إذن هو يحبها، لكنه يحاول أن لا يظهر مشاعره تلك "

غصت نرجس بضحكة هامسة: " كما أنت متأكدة من حب نبيل لك "

رميت الغطاء على وجهها وقلت حانقة: " لا تغيري الموضوع ..أنا ونبيل قصة أخرى "

" بل قل لي قصة ينقصها فقط بصمة أصابع ..وشيخ يقول أنتما زوجان على سنة الله ورسوله "

قلت لها و أنا أشعر بدقات قلبي تقفز: " أنت تحلمين ..بل أصبحت تخرفين بعد خطوبتك "

اتسعت ابتسامتها: " أهذا يعني بأنك لا تودين معرفة ماذا حلمت قبل يومين ؟"

قفزت على سريرها ونسيت كل شيء متعلق بريهام ومحمد، حينما تحلم نرجس بأحدنا فهذا يعني شيئا واحد ..بأن أحلامها ستتحقق .

الفصل السادس عشر

تحذير

في الستة أشهر الأولى من حياتي كطبيبة أسنان فعلية تعلمت الكثير، وشعرت بأنني أصبحت قاب قوسين من النجاح بعلمي و مهنتي، وكان يوم استلام الراتب بمثابة عيد لنا، ليس لأننا بحاجة ماسة له ..ولكننا نعتبره شيئاً يعزز استقلالنا في الحياة، خاصة ونحن الفتيات نعيش بمعزل عن أهلنا.

الأيام في الدار استمرت بالازدهار، قصص الحب تطرق الأبواب ..هند، الفتاة الهادئة أصبحت من المقربات لدي أيضا ..عرفت فيما بعد من نرجس بأنها تمر بأجمل قصة حب خلال عملها ..ولأنني أصبحت بمرور الوقت مبعث ثقة للأخريات، توفرت لدينا الفرصة للتحدث ذات يوم، لم تكن هند فتاة عادية على الإطلاق ..كانت رومانسية خجولة، تملك ثقة عجيبة في الحياة، فتاة مستقلة تماما ..ولكن ذلك لا يظهر عليها حتى نتقرب منها، الطبيب المعجبة به وحسب ما روته لنا هو أحد أقرباء عائلتها لكن من طرف بعيد، إنسان شهم ساعدها كثيرا خاصة لأنها تداوم في ناحية بعيدة عن المركز، وبالرغم من تقاربهما فهي لم تخرج معه ولا مرة، ولم يوصلها بسيارته رغم أنهما يعملان في ذات المكان.

كانت تقول أن الأمر صعب، خاصة لأنها بعيدة عن أهلها والمجتمع لا يتقبل أمرا كهذا ..روت لنا كيف صارحها بالأمر ..هند كانت معجبة تماما به ..بل إنها كانت تعشقه سرا، غير أنها لا توحى بذلك، وهو يظن

أنها تعتبره مجرد زميل لها .. وبقي الاثنان عالقان في دوامة الإعجاب دون إدراك مكنونات الآخر .. حتى أن المصارحة التي روتها لنا هند كانت عبارة عن تلميح جريء لا أكثر، غير أن نرجس ولكونها البارعة في تحليل الأمور، أخبرتها بأن الرجل مهتم بها كثيرا و يودها، وسيأتي اليوم الذي يصارحها مباشرة، حين تتحدث نرجس عن هذا اليوم أشعر وكأنه شر لا بد منه، فنبيل الذي ابتعد عني لمدة طويلة .. عاد بالتدريج متخذا أسلوبا آخر في التعامل .. وكأنه بعد رحيل عائلته أصبح أقل حيوية ونادرا ما أراه يخصني في التعامل، وذلك أشعرنى ببعض الارتياح ولكن من جهة أخرى بقيت أشعر بالتقيد معه.

الأمور كانت هادئة بعودة سرمد إلى حياته الطبيعية وانشغاله بعمله في الجمعية بحيث تسنى لي الذهاب إلى بيت جدي لمرات عديدة، وكان علاء المتكفل بتوصيلي وإعادتي إلى الدار .. وفي اليومين اللذين بت فيهما في بيت جدي في إحدى المرات كان سرمد غير موجود أيضا، ولم يقل علاء شيء عن غيابه.

قبل ذهابي إلى الدوام يوم الأحد التقيت بسرمد عند الباب، وقد تفاجأ هو بدوره لوجودي، وكنت أظن بأني سأنجح بالذهاب دون التصادم معه لولا أنه بادرني بقوله: " أهلا دكتورة .. نورت منزلنا "

أردت إيقافه قبل أن يتمادى فقلت: " إنه منزلي أيضا " كانت جملتي سطحية و طفولية للغاية.

رفع سرمد حاجبه وقال: " ظننت أن الدار هو منزلك، وأهل الدار هم ناسك "

لا حاجة لأن أفكر بالمغزى وراء الكلمات، ولهذا حاولت تجاهل ما قاله وتوجهت نحو باب الخروج غير أنه أخذ يقول: " بالمناسبة، لقد رأيت نبيلك البارحة "

توقفت عند الباب " نبيلي ..!؟" والتفتت نحوه بغضب غير أنه تابع دون التعليق على اعتراضى " كان يسهر مع شلة من الأطباء ..أتعرفين بأنهم بدوا طبيعيين كالآخرين، لقد قلبوا المكان فوضى "

" أين كان ذلك ؟" شعرت بالفضول يكتسحني ..ظننت بأن نبيل عاد إلى مدينته الخميس الماضي ، بعدها تذكرت بأنه لم يعد ينزل بانتظام نظرا لهجرة عائلته، أجابني سرمد بكسل وهو يتحرك في الباحة الخارجية: " في المقهى حيث كنت أتسكع مع شلتي أنا الآخر" ونظر إلي بمكر فسألته: " وماذا حصل ؟". عاد يرفع حاجبه: " ولم تظنين إن هناك شيئا قد حصل ؟"

أجبتة بنفاذ صبر: " هل تحدثتما ؟" حرك رأسه عامدا: " من الممكن ذلك ..المقهى مكان صغير يا وردة "

أشحت بوجهي: " إذن لم يحدث شيء "

ابتسم سرمد وهو يقترب مني، وقف إلى جانبي عند الباب و سألني: " هل أنت مهتمة حقا بمعرفة ما حصل ؟"

عاد إلى ألعابه ..هزرت رأسي: " كلا، في الحقيقة لقد تأخرت" وكسوت وجهي بتعبير جامد فشعرت به يتحرك ليفتح لي الباب ويقول بتهكم لاسع: " براحتك حضرة الدكتورة !"

خرجت دون أن أتفوه بشيء، أو أظهر انزعاجي وتوجهت نحو سيارة علاء حيث ينتظرني هناك، ما إن وصلت إلى المركز أخذت أفكر بكلام سرمد .. كان لا ينفك عن تعذيبي بتلك الطريقة وكأنه يعتمد استفزازي.

حدثني علاء وهو ينزلني عند باب المركز: " فائن .. حاولي أن تبتسمي، الابتسامة تليق بك "

إنسان مثل علاء لا يستحق مني الجفاء، اعتذرت في الحال وبررت له سبب انزعاجي وكرهني للدوام في يوم الأحد نظرا لأنه اليوم الأكثر زخما بمراجعين، فقال لي: " لا بأس، أنا أمزح فقط .. أتمنى أنك قضيت وقتا ممتعا في منزلك "

كم هو الفرق واضح بين الأخوين .. تأكد لي بأن سرمد إنسان منحاز فيما يتعلق بي ..!

ابتسمت له: " كثيرا، ما دمت هزمت قيصر لمرتين في الشطرنج " ضحك علاء: " ولكنك لم تتمكني من هزيمتي "

اتسعت ابتسامتي: " سأفعل في المرة القادمة .. لديك تكتيك ذكي يا علاء "

تحداني بمرح: " سنرى في الأسبوع القادم "

لم اخبره بأي سأنزل الأسبوع القادم، ودعته ودخلت إلى المركز، ولحسن الحظ كنت مبكرة .. لم أقابل أحدا .. جلست في وحدة الحشوات لدقائق ثم توافد مريضان إلى الوحدة وكانا يحملان تذاكر غير معنونة إلى وحدتنا، وحينما سألتهما إن توجهتا لوحدة الفحص أجاباني بأن وحدة الفحص خالية، قمت على إثر ذلك وتوجهت نحو الفحص وهناك رأيت

نبيل جالسا لوحده ..ألقيت عليه التحية وقلت بعدها : " أنت موجود ؟..
المرضى يقولون بأن لا أحد في وحدة الفحص "

أجابني : " كنت أجري اتصالا هاتفيا " صوته يكتفنه البرود، وشعرت بأنه ليس في وضعه الطبيعي ..حدثت نفسي أن أتعامل معه بالمثل ولكني لم أستطع، فطبيعتي الباردة المزعومة لم تسعفني في تلك اللحظة : " هل أنت بخير ؟..تبدو متعبا بعض الشيء "

لم يلق علي نظرة وهو يجيبني بهدوء: " لم أستطع النوم ليلة البارحة " شعرت بجرس الإنذار يطرق في مكان ما: " لماذا ؟..حصل خير إن شاء الله " حاولت أن أكون موضوعية، اتكأ نبيل على الكرسي ونظر إلي من مكانه، نظراته تحمل بعض الحدة وشيء أقرب للتوحش تملك تعابير وجهه.

: " أنت لم تنزلي هذا الأسبوع عند عائلتك ؟ " .

ابتدأت أقول بحيرة : " كلا ..ولكن .. " كان علي أن اكذب ..لسبب أجهله تماما ..

: " إذن قضيت الليلة في بيت جدك ؟ " .

أومأت دون إظهار غضبي من استفساره الجريء ذاك ..

تجمدت نظراته علي، وبقي هكذا دون أن يحرك ساكنا لدقيقة كاملة، تمللت بها وأنا واقفة عند الباب، ثم ارتأيت أن أتحرك وتوجهت لأجلس عند مكتب الفحص وسألته بصوت جاد وأنا أريد وضع نهاية لسلسلة تحقيقاته: " هل تريد الوصول لشيء ما؟..نبيل لا أعرف سبب انزعاجك من مبيتي في بيت جدي "

لم يقل شيئاً أول الأمر ثم أخذ يهز كرسيه الدوار وأجابني: " ألا تعرفين حقاً؟ .. إذن أتمنى أن لا أتجاوز حدودي لو أخبرتك بأن بيت جدك الذي تعترين به ليس مكان صالحاً للمبيت "

هذه المرة لم أغضب .. سألته ببرود: " ولم؟ .. وعلى أي شيء استندت باعتباره هكذا؟ "

أردت أن أصرخ بوجهه ولكني قبعث في مكاني وانتظرت إجابته: " أحببني أن تعرفي حقاً يا فاتن؟ .. أم أنك ستصرخين مدافعة عنهم؟ "

أجبتة بعناد: " أنا لن أصرخ .. يكفي أن أخبرك بأنك لا تملك الحق في محاسبتني، وإن كان الحديث سيجرنا إلى رأيك بآبن خالتي فأنا لن أسمح لك "

علق بوجوم: " ولكنه إنسان غير صالح .. أتعرفين ماذا كان يفعل البارحة في المقهى؟ "

" كلا " قلتها بحدة وأنا أقف على قدمي وتابعت أهدر بغضب: " نبيل إن أردت إبقاء الود قائماً بيننا فأرجو أن تحترم حدودك "

رد علي ببرود: " وأنا أحترمها .. لأنني إن لم أفعل لما قضيت البارحة بدون نوم "

تحدثت بعصبية: " وما شأن ذلك بي أو حتى بما يفعله سرمد؟ "

سألني وهو يمعن النظر إلي بتوحش .. وكأنه يريد الانقضاض علي وهزي حتى .. حتى ماذا ..

: " بك كل الشأن .. أترأك رأيته البارحة بعد عودته؟ "

أجبتة على مضض: " إن أجبتك هل ستتركني وشأني؟ "

بدا متأهبا ..متلهفا لإجابتي: " سأحاول .. عليك أن تعرفي يا فاتن أنني أتحدث لمصلحتك فقط "

لم أعلق بشيء، قلت له بدلا من ذلك بصوت بارد: " كلا، لم أره البارحة ..لأنه لم يكن موجودا في اليومين الماضيين "

تجمدت نظرات نبيل، ثم شعرت وكأن شيئا تدفق إلى وجهه، شيء أشبه بالارتياح نضح من عينيه ..وجنتيه، ومعالم وجهه الباقية غير أنني تابعت أقول بتعمد: " ولكننا تقابلنا هذا الصباح أثناء خروجي للدوام " أردت استفزازه ..والله يعلم لماذا ...!

تحرك نبيل بجسده إلى الأمام وقال لي: " وهل أخبرك بأننا تقابلنا ليلة البارحة ؟ "

أومأت له وأشحت بوجهي عنه ..ثم أخذت أتحرك من مكاني وأنا أتمتم قائلة: " علي العودة إلى الوحدة "

أومأ لي وهو يقول: " لا بأس ..ستتوفر لنا فرصة للحديث مرة أخرى .. "

قاطعته بتصميم: " بل فليكن حديثنا حتى هنا، أنت وعدتني بأنك ستتركني وشأني "

تنهد نبيل وهو يفرك عنقه: " حسنا، هذا صعب .. " والتقت نظراتنا للحظة خاطفة فشعرت بقلبي يتقلص من نظرات عينيه التي بدت وكأنها توصل لي رسالة خاصة ..وكأنه يقول بأن الصعب هو تركي وشأني ..وليس الحديث عن بيت جدي ومساوئ سرمد التي يدعيها .

استطعت أن أهرب في تلك اللحظة متعللة بعملتي، ولم أره بعد ذلك حتى نهاية الدوام .. التقينا عند البصمة وفسح لي المجال لأبصم قبله ولكنه كان خلفي مباشرة، وكنت أستشعر بقوة وقوفه .. بشخصيته التي يفرضها .. لا بتكبر .. ولا بتهكم مثل سرمد .. بل بشكل منفرد خاص به .. أنا أتحدث ذلك لنفسني لأنني لو أخبرت أحد صديقاتي بذلك لقلن أنني معتوهة وبأنني أقع في حبه تدريجيا دون الاعتراف بذلك ..!

عند حلول العصر أرسل رسالة إلى هاتفي، سألني فيها عن أحوالي وأخبرني بأنهم يتحضرون للخروج إلى المطعم لتناول العشاء و سألني أن أخبر البنات بذلك كي نجتمع سوياً هناك .. وحين فعلت ذلك رحب الجميع بالفكرة نظراً لأن اليوم كان الأحد والكل منزعج من ثقل العمل، وحين أرسلت رسالة لقيصر أطلعه على ذلك كما اتفقنا في آخر مرة كي يكون لديه علم ولا يتفاجأ اتصل بي... وحين فتحت الخط جاءني صوت سرمد الخشن وأطرب مسامعي برفضه القاطع لخروجي مع زملائي .. ولأنني لم أرغب في إطالة حديثي معه... ولأنني شعرت بالقنوط من الحرب الخفية التي تحيطني من الطرفين أغلقت الهاتف في وجهه قبل أن أخبره بأن يهتم بشؤونه الخاصة وبأنه لا يملك السلطة لمنعي من فعل ما أرغب.

ثم إذا به يرسل من رقمه رسالة تقول وبالخط العريض: " فائن إن حدث ورايتك في المطعم ستسببين الإحراج لنفسك... وسأكون حريصاً على ذلك "

لم أرسل له شيئاً ولم أحاول تبرير غيابي للمجموعة، ذهبت لأختبئ في سريري وأخبرت نرجس بأنني لا أود التحدث مع أحد .. يكفي أنني اشعر بالثقيل ولا سبيل للفكاك من الحياة التي كتبت علي.

وبعد ساعة من ذهابهم ورغم أنني ادعيت النوم، لم أمتنع عن تفحص هاتفي في كل لحظة، كنت ولسبب ما أتوق للشجار مع سرمد .. أردت منه أن يتصل بي مرة ثانية كي أستمع لسعادة صوته وهو يخبرني بأني فتاة جيدة إذ استمعت لتقريعه ونجوت من كارثة اجتماعية كاد يسببها لي لو قررت مخالفة تحذيراته .. غير أنه لم يتصل .. ولم يرسل شيئاً، لابد وأنه واثق من كوني فتاة مطيعة وشعرت بالغضب والقهر طوال مدة بقائي في الدار... أتخيل أن الجميع يقضون وقتاً ممتعاً في حين أن ما ينتابني هو العكس .

وحيثما رن الهاتف معلنا وصول رسالة من نبيل، تكهنت بما سيقوله ولكنني تفاجأت حينما قرأت (مكانك خالي) وهي لابد وأن تكون مجاملة بحتة، ولكنها بدت من نبيل وكأنها تحمل طابع خاصاً، حتى أن منال أرسلت تقول لي بالحرف الواحد (اكتشفت أن نبيل إنسان خلوق حينما لا تكونين بالجوار) وذيلت الرسالة بإشارة وجه ضاحك، ثم عادت ترسل لتقول: (اسمعي، عليك أن تجدي عذراً ملائماً لغيابك .. لقد أوهمنا الجميع بأنك متعبة من الدوام وأنت خلدت للنوم) ثم عادت تقول من جديد: (فائن ، أنا أختنق .. إن نبيل يحاول شراء وجبة عشاء سريع لك) .. قفزت من السرير وأرسلت لها بسرعة (إياه .. امنعيه بكل وسيلة، سيفضحني أمام الجميع) فردت بعد دقائق عصبية (عودي للنوم ومن الأفضل أن تأخذ إجازة غدا .. الجميع يعرف بأنه مولع بك) وحينما استفسرت منها كتبت لي: (لأنهم ابتسموا حينما ناولني وجبة الطعام .. لماذا عليه أن يفسد مودته بتلك التصرفات المتبجحة !) .. وهل لي أن أعرف ؟! .. تأوهت واستمعت لنصيححتها .. عدت للنوم وأنا ألعن حياتي البائسة .

في صباح اليوم التالي شكرته على وجبة الطعام التي لم أستطع هضمها قطعاً وسط تلميحات البنات وتعليقاتهن الضاحكة على إصرار نبيل الشديد لشراء الطعام لي.. وتعمدت أن يكون شكري مقتضبا كي لا يكرر الأمر نظراً لأنه لم يعد مسموحاً لي الخروج معهم، وقتها ابتسم لي نبيل بخفة وقال: " فأتين لا داعي لأن تشكريني، بل كان من المفترض أن تأتي بدون أعذار واهية ".

قلت بحيرة: " عفواً!..! " أجابني قبل أن يدخل إلى وحدة الفحص: " السبب هو سرمد .. حينما رأيته البارحة يتسكع عند باب المطعم أدركت بأنه ينتظرك " ثم التفت نحوي وقال: " عليك أن تتحرر منهم يا فاتن لأنهم لن يدعوك لشأنك "

كان محقاً.. ولكن الأمر صعب بالنسبة لي .

الفصل السابع عشر

تقييد

فكرت في كلام نبيل عن نبيلي الحرية بعيدا عن أبناء خالتي، أخبرني لاحقا بأن طلبي للإذن منهم أمر خاطئ، فهم ليسو سوى أبناء خالتي وباستثناء أبي - ولي أمري- فلا أحد يمتلك الحق المشروع في الاعتراض على خروجي أو السماح به، أخبرته بأنه قد يكون محقا في كلامه لكن لأولاد خالتي السلطة علي فأنا قد تربيت معهم، وحاليا أعمل في مدينتهم، ولذا وجب علي إعلامهم بخروجي كي لا يتكرر ما حصل لي أول مرة حينما التقينا أنا وقيصر في ذات المطعم، جدالنا العقيم أنا ونبيل واختلاف وجهات نظرنا جذب اهتمام منال التي كانت تجلس معنا وتتطلع إلى هاتفها بملل، وحين ازدادت المناقشة حدة تدخلت لتلطف الجو ولكنها في النهاية وقفت في صف نبيل حينما أخبرها بأن سرمد كان منتظرا قرب المطعم كي يتأكد من أنني لم أخالف أوامره، وانبرت منال قائلة بتسلط: "هل لك أن تخبريني كيف عرف بأمر خروجنا؟"

أجبتها كارهة: " لقد أرسلت رسالة لقيصر ويبدو أنه قد قرأها"

هزت رأسها بتعجب من موقعي السلبي: " وهكذا .. بكل بساطة أوهمت الجميع بأنك مريضة في حين أنك كنت تطيعين أوامر المتخلف ابن خالتك ؟"

أجبتها بعينين محذرتين: " منال ، إنه ابن خالتي رغم كل شيء، وإن لم يكن يملك سلطة علي ولكن يتوجب علي احترامه .."

قاطعتني بتعجرف: " و إطاعة أوامره وكأنه ولي أمرك ..؟! فأتن .. ليس من المعقول أنك أنت من تتحدثين بهذه الطريقة، وقد قضيت سنوات الكلية تملئين رأسي بأرائك الحائقة بشأن تسلط سرمد والآخرين عليك .. "

قاطعتها وأنا أشعر باحمرار وجهي، واعية لحضور نبيل كان الناظر إلي بانزعاج كلي: " لم يختلف الأمر .. إنما أنا لست سوى ضيفة في المدينة، وهم في النهاية يعرفون مصلحتي ويخشون علي .. "

قاطعتني نبيل بكره: " منْ ماذا؟ .. منا ؟! .. ألسنا نعيش في عالم متحضر ؟ "

أجبتة وأنا أشيخ بوجهي بعيدا عن نظراته المتهمة: " كلا، الناس هنا يتحدثون .. أتذكر كيف كانوا ينظرون إلينا أول حضورنا للمطعم ؟ "

أجابني: " ثم كفوا عن ذلك بعد أن ألقوا حضورنا، هذا يعني أنهم أدركوا في النهاية أن خروجنا لا يبعث على الشك لأن الجميع مجرد زملاء عمل . "

أجبتة: " حسنا ... ولكننا مازلنا نجذب الأنظار و .. "

قاطعتني منال: " وإن يكن .. ومتى كنا نهتم لما يقوله الناس ؟ " وحينما لم أقل شيئا تابعت منال: " فأتن ضعي حدا للأمر .. في المرة القادمة، لا تقومي بإرسال أية رسالة، وهم عليهم أن يفهموا بأنك إنسانة مستقلة بذاتها لا يهتمك ما يقال "

لم أقل شيئا .. خاصة و الاثنان ينظران إلي بإصرار تام .. تمنيت في تلك اللحظة لو أنهما يعودان للخصام والجدال كأعداء حرب .. !

بعد يومين التقيت بسرمد، كان هو من دعاني إلى بيت جدي وأخبرني بأنه سيمر علي عند الساعة الرابعة عصرا، وحين غادرت الدار تمنيت لو أن الحظ يسعفني فلا يراني نبيل أتلسل في تلك الساعة، ولكني كنت سيئة الحظ دوما فما إن استقرت في سيارة علاء التي يقودها سرمد حتى صادف ذلك دخول نبيل إلى الدار، حاولت أن أشغل سرمد بالحديث كي لا ينتبه لدخوله ولكني كنت أتحدث مع باب موصد، فقد تبادل الاثنان نظرات غير محبة وقد جعلتني عينا نبيل أشعر بالخزي من جلوسي الطبيعي إلى جانب سرمد.

"إننا نلتقي على الدوام ..أتظنين أن القدر من يفعل ذلك؟" قال سرمد وهو يحرك السيارة مبتعدا عن الدار، أجبته بتعمد: "لا أدري عن من تتحدث؟"

رد علي هازلا: "عن نبيلك بالطبع "

أجبته بعنف: "إنه ليس نبيلي .." والتقت نظرانا بحدة، و سرعان ما أشرقت عينا سرمد السوداء: "إذن هو نبيلي، مادامت الأقدار تجمعنا بظرف "

لم ابتسم، بل أشحت بوجهي عنه، وبعد مضي وقت سألته بوجوم: "هل أرادت جدتي رؤيتي؟"

رد علي: " كلا، أنا من أردت رؤيتك " التفتت إليه وسألته متعجبة: " لماذا ..هل هناك شيء؟" ... كان وجه سرمد هادئا ولكن نظرات عينيه اتقدت فجأة: " هناك أمر هام أود البحث فيه معك "

تذكرت كلامنا الماضي في غرفته وارتعش قلبي دون إرادة مني، فتحت فمي لأسأله ولكنه تابع بتصميم " سنتحدث بعد العشاء، أريدها حالياً أن تكون زيارة اعتيادية "

أومأت له وقد تلاشت كل الأفكار التي زرعتها في رأسي عن كيفية التحرر من قيد أبناء خالتي ولأجل ذلك دعوت الله أن أكون متماسكة لما سيخبرني به سرمد .

كنت أظن بأن الحياة التي يعيشها سرمد عادت لتبدو مستقرة رغم أنه رجل حقوقي وناشط مدني، لم أظن أنه قد يكون متورطاً في أمور كنت أعجز عن فهمها في تلك الفترة، فبعد الانتهاء من العشاء طلب مني الصعود إلى غرفته بالشاي وحينما توقفت عند بابه خطر لي أن ذاك الباب أصبح ممر عبوري إلى عالم سرمد وأنا في كامل قواي العقلية، و ترددت في معرفة المزيد ثم التصرف وكأنني لا أعرف شيئاً.

كانت الغرفة تعبق برائحة السجائر الخانقة فأردت ترك الباب مفتوحاً، ولكن سرمد الجالس على السرير أمرني أن أغلقه ثم أضع صينية الشاي على الطاولة، اطمأننت لخلو الطاولة من السلاح فحملت قدحي وجلست على كرسي المكتب وأنا أحاول التصرف بطبيعية وكأننا نروم التحدث بأمور روتينية.

كأن المشهد يتكرر، فهو يكتب بمفكرته .. يبدو شارد الفكر وبعد دقيقة يغلق الدفتر ويرفع بصره نحوي ويقال : " أنت تعرفين بأن حديثنا في هذه الغرفة كان سرياً بيننا "

هزرت رأسي مومئة وأصغيت إلى ما يقول بكل عصبية: " الآن علي أن أقول لك شيء آخر، وهو سري كغيره من الأمور " حاولت أن لا أرتبك وأنا أسأله: " وهل هو أمر هام؟ "

نظر إلي بهزل فشعرت بمدى تفاهة جلوسي في حضرته، ازدردت ريقي " حسنا أنا أفهم ..تابع من فضلك "

" ناوليني قذح الشاي " امتثلت لأمره على مضض، وحينما أوقد سيجارة أخرى انبرى قائلا: " لقد استطعت التوصل إلى هوية الأشخاص اللذين كانوا ينبشون بملفاتي القديمة، وهم مجموعة ذائعة الصيت في الديوانية "

تصالبت في مكاني وأنا اسمعه يتابع: " الأمر يأخذ أبعادا أكثر مما تصورت، فهو يتعلق بقضية كنت استلمتها قبل سنوات "

حاولت أن أتذكر قضاياها التي كنت استمع لها أو أقرأها في الصحف، و أخذ سرمد ينظر إلي بتصميم أز عجني وكأنه يحاول زرع كلامه في داخلي: " قبل سنوات تكفلت بقضية دفاع لناشط مدني، كان مثلبسا بجنحة ارتكبها ضد مسؤول في مجلس المحافظة، القضية كانت بسيطة ولكن توابعها لم تكن كذلك، فحينما استطعت تبرئة عادل في جلستين فقط انقلبت الأمور تماما، تعرضت للتهديد أكثر من مرة واستطعت التملص لأنني كنت شابا مندفعاً ولم أهتم لحجم التهديد، عادل لم يتوقف عن نشاطاته هو الآخر والتي أفسدت العديد من الصفقات المشبوهة لذات المسؤول وهكذا تعقدت الأمور وتوالى القضايا ضد عادل حتى اختفى تماما قبل سنة "

انقبض قلبي: " اختفى ..؟! "

ذر الرماد في المنفضة الموضوعة إلى جانب سريره وأنهى شرب الشاي ليجبني بهكم: " لنقل أنه كذلك ..في آخر مكالمة بيننا أخبرني بأنه يسلك دربا آخر وبأنه قد لا يظهر لفترة طويلة... لم أستفسر منه لأنها كانت محادثة مختصرة ولكن حينما اختفى لأكثر من ستة أشهر بدأت بالبحث والتواصل مع أصدقائه الناشطين والمتابعين لقضاياهم، لم أجد من يفتقي أثره ..الجميع كان يجهل مكان تواجده ...وهكذا بعد مدة توصلت إلى حقيقة أن عادل لم يختف كما أوهمني "

ازدردت ريفي بخوف: " ربما يكون قد .. "

أشار مقاطعا إياي: " لقد قتل .. " شعرت بقلبي ينبض بخوف: " كنت أريد أن أقول مختطف .. "

رد علي بجدية: " كلا، المدة طويلة لأن يكون مجرد اختطاف ..وقد تأكد لي الأمر حينما توصلت إلى هويتهم "

احتبست أنفاسي في حلقي: " هل مازالوا يهددونك ؟ "

أخذ يدخل لفترة صامتا ثم أجابني: " يمكنك أن تقولي بأنني ملاحق حاليا من قبلهم، هم يظنون بأن خلافي مع العشيرة كاف لردعي عن الموضوع ولكني خيبت ظنهم " وذر الرماد في المنفضة.

توقد وجهي: " ماذا فعلت ؟ "

هز كتفيه: " كشفتهم ..ومن ثم قمت بتهديدهم "

عاد قلبي يطرق بقلق: " وماذا حصل بعدها ؟ "

لم ينظر نحوي وهو يجيب: " لم يحصل شيء " ورفع بصره باتجاهي وقال يختبر ردة فعلي: " ولكن قد يحصل شيء على الأغلب "

ازدردت ريقي .. وشعرت العرق ينضح من يدي: " أتظن أنهم سيقومون بـ.. " ولم أستطع إنهاء جملتي .. كان التفكير بحد ذاته يحرق قلبي.

هزل سرمد: " هم لن يقوموا بقتلي يا وردة، الأمر أكبر من ذلك "

كنت أحاول أن لا أصرخ .. أن لا أنهض وأفجر غضبي فأنهيت لأن أقول بصعوبة: " ماذا إذن ؟ "

كان لا يزال ينفث الدخان من سيجارته: " قد يصلون إليكم بمنتهى السهولة "، ارتجف قلبي وأنا أسمعه يتابع ناظرا إلي بتصميم بالغ: " إليك أنت بالذات "

حينها لم أستطع الصمود .. وقفت على قدمي وصحت بوجهه ثائرة: " أتدرك ما تقوله ؟ أتظن أن الأمر سهل علي ؟ أن أجلس وأستمع إليك بأعصاب باردة ؟ " وتابعت بلهجة عنيفة : " سرمد، هؤلاء الناس خطرون .. لن يتوانوا عن تدميرك أنت والعائلة كلها "

أجابني ببرود: " لن يستطيعوا .. أنا قادر على حماية أهلي "

توقفت أنظر إليه مصدومة : " وماذا عني أنا ؟ "

أنهى سيجارته ثم... وقبل أن أعي ذلك سحبني من كمي وأجلسني على السرير بفضاظة .. شعرت باحتقان وجهي وكدت أصرخ في وجهه منفجرة ولكنه قال بقسوة: " أنصتي إلي وكفك تفاهة "

صحت غير مصدقة: " أنا تافهة ؟ ..أنا جالسة هنا أستمع إليك في حين أنك ..أنت .. "

قاطعني بعنف: " فأتن أصمتي "

فصمت ولكني وددت أن أثب عليه ..أن امسك بخناقهِ وأهزه حتى يتوقف عن التصرف ببرود وكأنه لا يتكلم عن أمر مصيري.

تحدث ببعض الحدة: " الآن اسمعي ..من المؤسف أن أمر حمايتك صعب، هذا لأنك وبكل غياب أصررت على البقاء في الدار بدلا من هنا ولكن هذا الأمر سيتغير في الأيام القادمة "

قاطعته منفعة: " أنا لن أغير مقر سكني فقط لأن حضرتك قررت هذا، الأمر الذي لا تفهمه يا سرمد هو أنك تصرفت بما يمليه عقلك ناسيا بأنك تملك عائلة هنا ..بأنك تملك أشقاء عليك أن تقلق بشأنهم و..".

قاطعني بهدوء بارد: " أنا لم أنساهم "

انفجرت فيه: " إذن نسيتني أنا ..أليس كذلك ؟ "

أشاح بوجهه وبدت معالمه ضجرة وكأنه يعتبر أمر حمايتي تافها بقدر غضبي عليه.

أجابني بعد مضي وقت: " يمكنك أن تقولي بأن الأمر غاب عن ذهني، ولكن حدث شيء جعلني أقلب الأمور في فكري لمدة " وتابع وهو ينظر إلي: " بعد أن توصلت إليهم اكتشفت إن أحد المتورطين بالأمر موظف صحي يعمل في مركزكم " ونظر إلي نظرات ثاقبة: " إنه ينتمي لذات حزب المسؤول ..وهذا يعني أنه يعرف جيدا بأننا أبناء خالة" توقف مرة ثانية مما دعاني لأسأله بحذر: " من هو ؟ هل أعرفه؟ "

أجابني: " لا أريد أن أكشف هويته حتى لا تجذبي الأنظار إليك ..المهم ما سأقوله لك " وتابع: " عليك أن تتصرفي بطبيعية ولكن بحذر، هؤلاء الناس حسب ما تشرفت حضرتك وذكرتي خطرون ..يبيدون وكأنهم طبيعيون ولكن الحقيقة غير ذلك "

استوعبت كلماته بهدوء، رغم خطورة ما يقول لكنني شعرت بأني قادرة على متابعة حديثي معه: " ما الذي علي فعله أيضا ؟"

أومضت عيناه: " تنتقلين إلى بيت جدك "

أردت أن أرفض بإصرار ولكني سألته: " وماذا أيضا ؟"

" تلتزمين بالأوامر، هنا أستطيع حمايتك نظرا لكونك جزء من البيت، علاء سيقوم بإيصالك إلى المركز، ولكن لا أريد أن يصل الموضوع لأي مخلوق آخر، ولولا أنني أخشى على سلامتك لما أخبرتك بالأمر، وهذا يعني أن من غير المسموح لك أن تخرجي أثناء الدوام بدون علمي ولا حاجة لأن أذكرك بأن الخروج مع الزملاء إلى المطاعم مرفوض تماما "

ورغم إحساسي المغموور بالرفض، لم أعترض لأنني أردت معرفة أمر أكثر أهمية: " وحتى متى علي الاستمرار في نظام كهذا ؟" ..

أجابني وهو يدخن سيجارة أخرى: " حتى يستتب الوضع وأقول لك بنفسي أن تكفي، المهم أن تتعاوني معي يا فاتن "

نظرت إليه بنظرة ذات معنى: " لهذا السبب منعنتي من الخروج قبل يومين إلى المطعم ؟"

لم أود فتح الموضوع بهذه الطريقة ولكن علي أن أتأكد، ألقى علي نظرة حادة: " تبدين ممتعة ..فاتن شئت أم أبيت الخروج مع الزملاء بتلك الطريقة يجلب الأنظار والأقاويل "

قلت بقليل من الحدة: " لذلك كنت واقفا عند المطعم تنتظر قدومي .. أليس كذلك؟ " ، ومضت عيناه بطريقة خطيرة: " حسنا، ومن أخبرك هذا؟ ..لابد وأنه المبجل نبيل ..لأنني لا أظن أن أحدا يعرفني غيره"

لم أحبه .. شعرت بالانزعاج يكتم أنفاسي ..إنه لا ينفك و يقتلع مصدر هدوئي حتى وإن كنت املك بعض الحق ..!

أخذت نفسا عميقا: " سأتعاون لأنني أدرك جدية الأمر ولكن لا فرق بين بقائي هنا وبين الدار ..لأن الدار محمي أيضا و .. " .

قاطعني بهزء: " وأنت واثقة لهذه الدرجة من الحرس في المستشفى؟ ..إن كان موظف في الصحة منتم للحزب ذاته ..ألا تظنين بأنهم قادرون على الوصول إليك بسهولة؟ "

قلت بعناد: " حسنا وماذا عن بقائي في المركز طوال النهار؟ ..أنا أقابل العديد من المرضى هناك .. " . قاطعني بحدة: " حينما تكونين جزء من هذا البيت سأتكفل بحمايتك في كل مكان .. غير أنني في الدار لا أستطيع فعل ذلك "

قلت بذات لهجته: " حسنا .. لا ذنب لي فيما يحصل، كان عليك التفكير بالعواقب قبل تورطك في الأمر يا سرمد، أنت لست مقطوعا من شجرة ورغم كل أسبابك الإنسانية في تولي قضية مثل هذه، لكن كان عليك أخذ الحذر قبل كل شيء "

ضاققت عيناه بحدة: " ماذا يعني هذا ؟ "

وقفت على قدمي، كنت بحاجة لأن أشعر ببعض التفوق عليه وقلت أجيبه: " هذا يعني بأنني سأطيع أوامرك في كل ما أخبرتني به ولكن ماعدا انتقالي إلى هنا، الأمر مرفوض تماما لأنني لا أملك عذرا مناسبا لانتقالي بعد إصراري الشديد على البقاء في الدار .. وإن انتقلت إلى هنا سأواجه تساؤلات لا نهاية لها "

كنت ألاحظ تعابير وجهه التي لونها الغضب، واستمر ينظر إلي هكذا لعدة ثوان لأنه عاد يسألني ببرود: " تساؤلات من قبل من ؟ "

لم أظهر شيء من انفعالي وأنا أجيبه: " من قبل الجميع ..بيت جدي ..زميلاتي في الدار، وأيضا لأنني مسجلة رسميا في دار المستشفى بأمر إداري من الصحة، كيف سأتعامل مع هذا برأيك ؟ "

تحرك سرمد ليقف على قدميه و ارتأيت أن أعود خطوة إلى الوراء لأنه أصبح قريبا مني: " دعينا نكن صريحين ..أنت ترفضين المجيء إلى هنا لأنك ببساطة لا تحبين هذا "

قاطعته بعنف: " أنا لم اقل شيئا كهذا "

" لا حاجة لأن تقولي ..كان مقترحا ليس إلا ..ولأنني لا أود التعامل مع عنادك التافه هذا فساعدك تفعلين ما تودينه " ثم أشار إلى قدح الشاي وصرفني بطريقة فظة: " خذي الصينية واتركيني لوحدي "

حينما أنهى الحديث بتلك الطريقة الجافة، شعرت بالإهانة ولكنني تمسكت بعنادي ..يكفي أني مجبرة على البقاء في حدود معينة... وهكذا انصرفت من غرفته بكل هدوء .

في الدار وبعد عودتي سحبتني منال إلى الغرفة وسألتنني إن استطعت
التحدث مع أبناء خالتي، وبالأخص سرمد عن ضرورة وضع حدود
لتحكمهم في حياتي، لم أستطع قول شيء... فكل ما فكرت به لم يعد له
معنى، ولن أستطيع إخبارها بأني أصبحت أكثر تقييدا من ما كنت يوما
في حياتي...!

الفصل الثامن عشر

أحلام

أدركت في يوم ما بأن أحلامي أصبحت تأخذ منحى آخر، لم تكن أحلاما معقدة التفسير ..كنت دوما أرى نفسي في الحلم وكأني أسير على ارض صلبة ..أكاد أشعر بقسوتها تحت قدمي الحافيتين وكنت أستريح إلى شجرة صلبة ثم أعود السير وكأني لا اشعر بالتعب ثم هناك على مدى أفق بعيد أرى جدتي تستريح على ذات الشجرة ولكنها لم تكن امرأة عجوزا ..كانت في ثورة شبابها ولسبب ما لم أعرفه، رأيتني أشبهها ..تبتسم هي لي ويغدو وجهها ناضحا بسعادة لا لبس فيها، ثم تدعوني لأجلس إلى جانبها وتسرد لي قصصا عن أحداث مرت ..عن أمور لم أكن أعرفها وكنت أشعر بصفاء روحي وأنا جالسة قربها ثم أستيقظ من الحلم وأشعر بأنني مررت بتجربة روحية فريدة ..جدتي كانت البلسم الذي يلون حياتي ..غير أنني ولأسباب لا معنى لها ابتعدت عنها في الفترة الأخيرة ..أكانت أحلامي تلك إشارة كي أعود وأعوض عن جفاء غيابي في الأسابيع التي خلت؟..كنت أحاول أن أبتعد عن بيت جدي لأنني لم أعد أشعر بالراحة هناك ..بعد لقائي الأخير مع سرمد شعرت بأن البيت الذي نشأت فيه لم يعد مصدر أمان لي ..الدوامة التي وضعني بها انتشلتني من واقعي التافه ..وأمرور حياتي التي لا معنى لها ..لم أكن خائفة بقدر ما كنت منزعة مما حصل ..لم أغادر الدار إلا لأنني مجبرة على الذهاب إلى عملي ...ولم أحاول أن أتواصل مع زملائي بشكل طبيعي ..كنت أقفل على أفكاري في دوامة الخطر التي حاول سرمد البائس وضعي بها ..ولكن بعد أن بدأت احلم تلك الأحلام الغريبة

التجأت إلى نرجس .. وكانت الأخيرة بارعة في تفسير أحلامنا شئنا أم أبينا...كنت أشعر وأنا أجلس قربها بأن نرجس صديقتي التي أعرفها تختلف تماما عن تلك الغامضة التي تبتسم ابتسامة ذات معنى لتخبرني بأنها تعلم كل شيء ..!

" إنك تسيرين على خطى جدتك " هذا كان تفسيرها للحلم المتكرر في كل ليلة .. ولم يسعدني تفسيرها لحلمي قط .. فحياة جدتي كانت حافلة بالمصاعب .. منذ تربيتها كطفلة يتيمة مع شقيقة واحدة في بيت عمها الكبير ثم وفاة شقيقتها الكبرى قبل زواجها من ابن عمها الأكبر بأيام قليلة، فارتأت الظروف أن تتزوج هي من ابن عمها وأنجبت ثلاث بنات دون صبي واحد .. وقد كان هذا بمثابة الحد الفاصل بينها وبين بيت عمها .. فهجرها زوجها ليتزوج من إحدى قريباته، والتي لم يسعفها القدر بولادة أي مولود له ثم توفي بعد ذلك في الخمسينات من القرن الماضي، تاركا جدتي مع بناتها الثلاث دون معيل من أحد .. لقد مرت بظروف قاسية و رغم ذلك فهي لم تيأس وحمّت بناتها بكل ما أوتيت من قوة وحتى يومنا هذا فهي لا تزال تعاني المرض ولكنها بالنسبة لي صلبة العود ذات طبيعة مرحة وإيمان كبير بأحفادها .. وبالمستقبل البعيد المشرق.

مرت ثلاث أسابيع كاملة لم أذهب بها إلى بيت جدي، اكتفيت باتصالات هاتفية بسيطة لأسأل عن أحوالهم ويبدو أن الجميع تقبلوا امتناعي دون السؤال عن السبب، رغم ذلك فأنا مررت بفترة شعرت فيها بأن مقاومتي ستضعف وبأنني لن أنفك واستأجر أول تاكسي لأذهب واخبر سرمد بأنه لا يملك الحق في جعلي أعيش ظروفًا متذبذبة مثل تلك .. ولأنني نادرا ما أخرج من الوكر الذي سمته منال لي .. (الدار) استطاع نبيل خلال الأيام الماضية الولوج إلى عالمي المتنوع برسائله

واتصالاته البسيطة التي لا تتعدى الدقائق .. كأن يسألني عن أحوالي،
بالرغم من أنه لم يفارقني في الدوام ولكن حدث وأن أخذ إجازة ليومين
عاد بها إلى كربلاء لأمر تتعلق بمنزل عائلته المعروض للبيع بعد
سفرهم .. وقد اختفى لأربعة أيام مع يومي الجمعة والسبت ... و رغما
عني شعرت بأني أفقده بشدة ..!

وفي ليلة السبت أرسل لي رسالة هاتفية بعد غيابه ذاك قال فيها (كيف
هي حال فاتن ؟)

أردت أن اكتب له بعد أن شعرت بقلبي الموصد بابه يرتخي قليلا (أنا
بحاجة للصراخ ..!) ولكني لم أكتب له .. انتظرت منه اتصالا وقد فعل،
وأخذ يعاتبني بصوته الرقيق المتفهم: " فاتن .. تتصرفين بلا مبالاة
.. يمكنك فقط أن تقولي كلمة واحدة في الرسالة (بخير) هي كل ما أود
سماعه "

قلت لها بلهجة مقفلة: " بخير ...! "

فاخذ يضحك مما جعلني أرتعش من صوت ضحكته المميزة الدافئة: "
وأنا بخير مثلك ..قولي لي إذن كيف قضيت تلك الأيام من دوني ؟"
رأيت وجهي يحمر في المرأة الجدارية الطويلة وأجبتة: " لم تكن أياما
طويلة "

أجابني بصوت مازح: " كانت كذلك بالنسبة لي .. اشتقت لأجواء الكآبة
التي تمطرنا بها حضرة الدكتورة فاتن " . تصلب قلبي وأنا أتذكر لسانا
آخر ينطق بتلك الكلمات الباردة المستفزة ..سرمد ..!

" لا تعد إذن " قلتها ببرود وتبددت دقات قلبي.

" سأعود بالطبع ..وسأخرجك من هذا الجو الكئيب، فاتن التي أعرفها
تحمل طبعاً مشاكساً رغم برودها هذا "

أخبرت نفسي ..فاتن لم تعد فاتن !..

" نبيل أنا بخير ..أنا فقط متعبة وأنتظر الشتاء وتغير الأجواء قليلاً "
قلتها ساهمة.

رد علي: " ولكنك تكرهين الشتاء ..الشتاء يصيبك بركود نفسي، ألم
تخبريني بهذا في يوم ما ؟"

لم أخبره هو بالذات ..قلتها في إحدى تجمعاتنا في وحدة الحشوات ولكنه
كعادته لمأح لكل ما أقول ..

أجبتة على مضض: " حسناً أنا أشعر بغربة حالياً بابتعادي عن أهلي،
كل ما أحتاجه الآن أن آخذ إجازة طويلة أعود فيها إلى الحلة " وأضفت
لنفسي: و أنسى كل شيء.

" لا يمكنك بالطبع ..لن تحرمينا من رؤيتك لفترة طويلة "

ابتسمت ببرود: " أنت غائب منذ أربعة أيام.. " ثم إذا به يقاطعني
بضحكة دافئة ويقول: " أه إذن كانت أياماً طويلة بالنسبة لك ..كيف لك
أن لا تعترفي ؟"

لن أعترف ..لماذا علي أن أجعله يتمادى أكثر ؟..لماذا علي أن أقول له
بأنني افتقدته في الوقت الذي أرغب بالابتعاد عن كل شيء ؟!.

وعدت أفكر بالحلم وشعرت بأني أتلاشى في تلك اللحظة .. أنا لن أسير على خطى جدتي .. هذا ما أعرفه .. لأنني لم أكن يوما محاربة قط .. ولن أنجب أطفالا إلى عالم لست مؤهلة للعيش فيه بسلام .

" فأتين أين شردت؟ .. " جاءني صوت نبيل فقلت أجيبه وأنا اخذ نفسا عميقا: " كنت أفكر فقط .. هل .. " وفركت جبينني لأتذكر شيئا عن حياته في كربلاء: " هل انتهيت من أمورك في المدينة؟ "

أجابني وهو يأخذ نفسا عميقا بدوره : " كلا ، الأمور لا تزال على حالها .. لم يعجبني السعر الذي وضعه المشتري " سألته: " ولكن لماذا تود بيع المنزل .. أليس الأحرى أن تؤجره ، ستستفيد من ماله فيما لو سافرت إلى عائلتك "

" أنا لن أسافر "

قفزت من السرير وأنا اشعر بأنه ألقى دلوا من الماء علي .. " لن تسافر؟ "

أجابني بصوته الحازم القادم عبر المسافات: " أنا املك منزلا آخر .. وعائلتي حاليا يحتاجون المال لشراء منزل في أمريكا قرب بيت جدي .. "

تلعثمت وأنا اشعر باضطراب كياني: " طيب .. كيف .. لماذا لا تود السفر إليهم؟ .. أنت ابنهم الوحيد ولا بد وإنهم يحتاجون وجودك " .. لم أجد أسوأ من هذا .. كنت أريده أن يقول العكس .. سأسافر .. وسأبدأ حياتي هناك .. وكل ما أحاول فعله معك الآن ليس له أي معنى .. كنت سأتنفس براحة لو أنه أخبرني بذلك .. وربما سأرقص مع منال في الليل احتفالا بحياتي الخالية من نبيل ..! "

أجابني وكأنه يقرأ أفكاري: " يبدو أنك تودين التخلص مني ..؟" خرج صوته مرحا وهبط قلبي بجزع .. أنا فاشلة دوما في التعبير عن أفكاري الاجتماعية.

" كلا ، أنا فقط مستغربة " استجمعت شجاعتي: " كنت أظن كالجميع بأنك ستسافر بعد أن تنتهي من إقامتك الدورية " كنت اعد أربعة اشهر وسأنتهي من وجوده .

" كلا فاتن .. السفر حاليا مؤجل، أنا أنوي الاستقرار في كربلاء بعد انتهاء كل شيء .. علي أن أبني حياتي وأستقر في عملي "

هذا يعني أنه يود فتح عيادة بإسمه .. وربما ينوي الاستقرار بالفعل و يتزوج .. وجعلتني تلك الفكرة أشعر بالهلع.

" وربما أجد زوجة لطيفة غير نكدية تمطر حياتي بالعسل " وضحك جاعلا إياي أشعر بخجل كبير : " أنت تمزح حقا .. ليس هناك زوجة لن تنكد على حياة زوجها "

سألني بتسلية : " وماذا عنك أنت؟ .. أتكونين زوجة نكدية أم غيرها ؟"

حينها أجبت به بانتصار: " أنا لن أتزوج أبدا "

وقلت في داخلي .. لن أسير على خطى جدتي قط ..!

ولأنني لم أنزل إلى منزلي هذه العطلة ... ذهبنا في صباح الأحد إلى الكافيتريا لتناول الفطور أنا و نرجس ومنال، ثم وافانا أحمد وانزوت نرجس بعيدا عنا لتتناول الفطور مع خطيبها، فيما جلسنا أنا ومنال بكآبة

تتطلع الواحدة منا إلى الأخرى حتى انتهت منال لتقول عابسة: "إننا حدائق أليس كذلك؟"

كان مصطلحا لطيفا يصف حالتنا ..وكان الأخرى بها أن تقول بأننا معاقتان عاطفيا ..!

أجبتها وأنا أرتشف الشاي: "لسنا الوحيدتين ..هناك داليا، ريهام وهند " ردت علي: " لابد وأن كل واحدة منهن لديها قصتها الخاصة بها " وأخذت تأكل دون أن تنتظر ردي بينما رحت أنا أفكر بريهام وقصتها المستحيلة مع محمد، لكني لم أتفوه بشيء بل قلت بدلا من ذلك: " لقد أضعت العديد من الفرص لتكوني مرتبطة برجل ما يا منال، ولذا عليك أن لا تبتئسي الآن "

وقد رفضت منال العديد من الزملاء الذين تقدموا لها خلال فترة الكلية، وكانت تقدم أسبابا قاطعة لكون: لا أحد أعجبها ..ردت بقسوة: "لأنهم لم يكونوا رجالا ..كانوا شبانا تافهين، أنظري إليه الآن .." وأشارت إلى أحمد الذي كان يرمق نرجس والحب يرقص في عينيه: " مجرد النظر إليه يجعلني أشعر بالقرف ..ليس هناك حقيقة في الذي يعيشه أحمد الآن، إن غرائزه هي التي تقوده حاليا ..والأنثى المسكينة تظنها حبا .."

قاطعتها بهمس: " لا تتحدثي عنه بهذه الصورة ..إن أحمد رجل محترم" وكنت أنظر لهما ولا اشعر بشيء إطلاقا ..كنت محقة ..إننا بالفعل معاقتان عاطفيا ..!

شخرت منال هازئة: " الاحترام شيء وتبادل العاطفة يمثل تلك السذاجة شيء آخر، سيأتي يوم ولا يعود ينظر إليها بتلك الطريقة ..أتدركين ما سيحصل حينها؟ .."

لم أجبها .. هزرت كتفي بقنوط، بينما تابعت تقول باشمئزاز: " سيكسر قلبها وسترى أنها كانت تعيش في دوامة وهم لا نهاية لها " نظرت إلى منال وشعرت بشيء غريب يكتنف صوتها ..كنت لسنين طويلة أستمع لثرثرات منال الكارهة لجنس الرجال ..ولكن هذه المرة كانت مختلفة .. لماذا كانت كذلك ؟..؟..

عينها تلمعان بحقد وقد غامتا بتعبير جعلني أشعر بالقلق، فصديقتي هذه قد أخبرتني منذ تعارفنا قبل ست سنوات أنها لم تمر بتجربة عاطفية قط، لقد واكبتها خلال سنين الكلية تلك ..لم يهفو قلبها تجاه أي شاب ما ..أتراها كذبت بشأن ذلك؟ ..وهي ربما مرت بتجربة سيئة جعلتها تكره صنف الرجال ..المحبين منهم خاصة ؟!

كتمت شكوكي لنفسي وجرعت الشاي الحار مرة واحدة، أصبحت أهذي في الفترة الأخيرة ..وكل ذلك بسبب الحالة الكئيبة التي مررت بها بعد لقائي الأخير بسرمد.

قلت وأنا آخذ نفسا عميقا: " على كل حال، هما الآن مخطوبان ويعيشان في حلم ما ... " "...وهم ما... عفوا" قلتها بعد أن احتدت نظراتها وتابعت بكياسة: " علينا أن نكون سعيدتين لأجل نرجس ..فهي فتاة محبة ويعشقها الجميع "

لوت منال شفيتها وقالت: " وأنا أحبها أيضا وأتمنى لها الخير ..ولكنها ستضيع في حلم وردي لا صلة له بالواقع وستألم كثيرا .."

ارتجف قلبي لكلماتها القاسية، إن كان هذا رأيها بنرجس المخطوبة،
فماذا ستقول لو علمت بقصة ريهام؟

ذهبنا للمركز بعد ساعة واستقبلنا أهل الديوانية بأعداد هائلة.. وهذا أكثر
ما يجعلني أكره أيام الأحاد، وقد جاء نبيل متأخرا كعادة جميع الوافدين
من المحافظات: ريهام، داليا، سوسن وسمية بالإضافة إلى العديد من
الأطباء.. وسرعان ما امتلئ المركز بالناس وتبادلنا التحيات وتوجه
الجميع إلى عمله، أما نبيل فقد توقف قربي وأنا أفتتح يومي بأول
مريض لي في الحشوات، غمز لي هامسا: " كيف هي المعنويات في
صباح اليوم؟ "

أجبتة بعينين متسعيتين: " عالية.. وصل عدد المرضى إلى العشرين
ونحن في الساعة الأولى فقط! "

ابتسم لي: " حسنا ابتهجي وأنت تعملين.. لازلت عند وعدي "

كيف يا ترى سيخرجني من مزاجي الكئيب.. كنت سأفرح لو أنني
سمعتة يقول البارحة بأنه سيسافر.. ولكن الآن بدت أفكاري تلك سخيصة
..من أنا لأفرح لسفره أو عدمه ..؟..

أومأت له ثم انكفأت على عملي وهو خرج ذاهبا إلى غرفة الفحص،
التقينا بعدها عند الساعة الثانية عشرة، جلس عند المكتب وأخذ يتحدث
إلى أحد زملائنا ويضحك لشيء ما فيما كنت أنهي عملي وأودع
المريضة مع دسنة من التعليمات للحفاظ على حشوتها سليمة حتى موعد
الجلسة الثانية، غسلت يدي وذهبت لأجلس إليهما وسألني نبيل إن كنت
جائعة فقد طلب الطعام من مطعم ما.. رفضت شاكرة وأخذت أتطلع
بجهازي، سمعت بعدها زميلي: الدكتور أحمد فاروق يقول لأحمد

خطيب نرجس: " كان آخر ظهور له قبل أسبوع والأخبار تقول بأنه ربما قد يكون مختطفا "

تجمدت في مكاني وتطلعت إليهما بحذر، خشيت أن اسأل ..كانت كلمة مختطف في الآونة الأخيرة تشكل رعبا بالنسبة لي ..تحدث نبيل قائلا: " السيناريو المعتاد ..فلان اختطف والآخر اختفى، إنهم ساسة ..والساسة لا يصيبهم شيء !"

ولكني ازدردت ريقي ..لا مبرر لقلقي ..المختطف قد يكون شخص ما ..بعيدا عن كل أفكاري وتكهناتي المتضاربة.

أجابه أحمد: " بالضبط ..الحياة ما عادت تنصف الناس، هناك أرواح تزهق لأجل قضية خاسرة "

من جانبه علق أحمد فاروق بهدوئه المميز: " المثير للتعجب: كيف يمكن أن يختطف وهو محاط بسرب من الحماية؟ " شخر أحمد الآخر: " بل قل سرب من المدرعات ..قبل أيام مرّ من قرب بيت عمي في الدغاره، وأخبرني ابن عمي بأن الجيش مر من شارعهم "

ضحك نبيل وعلق قائلا: " إذن لابد وأن الذي اختطفه شبح ما، فكيف استطاع التوغل بين المدرعات ؟"

تمتم أحمد بشيء أشبه بأن المخطوف فاسد حتى النخاع وشعرت بأنني أرتجف، أردت السؤال عن هويته ولكني خشيت أن يفضحني صوتي، راقت نبيل وهو يسحب الجريدة الملقاة بإهمال على سطح المكتب ويقرأ الخبر بصوت عابس: " كريم الدجيلي مختف منذ أسبوع ..عائلته تقول بأنه خرج مع حمايته لأجل لقاء المحافظ بعد الساعة الثامنة ليلا ثم لم يعد بعدها، سيارته مختفية هي الأخرى ..أفراد حمايته الأربع

الخاصون به مختلفون أيضا ..تبا .. " ورمى الصحيفة على المكتب وتمتم: " النائب مختف والأخبار ممتلئة بقصص عنه ..إننا نعيش في شرك سياسي ليس إلا "

والتفت نحوي ليقول مازحا: " الأفضل لنا أن نملئ بطوننا بالطعام بدلا من التحدث عن السياسة الفارغة أليس كذلك ؟" شكرت ربي لأنه لم يلحظ أي تغير في وجهي أجبتّه وأنا ازدد رريقي: " بالطبع ..الطعام أولا " ولكن عيني كانتا معلقتان بهاتفي ..وكنّت أنظر إلى الشاشة بشرود كلي ..بعدها تحرك كل شيء من حولي، بحثت عن رقم ما بين أرقام هاتفي العديدة، أخذت نفسا عميقا وأرسلت رسالة إلى سرمد (مرحبا ..هل يمكنني التحدث معك إن لم تكن مشغولا ؟)

وانتظرت رسالته بفارغ الصبر، لاحظت نبيل توتري و سألني بصوت هامس: " هل أنت بخير ؟"

أجبتّه : " أنا متعبة فقط ..أعذرني للحظة " وضممت هاتفي لأخرج من الوحدة بعد أن شعرت بالاختناق ..ذهبت إلى الممشى الخارجي وأنا أتفحصه وقلبي يطرق بانتظار رهيب ثم رن بوصول رسالة من سرمد، فتحتها على عجل وقرأت (أنا مشغول حاليا ..سنتحدث في الليل)

أرسلت أكتب بيدين مرتجفتين (الأمر هام لو سمحت)

أرسل يقول (بخصوص ماذا؟)

كتبت له (بشأن نائب المحافظ)

لم يرسل شيئا بعدها، اتصل بي رقم غريب بعد دقائق وأيقنت بأنه سرمد، وكان ظني في محله حيث بادرني قائلا: " أنا مصغ .."

ماذا عساني أقول له ..كلماته كانت باردة كصقيع روحه ..استجمعت شجاعتي وقلت: " لقد قرأت في الصحيفة أنه مختطف "

أجابني بصوت اعتيادي: " هنيئاً لخاطفه إذن .. "

سألته متلعثمة: " أنت لست .. هو ليس .. "

سألني بتهكم: " لست ماذا ؟ ..أتراك تظنين إنني قمت باختطافه ؟ "

ازدردت ريقي: " لا أعرف ..أنا قد قرأت الخبر وشعرت ..شعرت .. " لم أستطع إكمال جملتي، لقد جعلني التوتر أغلق فمي وأتممت باعتذار أجوف: " آسفة ..لابد وإني أصبحت أخرف "

رد بنبرة متسلية: " لا على الإطلاق، الحقيقة أنني لم أغادر منزلي طيلة أيام الأسبوع المنصرم، كنت أدرس قضية ما ولكن يعجبني أنك قلقت بشأني يا وردة "

أخذت نفسا عميقا وشعرت ببعض الراحة: " أنا اعتذر ..فكري مشوش منذ لقائنا الأخير و.. " قاطعتني ضحكته الجهورية وأدركت بأنه سيعود للسخرية مني.

" كم أنت مسكينة يا فاتن، لم أضع في الحسبان أنك لا تستطيعين تحمل كل ما قيل لك ..الآن اسمعي ..تعالى لنا اليوم ..الكل مشتاق لك " وجعلني كلامه أرفرف كالفراشة ولكني قبعث في مكاني ..مزاج سرمد اعتدل تماما وكنت اخشي ذلك ..فأنا ببساطة لا اعرف كيف أتصرف معه ..فهو لسنين طوال كان كشوكة تحز خاصرتي ..!.

أخذت نفسا عميقا: " يبدو مناسبا ..هل تأتييني أنت أم علاء ؟ "

سألني بتسلية: " أتحبين أن آتيك أنا ؟.. "

" لا بأس أخبرني بالوقت كي أتحضر "

واتفقنا على الساعة السابعة مساء ثم أنهيت الاتصال، بعدها عدت إلى وحدة الحشوات فرأيت الجميع يتناول الطعام حتى زميلاتي الفتيات، ويبدو أنهم طلبوا وجبة طعام كاملة بينما أشار إلي نبيل لأعود واجلس قربه فجلست وأنا أقول له مبتسمة: " أنت مسؤول إعاشة ممتاز ..ماذا سيقول الطباخون في الدار بعد طلبك لكل هذا الطعام ؟"

ضحك الجميع موافقين ولكنهم استمروا يأكلون وأجابني نبيل بصوت خافت بعيدا عن مسامع الكل: " أردت أن أراك مبتهجة ..ويبدو أنك كذلك الآن " التفتت نحوه والابتسامة على شفتي ..أجبتة: " حسنا أشكرك ..ولكن إن أردت أن تبهج شخصا ما ..اشتر له الحلوى و السكاكر و ليس وجبات طعام كاملة "

غرق في الضحك وشعرت بأن وجهي يحمر بعد أن تطلع الكل نحونا ..حسنا ..كنت أتحدث إلى زميلي ..لا موجب لكل تلك النظرات الغامزة ..

بدأت أتناول وجبتي ولكني شعرت باللقمة الأولى تتحشر في مكان ما في داخلي، كان صحن الطعام موضوعا فوق صحيفة مفروشة للحفاظ على المكتب من بقايا الطعام ..صحيفة الساعة التي لطالما احتوت أخبارا مدنية وتناولت قصصا لناشطين مدنيين وأذكر بأن سرمد كان يكتب العديد من المقالات في ذات الصحيفة ..وكنت أقرأها وأشيد بأسلوبه الخالي من التكلف وطريقته في طرح المواضيع والسخرية من الوضع الإداري المزري لوزارات الدولة ومؤسساتها كافة ..وقد تعلق عيناى بالعنوان الكبير لحادثة اختطاف نائب المحافظ كريم الدجيلي

..ولا أعرف لماذا أردت أن أقرأ ما قيل له .. خاصة وأنني سمعت ما قاله نبيل عن الحادثة ولكنني أردت التأكد من أن شكوكي ليست في محلها ..وربما كنت أشعر بحدس ما ..حدس جعلني أطلع إلى إحدى فقرات المقال المتعلق به ..وقرأت بصمت:

(هذا وقد سبق وقد اتهم المذكور أنفا بأنه شبه مسؤول عن اختطاف زميلنا الناشط المدني عادل سعادة ، الكاتب ذو القلم الذهبي والذي لطالما دافع عن الحق ونصر المظلوم بكتاباتة التي أرهقت أذان الساسة الكبار، فتوجهت الأبصار إليه، لكن ذلك لم يوقفه عن نشاطاته المدنية ..فقد اعتقل واختطف وهدد لأكثر من مرة ..قبل أن يختفي تماما قبل سنة دون ترك خبر لأي من محبيه ..)

واستمر المقال يذكر العديد من الأحداث التي جعلت عادل سعادة يتواجه مع المخطوف حاليا كريم الدجيلي بعد أن قام بتوفير أدلة عن فسادة وتورطه في قضية تخص المواد الغذائية الفاسدة التي دخلت المحافظة منذ أكثر من سنة، ثم ذكر قضايا أخرى تتعلق بالنائب وانتهى المقال ...

" لم أدرك أنك تحبين قراءة أخبار سياسية " كان صوت نبيل ما جعلني أعيد صحن السفري إلى مكانه، أجبته بصوت خرج ثابتا رغما عني: " لم أقرأ الكثير ..". ولم أستطع قول شيء بعدها ..دفعت بالطعام قسرا إلى جوفي، فقط لكي لا أجعل الآخرين ينتبهون وخاصة نبيل الذي لم يتوقف عن الكلام معي والنظر إلي وكأنني الجالسة الوحيدة في الوحدة .. هذا بينما كان قلبي معلقا بما قرأته في الصحيفة وشعرت بأنني كنت حمقاء لأنني صدقت سرمد وأسلوبه الساحر في الحديث معي بعد جفاء حديثه السابق ..لقد خدعني بكل بساطة ..فلا بد وأن كريم الدجيلي هو

المسؤول الذي أخبرني عنه ..ولابد وأن سرمد متورط في قضية
اختطافه ..وكنت أحلم بأن لا مكروه قد يصيبه جراء ذلك !!

الفصل التاسع عشر

محاكمة

حدث الأمر بسرعة ..يومان فقط بعد رؤية سرمد وهو يتألق بأسلوبه النادر أثناء زيارتي إلى بيت جدي وكأنه يدرك بأنه مقبل على أيام سيئة..حتى أنه بدد قلقي بتعامله الرقيق معي ..وكانني مجرد ابنة خالة عزيزة مثلما تمنيت طوال عمري ..جلس معنا حول السفرة التي طلبها خصيصا على شرفي و دللني بشراء المثلجات المفضلة لدي، وكان يراقبني وأنا أجادل قيصر دون أن يشعر بأن نظراته تلك تجعلني في قمة سعادتي ..وكان رضاه هو كل ما وددته يوما ..قضيت وقتا مميزا حتى وقت عودتي إلى الدار ..بعدها لم أسمع شيئا عنه حتى اتصلت خالتي نجاح و أعلمتني بالخبر الذي وقع علي كالصاعقة، رغم أنني كنت أخشى حصول شيء ولكنني لم أتوقع قط أن يتهم ابن خالتي باختطاف نائب المحافظ علنا ثم يسجن على ذمة التحقيق ..وأخذ الوقت يمر كالبحر عشنا ..وبالكاد استطعت أن أوفق بين مواساتي لخالتي وبين اهتمامي بصحة جدتي التي صدمها الخبر وامتنعت عن الطعام، كنت أحاول إرغامها على تناول شيء من أجل صحتها ولم تتوقف هي عن التسبيح والدعاء وكانت أكثرنا خوفا على مصيره. الأخبار المحلية تناقلت الخبر وكأنه لقمة صياد ..نزلت الاستنكارات والاحتجاجات وملأت شاشات التلفاز، الأصدقاء المقربون لسرمد أنكروا أية علاقة تربطه بنائب المحافظة، والذي ظهر فجأة مقدما شكوى ضد الأخير متهما إياه باختطافه خلال المدة الماضية ..لأسبوع كامل لم أذهب لعملي، لم أخبر إلا منال بالقصة وتمنيت أن لا يعرف الآخرون باعتقال

سرمد، ولكن نبيل عرف بطريقته الخاصة وراسلني لعدة مرات، لم أرد عليه إلا مرة واحدة، أخبرته بأني بخير وبأني سأغيب لفترة.. فأرسل يقول (لا تطيلي الغيبة)

لم أعرف بم أجيبه.

زار علاء سرمد في السجن وطمأننا على حاله، أخبرنا بأنه في صحة جيدة وبأن لا سوء قد مسه في الزنزانة ..كنت أفكر في داخلي: لابد وأن سرمد قد مر بالأسوأ منذ اختطافه قبل مدة ..ولكن هذا لا يعني أن ارتاح ..فالتهمة الملفقة له تعتبر جنحة رسمية ..وإن ثبت في المحكمة بأنه قام بذلك فلا أحد يعرف حتى متى سيبقى مسجوناً.

لم أر علاء يمر بهذه الحالة من قبل، فقد اكتسى وجهه بكآبة عميقة وكأن رؤية أخيه في السجن قد هزته بشكل ما، تهدل كتفاه وهو يصعد السلم إلى أعلى وكأنه لم يعد يقوى على النهوض بعد ما رآه ..أردت أن أطمئنه ولكني لم أستطع قول شيء، فقد ائتمني سرمد على أسرار ذات يوم، وإخبار علاء المسكين بما عرفت لن يزيد إلا هما. اهتممت بعائلتي في تلك الفترة ..لم أتوقف ولا دقيقة واحدة ..انكفأت على تنظيف المنزل وتعاونت مع خالتي نجاح في طبخ الطعام لثلاث وجبات في اليوم ..وفي الليل حينما يخلد الجميع إلى النوم أجلس وأفكر في سرمد وفي مصيره المجهول ..لم أستطع أن أمحو صورته في اللحظة الأخيرة حينما ودعني بعد أن أوصلني إلى الدار ..كان ينظر إلي باسم ..دون سخرية ..دون تهكم، وبصعوبة أشحت بوجهي عن نظراته تلك ..ولكني في داخلي تمنيت لو تطول وتطول ..!

تغيرت الحياة بعدها ..عدت إلى الدار وأنا أترك قلبي هناك، عانقت صديقتي بشوق و قد ظنن أنني غبت بسبب حالة جدتي المرضية

..طمأنتهم بأن الأمور على ما يرام ..وحدها نرجس أدركت مدى سوء
حالي ..أخذتني نحو الغرفة وأجلستني عنوة، فوجدت نفسي أخبرها
بالأمر و أعبر عن قلقي بالدموع ..كنت للمرة الأولى أبكي في حضرتها
فعانقتني مواسية وشعرت بأني تائهة في عالم مجهول ..لا ينير كونه
سوى سلامة ابن خالتي.

بعد ساعة من مجيئي أرسل لي نبيل رسالة تقول: (أخرجي لدقائق، أنا
عند باب الدار)

ما إن قرأت الرسالة حتى رفعت بصري إلى نرجس فرأيته تنظر إلي
بدورها، وقالت تشير هامسة: " إنه مع أحمد "

سألتها: " كيف عرف بأني عدت للدار ؟"

بدا الذنب على وجهها ..ولكني لمحت لمعة في عينيها ..كانت نرجس
والله أعلم تحوك لي شباك رقيقة أقع فيها بين برائن نبيل ..وأنا متأكدة
بأن أحمد خطيبها مشترك في الأمر.

خرجنا سوية ..ارتديت عباءة إسلامية والتقيت بنبيل عند الباب ..شاعرة
بأنني أخون سرمد في لقائي به ..سلمت على أحمد بحرج مفكرة فيما
سيقوله عني ..أكان على نبيل أن يتصرف بتلك الطريقة العلنية ..لماذا
لم ينتظر حتى نتقابل في الدوام ؟

حينما تحرك أحمد مع نرجس مبتعدين عنا شكرت ظلام الليل الذي
أخفى احمرار وجهي حرجا من وقوفي العلني مع نبيل، والذي سرعان
ما بادرني سائلا برقة: " كيف حالك ؟"

أجبت به بتوتر: " بخير ..وأنت؟ "

لم يبعد نظراته العجولة عني : " أنا بخير الآن ..لقد أطلت الغيبة "

أجبتة هامسة : " كنت مشغولة .. "

مال برأسه : " حسنا مكانك خالي في المركز.. أرجو أن الأمور على ما يرام في بيت جدك "

أجبتة بهدوء : " لا شيء جديد ..إننا ننتظر المحاكمة "

رأيت وجهه يظلم ..علق قائلا بعد دقيقة صمت: " فاتن ..هل الأدلة كافية لتبرئته ؟ "

أجبتة وأنا أطلع بقلق في الأنحاء خشية أن يسمعننا أحدهم: " إنه يملك حجة غياب في أول يومين من اختطاف النائب "

أوما مطرقا: " حسنا ..أتمنى أن يكون ذلك كافيا لخروجه من السجن " وبدت الكلمة مريرة بالنسبة لي ..السجن كان لأناس لم أعرفهم قط ..مجرمون، قتلة، لصوص ..ولكن لابن خالتي ؟..لا أعرف كيف يمر الوقت عليه هناك؟ ..أتراه ما يزال قوي الشكيمة كعهدي به ؟

شكرته هامسة: " شكرا ..مازال لدينا الكثير لنثبت براءته " لم يقل شيئا لبرهة ثم سألني: " هل قمتم بتوكيل محام جيد ؟ "

نفيت: " لقد رفض سرمد، سيقوم بالدفاع عن نفسه في المحكمة " اتسعت عيناه: " وهل هذا مسموح ؟ "

أجبتة بمرارة: " أظن ذلك " وقلت في داخلي: لأنه لا يثق بأي مخلوق سواه.

طمأنني نبيل: " لا بد وإنه يعرف ما يفعل، فالتهمة المنسوبة إليه غير هينة بالمرّة " كانت كلماته قاسية لكنني لم أعلق، هذا لأنني أعرف أنه لا يمكن لسرمد المودة.

ضمنت ذراعي حولي وسمعتّه يتابع قائلاً: " إن احتجت لأي شيء أنا موجود .. لم أخبر أي أحد في الدار تقديراً لذاتك، أنت تعرفين بأن الأمر لن يكون في صالحك لو عرف الجميع بصلتك بسرمد "

انبريت أقول بحرارة: " شكراً، ولكن هذا لا يعني بأن ابن خالتي ارتكب الجرم .. "

ونظرت إليه باتهام فخفف من نبرته وهو يقول: " وحتى وإن لم يقدّر ذلك، ستكونين في موقع شك لو عرف الجميع "

كان على حق ولكنني وددت لو صرخت في وجهه بأن سرمد بريء رغم أنفه، وبعد فأننا لم أخبر زميلاتي وصديقاتي بالأمر حتى .. فمن أنا لأمنع نبيل من فعل ذلك بدوره ؟

أجبت بمرارة: " سرعان ما سيدرك الجميع، أنا قلقة بشأن بيت جدي .. إنهم يتعاملون مع الأمر بصعوبة "

أخذ نبيل يطرق الجدار الجانبى بأصابعه، بدا لي مهموماً وهو يعلق قائلاً: " أفهم هذا، ولكن عليك أن تعرفي أن اللوم يقع على عاتق ابن خالتك .. حياة الناشط المدني في مثل هذه الظروف تعتبر شبهة بحد ذاتها "

أومأت له: " لطالما نصحتّه جدتي ولكنه لا ينفك يعود لينخرط في شؤون الجمعية " وشعرت بالدموع تلون عيني .. كنت مقهورة وغاضبة

عليه..ولكني كنت أشعر بكمية من اليأس تلون أفكاري..فمصير سرمد بات مجهولا..ولم يعد باستطاعتي فعل شيء بعد كل أسرارهِ التي أخبرني بها.

" فأتن..لا تبتئسي..اسمعي لن يضروه بشيء، اعتبري وكأن الأمر درس له "

درس لمن..لسرمد؟..كدت أصبح متعجبة وهل يدرك نبيل من أي طينة عجن ابن خالتي الشرس؟..نفيت بهزة من رأسي: " أنا أتمنى أن يكون بخير فقط ، لن أرتاح حتى أطمئن عليه في المحكمة "

وانتبهت إلى شحوب وجه نبيل: " ظننت أنك تكرهينه " بدت كلماته باهتة أمام ما أشعر به تجاه سرمد حاليا.

أجبتهُ بشفتين مزومتين: " أجل أنا كذلك لكني قلقة على صحة جدتي والآخرين، إنه لن يبالي إن حصل شيء لهم "

انتفض نبيل: " إذن لا تذهبي إلى المحكمة، وجودك هناك لن يدعمه بشيء، بيت جدك من يحتاجك...لا هو.. " عقدت يدي بتوتر " لا أظن أنه سيكون راضيا عن غيابي .. " .

هتف بي نبيل: " وماذا إن لم يكن راضيا..ولماذا تهتمين لما سيقوله عنك؟..أنت تدركين إن ذهابك إلى المحكمة سيجلب الأفاويل عنك "

في الحقيقة: كنت أخشى الذهاب ورؤيته مذنباً..وماذا إن صدر الحكم ضده وسجن لسنين طويلة؟..لقد أخبرني بأنه لم يَقم باختطاف النائب ولكن أتراه كذب في ذلك؟..ثم لماذا اتصل بي من رقم آخر..غير رقمه المخزون لدي؟.

حينما لم أرد على نبيل ارتأى أن يتابع بلهجة قوية: " فأتن .. المحكمة ليست مكان مناسب لك .. أنت في داخلك تدركين بأن ابن خالتك هذا إنسان غير معتدل، لن ينفك ويجر بيت جدك إلى قضايا لا حصر لها هذه هي فرصتك الأخيرة .. عليك أن تتحرري من سلطتهم عليك، من سلطة ابن خالتك أيما تكون تهمته "

أطرقت برأسي ولم أقل شيئا .. كان في داخلي صراع يدور .. الحرية تطرق أبوابي لأول مرة، دخول سرمد للسجن سيحررني بدوري .. ولكن ماذا عنه .. ماذا عنه ؟ ..

ولم أذهب للمحكمة، اتخذت قرارا قبل يوم واحد، قررت البقاء مع جدتي فيما يذهب البقية إلى المحاكمة .. ظلت هي تسبح وتدعو حتى أنهكها الانتظار فاستلقت نائمة وطلبت مني أن لا أخبرها بأي خبر غير سار، وهكذا ظلت قرب هاتفي أنتظر وقد فتك بي الانتظار .. كنت قلقة مما سيحدث لجدتي أكثر من قلقي حول مصير سرمد، لقد توثقت حجة غيابه في ليلة اختطاف النائب، لكنه يبقى مشتبه رئيسيا نظرا لأنه قام بتهديد النائب لأكثر من مرة وقد ذكره في مقالاته العديدة في صحيفة الساعة المدنية، كان علاء يطمئنني كل ساعة، بعدها اتصل بي ليخبرني بأن المحاكمة تأجلت إلى نهاية الشهر لدراسة القضية أكثر، لكن صوته لم يكن سارا وحينما عادوا جميعا بدا مهموما ولم يتحدث أي منهم بكلمة ، قيصر أخبرني في ما بعد أن إجراءات المحكمة لم تسر كما يرام، فسرمد لم يلتزم بتصرف يبرر دفاعه عن نفسه بل تجاوز إلى حدود اتهام القاضي بالفساد أمام المحكمة مما دفع القاضي إلى رفض ادعائه كمحام لنفسه وأعادته إلى السجن مؤجلا الجلسة.

استمعت لقيصر وأنا أتخيل نفسي موجودة هناك أراه يتصرف بلا مسؤولية تماما .. لطالما كان سرمد قوي الشكيمة .. لا يهزه شيء .. ولكن أتراه على حق .. بأنه لم يقم باختطاف النائب على الإطلاق وبأن التهمة مدبرة بشكل ما ؟

سألت قيصر وأنا أحضر الغداء للجميع: " وماذا سيحصل الآن ؟ "

أجابني: " نحن مجبرون على تعيين محام آخر، ولكن لا نملك فكرة عن من يكون، لم تتوفر لنا فرصة للحديث معه بعد المحاكمة "

تذكرت وجه علاء المهموم والقهر الذي ملأ ملامح والدته وخالتي نجاح .. كان الأمر صعبا عليهم هم أيضا .. حدثني قيصر منتشلا إياي من أفكارى: " اسمعي، لا تخبري جدتنا بشيء .. قررنا أن نقول لها بأن الأمر إجراء روتيني لا أكثر "

أومأت موافقة ثم تعاوننا سوياً على تحضير السفرة وتمتم قيصر متنهدا: " لا أعتقد إن أحدا منا سيأكل شيئا "

وكان محقا .. لم يتناول أي منهم الغداء، حتى علاء الذي رفض أن ينزل من غرفته، كنت قلقة عليه ولكني لم أجروء على محادثته، وعند حلول المساء أعادني قيصر إلى الدار ولم يتحسن مزاجي وبمرور الأيام... اعتدت غياب سرمد حتى بات ذكر اسمه يجعلني أشعر بالكآبة.. وارتأيت أن أشغل مع صديقاتي عوضا عن التفكير به، وحينما تمت تبرئته بعد المحاكمة التالية لم أفرح كثيرا، هذا لأنه اتهم بالتعرض للقاضي والمحكمة وبالتالي فقد سجن لمدة ستة أشهر في سجن المدينة المركزي !.

كان الخريف قد انتهى وبدأت تيارات الهواء الباردة تلامس أرواحنا التائقة للتححرر، كان هناك الكثير من القصص التي وددت أن أحكيها .. نرجس ما تزال تشع بريقا خاصا بها هي وأحمد .. كانا منعزلين عن الجميع، ولم يشعرا بشيء حولهما .. ريهام هي الأخرى بدت مشغولة عنا، تتلقى اتصالات هاتفية عديدة، ثم رسائل من شخص ما، وفي بعض الأحيان أراها تبتسم .. وحينما غمزت لنرجس، ابتسمت ضاحكة .. لا يخفى شيء عن نرجس .. كانت تعرف كل شيء .. دون أن تقول كلمة واحدة .. ولولا أنني أعرفها وأعرف مكنوناتها الشخصية لما أدركت طبيعتها قط.

كان الحب يزهر في الدار الصغيرة .. سوسن التي تمت خطبتها أخيرا إلى الدكتور أحمد فاروق رئيس الأطباء بعد ممانعات عديدة من عائلتها نظرا لكونهما من محافظتين مختلفتين .. ولكن وكأن تجربة أحمد ونرجس حررت كل القصص المخبأة .. وجعلت ارتباط اثنين من محافظتين مختلفتين أمرا مقبولا .. ولابد أنه كان السبب في دفع الدكتور محمد هو الآخر لمصارحة ريهام بمشاعره ومع هذا فلم يظهر الأمر عليهما .. كانا طبيعيين مثل أي فردين منا، بل استمرت المناوشات بينهما وكأنهما أعداء حرب ولا أعرف كيف ينقلب الأمر حينما يصبحان في الدار، بل إنني أعجب من كثرة المرات التي تنزوي بها ريهام عنا ثم تعود لتكمل جلساتها معنا بكل هدوء وبوجه محمر بعض الشيء من ابتسامات البنات المستترة .. كانت ريهام كتلة من المشاعر المعقدة وكان إعجابي بها يزداد يوما عن يوم .. أملت فقط أن لا يقوم محمد بكسر قلبها الذي اتسع بمشاعره وأصبح يطفو بسعادة خالصة .. وهكذا عادت الاحتفالات الصغيرة تزين الدار والمركز وازدهرت الأعين وطافت المشاعر المفعمة بالحب.

تمت خطوبة أحمد وسوسن في وحدة حشوات الجذور وقد اجتمعنا فيها نظرا لأنها الغرفة التي ابتدأت فيها قصة حبهما كما نوها قبل ارتداء الخواتم، وقد احتفلنا بهما بتوزيع قطع الكيك والعصائر على البقية، تولت داليا مهمة التوزيع كعادتها في الاحتفالات وكانت لبقة في التعامل مع الجميع ..حتى أنها أرسلت قطع الكيك لطاخم الإدارة رغم أننا تجاهلنا أمر دعوتهم للحفلة نظرا لكونها بسيطة وخاصة جدا بالنسبة لسوسن . أما منال فقد اكتفت بتناول حصتها ثم مغادرة المكان مع داليا قائلة بأن أجواء الغرام دوما تصيبها بعسر هضم ..!

أما نبيل فكان قصة أخرى ..لطالما وددت لو أنها لم تحصل قط ولكن بعد حفلات المركز وتداول قصص العشاق بين الزملاء وصلت العدوى لنبيل وكنت أخشى أن يفعل ما هو أسوأ من التفكير بي ..كنت أخشى أن يتقدم إلي ببساطة !

وخلال تلك الأيام حاولت تجاهل كل تلميحاته، والتصرف كما لو أنني عمياء النظر بخصوص نظراته التي اكتسبت طابعا خاصا ..وحين خرجنا جميعا لتناول العشاء في مطعمنا الخاص لم يفارقني نبيل قط ..حتى أن منال انزوت بعيدا عنا مع داليا وسمية معلنة استسلامها في محاربة نبيل ومنعه من الاقتراب مني ..ويبدو أنها أدركت في النهاية أن الحرب ليست لها ..وبأنني أنا صاحبة القرار في النهاية ..كان نبيل يشدني إليه معتمدا على أسلوبه الجذاب في الحوار ، وعلى طريقتة في لفت انتباهي ..هو قريب مني وفي ذات الوقت بعيد ..للجوء إليه في تلك المدة العصيبة من حياتي جعل وجوده أهمية ثابتة لدي ..لم يعد هناك وقتا يمر دون أن يكون هو جليسي في المكان والزمان ..وربما استطاع أيضا اختراق قلبي واحتواءه، ولولا أنني أتصرف كأني لا أرى ولا

اسمع شيئاً، لأعلنت استسلامي من يومها ..ولما حاولت تأجيل المحتوم
..لما حاولت إنكار مشاعري تجاهه.

الفصل العشرون

اعتراف

لم تختلف قاعات المحكمة عن المؤسسة الصحية التي أعمل بها .. فهي تعج بالمراجعين بمختلف أعمارهم، الكل في جعبته قضايا غير محلولة .. منهم من يبحث عن محام معروف ومنهم ضائع في إيجاد المحامي الذي سيحل قضيته .. وكان كل محام يرفل بعباءته السوداء في أروقة المحكمة المكتظة بالناس .. كانوا يشبهوننا بعض الشيء بالرغم من أننا مؤسسة صحية تابعة لنظام محدد، و كنا بعيدين عن فوضى المحاكم .. لكنني أذكر أيام كنت أدخل المركز وأرى أفواج الناس المنتظرة للعلاج، وكنت حرفيا أتدافع بينهم كي أصل إلى وجهتي.

وهكذا كنت في قاعات المحكمة بعد أيام من خطوبة أحمد وسوسن .. المكان الذي لم أتجرأ على الدخول إليه في وجود سرمد .. المكان الذي تجنبت الذهاب إليه في يوم محاكمته .. وأدركت وأنا أتجول في القاعات بصحبة الزملاء بأنه من الصعب أن يُحاكم الإنسان في مقر عمله .. ويتهم بأنه لا يحترم حرمة المكان .. ولا القاضي الذي يحكم في قضيته .. أن تسحب هويته في النقابة وتلغى عضويته في جمعية حقوق الإنسان التي يعمل بها، ثم يرمى في سجن ما ويعامل بكل ازدراء .. لست أشك في أن كل فرد من أفراد المحكمة يعرف من هو سرمد، لا يعرف تهمته وقضيته التي لم يمضى عليها أسابيع .. ولابد وإنها ستكون نهاية مهنته كمحام وأنه ربما لن يستطيع تولي أية قضية في المستقبل.

كان التفكير في ذلك موجه بالنسبة لي ولكني لم أستطع فعل شيء... كنت أفكر به وأنا أنظر إلى زملائه في العمل.. و لربما سيكون سعيدا لو رأي صدفة في المكان أو سيقوم بشنقي نظرا لأني خارجة من دون إذنه، و عوضا على ذلك كنت بصحبة نبيل والآخرين، الأمر الذي لن يرق له بالتأكيد.. كنا نحضر عقد قران كل من أحمد وسوسن وأحمد ونرجس وكان الشهود كل من نبيل ومحمد عبد السميع، لذا ذهبت ريهام وارتأت أن تصحبني معها.

كانت المناسبة مميزة.. ليس هناك أجمل من دخول اثنين لعقد زواج والخروج مع فرحة غير مفسرة في العيون.. الارتباط بالشريك المناسب كان له طعم خاص.. الأمنية التي رأيتها تتراقص في عيني ريهام وهي تنظر إلى محمد وكأنه الرجل الوحيد على سطح الأرض.. السعادة التي تشع في عيني نرجس وهي تمسك بيد خطيبها أحمد.. الرضا في عيني سوسن وهي ترافق أحمد ليدخل إلى قاعة المحكمة.. كان هذا القاطع الخاص بعقود التسجيل والزواج مميزا و له نكهته الخاصة.. العديد من العوائل المصاحبة لأبنائها قاموا بتقديم التهاني و المباركات للمتزوجين الجدد، وقد رموا السكاكر حتى فوق رؤوس زميلاتي بعد خروجهن من المكتب وكان الفرح عنوان ذلك اليوم.

وبعد انتهاء المراسيم توجهنا نحو المطعم لتناول الغداء احتفاء بالمناسبة التي جمعت قلوب الفتيات معا.. ولأن منال لم تكن معي فقد تصرف نبيل على راحته خاصة أن الكل منشغل مع رفيقه الخاص، فجلس إلى جانبي بكل طبيعية وحاولت تجاهل كل العلامات التي باتت تؤرقني في الفترة المنصرمة.. وبرؤية كل صديقتي مرتبطات الآن، لاح في أفقي البعيد أمل في إيجاد الصواب فيما أفعله.

طلبنا وجبات الطعام وقمت بالتقاط صور عديدة للخطيبين .. وحينما عدت للجلوس إلى جانب نبيل انحنى هو برأسه نحوي وهمس قائلا: " أتعرفين أن منظرنا شاذ بالنسبة لهم " ابتسمت له ضاحكة: " الحمد لله فهم مشغولون عنا " ابتسم مازحا: " حتى وإن وقع السقف على رأسي ورأسك فلن يلتفتوا ليروا ما حصل "

شكرت ربي أن منال ليست موجودة، لأخذت تتكلم عن عسر الهضم الذي ينتابها بصحبة المخطوبين ...!.. تطلعت بهم باسمة وقلت: " المهم أنهم سعداء .. " والتفتت إليه وهمست متسائلة: " أنظن أن محمد سيتقدم لخطبة ريهام ؟ "

لم يعد هناك شك من اهتمام محمد البالغ بريهام ونظراته التي اكتسبت طابعا خاصا في الفترة الأخيرة .. أجابني نبيل دون أن ينظر إليهما: " ربما .. الأمر كله هو أنهما ليسا من محافظتين مختلفتين فقط بل من انتماءين مختلفين تماما .. " ونظر إلي متسائلا: " هل تفهمين .. ؟ "

توجس قلبي من كلامه .. كنت أعرف كما الجميع كذلك بأن محمد رجل شيعي و ريهام سنية، ولم أفهم يوما كيف تصبح الفوارق المذهبية عائقا أمام اثنين يعشقان بعضهما البعض.

أجبتة: " أفهم .. ولكن هذا لا يعني أنهما قد .. " قاطعني هامسا: " فاتن .. الأمر لا يتوقف على هذا الشيء فقط .. من الممكن أن تقولي بأنني رجل شيعي أيضا ولكني لست متعصبا لمذهبي .. لست أجادل الطرف الآخر حبا في جعله الخاسر، أنا رجل شيعي معتدل .. بينما محمد .. " وقطع كلامه ليهز رأسه نافيا.

سألته بهمس: " وماذا عنها هي .. ؟ "

ابتسم: " يبدو أنك لا تعرفين شيئا .. على الرغم من أنك تسكنين معها في الدار .. ريهام سنية والكل يعرف هذا الشيء ويحترمه .. ولكن عائلتها .. وهمس متمتما: " أمها بالذات سنية متعصبة لمذهبها .. برأيك كيف سيتم الأمر بينهما لو فكرا بالارتباط حقا ؟ "

كنت أعرف ريهام للدرجة التي أظنها ستتخلى عن كل شيء لتحظى بحب محمد لها .. نظرت إليها .. كانت جالسة إلى جنبه ولكنها تطوف في دوامة من العشق الخاص .. تتكلم وتبتسم وتشير ولكنها خجولة بجلستها وعيناها تبرقان بحب وشوق لا مثيل لهما .. بينما كان هو ينظر إليها مبهورا متأملا كل كلمة تقولها هي، محاولا استيعاب جلوسه إلى جانبها بتلك الطريقة الحميمة، وهو الذي كان يعتبرها زميلة مزعجة منذ أشهر ماضية .. !

كانا مختلفين ... متضادين .. ولكنهما يشعان بالحب .. !

نضح صوتي بكآبة: " الآن جعلتني أشعر بالحزن "

هز نبيل كتفيه: " أنا رجل واقعي يا فاتن .. قد أفرح لو ارتبطا معا، ولكن مصير تلك العلاقة أن لا تنجح .. نحن نعيش في واقع يفرض علينا هذا الشيء، لسنا معزولين عن الأهل والأصدقاء .. ولكي تنجح علاقة أي اثنين معا عليهما أن يكونا حلقة من عالم كل منهما "

وتمنيت أن لا يكون محقا في كلامه على الرغم من صحة ما قاله ..

تناولنا الغداء في وجبات مشتركة وحاولت طرد كل أفكار المزعجة بشأن محمد وريهام .. المهم أنهما يقضيان وقتا ممتعا معا ولحسن الحظ لم يتم تجاهلنا أنا ونبيل بل أشركونا معهم كي لا نشعر وكأننا منبوذان، وبانتهاء الوجبة علق نبيل مازحا: " الحمد لله .. كنا خفيفين على معدتهم "

ضحكت موافقة وحينها فقط انتهت إلى أننا أيضا محط أنظار المرتبطين .. لابد وأن عيني نرجس لم تتوقفا عن النظر إلينا، الأمر الذي فاتني تماما ..كنت منشغلة بالحديث إلى نبيل ونسيت بأننا ربما نشكل ثنائيا في أعينهم وبأن عدوى الارتباط ستصيبنا في القريب العاجل.

قارب الوقت العصر حينما خرجنا من المطعم نحو الحدائق الفارغة تقريبا، وتمشينا كمجموعة كاملة أول الأمر ثم توجه نحوي نبيل حاملا وردة قطفها من أحد الأحواض وقال لي وهو يعطيني إياها: " هل لك أن تعطيها لمنال؟ .. أخبريها بأن هذه الوردة عربون صلح بيننا " وكانا قد تجادلا قبل يوم بشأن بعض المصطلحات الطبية التي عادة ما تلفظ بطريقة خاطئة من قبل الزملاء ..ومنال بطبعها الحاد تمادت بعض الشيء حتى اتهمت نبيل بأنه غير جدير بتكلم اللغة الانكليزية السليمة، وهو أنهى الجدل بقوله أنها متعصبة ضد كل رأي يخالف آرائها. استلمت الوردة منه وأنا أشك بأنها ستتقبلها برحابة صدر، بل ربما ستقول بأنني أنا صاحبة هذه اللفتة الطريفة لألطف الجو المشحون بينهما.

نرجس لم تفهم الأمر على هذا النحو، ابتسمت بطريقتها المحللة لكل شيء وكان ابتسامتها تقول بأن نبيل لم يعطيني الوردة إلا لأنه لا يحب إخباري بطريقة مباشرة بأن الوردة مقدمة لي، لأنه يعرف تماما عصبية منال المفرطة تجاه كل شيء !

لم أقل كلمة وأنا أمشي بجانبه متجاهلة كل الكلام الذي يقال بشأننا ..المهم أن نبيل واضح معي وهو لم يستغل أي فرصة للتعبير عن داخله مثل الآخرين ..أو هكذا ظننت !

فحينما تفرقت المجموعة بغية التمشي في الحدائق، توجهنا أنا ونبيل إلى أقرب مصطبة ننتظرهم فجلس نبيل، و ارتأيت أن أتمشى قرب أشجار الورد المتنوعة حينها سمعت نبيل يتمتم: " والمزيد من الصور ! " .

رأيته ينظر إلى المجموعة، كانوا يلتقطون الصور لبعضهم فسألته: " لا أراك تحب التصوير "

لم ينظر نحوي وهو يجيبني: " بالعكس ..أنا أظن بأنهم يتصرفون بحرية " والتفت إلي: " تعرفين... ففي الدار يصبحون أكثر تقييدا "

نظرت إلى ساعتني فوجدتها قاربت الخامسة وسمعته يتابع: " ولكني أود العودة إلى الدار لأنني أنوي الرجوع إلى كربلاء الليلة "

شممت الورد في يدي: " حقا ..إذن أنت مجاز ليوم غد ؟"

أومأ لي ثم اتكأ على المسند وهو يقول: " الأمر متعلق بمنزل عائلتي، لقد اتصل بي مشتر قبل ساعة " .

عدت لأتمشى قرب الورد: " حسنا، أتمنى أن توفق هذه المرة "

بدا منز عجا وهو يجيبني: " المشكلة أنهم يبدوون متفهمين للسعر المطلوب للمنزل، وما أن نبدأ التواصل معهم حتى يتغير رأيهم !"

ابتسمت: " هكذا هم العراقيون "

ضحك وهو يفرك عنقه: " أنت محقة ..إننا شعب لا نلتزم رأيا واحد "

رفعت رأسي نحو مجموعتنا وقلت له: " ما رأيك أن تعود إلى الدار؟ ..سأعود مع البقية "

هز رأسه نافيا: " كلا ..مازال الوقت مبكرا على العودة ثم إني .."
وتوقف عن الكلام فالتفتت إليه متسائلة، رأيته ينظر نحوي وكأنه يود أن
يخبرني بشيء مهم ..ثم أشاح بوجهه ولم يقل شيئا بعدها.

كان نبيل رجلا يخفي نفسه بمهارة، وفي الوقت ذاته يبدو واضحا
كالشمس، وكنت أتمنى لو يستطيع قراءتي ويفهم دواخلي كما هي
واضحة على معلمي، لقد مر ما يقارب التسعة أشهر على تعارفنا وأراه
اليوم أقرب من أي وقت مضى ..أقرب كما أردته أن يكون..زميلي
المقرب.

"فاتن ..؟"

التفتت نحوه فرأيته يشير أن أجلس إلى جانبه وسمعتة يقول: " وكأنني
أتحدث إلى نفسي و أنا جالس هكذا .."

كانت دعوته واضحة ولكني شعرت بالتوتر المنبعث في صوته ..أتراها
حانت اللحظة ..أتراه سيقدم على ما يظن الجميع أنه سيقوم به آجلا أم
عاجلا ؟ وهل سأكون شجاعة وأقبل كل ما سيقال دون أن اهرب ..دون
أن أتذرع بشيء كي أنجو من حديثنا ؟

لقد تخيلت أنني سأقول له بأن نرجس تناديني من بعيد، لكن الحقيقة أن
كل واحدة من صديقاتي كانت منشغلة في عالمها الخاص ..العالم الذي
نجحت في الهروب منه طوال سنين الكلية ..ولكن ها هو الآن يبدو كأنه
يحاول احتوائي ..أن أنتمي لعالم الحب ..يعني انتمائي لشخص آخر،
وكنت متمسكة بذاتي بكل أنانية !..

حينما اتخذت مجلسي قربه .. أفسح لي مكانا حتى يصبح هناك فاصل بيننا وكي لا تبدو جلستنا حميمة. تنحنح أول الأمر ثم ابتدأ يقول: " فاتن .. هل لي أن أسألك شيء ما ؟ "

رفعت بصري نحوه .. كنت أحاول أن أبدو جادة كما يبدو هو .. كي أسهل الأمر عليه .. كي يمر الأمر بيننا على خير: " تفضل نبيل .. "

سألني وهو ينظر إلى عيني مباشرة: " كم مرة زرت ضريح الأمام الحسين عليه السلام ؟ "

لوهلة شعرت بأن الهواء تجمد بيننا .. استغربت سؤاله وفي ذات الوقت نضح العرق من جسمي بارتياح .. لم تكن تلك اللحظة .. لقد توهمت بكل بساطة .. !

ازدردت ريقي: " الكثير من المرات .. أنا لا أعد زياراتي "

" ولكنك تذكرين آخر زيارة لك هناك ؟ "

غاب ذهني في آخر زيارة لي لأضرحة الإمامين الشريفة: " قبل أشهر .. ربما كان ذلك قبل دوامي في الديوانية "

تذكرت تلك المرة وكانت زيارة سريعة مع عائلتي .. دعوت فيها أن أوفق في عملي كطبيبة أسنان .. التفتت نحو نبيل فألفيته يتأملني: " لم تسأل ؟ "

أخذ نفسا عميقا: " لطالما وددت أن أسألك عن هذا ولكنني كنت مترددا .. ربما لأنني وفي قرارة نفسي لا أؤمن بالصدف .. أو اجتماع الأقدار .. " وأشاح بوجهه عني واسترسل قائلا وكأنني لم أكن جالسة إلى جانبه قط: " أذكر تلك الزيارة المميزة قبل تسعة أشهر .. كنت عائدا من بيت

عمي القريب من ضريح الإمام الحسين عليه السلام، فقررت أن أزوره بعد أن غبت لعشرة أيام عن مدينتي، وهناك وجدت السكينة التي أودها، فجلست مطولا في حضرة الأمام ودعوت يومها ..". والتفت نحوي ..وبدا وكأنه نبيل آخر يتحدث ..ليس نبيل الرجل الجاد الذي أعرفه: " يقال أن الدعاء بنية صافية مستجاب... وهكذا فعلت ..دعوت ربي أن يرزقني بابنة الحلال التي سأكمل معها نصف ديني ..وحين خرجت من الضريح وقع بصري عليك .." توقفت أنفاسي: " جلوسك في الصحن المقدس ويداك المرتفعتان بصدق للسماء ..تدعين بعينين دامعتين جذبني رغما عني ..لطالما غضضت البصر في مكان قدسي كهذا ولكن شيئا ما جذبني إليك ..!!" التفت نحوي: " ربما ستقولين لي بأن الأمر غير وارد بالمرة ..فهناك الآلاف اللذين يدعون في حضرة الإمام ..ولكني أذكر وجهك تماما ..كنت تشعرين بالضياح، بأنك لوحده في هذا العالم، استوقفتني أمرك لأنني ربما شعرت بذات ضياحك وكنت بعد ساعات ستصبحين فتاة عابرة ..رأيتها في حضرة الإمام تدعو ربها وتتمنى أن تنال دعوتها بطيب خاطر ثم داومت في اليوم التالي ولم تمر ساعات قليلة حتى رأيتك تدخلين وحدة الحشوات برفقة والدك ولم تعودني بعد ذلك مجرد فتاة عابرة .."

لم يتكلم لبعض الوقت ..كلانا ركدنا لصمت كان ضروريا لاستيعاب ما سمعت ..أخذت الصدمة تتخلل أجزائي ..تنتشر بسرعة وتترك أثرا غير مرئي ..كنت جالسة إلى جانبه ولكني كنت أشعر بالشلل في أطرافي ..كل ما همس به عقلي الباطن: ..أهرب ..أهرب قبل أن تسمعي المزيد ..

" أنت الآن تظنين أنني أفكر بسخافة ..ولكن لو لم أرك في حضرة الإمام، ربما لما أثرت فضولي بعد دوامك في المركز معنا .. لم أخبرك

سوى الآن لأنني عرفتكم فتاة واقعية مثلي .. لا تحبين اللف والدوران ولا تودين أن أخبرك كم إنك تشغلين بالي على طول .."

خرج صوتي مفككا من الصدمة: " نبيل ...! "

توقف عن كلامه وبان الارتباك واضحا عليه .. قام من مكانه وأخذ يمشي عدة خطوات بعيدا عن المكان ثم عاد والتفت نحوي .. ولم أستطع أن أقابل نظره .. كنت من الجزع بحيث تعلق نظري بالأرض الصلدة .. والتي بالكاد أشعر بها بعد ما سمعت .. اقتربت خطواته أكثر مني وزادت دقات قلبي ارتفاعا ..

" ما أود قوله يا فاتن .. هو أنك الآن تشككين جزء مهما في حياتي .. الجزء الأهم .. لا أود أن أضغط عليك ولكن هلا فكرت بأمرنا لبعض الوقت ؟ .. "

رفعت بصري نحوه وقلت في داخلي وهو أيضا يشكل جزء مهما من حياتي .. ولكن ولسبب ما كنت واثقة بان إجابتي لن تعجبه أبدا .

تذكرت في تلك اللحظات زيارتي الأولى إلى المركز ، عندما بحثت عن ريهام ووجدتها في وحدة الحشوات .. تذكرت نظرات الجالسين على المكتب لي ، وبشكل أصبح أكثر وضوحا ، تذكرت نظرات نبيل القوية .. التي نفذت إلى أعماق روحي ..

عاد صوت نبيل يصبح أكثر وضوحا وأكثر رقة: " لا يمكنني أن اصف نفسي بالمتسرع الآن .. طوال تلك الأشهر لم افتح أي موضوع بيننا احتراما لصمتك .. ولكن الآن أجد أنني تأخرت كثيرا .. أنا مستعد لأن آتي بعائلتي من الخارج للتقدم إليك رسميا فيما لو منحتني الموافقة المبدئية .. وحينما لم أقل شيئا أحنى برأسه نحوي: " فاتن .. قللي شيئا "

ماذا عساني أقول وأنا لم أحضر نفسي لمواجهة مفاجئة مثل هذه؟.. وكيف للفتاة العادية أن تقدم جوابا في النهاية ؟

" أحتاج لبعض الوقت " وبدا صوتي كأنه خارج من متاهة ما ..

" كي تخبري عائلتك ؟"

ازدردت ريفي: " حتى أتقبل الفكرة .. "

وضاعت جمعتي في صمت مشحون .. بعدها تحرك نبيل ليجلس إلى جانبي .. وهذه المرة أنا التي أفسحت مبتعدة وجلست على طرف المقعد ..

" ظننت أنني منحتك وقتا طويلا .. "

قلت بصوت راكد: " وأنت وعدت أن أنسى ما قلته "

حرك رأسه معترضا: " أجل .. أذكر ذلك، ولكن كان هذا في بداية تعارفنا، أدرك بأنني تسرعت يومها ولكن الآن .. حاليا وجدتها فرصة ملائمة للحديث معك ما دمنا بمفردنا "

نضحت يدي بالعرق، لكان الورد قد ذبلت وغاب بريقها الجميل .. أدركت أنه ينتظر إجابة مني، أخذت نفسا عميقا وقلت: " نبيل .. أنا أقدر جدا انتظارك لي كل هذه المدة .. الأمر أنني حاليا لا أفكر بالارتباط .. أنا لازلت مبتدئة بعملتي كطبيبة أسنان ، كما أنني مشغولة حاليا بين بيت جدي و .. "

قاطعني بصوت نافذ: " أرجو أن لا تدخل بيت جدك في أمرنا .. وأنا أيضا أحترم قرارك ولكن دعي بيت جدك خارج الموضوع "

التفتت إليه بهشة: " كيف ذلك ؟ .. هم عائلتي أيضا يا نبيل "

هز رأسه: " عائلتك الحقيقية في الحلة .. هم أقارب بالنسبة لك، حينما تأخذين الموافقة .. تأخذوها من ولي أمرك .. والدك ، وليس أقاربك "

" دعني أستوعب ما تقول، أنت تظن أن بيت جدي هم مجرد أقارب ؟ كلا، أنت مخطئ .. لأنهم بالنسبة لي عائلتي، لقد ولدت في الديوانية وتربيت في بيت جدي .. ومهما كان قراري .. فأنا لن أخذه بمفردي فقط... "

جادلني: " فائن .. القرار هو قرارك أنت .. أنا لن انتظر رضا بيت جدك من عدمه، عليك أن تصني حياتك بمفردك بعيدا عن تدخل الآخرين " هزرت رأسي نافية: " أنت تتحدث من دون منطق .. ما الذي تزدريه في بيت جدي على أي حال ؟ "

" أنا لا أزدريهم ولكني لا أحب تسلطهم عليك .. الشيء الذي أدركته عنك منذ بداية تعارفنا هو أنك فتاة لا تحب التقييد "

أجبتة: " أظن أن اهتمام أولاد خالتي بي نابع عن التسلط .. ؟ "

كنت سابقا أؤمن بذلك .. ولكن بعد حوارتي الصريح مع سرمد .. أدركت أن التسلط كان اهتماما آخر .. اهتماما بسلامتي ...

" بل أظنهم يتدخلون في حياتك دون اعتبار لكونك طيبة ومستقلة بذاتك "

عقدت يدي وكادت الوردة أن تسحق: " لم أظن أن رأيك ببيت جدي متدن إلى هذا الحد ! "

قام من مكانه .. وضع يده في جيب سرواله وأجابني بصبر: " أنا لست كذلك .. أنا أحترمهم .. وأقدر اهتمامهم بك .. ولكن الأمر .. "

رفعت بصري نحوه: " يتعلق بسرمد .. أليس كذلك ؟ " التقت نظرانا بحدة .. أشاح بوجهه عني وهو يجيبني ناظرا للبعيد: " أجل .. أنا لن أنكر هذا .. "

والتفت نحوي: " أنا دوما صريح معك بشأن ابن خالتك .. وهذه المرة سأكون أكثر صراحة .. سرمد، لا أطيقه .. ولا أطيق قرابته بك ! " .

شعرت بالغضب يزحف في سراييني: " لأنه قد دخل السجن ؟ "

" لأنه رجل بمهنة محفوفة بالخطر .. قد يكون محاميا بارع ولكنه خارج إطار الجمعية شخص آخر "

قلت بغضب: " يبدو وكأنه اتهام ؟ "

أوماً : " أجل .. هو لم يدخل السجن عبثا .. لقد سمعت أنه يملك صلات .. "

قاطعته واقفة على قدمي: " بماذا ؟ .. أرجو أن تطربنى بمعلوماتك الاستخباراتية .. ! " .

احتد الغضب في عيني: " فاتن .. أتدركين أن اتهامه باختطاف نائب المحافظ ودخوله السجن قد فتح النار على قضيتة ؟ "

قلت بعصبية: " لقد تمت تبرئته من تهمة تلك، وهو مسجون الآن لأنه .. "

قاطعني بقوة: " لأنه لم يحترم القاضي ولم يحترم مستشاريه .. بربك .."
وابتعد عني: " كوني منطقية إذن .. كيف لرجل قانون أن يشتم القاضي
ويندد بأقواله بعدم احترام ؟"

احتدت عيني: " أنت لا تعرفه .. ولا يحق لك أن تحكم على أفعاله .."

" بل يحق لي .. يحق لي .. لأن الأمر يتعلق بك أنت "

للحظة لم أستوعب ما قاله .. كل كلامه المتعلق برؤيته لي في المزار
والخطبة قد تلاشى في غمرة غضبي .. كان سرمد نقطة الانهيار لدي
.. ولكنني في تلك اللحظة لم أفهم ما كان نبيل يقوله ..

" م... ماذا تعني ..؟" وخرج صوتي مفككا .

تحرك نبيل ليقف أمامي وبصوت نضح قوة أجابني: " الأمر واضح يا
فاتن .. لو قدر لنا أن نرتبط ذات يوم فأنا أريدك حرة .. خالية من كل
تسلط .. لأنني والله سأسعى جاهدا إلى جعلك سعيدة برفقتي .. لك كل
احترامي وفخري ومودتي .. حريتك واستقلالك لن أمسه .. اهتماماتك
وطموحاتك العلمية سأبذل جهدي لدعمك .. السفر، الدراسة، بيت الأهل،
الصدقات، الروابط الاجتماعية كلها لن أحرملك منها .." واقترب أكثر:
" حتى المكان الذي تودين أن تجعله عش للزوجية لن أرفضه .. سواء
هنا أو في كربلاء أو في الحلة .. أو في أية بقعة على الأرض سيكون
باختيارك وكله لأجل راحتك .." وتغيرت نبرة صوته: " سأكون سندك
وزوجك وصديقك والأقرب إلى روحك .. ولكن في المقابل .. فأنا أريدك
أن تعديني بقطع روابطك ببيت جدك .. وهذا هو شرطي الوحيد .. أن
تقطعي كل الصلات التي تربطك بسرمد تماما .. هل تفهمين ؟.."

كنا نقف بجمود ..وكان العالم لم يعد يدور من حولنا ..وكان عالمي أنا
..تلاشى ببضعة كلمات ..وتساءلت وقتها ..أتراها نرجس تراقبنا الآن
من بعيد ..تحيك في بالها قصة لاعتراف نبيل ؟،،تتمنى لو أنني امتلئ
خجلا وارتعش خوفا من بقائي معه لوحدنا ..استمع لأول مصارحة حب
في حياتي ..؟..

ولكني وفي تلك اللحظة شعرت بأن وقفنا تلك ..كانت وقفة أعداء .

الفصل الحادي والعشرون

عودة

استقراري في وحدة أمراض اللثة مع زميلي أنور لم يبعدني عن نبيل، أصبح لديه حجة أكبر في مجيئه لرؤيتي، فصديقه يداوم معي وكنا نادرا ما نفترق في تلك الأيام .. كانت حياتنا عبارة عن كر وفر، لا يزال نبيل متمسكا بي بالرغم من أنني اخترت أن نكون أصدقاء مقربين .. وسررت لأنه تقبل الأمر ولم يتجرأ على فتح الموضوع معي .. فأنا لست الفتاة التقليدية التي يرغب بها.

حتى بعد أن جددت الدورة في الوحدة، فعل أنور المثل مما أزعج نبيل وهو الذي يروم أن يعود للعمل في ذات الوحدة .. فكنت أراه في الصباح وبعد الساعة العاشرة .. ثم يحجزنا سوية عند الثانية عشر مما يجبرني على إرسال رسالة لمنال اخبرها أن تأتي وتنقذني .. وكانت تطل علينا كالعاصفة تصحبنى معها مما يمنع نبيل من قول شيء.

كلما ابتعدت أكثر كلما ازداد تمسكه بي .. وكثر سؤاله عني واتصالاته حتى أخذ يتدخل في حياتي .. في نزولي وبقائي .. ونادرا ما كنت أملك الفرصة للهرب وزيارة بيت جدي لأنه كان يحوم حولي في كل مكان .. منال تشمئز من تصرفاته .. ونرجس تنصحني بأن أعيش لحظات الحب النادرة .. وأنا .. أتمنى لو نبق زملاء وأصدقاء فقط .. ولكن مرت الأسابيع وتعلقه بي يزداد .. وحيرتي معه تتلاشى.

وفي يوم من أيام تشرين المميزة بالنسبة لي كنت في وحدتي أعمل دون توقف وقد أزعجني الرذاذ المليء بالرائحة الكريهة أثناء عملية تنظيف

أسنان لمريض وشعرت بالتعب يدمي عضلات يدي، توقفت لبرهة بحجة تبديل الأداة وأبعدت الكمامة لأخذ نفساً من الهواء الصحي المنعش ولكن وكأن الرائحة قد التصقت بأنفي، تمتمت بصمت .. يا لبشاعة عملي !

ألقيت نظرة على أنور على بعد ثلاثة أقدام والجالس بكل أناقة حول المكتب يدور بكرسيه الدوار مطرقاً بالتفكير، انتبه هو لنظراتي فتقلصت ملامحه بتفهم .. تذكرت بأنه أيضاً كان له نصيب من مراجع طاعن بالسن، قام بتنظيف أسنانه بينما المريض يشتهي دون توقف ويتذمر من قسوة يد زميلي، شعرت بالعطف على أنور .. أقلها مريضى ذو الفم الكريه الرائحة صامت كالأموات !

رفعت حاجبي بحركة مازحة فالتقطها زميلي الدكتور وزفر متعباً.

كان اليوم مزدحماً بوفود المرضى التي لم تنقطع حتى أثناء فترة الاستراحة القصيرة، كان ينتظرني اثنان من المراجعين، وكنت مستميتة في الحصول على شطيرة وجرة من الماء البارد، وقد لسعني الحر و .. قتلتنى الرائحة الكريهة !

ألقيت نظرة سريعة على ردهة العيادة من الباب الموارب، كان الملل مرتسماً على وجوه المراجعين المنتظرين دورهم في التنظيف، استأثرت لأن الدكتور عقيل مدير المركز التخصصي للأسنان قد أصدر أمراً بإلغاء دفتر المواعيد، وهكذا توافد المراجعون بكثرة في هذا اليوم .. كان علينا أن لا نرضخ لسياسة المدير المتنمرة بعض الأحيان والتي لا تهدف إلا لإثارة غيظنا وإظهار أسوأ ما نملك من طباع .. ولكننا لم نفرغ من عملنا منذ الساعة الثامنة صباحاً، وكنت أشعر بثورة داخلية تتزايد كل ساعة .. وخاصة وأنا بحوزتي مريض لا يهتم بأدنى وسائل

التنظيف المتاحة، ربما لم يسمع في حياته باختراع يسمى فرشاة الأسنان ...!

لم أستطع النظر إلى ساعة يدي كما أن الساعة المعطلة المعلقة على جدار عيادة (وحدة أمراض اللثة) كانت تشير إلى الساعة الثانية ظهرا، تمنيت تلك اللحظة أن تكون الساعة صحيحة، التفتت إلى مريضني لأراه يسألني بصوت مخنوق إن كان يستطيع المضمضة بالماء، أشرت له أن يفعل ذلك وقد تملكني السرور وذلك لأنه أتاح لي بعض الثواني الثمينة، ثم حطت عيناى على الباب مرة ثانية فألفيت نبيل يدخل العيادة .. ألقى تحية سريعة على أنور ثم اتجه مباشرة نحوي وقد تكلل وجهه الوسيم شحوب أوجس قلبي.

لم يترك لي وقتا طويلا لأتكهن عن سبب تجهمه فهو قد وقف إلى جانبي وهمس بصوت منخفض حاد: " لديك زائر "

ألقيت عليه نظرة مستفسرة فتصلب وجهه وانقبض فكه في الحال .. ارتعدت فرائصي وشحب وجهي أنا الأخرى، ومع هذا وجدت صوتي يقول: " هل هو ...؟ "

قاطعني نبيل بجملته مقفلة: " هو بعينه "

ولكن كيف ؟

لم أستطع أن أسأله، غدا الجو مشحون بالتوتر، ضايقتني نظرات نبيل المتهمة بشكل تلقائي ... وضعت أدوات التنظيف جانبا والتفتت نحو مريضني لأخبره بود زائف أن يرتاح لخمس دقائق، بعدها نزلت قفازي الطبي ورميته في السلة القريبة، كنت أشعر بأني في أشد حالاتي سوء، فوجهي شاحب لا لون فيه وأنا أتطلع في المرأة المعلقة فوق المغسلة

لاحظت الغضب مرسوم في عيني نبيل، وقف جانبا ووضع يده على
وركه واستمر ينظر إلي بنظرات تنفث غضبا وكأنني المسؤولة عن
تحويل يومه إلى كارثة !

حاولت تصفية أفكاري، لا يمكن أن يكون الأمر سيئا ..فأنا قوية،
تذكرت الأشهر الماضية التي انغمست أثنائها بتسليح نفسي لمواجهة هذا
اليوم، وتذكرت حديثي الماضي مع نبيل ..لم أستطع أن أعده بعدم مقابلة
بيت جدي ..فالأمر خارج نطاق المناقشة ..ولكن نبيل أخذ يتصرف
وكأنه المسؤول عني بعد أن صرح باعترافه ..!

كنت أعرف أنه يراقبني، أردت تعديل حجابي ولكنني خشيت من ردة
فعله فاكثفت بغسل يدي لأغلق الصنبور بعدها ..ثم سألته بصوت
طبيعي: " أين ينتظرنني ؟"

ومضت عيناه ببريق غاضب ورد علي بازدياء: " في الخارج ..أتظنين
أنني سأدله عليك؟"

كلا لم أظن هذا، فأنا متأكدة من الكره الشديد الذي ينبعث من الطرفين
..أخذت نفسا مشبعا بالقلق وأنا أنظر إلى الدكتور أنور وإلى المريض
متمنية أن لا يسمعني كلاهما ..بدا أنور منشغلا بجهازه المحمول
..ولكنني شعرت بأنه يستمع لحوارنا خلسة ..بينما لا يزال المريض
منشغلا بالغرغرة.

كتم نبيل غيظه أثناء ذلك، ولكن ذلك لم يمنعه من الاقتراب مني ليهمس:
" خمس دقائق فقط ..لا تتأخري أكثر "

هذا جنون ..نظرت إليه وقد كساني الجمود ..يعرف جيدا بأنني لن أعبأ
لأوامره، ومع هذا تجرأ على قول ذلك ..كان هذا خطئي .. تصور أنني

بعد أن اتصلت به صباحا لأستفسر عن سبب تأخره في المجيء إلى المركز، ظن أنني خطوت خطوة ايجابية في علاقتنا، والحقيقة أنني كنت أجامله في الاتصال ..فهو حينها سيحضر وسيعاتبنني لأني لم أتصل.

لا تقومي بشيء تبعا لضميرك الغائب !

لستنتي كلمات نبيل التالية: " انزعي الكمامة أيضا " كان يسخر مني، لقد عرف برغبتني في أن أبدو بحالة حسنة أمام ابن خالتي، ونزع الكمامة كان أمرا أتأساه أغلب الأحيان، فبعد انتهاء الدوام أتجه نحو وحدة الحشوات وأجلس بين زملائي وزميلاتي لتفاجئني الضحكات و الغمزات المستترة، كنت أبدو مثالية في ترتيب ملابسني وتعديل مكياجني إلا شيء واحد ..الكمامة اللعينة !. وتعودت على الإحراج كل مرة حين أبرر لهم بصوت لا يخلو من اللباقة: " ماذا أفعل ..أنا اعتبرها قلاذتي الخاصة "

وتصبح الضحكات أكثر وضوحا نظرا لأنهم باتوا يعرفونني جيدا.

" سأعود فوراً، لا داعي لنزعها "

لم يتوقع نبيل أن أجيبه وإن تصورت بأنه سيرتاح بعد عودتي الفورية فقد بدا مستاءً لأنني قررت مقابلته أصلاً، وبدا لي أنه سيقول شيئاً حتى أن حروف اسمي بدت على طرف لسانه ..ولكنني تجاهلته، لا يمكنه ببساطة أن يمنعني من مقابلة سرمد وحتى وإن أتحف أذني بتحذيرات حول أعماله السرية، كنت أعرف أنه قام بتوكيل بعض الأشخاص لجمع تقرير مفصل عن حياة سرمد المشينة، وغضبت بشدة لأنه أوضح لي أسبابه الخاصة في فعل ذلك حينما اجتمع بي في الكافتيريا وأخبرني عن حصوله على معلومات تخص سرمد:

" سرمد يتورط بأمر آخرى غير السياسة .. هناك أمور لا تعرفينها، أمور خارج نطاق القانون " هذا ما قاله لي يومها وهو يمعن التركيز في ملامح وجهي دارسا ردة فعلي، وبدا مترددا في متابعة حديثه حينما فاجأته معالم وجهي الجامدة التي لا توحى بشيء . وقتها جرعت العصير مرة واحدة لأخفي ثورة الغضب التي انفجرت في داخلي وأنا أقول له: " لو كان هناك مخالفات أخرى لذكروها أثناء المحاكمة " خرجت كلماتي باردة كما أردتها .

طرف نبيل بعينه ليخالفني بقوله: " إنها مخالفات سرية "

بحق الله .. أية مصادر زودتك بهذه المعلومات التحفة ؟! .

أردت اللهو بشيء آخر فجعدت علبه العصير ثم ثقتها بالماسة من نهايتها المنتفخة وحينما لم أجه أخذ يراقب حركة يدي و سألني مترددا: " ألا تودين معرفتها ؟ "

نظرت إلى الساعة وقلت بلهجة متسارعة: " أتعلم ؟ .. لقد انتهت فترة الغداء، علي أن أعود للعيادة "

لحسن حظي فإن رئيسة قسم صناعة الأسنان كانت معروفة بتجبرها ومحاسبتها للمتأخرين والمتخاذلين في أعمالهم، شعرت بالامتنان لوجودها المتواصل في العيادة هذه المرة، وهكذا أسرع هاربة من تحقيقات نبيل وحمدت ربي لأن الموضوع أغلق وقتها.

كنت أريد استغلال الوقت لمقابلة سرمد وتضايقت حينما خرج نبيل من العيادة معي، وربما شعر بفضاضته فنظر إلي من طرف عينيه وسألني: " أتحيين أن أرافك ؟ "

" لماذا ؟ "

تقلص فمه وكأنه يخرج الكلمات عنوة: " لأنه .. تعرفين .. سيكون أفضل .. ثم قطع كلامه ليقف أمامي فجأة، فتوقفت عن المشي وواجهته بنظرة متسائلة فأردف متابعا: " فأتين إنه ينتظر في الخارج .. أمام المركز .. ستكونون أمام الأنظار "

رمشت بعيني: " وإن يكن ؟ "

" لا تكوني عنيدة "

علي قطع صلتي بسرمد .. قرأت ذلك في عيني نبيل.

" نبيل انظر، لن أتأخر أكثر من خمس دقائق "

تقلص فكه: " أتعرفين سبب زيارته ؟ "

حركت رأسي: " كلا، أتصور أنه يود إلقاء التحية "

" يمكنه أن يتصل "

نظرا لأنني أعرف بتغيير سرمد الدائم لأرقامه رفعت نظري ورسمت ابتسامة متكلفة وأجبته: " سأخبره أن يفعل ذلك في المرة القادمة "

التوت ملامحه الوسيمة بعدم رضا وكأنه يقول (هذا غير مقبول) ولكنني اندفعت في الحال نحو باب الخروج، وحينما اختفى عن ناظري توقفت قرب الحديقة الخارجية، عدلت من حجابي تلك اللحظة ورتبت ملابسني المجددة ثم فتحت أزرار صدريتي الطبية البيضاء اللون، وحينما أصبحت مستعدة تحركت نحو باب المركز الرئيسية وأنا أعني انقباض قلبي، هذه حالتي دوما حينما ألتقي بسرمد ..كنت مرتاحة في

الأشهر الماضية لأنه بعيد عني، ومع ذلك فقد تمنيت لو أن الأمر لا يكون بكل هذه الصعوبة، فأنا أفتقد رؤيته كلما ابتعد.. وحينما يقترب.. أبحث عن أقرب ملجئ بعيدا عنه، فعودة سرمد لا تعني لي إلا المشاكل.

أومأت بتحية مختصرة لحارس الباب فانحنى احتراماً لي، ثم بحثت بلهفة عن ابن خالتي الطويل القامة، كان متكأ إلى عمود الكهرباء القريب.. تصلبت أقدامي وأنا ألمح وجهه المنحني وقد استكانت قسماته ببرود، عيناه السوداوتان قد خبا بريقهما، وقد غطت لحيته معظم وجهه بينما امتدت يده لتوقد سيجارة وضعها في فمه بطريقة متكاسلة، ثم ألقى نظرة سريعة على بوابة المركز.. حينها رأيته.

لم أستطع التنفس الآن...

لقد مرت أشهر منذ رأيت وجهه، طبعي أن يكون غاضبا لأنني لم أزره ولا لمرة واحدة، تقلص قلبي ألما وأنا أرى نظراته الخالية من الحياة والتي وجهها إلي ما إن اقتربت منه، لمعت بشرته السمراء تحت لهيب أشعة الشمس الحارقة فأبعدت بصري بقوة لأركز على حقيبة سوداء صغيرة مركونة بإهمال عند قدميه.

شعرت بقسوة نظراته التي مدتني برجفة اعتاد عليها جسدي في حضوره الدائم، ولكنني غلفت مشاعري بابتسامة مقتضبة حاولت أن أجعلها ترحيبا بسيطا لخروجه، ثم بلغت ريقى بخوف طفولي مزعج حينما لم يستجب لابتسامتي.

سألته وأنا أقف بقربه: " متى خرجت ؟ "

" لتوي " كانت أجابته قصيرة، ضاقت عيناه وهو يدخن سيجارته وينظر إلي من بين الدخان .. هذا يفسر وجود الحقيبة وهذا يعني أنه لم يذهب لرؤية أهله وها هو الآن قد أتى ليحاسبني على رأس القائمة.

تمنيت لو كيف عن التحديق بوجهي، فسألته مراوغة: " لم لا يعلم أحدهم بخروجك ؟ "

رفع حاجبه بطريقة مأكرة وبرقت عيناه السوداء، ها قد عاد لأسلوبه التهكمي: " حسنا، لقد أردتها أن تكون مفاجأة "

" لمن ؟ " اندفعت أسأله من دون تفكير.

لم يجبني وكأنه اعتبر سؤالي أمرا تعجيزيا صرفا، لا بد وأنه قرر التزام الصمت المحمل بكافة أنواع العتاب، لديه الحق في أن يعاتبني، فقد كنت هاربة من سيطرته طوال فترة مكوثه في السجن، شعرت وقتها بأن حياتي ستعود للتذبذب والقلق .. وفقدان التركيز بخروجه.

" حاولي أن تتخيلي الأمر، فقد كانت لي أشهر من التفكير المتواصل .. لقد وضعت أولوياتي في خانة واحدة وقررت أن أبتعد عن السياسة اللعينة .. حتى أنني عاهدت نفسي أن لا أقترب من السجائر "

بدا واضحا أنه وصل إلى طريق مسدود، نظرا لأنه كان يدخن سيجارته بكسل، استمعت إليه دون أن يرف لي جفن، لم يفتقر لأسلوبه الشهير في المزاح الساخر .. إضافة إلى أنه يمتلك لسانا حاد كالسيف وغالبا ما يقع خصومه جانبا بعد مشادة كلامية معه، فذهنه يعمل لساعات طوال وهو قادر على جعل الخصم يستسلم بكلمة واحدة.

تابع كلامه متهمكماً: " ولكن الأمر لم يكن سهلاً ..فقد تقّلت للحرية قبل خروجي من السجن بدقائق ..ولكنني ما إن وضعت قدمي في الخارج حتى أدركت بأنني مشتاق للعبودية أكثر " وحرك سيجارته بخفة وكأنه يفهمني بأن أولوياته فشلت تماماً.

" إذن فأنت مستعد للعودة للسياسة بعد أن عدت للسجائر ؟"

" لقد نسيت شيئاً ثالث "

توقف قلبي عن الخفقان: " ما هو ؟"

" أنت !"

بلعت ريقِي: " ماذا تعني ؟"

تكلف ابتسامة هازئة: " مرت ثلاثة أشهر ..لا بد وأنت تصرفت على هواك خلالها "

بدا الانزعاج علي: " تتكلم وكأنني سعدت بدخولك للسجن "

علت شفته ابتسامة نادرة: " ما هذا ؟ ..ألا يحق لي رؤية ابنة خالتي في يوم مميز كهذا ؟" وقبل أن أقول شيء أمرني وقد هدأت ملامحه: " مدي يدك "

إنه لن يتجرأ على مصافحتي ونحن في الشارع، لا يمكن للسجن أن يفقده عقله، فهو لم يقم بذلك إلا مرة واحدة حينما كنت قادمة لزيارة بيت جدي مع عائلتي، وهناك ألقى التحية مصافحاً كل الموجودين في البيت، ومن ضمنهم أنا ..تذكرت كيف اهتز قلبي منتظرة دوري ثم أدركت بأنني أغبى إنسانة في الكون لأنه لم يلاحظني حتى وهو يصافحني.

وشعرت بالغباء هذه المرة أيضا فهو لم ينوي مصافحتي لأنه أدخل يده في جيب سرواله وأخرج شيئا ما .. فمددت يدي منفعة .. هو لم ينس .. تسارعت دقات قلبي بطفولية غامرة .. وتهللت أفراسي كلها.

وضع في يدي شيئا باردا قبل أن يقول بلطف: " عيد مولد سعيد "

نظرت إلى السلسلة الفضية التي احتوت وردة صغيرة، وقد تلاً قلب فضي حولها .. شعرت بالتأثر الفوري .. كان عليه أن يتوجه لرؤية عائلته، للخلود للراحة في بيت جدنا، ومع هذا قرر أن يزورني أولا ويقدم لي هدية بسيطة كهذه .. لم أستطع التفوه بكلمة شكر واحدة، اكتفيت بتأمل السلسلة وقد اكتفتني شتى المشاعر .. داعبت السلسلة بطرف إصبعي .. كانت جميلة .. جميلة للغاية، رفعت بصري والتقيت بالعينين السوداء اللامعة .. كان يراقب ردة فعلي بنظرة هازئة، سويت ملامح وجهي في الحال بعد أن تذكرت بأنه لا يحب إظهار عواطفه للملأ ويستهزأ من الذين يفعلون ذلك بسهولة .

قررت أن أتصرف بطريقة اعتيادية فدفعت السلسلة نحو جيب صدريتي وقلت بابتسامة خفيفة: " شكرا .. لطف منك أن تتذكر "

تشدق قائلا: " حسنا، كانت لدي أيام طويلة في السجن "

ازدردت ريقي لأمر تفكيره بي في السجن، ولكني لم أرف بجفني مظهرة تأثري بل علقت بمرح: " حاول هذه المرة أن لا ترتكب ذات الخطأ "

" أتقصد أن لا أتورط في اختطاف نائب المحافظ مرة أخرى؟ " هزأ بكلامي بلهجة مسترخية.

" بل أن لا تندفع وراء إحساسك الوطني "

ضحك وهو يأخذ نفحة من سيجارته: " لن أرتاح إلا بعد أن أضع أولئك الأوغاد في السجن "

اختض قلبي بالقلق: " سرمد .. هذه ليست لعبة، هؤلاء الناس حقيقيون وهم يستطيعون حبك مؤامراتهم في الخفاء دون أن يحاسبهم أحد .. وقد ابتدأ الناس يظنون بأنك .. "

توقفت عن الكلام بعد أن أدركت أنني بدأت أتحدث كنبيل، تشدق قائلاً بازدرأء: " ماذا .. إرهابي ؟ "

" حسنا .. أنا أنقل حديث الناس فقط .. لا أحد يرحم الآخر في هذا الزمن "

" لا تليق السياسة بك يا وردة "

نظرت إليه بعدم تصديق فابتسم مبدداً فظاظته: " لقد أصبح عمرك أربعاً وعشرين .. أنت الآن بالغة لتكوني رأيك الخاص "

لم يكن يهتم لآرائني، فحينما أبتدأ بحوار جدي، يجلس هو متخاذلاً ويضحك مستهزئاً من محاولتي الدائمة لإثبات رأيي .. وكنت أتمرد على أسلوبه الهمجي فهو لا يحترم رأي أحد ورأيه هو السائد.

سألته بتشكك: " ولن تضحك حينها ؟ "

أجاب بعينين هازلتين: " أنت لست خائفة مني ؟ "

رفعت ذقني: " لست كذاك "

ابتسم وقد احتدت بشرته بلون أسمر داكن ثم قال: " حسنا .. أنا أعطيك الفرصة الآن "

شعرت بالجرأة تسري في عروقي، ضاقت عيناى لأقول بتحد: " أنا أعتقد إن كل السياسيين أوغاد "

رد ضاحكا: " أنا ناشط في حقوق الإنسان وسياسي في ذات الوقت، تريدون القول بأنى وغد مثل الجميع؟ "

ها هو يتلاعب بكلماتي .. لقد ابتدأ أسلوبه الهمجي ...

" أنا أقصد الإدارة الفاسدة .. حتى أولئك القضاة، كلهم مشكوك في أمرهم "

لمعت العينان الهازلتان وكأنه يقول لي (وماذا أيضا؟)

تابعت وأنا أرطب شفتي: " لا يمكن لأحد أن يكون في بؤرة السلطة ولا ينحرف بسرقة لأموال الشعب، الكل يدعي حمايته لمصلحة الشعب وهو يفعل غير ذلك "

" لا تتفعلي رجاء "

لا فائدة .. إنه يضحك علي ...

" أنا لست منفعلة .. كما أنك توافقني الرأي، لقد صرحت بذلك في صحيفة الساعة "

" لم أتصور أنك قرأت ذلك "

" لقد أخبرتني خالتي بأمر المقال "

اتسعت ابتسامته التهكمية: " أنت إذن ثورية مناسبة يا فاتن "

إلى متى سيستمر بالهزء بي ؟!

لا تظهر لي له ردة فعلك ...

" لقد أصبحت في الرابعة والعشرين من العمر " خرج صوتي لبقا كما أردته.

" يمكنني أن افتح لك عمودا في الصحيفة " وابتسم ماكرا.

عقدت ذراعي حول نفسي وقلت دون أن يرف لي جفن: " لا، شكرا .. أنا مكتفية بطب الأسنان حاليا "

لم يجبني .. غام وجهه بتعبير غير مقروء، ثم رمى سيجارته على الأرض وقال بلهجة كسولة: " مري على بيت جدك بعد انتهائك من الدوام، لقد سمعت بأن جدتي تشكو من غيابك المتواصل "

انبريت أقول بتململ: " ليس اليوم .. "

قاطعني وكأنه يكلم طفلة: " اليوم عيد ميلادك، ستحزن جدتي إن رفضت المجيء، ثم لا تقلقي .. لن أكون في المنزل "

شعرت بالاضطراب يمزقني .. فسرمد يعرف متى يصوب سهامه ... وسط الجرح تماما ...

" سأمر بعد العصر " خرج صوتي فاترا ...

بان الخطر في عينيه ولكنه لم يعلق على الموضوع أكثر، رفع حقيبتيه المتسخة من على الأرض وقال لي بصوت لاذع متهمك: " كوني لطيفة

وبلغي تحياتي للعزيز نبيل، لقد نسي أصوله في إلقاء التحية على ما يبدو "

لم ينتظر ردي الذي حضرته للاعتذار عن تصرف نبيل، وشعرت بالבוّس لأنه تركني دون أن يقول وداعا حتى .. وراقبته وهو يسرع الخطى مبتعدا ثم يعبر الشارعين الرئيسيين ليختفي في سيارة أجرة مركونة.

لم يعد وقوفي في الشارع أمرا مقبولا .. عدت للمركز وأنا أتذكر مسؤولياتي المنتظرة، لدي مريضان ونصف مريض .. وعلي إنهاء عملي قبل الثانية .. هذا إن أردت التمتع بنصف ساعة مع بقية زملائي .

أسرعت بخطاي عائدة إلى الداخل متمنية أن لا يصادفني نبيل في الطريق، وحينما مررت من قرب عيادة المعالجة حيث يعمل نبيل، التقت عيناى بعينيه المتجهمتين على الفور.

لحسن حظي كان هو منحنيا على وجه مريض وفي يده جهاز متخصص في عمل الحشوات البيضاء للأسنان وقد أنبعث الضوء الأزرق من الآلة .. فشعرت بالارتياح الفوري لأنه منهمك في عمله .. ولكن ذلك لم يمنعه من تصويب نظراته القاتلة إلي وكأنه يقول لي (لقد تأخرت عشر دقائق) .

عدت إلى عيادتي وأنا أشعر بالانزعاج من تدخله المستمر في حياتي.

الفصل الثاني والعشرون

طلب زواج

لقد ولدت في هذا اليوم .

وقد خرج سرمد من السجن ..

أقيم لي احتفال صغير بالمناسبة في وحدة الحشوات حيث تشارك زملائي وزميلاتي بشراء كعكة الميلاد، لقد كانت بادرة لطيفة وتقبلت جميع التهاني بفرح كبير بينما غمزن لي صديقاتي بدعواتهن بزواج قريب ،كانت أمني طيبة تقبلتها بروح مرحة ولم أكن محرجة بين زملائي الأطباء وارتحت في الوقت ذاته لأنهم لم يقدموا لي الهدايا واكتفوا بكعكة الميلاد التي كانت لذيذة للغاية ...قضيت فترة ما بعد الظهر بسعادة ..

بعد الاحتفال القصير ، طلب مني نبيل أن نتمشى في الرواق قبل دقائق من انتهاء الدوام الرسمي، كنت أتحاشى لقائه قبل الآن ولكنه وضعني في الزاوية بذكاء هذه المرة فخرجت معه مرغمة.

أدركت أنه سيحدثني عن سرمد ..لا بد وأن يفعل ذلك ..وأن يخرج الشوكة التي تحز خاصرته.

وصلنا نهاية الرواق فتوقف ليتكىء على الجدار المقابل وأصبح بمواجهتي ..داريت ارتباكى بابتسامة صغيرة وسألته: " أتعبت من المشي ؟"

لمعت عيونه العسلية .. إنه في مزاج جيد إذن ... كان يضع يده خلف ظهره .. لم يقل شيئا .. مد يده وقدم لي علبة صغيرة مغطاة بغلاف هدايا وعليه شريط أحمر اللون .. اتسعت عيناى وخفق قلبي انفعالا .

" إنها ليست لي ؟!"

قرب العلبة أكثر وقال بابتسامة: " إنها لك .. عيد ميلاد سعيد فائن "

اعترضت في الحال: " ولكنكم اشتريتم لي كعكة "

" هم اشتروها لك .. أنا لم أشارك معهم، لذلك تأخرت صباح اليوم .. كنت أحضرها لك "

وحينما لم أمد يدي تابع قائلا: " بربك .. هل ستخرجيني ؟"

ترددت في أخذ العلبة، إحساسي يقول بأنها تحتوي على شيء ثمين،
وحينما شعرت بثقلها تقلصت ملامح وجهي وقلت: " نبيل .. إنها ليست
باهضة ؟ "

قاطعني: " لا شيء يغلو عليك فائن، أنا واثق أنها ستعجبك "

لابد وإنها حلوة إذن ...

أردت إرجاعها في تلك اللحظة لأنى أعرف أن لنبيل أقرباء من صاغة الذهب، ولكنه قرأ التردد على وجهي فقال بصوت رقيق: " إنها ليست
باهظة الثمن .. اقبلها ولا تقولي شيئا "

تغلب علي فضولي أخيرا .. حاولت فك الشريط ولكنه منعني في الحال:
" ليس الآن .. افتحها لوحدها "

التفت بنظرة عينية المعبرة فعلمت غصة ببلعومي وهكذا وضعت العلبة في حقيبتتي وشكرته بصوت هامس.

بعدها تحركت لأحثة على المسير ولكنه لم يتحرك فنظرت إليه بتساؤل:
" ماذا؟ "

فأخذ ينظر إلي بصمت .. حينها فهمت مراده .

" ماذا كان يريد ؟ " ابتدأ تحقيقه ببساطة ...

أخذت أعبث بشريط حقيبتتي وترددت في قول الحقيقة .. أخيرا اهتديت إلى: " أراد أن يلقي التحية "

" أخرج لتوه من السجن ؟ "

لم أستطع الكذب في هذا: " أجل "

ضاقت عيناه وأخذ يفرك جبينه بيده ثم قال وكأنه يشعر بالتعب: " فاتن .. أحتاج لأن تعطيني الوعد الآن "

" نبيل لا تبدأ من جديد .. إن ما تطلبه مستحيل .. بيت جدي .. "

قاطعني ببعض الحدة: " لو أن بيت جدك يعرفه على حقيقته لما بقي يوما آخر هناك "

رفضت أن أستمع لما يقوله

" حسنا، افهمي ما سأقوله .. أليس هو دائما يتهم السلطة بإظهار ستار الزيف والخداع ؟ ألا تظنين أن حجته واهية .. إنه يعرف جيدا كيف

يخفي جلده بأساليب ملتوية، يحاول إيهام الآخرين بأنه بطل الأعاجيب
وهو عكس ذلك تماما "

بدأ الغضب يملكني: " لماذا تحاول تشويه صورته دائما؟ ..لماذا لا
تتركه بحاله ؟"

" أنا لا احتاج لتشويه صورته ..أعماله تكفي ..! "

لم أقل شيئا ..اكتفيت بالنظر إليه بغضب ..لقد كان نبيل يتعمد أن يكون
المنتصر في جدالنا حول سرمد ..بعدها رقت ملامحه فجأة: " فانت
..ثقي بي حينما أقول بأنه خطر محقق بك "

" دعنا نغلق الموضوع رجاء "

استسلم أخيرا ولم يقل شيئا نظرا لخروج زملائي من الوحدات بعد
انتهاء الدوام الرسمي ..وبدا لي أنه ركن لأفكاره وإن لاحظت الهم
مرسوما على وجهه و تجاهلت ذلك، لم أكن أريده أن يتدخل في حياتي
..ليس قبل أن أصل إلى قرار بشأنه.

حينما عدت مع منال و نرجس إلى الدار، أخذنا نتحدث بمواضيع طريفة
تخص اليوم المتعب الذي قضيناه في المركز، كل منا تتحدث عن حالة
عالجتها ..أعبتها أو أغضبتها ..سواء كان ذلك لصعوبة الحالة أو
لأسلوب المراجعين الفظ ...شعرن بالأسف لأن المراجع ذا رائحة الفم
الكريهة كان هديتي في عيد ميلادي.

حينما تحول بنا الحديث إلى حياتنا الاجتماعية توفرت لي الفرصة
لأخبارهن بخروج سرمد من السجن وتصرف نبيل الجاف نحوه...

أخبرتني منال أن أتجاهل نبيل كالعادة كما أنني أخفيت عنهما أمر الهديتين اللتين تلقيتهما من سرمد ونبيل، كنت واثقة من ردة فعل منال .. كانت لتلوي معالم وجهها ساخرة !.

وصلنا الدار، تناولنا غداء سريع ثم خلد الجميع للنوم ولكني حضرت نفسي للذهاب إلى بيت جدي فعندما أصبحت الساعة الرابعة والنصف عصرا توجهت إلى العروبة، تذكرت بأني لم أفتح هدية نبيل بعد، لقد تصورت أنني سأكون متلهفة لأن أفتحها وأرى محتوياتها .. ثم أجلت الأمر لبعد عودتي من بيت جدي.

أعيد بناء البيت على الطراز الحديث ، فقد تحولت الواجهة لتشغل جزء مهم من المنزل وقد غطيت بالقرميد الأحمر وصبغت الجدران بلون حليبي لطيف يبهج العين.

استقبلتني خالتي نجاح حيث كانت تنظف الباحة الأمامية للمنزل، وشعرت بأني عدت مرة أخرى صغيرة .. إلى رائحة الطفولة . لقد مر زمن طويل منذ فكرت جيدا فيما يعنيه لي بيت جدي فلقد ولدت في هذا المنزل .. ما أحلى العودة إليه .. في يوم مميز كهذا بالنسبة لي.

دخلت إلى الداخل من جهة المطبخ وعانقتني بمحبة ثم أخذت تقرص وجنتي بعتب لأنني تأخرت عليهم بالحضور ودفعنتي إلى المطبخ قائلة: " خالتك أم علاء تصنع لك كعكة .. هيا اذهبي والقي التحية عليها "

كعكة أخرى ! ؟

استطعت أن أضع ابتسامة سعيدة صغيرة على شفتي وأنا أعانق خالتي سعاد ببهجة حقيقية .. بدت لي وكأنها تشع بالسعادة، فخرج سرمد

المفاجئ للجميع جعل الفرع يعم أرجاء البيت حتى أنها أخبرتني بهجة عارمة: " اليوم عيدين .. عيدك .. وفرحة خروج سرمد من السجن .. " وأطربت وجنتي بقبل سريعة وأمرتني أن أسلم على جدتي ثم أعود لأعاونها في صنع الكيك، وحينما دخلت غرفة الجلوس تطلعت إلى السلم المؤدي إلى الطابق الثاني، كانت غرفة الجلوس مفتوحة تتصل بها جميع الغرف وكانت تزخر بأثاثها الـ .. كدت أقول القديم ولكنهم اشتروا أثاثا جديد على ما يبدو.

" رائع " التفتُ إلى الباب فرأيت خالتي نجاح تبتسم بسرور: " أعجبك ها ؟ .. قلت لهم إن الوقت حان لتبديل الأثاث "

لقد تغيرت غرفة الجلوس تماما، فلون الأثاث كان غريبا .. أزرق داكن يميل إلى الياقوتي وهناك ما هو أجمل فهو خال من الزخرفة .. أنيق .. مذهل ومريح جدا.

خلف التلفاز علقت لوحة لمنظر طبيعي جميل.

" ولوحات جديدة .. هممم .. هناك أمر مريب في هذا "

وقفت خالتي خلفي ووضعت يديها حول كتفي قائلة: " التغيير .. كلنا رغبنا به "

أجل .. اختنقت بعبرتي فجأة .. التغيير أمر صعب في عالم روتيني ممل.

من بعيد تنأهى لي صوت جدتي: " فاتن .. تعالي يا حبة عيني "

أسرعت نحوها في غرفتها الخاصة البسيطة الأثاث، ويبدو أن جدتي لم ترغب بالتغيير فالغرفة بقيت على حالها منذ .. لا أعرف منذ أية سنة .. ربما قبل أن أولد أنا.

فقرب الباب كانت المرأة والطاولة الخاصة بها، وإلى جانبها الدولاب ذو الأبواب الضخمة العالية و المليء بحاجات جدتي القديمة، وربما بعض ملابس جدي المتوفى، وأشياء أثرية من الزمن الماضي و فوقه وضعت أفرشة قديمة وبعض الشراشف والبطانيات.

كانت جدتي جالسة على سريرها، بعد أن قبلتها على وجنتيها فسحت لي مجالا لأجلس أمامها وأنعم بأحاديثها الدافئة، سألتني عن الكثير وكانت إجاباتي قصيرة، ربما لأنني لم أحب يوما أن أخضع لتحقيق ما ، ثم بعدها تناولت مسبحتها وأخذت تقول لي بصوت شابته المرارة:

" عرفت بخروج ابن خالتك أليس كذلك ؟.. أمه مرتاحة ولكني لست كذلك، فهو لن ينفك ويعود مجددا .. " ثم نظرت إلي ووضعت يديها المليئة بالتجاعيد فوق يدي وقالت: " السياسة لا تطعم الفقير ولا تشبع الجائع ..كلنا نحاول إقناعه ولكنه عنيد كالحجر "

حسنًا .. أنا لست بارعة في الإصغاء لحياة سرمد الدرامية ...

" كوني متفائلة جدتي " قلت كلماتي بحذر.

" أين التفاؤل ؟..يقول علاء لا أمل في صلاحه ..يريد أن ينتقم من الجماعة الذين ورطوه في دخوله للسجن بتهمة الخطف "

" حسنًا، هذا ذنبه " وحينما حدثتني بنظرة حادة تابعت أقول مخففة: " لا تقلقي سيكون بخير ..فهو رجل واع ويعرف ما يفعل، وحينما يقول سرمد بأنهم خدعوه فهو لا يخطئ في ظنه "

ارتعبت جدتي: " أستحلفك بالله لا تشجعيه بهذا الكلام، منذ الصباح وخالتك سعاد تقنعه بأن يترك السياسة ومشاكل الجمعية، يا حبة عيني ..دعيه يستر على حياته "

لا أحد يستطيع إقناع سرمد بفعل شيء لا يريده.

" سيقتنع لو اتفق الجميع على التحدث معه "

" سنتحدث معه لو أن هذا ينفع ..وهل بيدنا شيء آخر؟ ..إنه يضيع عمره ..لا زوجة ..لا أولاد، إن سعاد تندب حظها في خلفتها "

" على علاء أن يتزوج أولا " قلت ساهمة ...

لوت شفتيها بمرارة: " آه يا صغيرتي، لو أن الأمر بأيدينا لزوجنا الثلاثة معا .. "

ابتسمت برقة: " اصبري عليهم جدتي ..ثم إن قيصر ما يزال صغير "

" صغير على ماذا؟ ..لقد أصبح في العشرين .. " ثم تغيرت النظرة في عينيها فمسكت قلبي في الحال وتابعت تقول معاتبة: " حتى أنت يا فاتن ..لا أدري ماذا دهى عقول هذا الجيل، لا أحد يرغب بالزواج ..لقد أصبح عمرك أربعاً وعشرين سنة ماذا تنتظرين أكثر ؟"

" ربما تنتظر النصيب "

صدر هذا الصوت من خلفي، التفتتُ فرأيتُ سرمد واقفاً عند باب الغرفة ..منذ متى وهو يستمع لحديثنا ؟

كان يرتدي ملابس البيت، وهذا يعني انه كان موجوداً أثناء قدومي ..وأدركت في الحال أمراً واضحاً:

لقد كذب بالنسبة لخروجه من المنزل بمجيئي.

أخذ يفرك عنقه وهو يدخل الغرفة فشعرت بأن ارتياحي القصير ولى من الشباك ..وتولاني الحذر وأنا أقبع في مكاني بينما تولت جدتي الحديث هازئة: " تحدث عن نفسك ..فنصيب الفتاة محفوظ بأمان "

ضحك بعذوبة: " ألدك رجل لها تخفيه في جيبك يا جدتي؟"

وبخته: " عيب عليك يا ابن سعاد ..رجل بمثل عمرك كان عليه أن ينجب ثلاثة أولاد على الأقل "

" وأين أضعهم يا جدتي؟"

التفتت إليه وتفهت لأول مرة بعث: " ضعهم في جيبك ! "

رمقني بنظرة لامعة هازئة.

" وهل هذا جواب ؟..لو أنك تتوي الزواج لاشرتيت لك شقة صغيرة أنت وزوجتك واستقرت بها "

" سأخبرك ما أن أجدها " وغمز لي نكاية.

تمتت جدتي: " اضحك الآن ..وستندم فيما بعد "

ويبدو أن مزاجه الجميل لم يتغير ..اقترب أكثر وسحب كرسيه ليجلس قبالي ليثبت لي كذبه فهو لن يتركني بحالي: " أصدقيني القول جدتي ..لو أني تقدمت لفاتن أتراها سترضى بشاب فقير معدم مثلي؟"

" ترضى بك أنت ؟!.." وأصدرت شخير: " ألم أخبرك بأن نصيب الفتاة محفوظ؟ "

رفع حاجبه مأكرا: " قد أكون أنا المحفوظ بالجيب .. ما هو رأيك فائن ؟ "

إنه لا يعتمد إحراجي فقط .. بل إنه يتلذذ بذلك ...

تطلب الأمر مني شجاعة كبيرة لأقول: " جدتي تحتفظ لي بالأفضل " " وأنا لست كذلك ؟ "

داعبت الشرشف بأصابعي: " أنت قلت بأنك فقير ومعدم .. لمَ عساني أوافق ؟ "

شعرت بأن جدتي تبتسم لي مشجعة...

" أتقصدين لو إنني استطعت إيجاد وظيفة محترمة براتب معتبر حينها سنتظرين في أمري ؟ "

لم تستطع جدتي إخفاء حماسها...

أصبح الوضع خطيرا حينما قالت: " ضعي شروطك فائن .. لا سياسة ولا سجون ولا ملاحقة للجماعة الذين ورطوه في قضية الاختطاف "

جدتي أرجوك .. أعصابي لن تحتمل ..

" هيا .. لهذه الدرجة أنا غير مناسب ؟ "

استطعت أن أبتسم: " أنتما تتفقان علي "

هزلت عيناه: " أهذا يعني إنك موافقة ؟ "

توقفت جدتي عن التسبيح ولم أستطع أن أرى ردة فعلها...

أنقذي نفسك فاتن...

" أنا أقول أنك كبير بالنسبة لي "

اخترت الحجة الأكثر ضعفا ..فهو أكبر مني بستة سنوات فقط !

" هيا ..لا ينضج الرجل إلا حينما يصبح في الثلاثين، ولا يمكنك أن
تعتبري السجن نقطة سوداء في حياتي.. فأنا دخلته بريئا "

تجرات على القول: " لديك مساوئ أخرى "

" سمها لي "

لماذا يبدو لحوحا ..ماذا سيستفيد من هذه اللعبة ؟

" نحن غير مناسبان ..أنا أخذ الحياة بجدية وأنت لا ..وكل واحد منا لديه
طموحات تختلف عن الآخر "

" طموحاتي يعرفها الجميع ..ماذا بالنسبة لك ؟..أتريدين إنهاء
دراستك؟..ماجستير مثلا ..دكتوراه ؟..أنا ليس لدي مانع سأنتظر "

لماذا ركنت جدتي للصمت؟..لماذا لا تقول له (دع الفتاة وشأنها)

بللت شفتي: " لن أوافق على الحياة التي تعيشها "

أخذ يهز قدميه مسترخيا: " أتريدين حياة مليئة بالورود فاتن ؟..ورجلا
يعبدك حق العبادة، ومنزلا مليء بالرفاهية ؟..دعيني أختصرها
بمتطلبات الزواج العصرية ..أجيبيني بصراحة "

رفعتُ حاجبي: " ماذا ..ألا أستحق هذا ؟.."

" أَلَيْسَ أَصْبَحْتَ طَبِيبَةً ؟ .. أَمْ لِأَنَّكِ ابْنَةَ وَالِدَيْكَ الْمَدْلَلَةِ ؟ "

لَقَدْ دَخَلَ سِرْمَدُ أَرْضَ خَطَرَةٍ .. شَعُرْتُ بِالْغَضَبِ يَزْحَفُ فِي دَاخِلِي ...

" لَا تَقَلِّلْ مِنْ شَأْنِ الْبِنْتِ " دَافَعْتُ عَنِّي جَدَّتِي ...

" أَنَا أَتَحَدَّثُ مَعَهَا بِصِرَاحَةٍ .. دَعِينَا نَكُنْ وَاضِحِينَ " وَنَظَرَ إِلَيَّ نَظْرَةً
احْتَرَتْ فِي وَصْفِهَا .. هَلْ هُوَ جَاد ؟

أَجَبْتُهُ بِالصِّرَاحَةِ الَّتِي يَرِغِبُ بِهَا: " أَنَا أَعْرِفُ نَفْسِي جَيِّدًا وَطَلِبَاتِي لَا
تَقُلُّ عَنْ أَيَّةِ فَتَاةٍ أُخْرَى "

" إِذْنِ مَا هِيَ مَوَاصِفَاتُ الرَّجُلِ الَّذِي تَرِيدِينَ الْإِرْتِبَاطَ بِهِ ؟ "

لَقَدْ أَصْبَحْتُ أَشْعُرُ بِالِانْزِعَاجِ ...

" هَلْ هُوَ تَحْقِيقٌ ؟ " وَضَاقَتْ عَيْنِي ...

" هَلْ تَشْعُرِينَ بِالِإِحْرَاجِ مِنْ أَسْئَلَتِي ؟ " لَوْ شَفِيتِيهِ مُسْتَمْتَعًا ...

إِنَّهُ يَمْزِحُ بِلَا شَكِّ ...

" أَنَا لَسْتُ مَحْرُجَةً .. لَسْتُ أَفْكَرُ بِالزَّوْاجِ وَلَيْسَ لَدَيَّ أَيَّةُ مَوَاصِفَاتٍ
مُحَدَّدَةٍ "

أَصْبَحْتُ عَيْنَاهُ أَكْثَرَ خَطَرًا: " رُبَّمَا لَدَيْكَ الْمَوَاصِفَاتُ الَّتِي وَجَدْتِيهَا فِي
شَخْصٍ مَا "

فَمَسَكْتُ قَلْبِي فِي الْحَالِ ...

وقبل أن أعلق على كلامه تابع يقول لجدي: " قد تكون تحتفظ برجل ما في جيب ... " وتوقف لينظر إلي للحظة وأكمل: "....حقيبتها " وضحك حينما قطبت جدي جبينها ، وكأنها لم تعجب بحديثه المازح ..ولكن ..أتراها فهمت قصده ؟

قبضت يدي إلى جانبي ..شعرت بأن سرمد أوقعني في دوامة من الحيرة ..ماذا تراه يعرف عن الموضوع ؟..جاءتني فكرة سخيفة بأنه فتش حقيبتتي التي وضعتها في غرفة الجلوس مع حجابي ..فلا تزال هدية نبيل محفوظة فيها ..أتراه تجرأ وفتحها ؟

" ربما منافسي أقوى مني وأفضل ..كما إنني لست بارعا في المحاربة ..فأنا خصم ضعيف "

لم أستطع التفوه بشيء فأني كلام سأقوله سيفصح عن الكثير، اكتفيت بالابتسام والتظاهر بأنه لا يقصد شيئا من كلامه.

" جدتي، هو لا يشعر باليأس ..أليس كذلك ؟"

أجابتني جدتي: " لا تدخلاني في أحاديث الشباب هذه ..ما أدراني عما نتحدثان "

ولكن عيناها كانتا تلمعان كالقطط وشعرت بالقلق من ذلك.

وضح سرمد بصوت غامض: " إن فاتن تحاول التهرب من الموضوع وكرامتي لا تسمح لي أن أعيد عليها ذات الطلب، يبدو لي يا جدتي أن حفيدتك ترفضني بطريقة غير مباشرة ..مع الأسف، كنت مستعدا لأن آتي بالشيخ ما أن تشير لي بموافقتها "

وشعرت بيد تعتمر قلبي .. لماذا يا تراه يمزقني ببرودته .. أيجب أن يراني نائرة الأعصاب ؟

تمنيت لو أستطيع تبادل المزاح معه وأن أرد عليه بالطريقة التي يستخدمها هو .. أن أكسر هذا الحاجز الذي يفصلنا عن بعضنا فلماذا لم نستطع أن نكون أولاد خالة طبيعيين .. ؟

جاءت في تلك اللحظة خالتي نجاح ووقفت في وسط الغرفة تسألنا بصوت بشوش: " عن ماذا تتحدثون ؟ .. فائن ستقومين أنت بصنع الكريما لقالب الحلوى "

قفزت من مكاني بعجل بينما سمعت جدتي تقول: " قدمي لي أكبر قطعة، اليوم الفرحة فرحتين " لابد وأنها تقصد عيد ميلادي وخروج سرمد من السجن .. أليس كذلك .. ؟

اعترضت خالتي: " أمي .. لن تأكلي منها، السكر محرم عليك "

استمرت جدتي تسبح غير عابئة بينما غرق سرمد بالضحك ثم قال لي بعد أن ذهب خالتي نحو المطبخ كارهة: " ستكونين الملامة لو حصل شيء لجدتي "

أخذت جدتي تتطلع بنا بعينين مترقبتين وقالت توبخه: " لا شأن لك بالمسكينة .. لقد رفضتك وكفى فلا تشن عليها حربا "

ازداد ضحكه وهو يرمقني بخبث يثير في داخلي أسوأ أنواع الغيظ ...

تبعث خالتي إلى المطبخ وانشغلت بإعداد الكريما، وبعد مضي ساعة حضرنا الاحتفال البسيط وحينما سألتهم عن قيصر وعلاء أخبروني

بأنهم في الخارج .. استغربت خروجهم في هذا اليوم الذي لا بد وأن يكون مميزا بالنسبة لهم ..

وتمنيت أن يغادر سرمد أيضا ولكنه بقى أثناء عملية تقطيع الكعكة رغم أنه لم يمد يده وحينما قدمت له قطعة لأنني كنت الأقرب إليه هز رأسه قائلا: " أنا أحاول الحفاظ على أسناني سليمة "

ابتسمت قائلة: " كي لا تأتي لزيارتي في المركز ؟" وأعدت القطعة إلى مكانها.

رفع حاجبه: " لو قررت فتح عيادة في الديوانية ستريني زائرا دائما " ضحكت بخفة وأنا أتناول نصيبي من الكعكة: " مستحيل .. ما إن أنتهي من الإقامة سأهرب عائدة إلى الحلة "

وظننت أن يقول لي جملة (أ لهذه الدرجة تكرهين الديوانية ؟)

ولكنه قال: " أمتأكدة من عودتك إلى الحلة ؟"

كان سؤالا غريبا ...

أجبت بعد صمت قصير: " الحلة هي مدينتي .. لمَ عساني لا أعود إليها ؟".

لوى شفثيه مفكرا : " ربما .. مثلا، تتدخل الأقدار وتستقرين في أخرى " وضاقَت عيناه وهو يقول كلمته الأخيرة.

" محافظة أخرى ؟" سألته وأنا ألوك الكلمة بغرابة.

اكتفى بأن رفع حاجبه مجيبا .

لقد بدأت أفهم هذه الأحجية التي ألقاها سرمد في وجهي...

إنه يجس نبضي من أجل معرفة الصلة الوثيقة التي تربطني بنبييل !

لم أجبه .. لويت شفتي وهزرت كتفي دلالة على عدم المعرفة .. ليس من حقه أن يستفسر .. لا أحد له الحق في أن يسألني تلك الأسئلة .. لا نبييل .. ولا هو ...

حينما لم ينتبه أحد لحديثنا الجانبي التفتت إليه وقلت أسأله بصوت هامس: " ماذا قررت أن تفعل ؟ .. هل ستعود إلى الجمعية ؟ " .

رد علي: " لقد قدمت استقالتي قبل دخولي للسجن "

لم أكن أعرف هذا .. ظننت بأنهم من تخلوا عنه ودهشت لأنه لم يبدو مستهزئاً أو متهمكاً .. وذلك شجعتني لأن استفسر أكثر: " وهل في نيتك البحث عن وظيفة أخرى ؟ "

" هناك بعض الأمور العالقة أولاً "

إذن فهو ينوي الانتقام فعلاً...

تجاهلت الإنذارات في داخلي .. لا يمكنني التظاهر بأسئلتني الجديدة...

" أنت لا تنوي العودة إلى السجن ؟ " . همست بجملتي تلك .

أجابني بثقة: " بالتأكيد لا .. " وقطع كلامه فاستفسرت بسرعة: " ولكن ماذا ؟ "

فرد علي بلهجة بطيئة: " علي أن أزن بعض الأمور " وترك جملته معلقة لأنه قام فجأة وبدا عليه شرود التفكير وسمعه يتمتم: " أحتاج لأن أدخن "

وخرج من الغرفة ...

الطريقة التي كنت أحدث سرمد بها جعلتني أشعر بالانفعال ..من نظراته الغامضة ..من طلب الزواج الغريب ..إلى تحقيقه بشأن نبيل ..لم أكن غبية كي لا أربط تلك الأمور مع بعضها ولكني سأكون غبية لو فكرت في هذا الموضوع أكثر مما يستحق .

كان الانفعال يلوي معدتي ..حتى خشيت أن يرتجف صوتي أثناء الكلام مع خالاتي. ولكني كنت بحاجة لأن أظهار بأن كل شيء على ما يرام ..وأ أنني في بيتي الآمن ..وبأن لا شيء يمكن أن يفسد علي بهجة عيد ميلادي.

ولكني ..تمنيت حلول الليل بفارغ الصبر .

الفصل الثالث والعشرون

هدية

كان الوقت قد قارب المغيب حينما خرجت من بيت جدي .. تمشيت قليلا ثم روعت فجأة بسيارة مسرعة مرت من قربي .. ولو أنني كنت أمشي في وسط الشارع لكنت تمزقت تحت عجلاتها النافرة، أخذت نفسا عميقا لأهدئ دقات قلبي المنفعله .. لم يحدث شيء فائن .. أكملني طريقك بأمان.

لحسن الحظ لم يتطوع سرمد بإيصالي، بل بدا وكأنه نساني تماما بعد الاحتفال وهكذا انسحبت من بيت جدي قبل أن يكتشف احدهم ذهابي .

كنت قد توقفت على الجانب الثاني من الشارع لأنتظر مرور تاكسي وأثناء ذلك تنهأ لي أصوات بعض الشباب على الجهة المقابلة لي .. شعرت بأن أحدهم يراقبني .. لم أرفع رأسي لأتأكد من هويته ولكن إحساسي كان يخبرني بأنه واحدا من أبناء خالتي .. وحينما ركبت السيارة استطعت أن ألقى نظرة سريعة فشاهدت قيصر من ضمن مجموعة الشباب المتوقفة ... شكرته بصمت لأنه لم يترك رفاقه ويأتي ليحدثني .. وحينما التقت نظراتنا معا .. أوما لي بهزة من رأسه ملقيا السلام علي.

حينما استقرت في السيارة رن جهاز ي .. تفحصت الاسم بسرعة ثم ضغطت على زر الإجابة ..

جاءني صوته الباسم: " مرحبا يا حلوة .. كيف الحال؟ "

ابتدأ أسلوبه الغزلي الخفيف، أخذت أضحك بخفة وأقول له: " ما هذا عيب عليك، أنت لست وحدك "

ضحك قائلاً: " لا، لقد ابتعدت عن المجموعة، اسمعي لم تتأذي من ذلك الهمجي صاحب السيارة السريعة ؟ لقد رأيته يخرج من الشارع وأنت تمرين "

" حقا، لم تبدو مهتما كثيرا بالأمر ..لم تتوقف حتى لتؤجر لي سيارة " سخرت منه.

قهقه ضاحكا : " آه تعلمين .. الحالة المادية ليست جيدة، ولست صاحب شهامة كي أدفع لك الأجرة " تمتمت لنفسي بصمت (و غد).

كان قيصر بارعا في صرف الأموال تباعا، لم يكن يعمل خارج كليته في الإدارة والاقتصاد ويعتمد على علاء وسرمد في المصروف اليومي.

" دوما صريح، شكرا لأنك تكرمت علي بالاتصال " وأخذت أضحك منتظرة رده.

" حسنا أنا أطمئن عليك فعلا، ولكن يمكنك أن تقولي لي أنك بخير وتنتهي الاتصال هكذا لن أخسر في الفاتورة "

هذا كثير !.

" لن أستطيع قول شيء الآن .. أنا ملتزمة بتهذيبي معك .. " ورمقني سائق السيارة من المرأة الأمامية بفضول فشعرت بالضيق، لم سائقو الأجرة دوما حشرون هكذا ؟

تجاهلته في الحال.

بينما رد علي قيصر بلهجة مسترخية: " أنا أمزح معك فاتن " وسألني هذه المرة عن أحوالي بشكل جدي وتبادلنا القليل من الكلام لينتهي اتصاله مودعا.

وهنا فقط تذكرت أنه لم يتمنى لي مولدا سعيدا .

لا بد وأنه نسي، لا بأس فهو أمر غير مهم بالنسبة لي، أخذت أنظر من النافذة وقد طافت في بالي صورة سرمد، لم تراه لا ينسى تاريخ مولدي؟ في كل عام يمر أحاول التظاهر بأنه لن يتذكر هذا اليوم، ليس لأنه كان أكبر مني بستة سنوات بل لأن لديه العديد من الأشغال والتي لا بد وإن تمنعه من التذكر، ولكن مع هذا فقد قدم لي الكثير على مر السنين الماضية، في كل مرة كان هناك شيء بسيط يهديه لي، في السنة الماضية وفي إحدى زياراتي السريعة لرؤية جدتي أهدى لي خاتما فضيا جميلا مزخرفا بشكل وردة، وقبلها أسورة منقوشة بالورود اللامعة، وفي كل مرة يبقى لساني عاجزا عن وصف اهتمامه النادر بي في ذكرى مميزة مثل عيد ميلادي.

شعرت بأنني بحاجة لرؤية هديته هذه المرة فتحت حقيبتي وأخرجت السلسلة الفضية لأتفحصها جيدا، أخذ بريق الوردة يلمع بين يدي، وشعرت بالتأثر لسبب إصراره على جعل الوردة جزءا من هداياه، لقد اعتاد على مناداتي بوردة وتقريبا منذ ستة سنوات، حينما عاتبته مرة

بشكل مازح على عدم تهنئتي لنجاحي في مرحلة السادس إعدادي وحصولي على معدل عال خولني لدخول كلية طب الأسنان، وقتها كنت فتيّة ومندفعة ولا أدري ماذا دهى عقلي لأتجرأ على محادثته، تذكرت كيف عاد في الليل وقدم لي علبة طويلة مرفقة بكارت صغير، كانت الهدية عبارة عن ساعة فضية بينما كتب على الكارت بكلمات ظريفة ساخرة بعض الشيء:

(إلى وردة الحلة ..مبروك النجاح)

ومنذ ذلك اليوم والوردة جزء من هداياه البسيطة.

أعدت السلسلة إلى حقيبتني وهنا وقع بصري على هدية نبيل، وفي الحال تغير شعوري وأحسست بالذنب، لم أفتح هديته لحد الآن، أخذت نفسا عميقا وقررت أن أفتحها ما إن أصل للدار، لا بد وأن أصفي أفكارني فقد كنت خائفة من ردة فعلي تجاه الهدية.

تمنيت كثيرا لو أنها غير ثمينة.

وصلت للدار وذهبت إلى غرفتي فرأيت سمية جالسة على سريري تتحدث في الهاتف، غمرت لها مرحبة فضحكت بصمت وأحمر وجهها، لا بد وأن زوجها من تكلمه.

بدلت ملابسي على وجه السرعة ثم فتحت حقيبتني وسحبت هدية نبيل، لن تكون لي فرصة أفضل من هذه ، لم يهدي لي بطاقة ، كنت أتوقع فهو لا يفصح عن مشاعره بهذا الشكل، حينما مزقت الغلاف ظهرت لي علبة مغطاة بالمخمل الأحمر.

توقف قلبي عن الخفقان...وببيدائي اللتان أخذتا ترتجفان فتحت العلبة فأصدرت صوتا خفيفا مخنوقا وكتمت صيحتي بصعوبة.

لقد كانت مذهلة: ما احتوته تلك العلبة الصغيرة كان خلافا لكل توقعاتي، صحيح أنها كانت حلية ..وباهظة الثمن ..إلا إنها ..يا ربي!

رفعت الميدالية الذهبية من بطن المخمل، كانت صغيرة طولها نصف إصبع، بيضوية الشكل رفيعة القطر ومن داخلها ظهرت الحروف الخمسة والتي شكلت اسمي بالإنكليزية (FATIN) برسوم متباعدة.

شعرت بالتأثر الفوري، حتى إن عيني غرقتا بدموع صامتة، هذا كثير ..لقد كانت غالية الثمن و... جميلة للغاية.

لم يسمح لي قلبي أن أفكر كثيرا، تلمست الميدالية بيدي وأنا لا أصدق أن هناك شيء يحمل كل هذا الإبداع والدقة في الصنع، خفق قلبي أكثر من مرة وأنا أتخيل نفسي أرتديها حول عنقي، لم تحتوي على سلسلة خاصة بها، ربما لأن نبيل خشي من فكرة أن أعيدها له فاكتمى بالميدالية فقط ..ولكن كيف يمكنني أن أعيدها، فهي صنعت خصيصا لي، كنت أعرف أن نبيل رغم جديته يحمل جانبا عاطفيا مخفيا عن الآخرين . هو ذلك الجانب الذي يفاجئني به بين الحين والآخر ويجعلني عاجزة عن ردعه تماما.

لطالما عبرت هدايا الذهب عن الحب ..هذا الرمز الذي أراد نبيل إيصاله إلي دون الحاجة للكلمات والإشارات التي لا تحمل معنى خاص .كنت أتأمل في الميدالية حينما أنهت سمية اتصالها والتفتت إلي، لسمية القدرة على التحول الطبيعي من زوجة مشتاقة لزوجها تعاني من البعد إلى فتاة طبيعية مرحة بحضور قوي يفرض نفسه، سمية من برج الأسد

..لطالما أراها شامخة بالرغم من كل الأمور التي تعاند حياتها الطبيعية ..فهي زوجة بعيدة عن زوجها بمئات الأميال ..وتواقة لأن تصبح أما والظروف البيولوجية تعاندها تماما ..حينما رفعت رأسي نحوها رأيتها تنظر لي متسائلة: " مرحبا، كيف هم بيت جدك ؟ .." وتوقفت عن إكمال العبارة حينما لاحظت جمودي وتنقلت بعينيها بين وجهي والعلبة التي أحملها: " ما هذا ؟ هل حصل شيء ؟ "

استرددت هدوئي وقلت نافية: " لا، لم يحصل "

ثم وضعت العلبة على طاولة الزينة فاقتربت بفضول وشهقت ما أن رأيت الميدالية الذهبية وحينما رفعت العلبة لتتفحصها عن كئيب رأيت أن عيناها كانتا ممتعتين .

التفتت سمية نحوي بعد أن عجزت عن الكلام ورمقتني بنظرات متسائلة، فارتأيت أن أفسر لها بصوت خرج مبحوحا: " إنها من نبيل "

لمعت عيناها ..لقد تأثرت ..لقد فهمت، أعادت الميدالية إلى العلبة وقالت لي: " لا تفكري كثيرا فاتن، اقبلها فقط "

" أليست ..باهظة الثمن ؟ "

لوت شفتيها: " أنا أعرفك، لن تكوني قادرة على كسر كبرياء نبيل، لو رفضتها ..فسينهي الأمر قبل أن يبدأ "

لا بد وأن الكل بات متأكدا من اهتمام نبيل الشخصي بي .

ترددت للحظة ثم قلت: " ولكني لم أصل لأي قرار بشأنه "

سألتنني بهدوء: " هل صارحك ؟ "

أومأت لها وشعرت بوجهي يحتقن إحراجا .. ابتسمت سمية: " مجنونة أنت! .. حتما .. رجل بمواصفات نبيل لا يحتاج لتفكير مطول .. قلولي له نعم وغدا سنزفك إليه " .

رغما عني ضحكت: " لم أتخيل أن تكوني درامية إلى هذا الحد "

هزت كتفيها راقصة: " بل أنا كذلك .. حينما يتعلق الأمر بالحب والخطوبة والزواج ترينني أرقص طربا ، الحياة مليئة بالخيارات وأنا ولدت حينما اخترت مؤيد زوجي " ثم ناولتني العلبة وتابعت تقول: " إنها لأجلك، صنعها خصيصا لك .. وهذا يعني الكثير "

أجل أعرف .. هذا يعني الكثير .. ولكن لم لا أتقبل الأمر ببساطة؟

مسكت العلبة بقوة وشعرت بثقلها، عدت أقول لها: " إنها باهظة ! "

" لا تفكري بقيمتها المادية، أليس هذا ما نقنع أنفسنا به دوما ؟ فكري بقيمتها المعنوية، إنه يحبك يا فاتن .. ماذا تريدن أكثر؟ "

نظرت إلى تعابير وجهها الواثقة وسألتها وأنا أشعر بالانفعال يلوي قلبي ويسحقه: " الأمر إنني لست أجيد التعامل معه حينما يتصرف بتلك الطريقة .. أقصد بطريقة عاطفية .. كما أن الأمر معقد بيننا .. هو يرغب بأشياء .. وأنا ضائعة في تمسكي بأشياء أخرى "

حتتني برقة: " أتركي كل الأشياء التي تفرقكما .. لو كان هناك قبول وتوافق بينكما لماذا تحاولين تعقيد الأمور .. الحب أبسط من كل هذا "

شعرت بقلبي يخفق .. استدعيت صورة نبيل في بالي .. وسامته الذهبية النادرة، ضحكتة اللطيفة .. تقانيه في عمله، حبه للخير وثقته المتزنة، اهتمامه البالغ بي وبصحتي وحضوري وغيابي .. ازداد خفقان قلبي،

الحب هو الشعور الغريب عني ..لم أكن اعرفه ولم آلفه في يوم ما ..لم
أصنفه حتى أي تصنيف ..كان غريبا عني تماما.

هذا لا يجدي نفعا...

" هناك حاجز ..يمنعني، أنا لست خائفة فقط، بل غير مرتاحة للأمر،
افهميني سمية ، أنا لم أعتبر نفسي رومانسية، لو كنت مثل منال ..لكانت
لي مواصفات الرجل الذي أتمناه،ولكني لا أفكر في أمور كهذه، لا أفكر
حتى في الزواج والاستقرار وتولي المسؤولية ..أنا لست مسرورة من
تقرب نبيل "

أجابتنني بجدية: " إذن احسمي قرارك ..لا تدعيه معلقا فرجل مثل نبيل
سيؤذيه هذا التذبذب "

كنت أفضل الموت على أذية نبيل ..هذه هي الحقيقة الوحيدة التي أخذت
ترن في بالي ..

سمعتها تتابع: " فكري بالأمر قبل أن تعيدي الهدية ..أو تقبلي الأمر
ببساطة واشكريه بكل لطف "

لو كنت قوية فقط لوصلت إلى قرار حازم في تلك اللحظة . ثم إذا بسمية
تناولني حقيبتتي الصغيرة وتقول لي بصوت حازم: " هالكِ.. يكفي قلقا،
اتصلي به واشكريه على الهدية "

عرفت لتوي لم رفض أن أفتح الهدية أمامه، كان يخشى أن أعيدها إليه
في الحال.

آه يا نبيل ..ماذا عساني سأقول لك ؟

بعد تردد طويل بيني وبين نفسي تركتني سمية لأخذ راحتي في الكلام معه، اتصلت به وأنا أكتُم أنفاسي.. وحينما جاءني صوته العذب، شعرت بدقات قلبي تقفز من شدة توترتي.

ألقيت نظرة على الميدالية وبلعت ريقِي لأقول له: "مرحبا.. نبيل" رغما عني خرج صوتي متعثرا.

رد علي بصوت مسرور: "أهلا فاتن، علي أن أسجل هذا اليوم في مذكراتي"

"لم؟"

شعرت بقلق فجائي.

"أنت تتصلين بي للمرة الثانية في اليوم، هذا كثير على فاتن المحافظة على رصيد حسابها"

خرجت ضحكتي مهتزة قليلا ...

أوقفي ارتجافك بحق الله!...

"أنتم تأخذون دوما هذه الفكرة عني، أنا لست بخيلة"

ضحك نبيل: "إذن أنت مقتصدة في اتصالاتك فحسب"

لويت شفتي مبتسمة: "أنا لا أحب التحدث هاتفيا، هذا كل ما في الأمر"

تخيلت عينيه وهي تلمع ببريق السعادة، لابد وأنه مسرور لاتصالِي، لم أشأ أن أجرحه، أو أن أبدد طيبته وعفويته معي.

" ماذا تفعل الآن ؟ " خرجت الكلمات لا شعوريا ، لم أكن أريد الاستفسار عن ما يفعله حقا ، ولكني لم أكن أعرف ما أقول .

" أشاهد التلفاز فقط " خرج صوته طبيعيا ، لم يستغرب .

تملكني الارتياح ...

قوليتها فقط يا فاتن ، قلتي ان سبب اتصالك هو فقط لشكره على الهدية ...

لم أكن بارعة في صياغة جمل مناسبة ، حينما أرتبك .. أشعر وكأنني مهرجة في فيلم هزلي ...

" نبيل .. أنا .. هل يعرض التلفاز برنامجا مهما ؟ "

غبية .. غبية ...

شعرت به يبتسم: " هممم ، لا شيء يبدو مهما .. مجرد تقارير سيئة عن الأوضاع الحالية "

" أية .. تقارير ؟ " حاولت إيقاف ارتعاش قلبي ...

" أتريدين قائمة كاملة ؟ .. عن سوء الخدمات ، تفشي الفساد الإداري ، الاقتصاد المتذبذب ، شيء كهذا " وبدا الملل في صوته .

" لست من هواة السياسة صح ؟ " ابتسمت وأنا أقول له ذلك .

لم أتصور أنه سيأخذ جملتي بجدية: " يمكنك أن تقولني أنني أستخف بما يعرض ، فكري بأن العالم بأجمعه تصل له الأخبار عبر القنوات الفضائية ، والأخبار حاليا توصل صورة غير جميلة عن وضعنا في البلد "

" أليس ما يقولونه حقيقة؟" استهزأت قائلة.

" حقيقة مئة بالمئة، أنا لا أعترض، ولكن إلى متى نستمر بإصدار تقارير نبين بها الوضع السيء ، إننا نروج فقط للقنوات وليس إلا "

جيد أنه أخذني بعيدا عن مسألة الهدية.

" ليس هذا الأمر، إنك تقسو على الصحافة بدون مبرر، ألسنا نحاول إيصال أصواتنا عبر الكلمة ؟ "

" ولكن إلى متى ؟"

كان سؤالاً يتطلب جواباً ذكياً ...

" حتى ننال ما نريد "

" إنها الجملة المعتادة ولكنها ليست الجملة المناسبة، إننا نتذمر فقط، ونشتكي من سوء الأوضاع دون أن نفعل شيء حيال ذلك، نتهم المسؤولين دوما أنهم السبب في تدمير البلد، ولكننا لا نعترف أننا نساهم في هذا الأمر أيضا "

" وكيف ذلك ؟"

" نحن لسنا شعبا صالحا فائن، لقد حلت علينا لعنة أبدية، ولا سبيل للإصلاح "

أردت أن أغيظه: " ها أنت تتذمر فحسب !"

ضحك قائلا: " أرايت ؟ لا أمل فينا "

" لا تقل هكذا، لولا الأمل لما عاشت البشرية، ولما كنا موجودين،
الأمل مزروع في كل بني آدم "

استمر يضحك: " عادة أنا إنسان متفائل، ولكن حينما أجلس أمام الشاشة
يهرب الأمل من الشباك، لا تهتمي، فاتن .. أنا أملك أملا يفوق كل بني
آدم، لحظة واحدة سأطفئ التلفاز كي يتسنى لنا الحديث براحة "

انتظرتة لثانية واحدة قبل أن يعود صوته ليقول: " الآن عدت إنسانا
متفائلا .. هل أعجبك الهدية ؟ "

ارتجفت يدي ، وشعرت بالتوتر وأنا أجيبه بصوت خافت: " كثيرا .. "

" أقتلي جملتك يا فاتن .. لا أريد أن تتبعها بكلمة ولكن .. "

هبط قلبي: " هذا كثير، نبيل .. إنها باهظة .. أنا لا أقول أنها لم تعجبني،
بالعكس فقد أحببتها كثيرا .. " .

" إنها لك يا فاتن .. وليست لأحد غيرك .. احتفظي بها فحسب، وحينما
تودين ارتدائها اشتري لها السلسلة المناسبة، هكذا تكونين ساهمت في
شرائها "

احزمي أمرك يا فاتن ...

" أنت تضعني بموقف محرج، نبيل .. أنا جد شاكرة لحسن ذوقك
ولكني .. "

قاطعني برقة: " اقبلوها كعربون صداقة .. شيء تتذكريني به بعد
سنوات، تخلصي من حيرتك يا فاتن، أنا لن ارضي بأن ترجعيها،
وتذكري الهدية لا تعاد ولا تهدى "

هو محق في هذا ...

" سأحاول أن أفكر بالأمر "

" ستفسدين يوم مولدك بأفكار كهذه، لا تتذمري ولا تشتكى لمنال ونرجس حتى...! ، ابتهجي فقط لهذا اليوم، وغدا أريد أن أراك مبتسمة مفهوم ؟" .

هذا يعني أنه لن يقبل أن أرجعها له .

" نبيل..؟"

لم أرد أن أكسر كبريائه، تذكرت كلام سمية، وشعرت بالخجل: " أنا .. لن أرجعها، سأحاول أن أتقبل فكرة وجودها "

لم يطل صمته كثيرا .. ولم يخفي فرحته العظيمة: " ابترسمي إذن وتفاءلي بالمستقبل "

استطعت أن ابترسم: " لا تذمر ولا تشكي "

أجابني بضحكة: " تحفظين الدرس بسرعة .. حاولي أن لا تشاهدي التلفاز أيضا "

" سأفعل "

حول الحديث إلى موضوع ثاني: " هل ستعودين إلى الحلة يوم الخميس ؟"

استغربت قائلة: " هل تنوي أن تنزل ؟.. ولكنك أخبرتني أنك ستبقى هذا الأسبوع "

أجابني: "الحقيقة أن أنور ينوي القدوم أيضا ولذا لست أحب البقاء في
الدار لوحدي "

أجبتة وأنا أفكر: " لا أعرف سأسأل منال، لماذا يريد أنور النزول ؟
عائلته بخير أليس كذلك ؟" هذا لأنني أعرف بأن أنور يكره الطريق
والسفر كل أسبوع عائدا إلى منزله وهو يفضل البقاء في الدار عوضا
عن ذلك ..

أجابني بصوته شابه بعض القلق: " إنه والده فقط، يقول أنه ليس بخير
ولكن لا شيء خطير ..أتعرفين شيئا ؟" وأخفض صوته وهو يتابع: "
إنه ينوي أن يخطب ولكنه لا يبدو مستعجلا، لا أنفك وأقول له أن الفتاة
ستضيع منه " .

ملئني الفضول: " من ؟ أنعرفها نحن؟"

أجابني: " إنها من مدينتنا، يقول لي أنه يراها بين الحين والآخر، هي
طالبة في كلية الهندسة "

" صديقة لشقيقته هند ؟"

علاقتي بأنور أصبحت أقوى من عملنا المشترك في وحدة أمراض
اللثة، في البداية كنت أظنه طبيبا مغرورا معتر ب نفسه ..ولكن بعد أن
عملنا سوياً في أكثر من وحدة وجدته إنسانا خلوقا ..متباعدا لكنه محترم
للغاية.

رد علي: " شيء كهذا ..يقول أنه معجب بها ولكنك تعرفينه لا تستهويه
مثل تلك الأمور "

بالضبط .. فهو ليس كأي رجل تقليدي، إنه يحاول أن يجد ذاته قبل أن يفكر بالارتباط، استمعت لبرهة إلى حديث نبيل القصير وهو يكلمني عن الفتاة المعجب بها أنور ثم تحدث بشكل ضمني عن هند، وبقيت صامئة أستمع إلى حديثه الهادئ البشوش حتى استطعت الاندماج معه في حديث يخص دوامنا الحالي.. وكنت كلما أتحدث على طبيعتي ، أشعر أن نبيل ينصت إلى كلماتي وكأنني أقول أشياء مهمة، أربكني هذا الأمر كثيرا ولكنني تجاوزته برحابة صدر، كان علي أن أجبر نفسي وأعودها على اهتمامه الزائد بي، عرفت بعدها أن نبيل تعمد أن يتحدث معي بمواضيع سلسلة، كان يخشى أن أعود وأتردد في موضوع الهدية، ولكنني أقنعت نفسي بأنني حسمت أمري .

أو هكذا فكرت ...

حينما طال الحديث لأكثر من نصف ساعة مرت علي سمية وظهر وجهها من فتحة الباب وكأنها تتساءل عما حل بي وحينما رأنتي لازلت أتحدث، رفعت حاجبها بطريقة مأكرة وكأنني أتكلم مع شخص مهم، شعرت بالضيق يكتم على نفسي للحظة، فانتبه نبيل لصمتي وكأنه شعر بشرودي: " فأتنت معي ؟"

أجبتة بارتباك : " أجل معك .. " وبحثت عن طريقة لأنهي مكالمتي غير إنني سمعته يقول: " هل اتصلت عائلتك لتهنئك بعيد ميلادك ؟" .

نفيت قائلة: " كلا، ولكن خالتي صنعت لي كعكة .."

تبا .. تبا .. ماذا دهاني ؟

شعرت بالتوتر ينبض من صوت نبيل: " خالتك ؟.. " وتابع قبل أن أقول شيئاً: " هل ذهبت إلى بيت جدك؟! " وخرج صوته خشناً على غير عادته .

" أجب.. ل .. " تلعثمت دون إرادة مني ..كيف بحق الله لم أسيطر على أفكاري؟

اندفع نبيل يقول بغضب: " فائن ..أنت غير معقولة، لقد طلبت منك أن تبتعدي لا أن تذهبي إليهم "

أجبت بصوت هادئ: " إنهم بيت جدي ..وليس هناك قوانين تمنعني من الذهاب إليهم، لم أرَ جدتي منذ أسابيع و .. "

قاطعني بصوت محتد: " ولم تتذكريها إلا في هذا اليوم ..في يوم خروج سيادة البطل من السجن؟! " "

تملكني الانزعاج من كلامه المتحامل على بيت جدي ..وعلى سرمد أيضاً .

" نبيل .. أرجو منك أن تتوقف عند حدودك، يحق لي الذهاب إليهم متى ما شئت وبعد ..اليوم يوم مولدي وأحببت الذهاب وقضاء وقت بصحبتهم "

ولكنه أطلق صرخة هازئة ..وبدا لي إنه غير راض بما أقوله ..

أوشكت أن أنهي الاتصال في وجهه.

ولكني سمعته يقول بلهجة محذرة: "أنا أقول ذلك لمصلحتك .. لو أنك فقط تعطينني الفرصة لأخبرك عن أعمال ابن خالتك .. حينها ستهربين بنفسك .. " .

قاطعته بحدة: " لن أهرب .. أنا أتقبل سرمد بكافة عيوبه، لأنه ابن خالتي .. خالتي .. " وشددت على كلمة خالتي .. ثم تابعت أقول بلهجة مقفلة: " شكرا على الهدية سأنهي الاتصال "

وفعلت ذلك دون ندم...

الفصل الرابع والعشرون

تذبذب

حينما أنهيت اتصالي بنبيل أخذت عدة أنفاس أهدئ بها أعصابي المنهارة، بعدها خرجت من غرفتي متوجهة نحو الغرفة الأخرى أبحث عن منال، فرأيتهما تحضر ملابسها لليوم التالي ..تهاكتُ على سريرها دون كلمة .. وحينما انتبهت لشرودي سألتني ساهمة: " ها ..من أغضبك هذه المرة ؟" ماذا تقصد بمن ..ومرة ؟

إنها تعرفني من دون الحاجة للتفاصيل .

حاولت أن أحدثها عن الأمر ..ولكني لم أستطع ربما لأنني أعرف أن منال لا تستسيغ نبيل، لكني كنت على غير طبيعتي تلك الليلة ..في الحقيقة كان يومي مليئاً بالأحداث الغريبة ..وكنت مستغربة لأن الأمر تزامن مع عيد ميلادي، فقد تعودت على أعياد ميلاد خالية من الأحداث... وهكذا أجبتها بصوت متعب: " لا شيء يذكر .."

" ولكنك منزعة " وأغلقت الدولاب أثناء ذلك.

حينما جلست قربي رفعت حاجبها وهي تلاحظ مدى انزعاجي وسألت: " إنه نبيل إذن .."

رفعت رأسي محتجة: " كيف عرفت ؟"

أجابتنني ببساطة: " لأنه ثقيل الدم ومن الطبيعي .." توقفت عن كلامها حينما رميتها بوسادتها الخاصة.

أبعدت الوسادة بلباقة وتابعت تقول وكأنني لم أقم بثورة اعتراض: " من الطبيعي أن يسمعك كلمة تسم البدن .. لا بأس لا تغضبي .. أخبريني ماذا حصل الآن ؟ "

أحببتها وأنا أزفر بقوة: " لقد أهداني هدية "

رفعت حاجبها: " من أي نوع ؟ "

" من نوع باهض الثمن "

اتسعت عيناها وسألتني بذكاء: " لا تقولي أنها حلية من الذهب ؟ "

وهكذا ارتأيت أن أريها هدية نبيل، وجئت بها من الغرفة المجاورة مستغلة انشغال البنات في غرفة الجلوس، لم تكن ردة فعل منال مثل سمية .. لم تشهق ولم يشحب وجهها .. أخذت تتمعن في الحلية بعدها رفعت بصرها نحوي وقالت وهي تلوي شفيتها مبدية استحسانها، وقتها شعرت بقلبي يتجمد .. فأنا أعرف منال .. لا تحتاج وقتا طويلا للتفكير .. أجوبتها جاهزة على الدوام .

سألتها متلهفة: " ما رأيك ؟ "

ابتسمت: " لديه ذوق "

استنكرت قائلة: " أهذا كل ما استطعت قوله ؟ "

" كفاك .. ستجعلينها قضية .. أقبلي الهدية ولا تتدल्ली "

احتجبت مرة أخرى: " ليس الأمر هكذا .. ولكن ألا تتصورينها نوعا من الالتزام ؟ "

سخرت قائلة: " إلترام بماذا؟ إنها مجرد هدية .. هذه كلها تأويلات عقلك العاطفي "

" أنا لست عاطفية .. منال تعرفين جيدا بأني لست كذلك، لو أنني فعلا هكذا لقبلتُ حينما طلبني للزواج "

عادت منال لتسخر مني: " وهذا كله ما يزال دلع بنات "

اتسعت عيناى: " ولكنك تكرهين نبيل وتنتقدين تصرفاته دوما "

أجابتني بثقة: " هذا لأننا على طرفي نقيض .. لقد كنت معه في دورية الجراحة .. ألا تذكرين ؟ .. بعد أشهر قليلة من دوامنا .. وكنا نتجادل أنا وإياه لأتفه الأسباب ولكن هذا لا يعني أنني أملك الحق في تشويه صورته أمامك . اسمعي فائن .. "

وأصغيت لما تقوله: " نبيل من نوع الرجال الذين يتحملون المسؤولية، مثله مثل أي رجل تقليدي .. ومثل هذا النوع تكون عاطفته محدودة، وحياته تكون مثل الروتين ولكني لا أنكر أن للرجل ذكاء عجيبا وشخصية نادرة، حتى أنني كنت أتخيل أنه ليس من النوع الذي يعشق ويتعلق بمثل هذه الأمور " وتغيرت لهجة صوتها: " ولكن الحقيقة تقال .. فأنا ألاحظ نظراته التي يجاهد لإخفائها .. إنه يهيم بك "

وأخذت أتخيله .. ربما لأنني أعرف أن نظراته تلك لا يجيد إخفائها معي في بعض الأحيان، حينما تقدم لي للزواج كان عرضه قويا .. هزني حتى الصميم ولولا شرطه العقيم لكنت .. لكنت ماذا ؟

وحيثما قدمت رفضي بحجة أنني لست أفكر بالزواج لم يأخذ رفضي كإساءة شخصية، ربما أدرك بأنني من النوع الذي يأخذ وقتا طويلا حتى يصل إلى قرار معين.

أغلقت منال العلبة وناولتني إياها وهي تقول بموضوعية: " لا تدعي كلامي السابق يؤثر على حكمك، إن كنت مرتاحة معه لماذا تعذبين نفسك وتجعلينه يتعلق بك دون فائدة ؟ "

رددت عليها بشيء من الحرج: " حسنا .. ولكنه لم يفتح الموضوع مرة ثانية، لقد التزم بكلمته منذ أن أعطيته ردي "

" إذن فكري بالأمر جيدا قبل أن يفتحه معك مرة ثانية، لأنك لو أعطيت رفضا ثان فسيضيع منك .. وكل رجل لديه كرامة "

كدت أشهق، لأن هذا الكلام يصدر من منال بالذات .. لم أتخيل هذا وأنا التي خشيت ردة فعلها، وظننت بأنها ستترجني إن فاتحتها بالموضوع.

قضيت الليل كله أفكر بكلامها .. وحيثما وصلت رسالة نبيل في وقت متأخر فتحتها وأنا أعرف جزئيا مضمونها.

وكما توقعت كتب فيها:

(أعتذر .. لقد تجاوزت حدودي)

لم أرد عليه .. انتظرت مجيء الصباح معتبرة أن الموضوع قد حل بيننا .

لم تغادرني الأفكار قط طوال الليل، ولكنني استيقظت في يوم صباحي جميل أغشاني بأحاسيس غريبة، حاولت أن أتجاوز مرحلة اليأس

والخوف من القادم وهذا ما أجبرت عليه طوال الساعات الآتية، كان العمل في ذلك اليوم مجهداً، وأكثر إجهاداً من اليوم الماضي .. كنت مستاءة أول الأمر لأن أنور لم يكن موجوداً في ساعات الصباح الأولى، ولم أملك الوقت حتى لأسأل عن غيابه، وشعرت بالغضب يأكلني حينما حلت الساعة العاشرة والنصف وهو غير موجود.

حينما أدركت بأنني لن أتحمّل ضغط العمل لوحدي أخذت استراحة لعدة دقائق واتصلت بهاتف أنور ولشدة انزعاجي لم يرد أول الأمر، اتصلت ثانياً واستمعت إلى صوته الناعس فكتمت غضبي بصعوبة، لا بد وأنه تأخر في النوم .. ازداد استيائي حينما برر ذلك بقوله أن نبيل تكفل بالأمر وأخذ له إجازة زمنية وأنهى الاتصال يقول أنه سيحضر خلال ربع ساعة وهكذا عدت إلى عملي بوجه عابس.

عندما جاء بعد ذلك تولى بقية المراجعين بينما ذهبت أنا إلى الكافيتريا القريبة لأتناول شيئاً مع داليا، وبدت هي متعبة بعض الشيء حتى أنها لم تبقى معي طويلاً، بل غادرتني بعد عشر دقائق وابتعدت بخطوات متخاذلة كأنها لا تريد العودة إلى قسمها، لم أرها هكذا من قبل، لطالما عرفتھا كنلة من الحيوية والنشاط .. الفتاة الوحيدة من بيننا التي لا تحب الغم وتصرخ بنا غاضبة حينما نلجأ للحزن ومشاكل الحياة والمركز .. صاخبة .. انفعالية ولكنها تضج بالحياة .. في بعض الأحيان أشعر بالأسى تجاهها .. لأنها لا تدرك أن تصرفاتها الطائشة قد تبعد الرجال عنها .. ولكنها فتاة عفوية تكره التصنع.

حاولت أن لا أفكر بالتعب الذي يدمي أطرافي وأغمضت عيني للحظة في محاولة لاستعادة شعور الصباح الأولي ولكن الكآبة تولتني بعد ذلك فعدت إلى قسمي وأنا لا أُلوي على شيء.

فيما بعد وبعد أن خف ضغط العمل عند حلول الساعة الواحدة، ذهبت إلى القسم الذي تعمل فيه نرجس (قسم الأطفال) وجلست هناك أنتظرها، أشاهد التلفاز مستغلة خروج الدكتور عماد إلى منزله .. ثم رن جهاز هاتفي فأخرجته لأتبين على الشاشة رقما مجهولا، وكنت كعادتي بالنسبة للأرقام المجهولة، أتجاهلها حتى يمل الطرف الثاني ولكن شيئا في ذلك الرقم جعلني أقلق فجأة، هل من الممكن أن يكون ...

لم أملك وقتا لاتخاذ القرار، لأن الاتصال انقطع فجأة مما أشعرنى بالارتياح والقلق في ذات الوقت، وحينما عاد الهاتف للرنين كرة أخرى خرجت من عيادة الأطفال وتمشيت في الممر الطويل، فتحت الخط وأنا أشعر بالعرق يبلل جبين .

لم أنفقه بكلمة بل انتظرت الطرف الثاني أن يتكلم خشية أن يكون أحد الأشخاص العابثين، لكنه كان سرمد، عرفته منذ النبذة الأولى، أدركت أنه سيعود للتدخل في حياتي، كل مرة أقول بأني سأغير رقمي فقط لكي أنتهي من ذلك ولكني أجبن ..فسرمد قادر على الوصول إلي مهما ابتعدت.

لماذا أمتلك حظا عاثرا ؟ في الوقت الذي أجبته بسلام حاد ذاكرة اسمه، كان نبيل يخرج من عيادة المعالجة، بدا عليه وكأنه جمد فجأة .. تمنيت أن يكون السبب هو رؤيته الأولى لي في ذلك اليوم، وليس سماعه لاسم سرمد وهو ينساب من شفتي بسهولة، بعدها تولاني الارتباك وأنا ألاحظ نظرة عينيه المظلمة، مؤكدا أنه سمع، وغاص قلبي بين ضلوعي في الحال.

ابتعدت عن الممر لأخرج إلى الفناء المشمس الجانبي وأصغيت إلى سرمد وهو يسألني عن أحوالي بلكنة ساخرة بعض الشيء وبعدها سألني: " هل ستعودين إلى الحلة هذا الخميس؟"

و كنا في يوم الأربعاء، أجبته بلهجة متشددة بعض الشيء متمنية لو يتوقف قلبي عن الخفقان بهذا الشكل المريب.

" بالطبع سأعود ..لم تسأل؟"

أجابني بثقل: " ولكني سمعت بأن أُمي اتصلت بخالتي ودعتها إلى غداء الجمعة "

سألته بجفاء: " وماذا يعني هذا؟"

فهزأ مني في الحال: " ماذا برأيك؟"

هذا يعني بأنني سأبقى في الديوانية، و سأذهب إلى بيت جدي يوم الجمعة، كيف نسيت بحق الله إصرار خالتي على إقامة عزيمة بمناسبة خروج أبنها من السجن؟

فأجبته بارتباك: " سأتصل بأُمي وأستعلم منها "

ولكنه أجابني بلهجة ساخرة: " لن تجدي منفذا آخر فاتن، الجمعة ستكونين في بيت أهلي ..ماذا؟ ألا تريدان الاحتفال بخروج ابن خالتك؟"

أجبته حينما أصبح نبيل أمامي فجأة: " سأفكر في الأمر "

ولكني كنت أعرف أي مصيبة ستحل علي، كيف سأبرر لنبيل أسباب عدم نزولي؟.. بل كيف سأنقذ نفسي من إخباره بذهابي إلى بيت جدي

..ما هذه الورطة ؟ شعرت بالاستياء من الموقف الذي وضعت نفسي فيه.

" ماذا حصل؟..لماذا بردت فجأة؟"

" أنا ..هل يمكنني أن أنهي الاتصال، لدي عمل ينتظرني "

سخر مني في الحال: " أصبح لسانك وقحا هذه الأيام !.."

قاطعته محتجة: " سرمد .." وشعرت بقلبي يضطرب انفعالا، لقد أكدت الاسم بكل غباء، لم أستطع النظر إلى نبيل، خشيت من ردة فعله وهكذا تابعت أقول ببرود: " بلغ تحياتي لبيت جدي "

" سأفعل ..لا تتحامل علي... شيء آخر ..أخزني رقمي عندك قد أحْتَاجُكَ في موضوع مهم "

رددت بقليل من الحدة: " سأفعل " وأنهيت الاتصال دون أن أنتظر رده، فليعرف جيدا أنني لست لعبة يتحكم بها وقتما يشاء.

حاولت التصرف بطبيعية فرسمت ابتسامة صغيرة على شفتي والتفتت أنظر إلى نبيل، لم يرد لي الابتسامة، ضاقت عيناه بلهيب حارق فتوجس قلبي من ردة فعله، حاولت أن أبتدئ الحديث فقلت بصوت واه: " مرحبا، لم أرك اليوم "

ابتعد بنظراته عني للحظة وشعرت بالألم ينضح من عينيه .. هذا ليس عدلا لم أفعل شيئا يسيء إليه !

تكلم بعد دقيقة، كان صوته باردا بعض الشيء: " كنت مشغولا بالعمل "

عاتبته بلهجة خفيفة: " ولكنك عادة تمر علينا قبل بدء الدوام "

وكان من عادة نبيل أن يمر إلى عيادة التنظيف صباح كل يوم، يلقي التحية علينا ويجلس لربع ساعة، وقد أفتقدت وجوده.

أجابني بوجوم: " لم يكن أنور موجودا .. " بتر كلامه فشعرت ببعض الإهانة وبشيء من خيبة الأمل، ولكنني أخفيت ذلك بابتسامة وقلت مازحة: " وإن لم يكن أنور موجودا، لا تمر و تسأل ؟ "

رفع نبيل يده ليطرق باب الممشى بذهن شارد ورد ببرود: " لا تفهميني خطأ .. " وألقى علي نظرة من عينيه العسلية .. لقد قرأت العتاب واضحا فيهما فشعرت بالعجز .. ماذا يمكنني أن أقول وانتظرت منه أن يقول شيئا.

" هل يمكنك أن تخبريني عن سبب اتصال سرمد بك ؟ "

لأنه ابن خالتي؟؟!

كان علي أن أجد حجة أخرى غير هذه فهو لن يقتنع بسهولة.

رطبت شفتي وتمتمت: " أراد ألقاء التحية "

استنكر في الحال: " بربك ! " واندفع بعدها يقول بلكنة غاضبة: " أعرف أنني أتجاوز حدودي .. ولكن أصبح الأمر فوق طاقتي ... البارحة جاء ليلقي التحية واليوم أيضا .. أخبريني أي جنون هذا، وبعد، ألم تكوني في بيت جدك البارحة ؟ "

" أجل " قلت الكلمة بانفعال.

" إذن ما سبب اتصاله ؟ فائن .. أنت غير معقولة لكم تحدثنا بهذا الموضوع وأنت وعدتني .. "

قاطعته وأنا منفعة من هجومه: " أنا لم أعدك بشيء "

فأجابني بغضب مكتوم: " ولكنك أعطيتني كلمة بأنك ستفكرين بالأمر "

" وأنا لازلت أفكر "

فجادلني: " كيف وهو يحوم حولك .. "

قاطعته بصبر: " إنه لا يحوم حولي .. " وأخذت أفسر له بلهجة مرتجلة بعض الشيء: " لم أكن أعرف رقمه حتى، ثم إن جميع أولاد خالتي لديهم رقم هاتفي، لا عيب أن يسألوا عني بين الحين والآخر "

" فأتين .. سرمد لا يكن لك المودة كما يفعل علاء أو قيصر .. (وذكر الأسماء وكأنه يعرفهم معرفة وثيقة !) " وأنت تعرفين جيدا أنني لا أثق به، إنه يضمر لك السوء "

شعرت بوجهي يحترق بالغضب: " كيف تقول ذلك؟ .. أنت لا تعرفه كي تحكم عليه بهذه الطريقة "

جادلني بلهجة خفيفة: " لقد أصبحنا من ساكني هذه المحافظة، ونحن الشباب لدينا اختلاط بالمجتمع أكثر منك وأنا أسمع الكثير من الأمور .. "

قاطعته بعناد: " هو لن يؤذيني إذا كنت تخشى ذلك "

اقترب مني خطوة وهو يقول: " حاولي أن تفهميني .. أنا لا أخشى أن يؤذيكم بالمعنى الفعلي، ولكنه رجل خطر .. خطر على المجتمع أيضا، كل الذي أطلبه منك أن لا تختاطبي به .. اسمعي نصيحتي وكفي عن الجدل "

ماذا تراه يعرف عن سرمد ؟ و أية أعمال مشينة يقصدها و التي جرت عليه سمعة كهذه؟

" لا بأس سأحاول "

وكان عقلي يدور بأفكار متضاربة، فنبيل سيعرف عاجلا أم آجلا بأنني لن أعود للحلة هذا الأسبوع، وكنت أبحث عن مبرر كاف لأقنعه ببقائي، ابتسمت بوهن فلانت معالم وجهه ونظر من حوله وقال: " تعالي لندخل ..الجو بارد هنا "

تحركت خطوة فوجدته واقفا في مكانه، ألقى عليه نظرة مستفهمة فرأيت يلو شفتيه وهو يتطلع إلى وجهي وبريق عيني يلمع.

" ماذا ؟ .. هل هناك شيء ؟ " تلوت الكلمات في فمي.

غامت تلك العينان بمشاعر غامضة، بلعت ريق بقوة وانتفضت حينما تمتم يقول بصوت هامس: " يليق هذا اللون بك "

وكنت أرتمي وشاحا من الحرير بلون البنفسج، لمست يديين مرتجفتين وأجبت: " لقد أصرت نرجس أن أرتمي "

مازحني بلهجة رقيقة: " علي أن أشكرها إذن "

ابتسمت له بتوتر وأشحت بصري بعيدا عن نظراته المركزة، هل ينوي أن يجنني ؟!.. في عيني كلام واضح كالشمس ولو كنت أكثر جرأة لطلبت منه أن لا ينظر إلي بعد الآن !

دخلنا بعدها إلى الممر الداخلي، كان خاليا من المراجعين، حينها تذكرت
للتو المرضى اللذين تركتهم بعهدة أنور، لاحظ نبيل خطواتي المسرعة
فقال: " ماذا ؟ .. أنت لا تفكرين بالعودة إلى العيادة ؟ "

أجبتة بارتباك: " قد يكون هناك مراجعون "

رد بثقة: " دعيهم لأنور، هذا جزاؤه لأنه لم يأت في الصباح "

وحيثما امتنعت قال راضخا: " لا بأس، أنا قادم معك وإن كنت مجهدة
سأعمل بدلا عنك "

لم اعد أحب مساعدته .. فقد شققت طريقي و أصبحت بارعة في مهنتي:
" لا بأس في قدومك "

وأثناء طريقنا للعيادة سألني: " لقد اتصلت بسائق الخط واتفقت معه أن
يمر علينا يوم غد "

توقفت قدماي عن المسير وبهتت فجأة: " لماذا ؟ "

قطب جبينه: " لماذا برأيك ؟ لكي نعود "

" ولكننا لم نحضر أنفسنا "

وفكرت في داخلي يجب أن أقنع منال أن تبقى هذا الأسبوع وإلا
انكشفت بسهولة.

أومأ لي: " لا بأس .. يمكنني أن أعيد الاتصال به في وقت لاحق "

وصلنا للعيادة وانقطع الحديث فتنفست بارتياح، كان جو العيادة مريحا
بعض الشيء، خاصة أن أنور ونبيل كانا صديقين بكل ما للكلمة من

معنى وهكذا جلسنا نتسامر، وكان مسؤول العيادة الدكتور عقيل غير موجود في ذلك اليوم، فأخذنا راحتنا في الكلام، اتخذت مكانا على طاولة المكتب في العيادة بينما جلس أمامي كل من أنور ونبيل ويبدو أن الأخير قد تناسى اتصال سرمد بي فقد لطف الأجواء بمزاحه اللطيف وكنت أغرق في الضحك كلما تكلمنا عن مواقفهما المضحكة، وحينما قررنا الذهاب إلى وحدة الحشوات انتظرني نبيل عند الباب .. كان يراقب حركاتي كعادته وكنت أنزعج من ذلك .. لا أعرف لماذا ..

وحينما رفعت نظري إليه .. لم تتحفظ نظراته هذه المرة .. فقد أخبرتني بالكثير ..!

الفصل الخامس والعشرون

دعوة

لم أوفق في إيجاد حجة للبقاء، فقد أقسمت منال على عدم البقاء في الدار يومي العطلة و غضبت لأنها قررت وضعي في وجه المدفع.

هذا قولها .. كي يعرف نبيل حدوده.

لو أنني فكرت بالأمر من وجهة نظرها الصحيحة لأدركت بأن نبيل لا يملك الحق في تقييد تحركاتي، وكنت حرة في الرواح والمجيء ما دمت في حدود تعلمت عليها منذ الصغر .. ربما لأنني مترددة في إعطائه للوعد، وهذا لأنني أعرف بأن انفصالي عن بيت جدي لن يكون بالأمر الهين.

كما أنني من جهة أخرى أدرك أن سرمد يشك بنوايا نبيل تجاهي، وحوارنا في بيت جدي قبل يومين أثبت لي هذا الشيء، فقد كاد يوقعني في فخ الاعتراف بكل شيء، ربما ظن بأنه خلال أشهر السجن طرأت أمور جديدة، لا أعرف حقيقة تفكير سرمد .. فهو يهتدي إلى أمور بسبب عقله الذكي الذي لا يتوقف عن العمل حتى وهو في أسوأ حالاته.

اتصلت بوالدتي في الليل لأتأكد من مجيئها يوم الجمعة وأكدت لي الخبر بقدموها مع أبي وفرحها الكبير بخروج سرمد من السجن، فيما أخذت أتحدث معها شعرت بأنها أعطتني حجة ملائمة من دون أن تعرف، فلو جاءت والدتي يوم الجمعة حينها لن أنزل إلى الحلة، فليس من المنطقي أن أعود لمدينتي بينما قررت عائلتي المجيء للديوانية.

لن أذكر أمر العزيمة أبداً، وهكذا حينما أتصل نبيل ليأخذ مني القرار النهائي، كلمته بكل برود وأخبرته بأنني سأبقى لأن أهلي قادمون يوم الجمعة، فكان أن همس بأذني وبلهجة ساخرة ..حانقة بعض الشيء:

" حجة ملائمة ..ها ؟"

ولم يزد على كلامه شيئاً آخر بل أنهى الاتصال بكل برود.

أريد أن أصرخ ..

من سيتحرك لي المجال لفعل ذلك ؟..

..... اه ...

هكذا صرخت داخليا ..ثم دخلت غرفتي وبقيت متجهة الليل كله، وضحكت علي نرجس حينما رأت عيوني المحمرة من الغضب، وأخبرتني أن ليس من الضرورة أن أهتم لما يقوله نبيل مادام لا يملك الحق.

ولكن كيف لي أن آخذ بنصيحتها وأنا أعرف جيدا كيف تهتم هي كثيرا لكلام أحمد ..خطيبها، يكفي أنها ارتدت الحجاب حينما اتفقا على الخطوبة المبدئية.

كنت أعرف أن نرجس ستتغير ..ولن تشعر وكأنها مجبرة على ارتداء الحجاب، ولكن شرط أحمد كان واضحا، فهو لن يرتبط بفتاة تتغنى بشعرها الأسود الحريري في مدينة محافظة بعض الشيء، وكنت ألاحظ أيضا تغييرا على تصرفاته ..إذ أصبح أكثر حزما معها ..يحاسبها على ملابسها الضيقة ..يتدخل حتى في لون حمرتها التي تضعها كل يوم.

وهي بالرغم من شخصيتها القوية ..لم تعد تتجادل معه ..أظنها أدركت أن الجدل لن يأجج إلا الكراهية بين الحبيبين و يدمر كل فرصة محبة وود بينهما.

كان يوم الخميس مزعجا بالنسبة لي ..لم يحدثني نبيل ..بل إنه لم يتقرب مني طوال ساعات الصباح وحينما اجتمعنا كلنا في الحشوات كادت دمعة تطفر من عيني، فهو قد تحاشى الحديث معي، وحينما رأيته يغادر مع منال لم يلق علي نظرة أخيرة ..فعدت إلى الدار مع نرجس وأنا أشعر الخذلان.

لم يفعل ذلك معي طوال الأشهر الماضية.

" فأتن ..لا تحزني، إنها تصرفات رجل يشعر بكرامة مجروحة "

نظرت إلى عيني نرجس وقلت لها بصوت متألم: " أنا لم أفعل ما يسيء إلى كرامته، ماذا قلت له؟ ..وهل ذنبي أن تأتي والدتي إلى بيت جدي ؟..الذنب ذنبه لأنه يتصرف وكأنني ملكه .."

وقطعت كلماتي حينما انحدرت دموعي بصمت، لمعت عيناها: " ولماذا تبكين الآن؟ ..أنظري إلى عيني، أنت تذكريني بنفسي قبل أشهر ..أتذكرين؟ كنت أبكي في حضنك وأنا أخبرك بأني أخشى على نفسي من الوقوع في حب أحمد "

" الأمر مختلف، أنا لا أحب نبيل .. "

قاطعتني بإصرار: " يا ابنتي... أنت تحبينه، ألم تري نفسك طوال الدوام وأنت تسأليني هل مر نبيل؟..هل سألت عني؟ كنت كالمجنونة وأنت تسألين عنه "

قلت باحتجاج: " هذا لأنني أشعر بالذنب .. لم أكن أريد جرحه، ولكنني أكرهه فقط حينما يتصرف بتلك الطريقة الساخرة ..يكفيني سرمد "

نظرة مستفهمة أطلت من عيني نرجس، بعدها رن جهاز موبايلها
عرفت أنه أحمد ..وهي ما إن رأت اسمه تركتني وذهبت إلى الغرفة
وهي تغلق الباب ..

مما جعلني أفغر فمي ذاهلة ..

أنا صديقتها ..وأولى من أحدها ذاك، وبعد ..لقد عرفتني قبل أن تعرفه
حتى .وكنت أشعر بأن أحمد سيأخذها مني بالتدريج ..

قضيت عصر يوم الخميس وأنا أشعر بأني على حافة الموت ..فأمي بعد
اتصالنا الماضي أمرتني أن أكون في استقبالها يوم الجمعة ..وهذا يعني
ذهابي المبكر إلى هناك.

تمنيت فقط لو يمر يوم الجمعة بسلام.

““““““““

إن ظن أحدهم بأني أعيش حياتي بروتين ..فهو مخطئ، فحينما رن
هاتفي عند الساعة الثامنة صباحا تمنيت لو أُنِي أحلم ..بكابوس ما ..لأنني
فتحته وأنا أغالب النعاس بقوة ..وحينها سمعت الكلمات الأكثر إثارة
للغیظ في العالم: " أنا أنتظرك في الخارج "

لم يطر النعاس من عيني فحسب ..بل طار صوابي أيضا !

سرمد ..آه ..

ولكنني قمت من مكاني بغتة وغيرت ملابسي بسرعة ..حتى أن نرجس أفاقَت على تحركاتي العنيفة في الغرفة ..أفتح الدولا ب ..أخرج شيء ..ثم أغلقه بعنف ...وأشتم لاعنة حينما اصطدم بشيء حتى هددتني أن فتح النور قد يصيبني باللعنات.

وكنْتُ أعرف كم النوم عزيز على نرجس.

رغم هذا بقيت ألعن اليوم الذي خرج فيه سرمد ..بأي حق يأتي إلى الدار و يأخذني؟..وهل أنا غير قادرة على الذهاب بمفردي إلى بيت جدي؟..وبعد ..ألن يمل من انتهاز أدنى فرصة للمجيء وجعلي تحت سيطرته ؟

وحمدت ربي لأن نبيل عاد إلى مدينته ولو كان في دار الأطباء وشاهد سرمد ..حينها ستقوم القيامة علي.

يكفيني الإذلال الذي تلقّيته يوم البارحة.

وقفت أمام المرأة متجاهلة تأوهات نرجس المنزعجة ..سمعتها تنتمتم بحنق: " من حقه أن يزج ابنة خالته ..فما ذنبي أنا ؟" وغطت رأسها بالحاف دون أن تنتظر ردي ..وكنْتُ محتارة أن اضحك لأنني جعلتها تستيقظ ..أم أغضب لأنني استيقظت رغما عني!

وحينما أنهيت كل شيء وقبل أن أخرج من غرفة النوم ناديت عليها أن تفل الشقة ورائي فهي ستكون بمفردها ولكنها لم تجبني.

وهكذا وقفت عند الباب وصرخت بأعلى صوتي: " نرجس ..أنا خارجة"

وأغلقت الباب خلفي.

وحينما جلست في سيارة الأجرة قرب ابن خالتي، وصلت رسالة منها
تقول (أكرهك !)

ابتسمت لا إراديا .. فسمعت صوتا إلى جانبي يقول: " جيد أنك لا زلت
تبتسمين .. من هو سعيد الحظ ؟ "

رفعت عيني لألتقي بعينين سوداء بالغلة التهم، ابتسمت مصطنعة
وأجبته: " أنا مبتسمة دوما "

رد علي وهو يأمر سائق الأجرة أن يتحرك: " ما معنى نظراتك التي
تنفث سما إذن ؟ "

لأنني رأيتك مثلا !

لا أستطيع أن أكذب على نفسي .. فقد كنت متوترة أيما توتر إلى جانب
الرجل الذي يدعى ابن خالتي، فهذه المرة لم يظهر بمظهر متشرد .. لقد
بدا أنيقا .. مهندا، مرتبا بسترته البيج وسرواله الجينز الملتصق به
تماما، إضافة إلى رائحة عطره التي دوخت حواسي الأنثوية.

لا يمكنني أن أكرهه .. وأنا أراه بهذه الوسامة القاتلة !

غير أنني غضضتُ بصري عن كل أفكار الحمقاء وقلت بصوت
هامس: " ربما لأنه تم إيقاظي رغما عني "

ماذا عن أمر أن لا أدع له الفرصة للتأثير علي ؟ ..

ضحك متخاذلا: " بربك .. الساعة قاربت التاسعة، لقد تركتني أنتظرك
لنصف ساعة "

لويت شفتي: " ومن أخبرك أن تأتي بنفسك وتأخذني؟..أنا قادرة على
المجيء بمفردي "

رد علي صاحب النظرات المتهكمة اللاذعة ..اللاسعة ..كقرصة
عقرب: " جدتنا أمرت بذلك ..وأنا حينما تصدر الأوامر العليا أنفذها
دون تردد "

همست لنفسي ..خاصة لو كان الأمر يتعلق بفاتن ..عزيزتك الغالية !
وحينما نظرت اليه مبتسمة بعدم تصديق ..فأمرني سرمد أن أتوقف عن
ذلك ..لأني بدوت بنظره كالبلهاء.

هل يعرف سرمد حقا كيف يغازل فتاة؟..كان هذا السؤال يدور في
مخيلتي والسيارة تعدو كالرياح بسرعتها، هل من الممكن أن تومض
عيناه بالحب .. أن يبتسم بلا تحفظ مثلا ؟
لن تنقلب الدنيا ..أنا متأكدة.

ولكن شيئا في داخلي ..شيء أشبه بشعور من الوحشة سيطر علي
للحظة.

وأنا متعجبة فعلا من دواخلي والتي عادة ما تحمل أفكارا صيانية
كهذه..

لم أكتفي بالصمت أثناء زهابنا إلى بيت جدي، ولكني لم أتكلم معه مطلقا
..وجهت حديثي إلى سائق التاكسي، الرجل الطاعن في السن والذي
سألني إن كنت طبيبة أسنان.

في البداية كنت منزعة من أسئلة الرجل واستفساراته عن مشاكل أسنانه، ولكني حينما لاحظت توتر سرمد إلى جانبي وانزعاجه البديهي.. انطلقت بكل حلاوة أحدث الرجل وأنصحه بما يفيد وما يجب عمله للحفاظ على أسنانه ثم ختمت حديثنا بجملة: " إنني أرحب بقدمك إلى المركز يا عم ..فالأجور مجانية هناك "

فكان أن تلقيت نظرة سوداء، مليئة بكافة أنواع الغضب من ابن خالتي الوسيم ..المحبيب !

توقف التاكسي قرب بيت جدي فسارعت لأنزل مستغلة انشغال سرمد في دفع الأجرة ولكن باب بيت جدي خذلتني هذه المرة، كدت أتفجر من الغيظ حينما لم تفتح الباب على يدي، وكدت أنحني، حرفيا لأرفع قدمه وافتحها لولا أن ساعدا سرمد المتينين امتدا بكل خفة ليفتحا الباب وصوته التهكمي يقول:

" تفضلي دكتورتنا العزيزة !"

أنا دكتورة ورغما عن أنفك المتكبر ..أردت أن أقولها وإن أظهرتها نظراتي المتنمرة ولكنه تابع يقول بخفة: " وحاولي أن لا تندفعي وراء واجب مهنتك، لا أحد يعتب عليك "

كان يوبخ طريقتي المندفعة في التحدث مع صاحب الأجرة، هزرت كتفي غير عابئة ودخلت برأس مرفوع إلى بيت جدي .

وكالعادة تركت نفسي أضيع بين خالتي المحبوبتين ..ثم قضيت عدة دقائق مع جدتي صاحبة الابتسامة الذهبية، والتي أمرتني بكل مكر أن أتيتها بصحن من الحلويات التي تصنعها خالتي نجاح من أجل العزيمة، إيمان جدتي على تناول الفطائر والحلويات كان بالفعل يهدد صحتها

ولكنها لا تعبأ بذلك، بل إنها في بعض الأحيان تدفع في يدي الصغيرتين لوحين من الشوكولا الخالصة تخرجهما لتوها من جيب حقيبتها ..!

وحينما أقول حانقة: " جدتي ..إنها مضرة بصحتك " تغلق يدي على اللوحين وهي تقول : " تناوليهما حبة عيني إنهما لذيذتان، لذلك حفظتهما لك "

أجيبها: " وكيف تعرفين أنهما لذيذتان إن لم تتناولني شيئا منهما مسبقا ؟" ردت علي بدهاء: " الشوكولا بأنواعها لذيدة " فأسكت عاجزة عن قول شيء.

رفضت هذه المرة بإصرار كلي أن آتيها بأي نوع من الحلويات ..وحينما استأذنتها لأساعد خالتي في المطبخ أخبرتني بأنها غير راضية عني، ارتحت لهدوء المنزل واختفاء سرمد منه، ربما خرج كعادة أشقائه ولم أهتم لذلك ولم أسأل، بل أخذت راحتي...

لم أكن بارعة في الطبخ والحق يقال، ولم أكن سيئة فيه ..في الواقع أنا لا أعرف الكثير عنه ولست أملك أدنى اهتمام به ولكني ساعدت خالاتي في الأشياء البسيطة ..كعمل السلطة، وتحريك قدر الحلاوة ... وحينما دخل قيصر المطبخ حيث وجدني أقطع الخيار قال: " من هنا ؟!!..دكتورتنا الفاضلة، كيف حالك يا حلوة ؟"

لم أنزعج من أسلوبه المرح، فهو قيصر ..وأي شيء يصدر منه يدخل إلى القلب مباشرة، أجبتة: " بخير ..أنت كيف هي أحوالك ؟"

مد يده ليخطف قطع الخيار المفروم ويرميها في فمه بطريقة متكاسلة وهو يجيبنني: " الآن أصبحت أفضل، بعد أن رأيتك " حدجته أمه بنظرة

مستهزئة، الجميع يعلم كم هو بارع في اختيار كلمات المغازلة المعسولة.

سألته خالتي سعاد: " هل جئت بالخبز ؟" أوماً لها وهو لا يزال يسرق قطع الخيار، فعادت تسأله: " والمخللات ؟.."

أوماً لها مرة أخرى فسألته: " أين وضعتها إذن ؟"

أجابها وهو يغمز لي: " في بطني يا ماما ."

نترت به: " لا تجعلني أغضب ..أنشر الخبز لو كان حاراً، لا أريد أن يصيبه شيء "

تذمر وسيم الوجه: " أليس هذا عمل الفتيات الصغيرات؟ " ونظر إلي وهو يقول الكلمة الأخيرة، ضحكت خالتي نجاح واشتركت في الحديث: " إياك أن تقول هذا الكلام أمام خالتك سهام، فهي فخورة بها ولن ترتضي أن تعتبر ابنتها صغيرة "

هز كتفيه: " لو كانت مثلكن بارعة بالطبخ لرحمئها ..ولكن اقتصرها على عمل السلطة يفضح مواهبها المحدودة " فكان أن خرج هارباً بعد أن هددته بالسكين التي أعمل بها.

ماهي إلا ساعة ووصلت عائلتي، لن أبالغ لو قلت بأنني اشتقت لأمي وأبي رغم أنني رأيتهما منذ أسبوع ولكنني قفزت إلى حضن أمي الدافئ وقبلتها وأنا سعيدة بحضورهما، لم أكن أشبه أمي كثيراً فالشبه أعطيه لوالدي الحبيب ..رغم أنهم يقولون لي على الدوام أنني أخذت صفات جدتي لأبي المتوفاة وخاصة شعرها الحريري.

كنت أملك بشرة حنطية، عيناى مثل عينا والدى واسعتان نرجسيتان
مكلتان برموش كثيفة، وأنفى صغىر فىما فىمى واسع قلىلا، كنت أتمنى
لو أشبه والدى بعض الشىء أو إحدى خالاتى الاثنىنى فهن جمىعا
ىشبهن جدى الجمىلة الملامح.

احتضنت جلىستهم بعد ذلك وتجاهلت كلىا وجود سرمد الذى ما إن رأتة
أمى حتى أطلقت زغرودة سعدة الجمىع بها حتى سرمد، فقد ارتسمت
على شفثىة ابتسامة نادرة أثناء نزوله السلم متوجها نحوها لىسلم عىلها
وهو ىقول: " أىن كانت مواهبك الجمىلة مخبأة؟ "

ضحكت أمى وعانقتة وهى تقول: " تعال لأضملك یا ولد ..حمداً لله على
سلامتك " وتابعت كلامها قائلة أنه لاىزال قلىل الأدب، فتقبل سرمد
كلامها بابتسامة خفت لى ..ثم توجه نحو والدى وسلم عىله.

اجتمع الرجال: أبى وعلاء وسرمد فى حدىث جانبى عن الوضع
السىاسى الحالى فىما تمنىت أن لا ىظهر والدى بعض امتعاضه من
الطرىقة التى ىعىشها سرمد ، فهو لم ىكن فىضل الابن المتحرر الغىر
مسؤول، ىعجبه علاء الرزىن المتفانى فى عمله.

كانت العزومة مكونة من الطبق الرىسى وهو ملفوف العنب الذى لا
أستسىغه بطبعى وكنت قد تلقىت نظرة حادة من أمى تحذرنى من التدلل،
وأن أتناول شىء من الطبق المنسوب أمامى... إضافة إلى السمك
العراقى المسقوف والذى أعشفه عشقا لا مثىل له، خاصة ولو كانت
السمكة طرىة ودهنىة ..وقلىلة العظم، الرز العنبر الشهى الرائحة سكب
فى أوانى كبىرة فىما وضعت المخللات حول السفرة وكعادتنا أنا و
قىصر الجالس إلى جانبى فى حرب طاعنة ضد من يأكل أولا، وهمس

لي بعد أن أنهيت ثلاثة من أواني المخللات: " إياك أن تمدّي يديك على الذي عندي، حينها سأخبر خالتي سهام بأنك تعشين في أكل الملفوف "

نظرت إليه بنظرة محببة وأنا أسبل له بعيوني فهز رأسه ضاحكا بخفة وهو يضع كلتا يديه حول المخلل الخاص به مهددا إياي.

شعرت بنظرات سرمد تحط علي، لا أعرف لماذا لم يرحني تعبير وجهه المظلم، غير أن العزومة قد انتهت على خير ...

انتهت على خير حتى اتصال نبيل بي ..

فبعد أن انتهى الغداء و توضيب السفرة رن جهاز موبايلي، وكنت قد وضعته داخل حقيبتني في غرفة الجلوس .. انتهزت فرصة انشغال الجميع بالحديث فأخذته وتجولت في غرفة الاستقبال وهي الغرفة المفتوحة على غرفة الجلوس، شعرت بالتوتر وأنا أجب عليه وانتظرت حتى سمعت صوته يقول: " مرحبا فاتن .. "

أما يزال غاضبا مني؟ بدا صوته مترددا بعض الشيء .. همست أقول له: " مرحبا "

تردد قليلا قبل أن يقول: " هل يمكنني أن أراك .. أنا واقف عند باب شقتكم "

شحب وجهي: " أين .. في الدار ؟ هل عدت ؟ "

أجابني: " أجل .. وصلت قبل عشر دقائق "

السؤال الذي أربك أفكاري .. لماذا ؟ .. لماذا قطع إجازته الأسبوعية وعاد للديوانية ؟

أحبته وأنا أخذ نفساً عميقاً: " أنا .. أنا لازلت .. في بيت جدي و .. "

قاطعني بلهجة متوترة: " متى ستعودين .. من الضروري أن أراك "

" لا أعرف .. التفتت إلى الوراء لألقي نظرة على عائلتي .. ليتني لم أفعل .. وقع بصري على سرمد الذي وقف عند الباب يشعل سيجارة ليذخنها .

بدأت عيناه قاتلة وهو ينظر إلي ...

عدت أقول مرتبكة: " قد أعود عند العصر، حسب موعد ذهاب أهلي "

علق بلهجة لطيفة: " وصل أهلك ؟ .. بلغني تحياتي الحارة للخالة "

" سأفعل .. " وتجاهلت نظرات سرمد لأقول له هامسة: " لماذا عدت؟ .. لم يحصل شيء لا سمح الله "

تأوه قائلاً: " كلا، أنا آسف لو أفلقتك .. الأمر فقط .. الأمر فقط أنني أردت رؤيتك لأمر هام "

شعرت بالارتياح، فنبيل يربكني حينما يتخذ أسلوبه الغاضب أو يخذلني كما فعل معي يوم الخميس.

طمأنته بصوت رقيق: " سأعود عند العصر .. أعدك .. "

وشهقت داخلياً حينما شعرت بمن ينتشل الهاتف مني ويغلقه ثم يرميه على الكنبه الجانبية ..

التفتتُ أنظر إلى مقتحم خلوتي، فرأيت الغضب .. وشيئا أرعبي .. شيئا تلونت به معالم وجه سرمد .. شيئا بدا كالأجرام محفورا على وجهه فيما صوته الغاضب الهامس يهز بدني بشكل لم يفعله طوال حياتي قائلا:

" من دون كلمة أخرى .. أنهى معرفتك باللعين نبيل قبل أن أتدخل وأقلب حياته جحيما "

التهديد والوعيد .. والنظرات الحارقة القاتلة، قبضة اليد التي تكورت جانبنا .. جعلت قلبي يتلوى في سباق للدقات السريعة .. نظرت غير مصدقة إلى العينين السوداوين و قد تحولتا بفعل الغضب إلى سائل متموج .. فاختضت أنفاسي وأنا أستوعب ما حصل منذ ثوان ..

لم أكن بارعة قط في مواجهة نارية مع سرمد...

وتاريخنا المظلم حافل بذلك ...

لكني وقتها كنت طفلة صغيرة، مراهرة خجولة .. وحينما أصبحت في الكلية .. عرفت كيف أواجه الجنس الآخر وأحافظ على كرامتي، غير أن أحدا ما لم يتجرأ على فعلته تلك، لم يتجرأ على مواجهتي الصريحة .. وبذلك الطريقة المهددة ..

هذه المرة كان في عيني سرمد شيء جعلني أنكمش فعليا .. فقد بدا غاضبا كشخص اكتشف بأن شقيقته تعيش علاقة غرامية مع شاب ما، حتى أنني ظننت أنه لولا وجودنا في بيت جدي لما توانى عن ضربى أو سحب شعري من منابته وتأنيبى وحبسى في غرفة ما ...! لقد بدا كذلك في لحظات قصيرة عشتها من رعب استوطن كياني .. وجعل جسدي المجفل يرتجف دون توقف ...

لم يزد على كلامه شيئاً .. استمر بتوجيه نظرات مهددة محذرة ثم اقترب خطوة أخرى مني .. وجعلتني تلك الخطوة أبعد عنه وعيناى المتأهبتان بذعر ترمقان الباب الموارب خوفاً من أن ينتبه أحدهم إلى المباراة الصامتة التي كنا نخوضها ..

فكرة أن عائلتي لا تبعد عني سوى خطوات لم تمدني بشيء من السلوى .. فمنذ طفولتي وأنا مجبرة على الاستماع إلى التهديد والتصرف بعقل دون مجادلة .. دون نقاش .. ولكني لم أستطع أن أكتفي بصمت ثارت كرامتي لأجله .. فمن يظن نفسه !..

حاولت أن أتسلح بشجاعة وهمية فامتلات عيناى بتحد مستفز وطويت ذراعي إلى جسدي داعمة ذلك الارتجاف المذل وقد تأهبت لمحاضرة طويلة لا قيمة لها .. غير أنه لم ينتظر ردة فعلي فتحول نحو الكنبه وتناول هاتفي الملقى بإهانة، حمله دون استئذان .. تفحص الشاشة بنظرات مقيمة سريعة جعلتني أتساءل إن كان يحاول التجسس علي بفتح قائمة الرسائل مثلاً.

" أعطني الهاتف .. " خرجت جملتي من جوفي الثائر لكرامتي المبعثرة .. لم يعبأ بي .. ولم أقل شيئاً بعدها .. ناولني الهاتف بعد مرور دقيقة .. وضعه بيدي عنوة وألقى علي نظرات عنيفة لست أنساها قط وهو يقول لي: " إن تجرأت على إهدار سمعتك فليس لديك مكان هنا .. هل كلامي واضح ؟ "

إنه واضح كالعنف في عينيك .. آه يا سرمد لو تدرك كم كنت ظالماً في تلك اللحظة .. كم إن كلامك المتعلق بتلك السمعة الثمينة التي تهدرها نصف فتيات المجتمع من أجل علاقات شائنة قد جعلتني من ضمن تلك

الفئة وكأنك نسيت بأني تربييت على مبادئ لست عمري أتجاوزها
فكرية .. فكيف .. فعلية .. !

لم ينتبه لدموع الإهانة التي لونت عيني .. ربما تجاهلها وهو يطرق
بإصبعه أزرار الهاتف وعلى ملامحه وجوم أخرس دفاعي المستमित
ضد حكمه الجائر: " وإن حدث وأن رأيت .. أو سمعت شيئاً ما ستندمين
على ذلك يا فاتن .. تأكدي من هذا "

" أنا لا أسمح لك بتهديدي " قلتها وأنا أشعر باحمرار وجهي الغاضب
وتابعت: " أنا لم أفعل شيئاً يستحق غضبك " .

التوت شفاته باحتقار: " ماذا عن حديث العشاق الذي استمعت إليه
للتو؟ "

شدت على كلماتي: " لم يكن حديث عشاق ! " وشعرت باحمرار أكثر
وأنا أقول الكلمة .

ضاقت عيناه : " حديث أحباب إذن؟ .. "

قاطعت هادرة: " سرمد لا تتجاوز .. أنت لا تملك الحق في محاسبتني "
رفع حاجبه هازئاً وحينما أجابني كنت أشعر بذرات الغضب تتدفع من
بين الكلمات: " لو أنني فعلاً لا أملك الحق إذن اذهبي لعائلتك .. أخبري
والدك المحترم وخالتي عن اتصالك الهاتفي .. ولنرى ماذا سيقولون
بشأن هذا .. " وأشار إلى الهاتف بذات الاحتقار .

ازدردت ريقى، فلمعت العينان بإدراك جعلني أشعر بالخجل حقاً .

" لا تملكين الجراءة .. ها ؟ .. "

وشعرت كأنى حشرة صغيرة تستحق السحق .. لماذا ملننى شعور بأننى
خيبت أمله بشكل ما .. اكتفينا بلحظات صمت تتخللها أنفاسنا الهادرة،
فيما تحركت يدها نحو جيبه ليخرج علبة السجائر بعدها جلس على
الكنبة وقال لي بعجرفة: " اخرجي من الغرفة .. أريد أن أدخن " .

هذا يعني بأن المحاضرة قد انتهت .. أردت قول شيء ولكن وجوم وجهه
أخرسني .. كان لا يزال غاضبا .. وهكذا انتهزت تلك الفرصة وخرجت
من الغرفة فيما أخذ الهاتف يرتجف بين يدي .. قهرا !..

الفصل السادس والعشرون

مطاردة

ما تبقى من الوقت في بيت جدي كان محنة لست أنسى كيف مررت بها، إذ بقيت مسيطرة على ذات التعبير المتجمد.. وابتسامة باهتة شعرت بها تحرق شفتي.. فمن الصعب أن أظهار بأي خير وبأن لا شيء يثقل كاهلي أو يكبل أعصابي المنهارة.. عينا سرمد لم تتوجهها نحوي قط.. لقد قام بإذلالني بكل معنى الكلمة وتصرف وكأنه لم يفعل شيئاً.. جلس مع عائلتي في غرفة الجلوس يتجاذب أطراف الحديث مع أبي ويبتسم..

أجل.. يبتسم..!

لم يعبأ بالبركان الذي يغلي في عروقي.. وتمنيت أن ينتهي اليوم بمعجزة ما.. تمنيت ذلك بشدة.. ثم أعلن أبي قرار العودة إلى الحلة وقبول قراره بالرفض من الجميع.. فجدتي أمرته بالبقاء وأمي استهجنّت الفكرة بحجة تعب الطريق.. خالاتي عارضن الفكرة وترجين والدي للبقاء.. وأولاد خالتي رفضوا الفكرة من أصلها.

وخلال تلك الدقائق من محاولات الإقناع كنت أشعر بالسخونة تلون وجنتي وبأن شيئاً ما يعصر قلبي.. فقد كان من البديهي أن أقضي الليلة حيث تقضيها عائلتي.. وهذا يعني استحالة العودة إلى الدار.. واستحالة رؤية نبيل.. وهو القادم من مدينته خصباً ليراني.. وحينما رضح والدي أخيراً وقرر البقاء في بيت جدي شعرت بتعقلي يفارقني

..فقفزت واقفة على قدمي وانبريت أقول بسخونة: " علي العودة إلى الدار...!"

كل الوجوه التفتت إلي و من ضمنها وجه سرمد الذي كنت أتجنبه طوال الساعة الماضية ..شعرت بنظراته تحرقني وبقبضته تشدد فجأة ..وهكذا ازددت ريقي وقلت أوضح: " نر..نرجس صديقتي لوحدها بالدار..وعلي البقاء معها "

فأنبرت خالتي نجاح تقول بصوتها الرقيق: " لم لا تدعينا لقضاء فترة العصر هنا ؟..ستكون فرصة مناسبة للتعرف بها "

ومن جانبه سارع قيصر الوسيم لأن يقول بعينين مليئتين بالمر: " أجل فائن ..قومي بدعوتها، سنحب كثيرا التعرف بها !" فكان أن حصل على نظرة تأنيبية من والدته تلقاها بترحاب صدر وأخذ يضحك مستمتعا ..

الجو اللطيف الذي أسبغه قيصر على الجلسة لم يخفف من حدة ارتباكها..لا ولم يجعلني أستعيد سيطرتي على نفسي إبان الثورة العارمة التي تلوح بوادرها في قلبي ..وجاهدت لأقول بتودد مصطنع: " سأحاول إقناعها رغم أنني أعرف بأنها سترفض المجيء .." .

قاطعتني جدتي: " اتصلي بها الآن ثم أخبرينا بقرارها ..سيوصلك سرمد حتى الدار لو وافقت على المجيء "

اعترضت ..داخليا بالطبع !...!لماذا سرمد من دون أولاد خالتي ؟

حاولت بقوة أن لا أنظر إلى المعني بالأمر ووجدتها فرصة لأن أستأذن الجميع وأختلي بنفسي بحجة الاتصال بنرجس وهكذا ضمنت هاتفي إلي وقلت: " سأفعل حالا " .

وحين جلست في ركن متوار في غرفة الضيوف شعرت بمبلغ استيائي من الموقف كله .. فليس من حق سرمد التعامل معي بتلك الطريقة .. أنا امرأة واعية وراشدة .. وابنة عائلتي .. هم يثقون بي مطلق الثقة .. ولم أفعل يوما ما يهدد توازن تلك الثقة وهكذا كنت أعرف أنه مهما كان قرار نرجس فأنا سأعود للدار .. لأنني لم أكن امرأة عاشقة ذاهبة لملاقاة حبيبها .. لا ولست امرأة متذنية أفعل أمورا من وراء الستار .. أنا فاتن .. ولست تلك الخانعة التي يظنها سرمد .. وهكذا فتحت هاتفي بكل تصميم .. وقبل أن أتصل بنرجس وأتفاهم معها وجدت رسالة نصية من نبيل .. نسيت كل ما حدث في غرفة الضيوف مع سرمد .. وفتحت الرسالة ودقات قلبي تقضح توتري ..

قرأت ما في الرسالة .. وتبددت كل طاقتي في كتم الأنفاس ..!

على عكس ما تمنيت وجدت نفسي منقادة إلى ما يأمره سرمد، رغم أنني تحاشيت النظر إليه وجها لوجه وتحاشيت المرور قربه أثناء قيامه واستعداده لإيصالي حتى دار الأطباء .. كنت مشوشة تلك اللحظة .. ارتديت حجابي وأنا أشعر بمبلغ ارتجاف يدي .. وحين ألقيت نظرة على المرأة أدركت أنني لم أتوهم الحرارة التي اندفعت إلى وجنتي ما إن قرأت كلمات نبيل المبهمة .. ازدردت ريقى وأنا ألاحظ مدى توهج عيني .. فبالرغم من الحالة الفوضوية التي مرت بها مشاعري خلال الساعة الماضية أدركت بأني تأثرت أيما تأثر بما كتبه نبيل .. وبأن الحاجة تلك للذهاب إلى الدار باتت منعمة نظرا لمدى هذا التأثير.

حينما أشار إلي سرمد من بعيد بوجوب التحرك من مكاني عرفت أن لحظة المواجهة قد حانت وهكذا غضضت بصري وتوجهت نحو الباب الخارجي وأنا صامتة..

لم يكن يحالفني أي حظ هذه المرة.. فلا سائق تاكسي أستطيع التحدث إليه ولا أمل في أن لا يجلس سرمد إلى جانبي.. فقد أجبرت على الجلوس في المقعد الأمامي نظرا لأن السيارة التي ستوصلني إلى الدار كانت تعود لعلاء.. وتمنيت لو أن جدتي أمرت علاء بإيصالي.. أما كان السلام ليعود إلى أوردتي المتوترة؟

الجلوس إلى جانب رجل مثل سرمد كان محنة بالنسبة إلي.. فقد ملئ بحضوره جو السيارة، تساءلت في سري عن سبب عزوفه في شراء واحدة.. فهو لم يحبذ قط القيادة بمركبات الآخرين. وقد اعتمد بيت جدي على علاء وقيصر في توفير حاجيات البيت دون سرمد.. نظرا لأن الأخير كان منغمسا في أشغاله حتى وقت متأخر من الليل.

" ضعي حزام الأمان "

أصدر أمره بفظاظة.. فأدركت أنه ما يزال غاضبا.. وأيضا أنه سيقود بسرعة غير قياسية..

وبعد ..

من في العراق العظيم يضع حزام الأمان التعيس ذاك ؟ !

لكني وضعته صامتة متمنية أن يحذو سرمد حذوي، لكنه بادرني بسؤاله ما إن خرجنا من شارع بيت جدي: " صديقتك تلك ..من أية محافظة هي ؟ "

أجبتّه باقتضاب: " من بغداد "

" آها ..ولمَ لمَ تنزل لترى أهلها ؟"

أجبتّه بذات اللهجة: " لأنها تتعب من الطريق الطويل "

صمت قليلا ثم عاد يسألني وتحقيقه يستمر: " وهل تأمنان على نفسيكما في الدار ؟..أنا عن نفسي لا أحب أن تقضي العطلة لوحذك معها "

ربما لأن هناك شخصا أسمه نبيل يحوم حولي ..أليس كذلك ؟

حاولت أن أكون أكثر دبلوماسية ..أخذت نفسا عميقا وأجبتّه بإيجاز: " لقد تعودنا على المبيت في الدار ..أنا ونرجس والأخريات ..وحتى ولو كانت إحدانا لوحدها في الدار ..لم الخوف من المبيت ..الدار بحراسة مشددة ونحن داخل حرم المستشفى "

" حقا .." بدت كلمته غير مطمئنة بالنسبة لي، لكني أثرت الصمت حتى سمعته يتابع قائلا: " إذن لا بأس لصديقتك تلك أن تبين لوحدها ...لمَ كل هذه الجلبة؟ "

تذكرت بحماسة كيف أنني جادلت الجميع على ضرورة العودة إلى الدار لأن نرجس لوحدها !

تحركت بعدم ارتياح وأجبتّه ساهمة: " نرجس ليست كالأخريات ..هي تخشى المبيت لوحدها "

وبدت جملة غير مقنعة هذه المرة ..وحدثت نفسي ..وهل تظنين بأنك قادرة على الكذب على سرمد ؟

وعدت أنظر من النافذة واعية لقيادة سرمد .. ولدقات قلبي المنقبضة حيناً .. والسيارة تقترب رويداً من الدار .. كنت أدعو الله بصمت .. وأنا أتذكر رسالة نبيل .. متمنية لو أنه لا ينتظرني فعلاً عند باب الشقة .. تمنيت حقاً .. وأغمضت عيني وكلماته تدور كالرحى في بالي .. (لم أستطع النوم ليلة البارحة .. أحتاجك فائن) ..

لم يتجرأ نبيل يوماً على البوح بما يشعر به تجاهي، ربما لذلك أنا أحترمه .. وربما لذلك جعلني أتعلق بحضوره وأبتأس لنأيه عني .. وكنت أشعر .. كقلب أي أنثى بالعالم كله بأنه يحتفظ بي في غياهب قلبه .. كنت أعرف ذلك .. فماذا كنت أفعل ؟ ..

أصمت فقط .. وأتجاهل تلك المشاعر بدون رحمة ! ..

فلماذا تأثرت هذه المرة ؟ .. منذ هديته تلك البالغة الرقة .. ونظراته التي أخذت طابعاً آخر .. منذ تسلطه وحرمانه لي من بيت جدي .. والآن .. منذ كلمته تلك .. أحتاجك ! ..

شعرت بأني أغرق في مقعد السيارة واحتجبت عدة ثواني حتى أنتزع ذلك التأثير فيما كرامتي تناديني لتجاهل وجود سرمد إلى جانبي .. ولكنني نظرت إليه وأنا أقول لنفسي .. لا ضير من المحاولة .. فعلي أن أفنعه .. أن أغير رأيه بالنسبة لما حصل .. لم أكن أود أية مواجهة بينه وبين نبيل فيما لو تقابلنا عند الدار .. وهكذا أخذت نفساً عميقاً وقلت رغماً عني .. قلت وأنا أشعر بالكلمات تدور و تحرق جوفي: " سرمد .. أرجوك أن تسمعني دون أن تقاطعني .. " وبادرت بالقول ما إن رأيت عينيه تضيقان: " لا شيء يربطني بنبيل .. مهما كان حاك عقلك من أفكار .. وأنا لا أحتاج أن أثبت لك بأن سمعتي مهمة بالنسبة لي .. أنت

تعرف بأنها مهمة مثلما تعرف بأنني ابنة والدي .. والتي هي ذاتها ابنة خالتك .. لذا كل الذي أرجوه منك أن لا تضعني موضع شك .. "

استمع لي صامتا مثلما أردت .. ولكنه لم يحرر أي جواب كما أملت أن يفعل .. !

وهكذا استسلمت للصمت أنا أيضا، واعية جيدا لكوني لن أحرك من تفكير سرمد قيد أنملة .. فهو رجل لو غضب .. أو بنى رأيه على شيء ما .. فلن يغيره مهما حصل ..

وحينما وصلنا إلى الدار أوقف سيارته خارج البوابة وسألني باقتضاب وهو يخرج سيجارة ليدخنها: " هل يسمحون بإدخال السيارة ؟ " ارتبكت قائلة: " لماذا ؟ " هـ

" لأنني أريد ان أدخل معك .. إما أن ندخل بها سوياً .. أو أرافقك حتى باب الشقة "

وقد حصل ما كنت أخشاه فعلا .

عدلت جلستي وقلت له بثبات: " ولماذا تريد الدخول معي ؟ .. أنت هنا لتوصلني ليس إلا "

استمر يدخن وهو يجيبني بصوت لاسع: " أنا هنا لتتأكدي بأن صديقك تلك سترضى البقاء لوحدها ثم تعودين معي .. " ونظر إلي بعينيه المحتدتين المحذرتين وتابع: " فائن .. لن تبيتني اليوم في الدار .. شئت أم أبيت "

احترق وجهي غضبا: " ومن أنت لتقرر ذلك؟ ..يمكنني أخذ الإذن من والدي وهما فقط من يقرران بقائي من عدمه "

صوته الكسول الهازئ أثار حنقي الكلي: " ألسـت تريدان أن لا أضـعك موضع شك؟ ..هاك تفضلي ..أثبتي لي بأنك لست هنا لمقابلة زميلك .. "

قاطعتـه غاضبة: " أنا لست قادمة لمقابلته ..يا رب السماء ..لماذا أنا جالسة أحدثك؟! ".ونزلت من السيارة وأنا أقول له مغمغمه بعصبية: " يمكنك المجيء كما تشاء .."وأغلقت الباب بعنف وكأني أنفـس عن غضبي.

كنت أملك الحجة الأكثر ضعفا، فالكل يحثني على المبيت دون أن يهتموا بقراري حتى ..أدركت في تلك اللحظات المعدودة بأني الخاسرة الوحيدة هنا ..وبأن نبيل سيكون ضحية خسارتي تلك ..أتراه سيضعني موضع شك هو الآخر؟..أتراه سيتخذ مني موقفا لو أنه عرف بأني سأقضي ليلتي في بيت جدي ؟!..!

ماذا تراه سيقول ..؟

دخلنا عبر البوابة وكنت أمشي إلى جنب سرمد كالمغيبة ..ففي الساحة التي توجهنا بها إلى الدار ألفت نبيل واقفا عند باب البهو المؤدي إلى المطبخ الرئيسي الخاص بدور الأطباء ..غضضت بصري وأنا أدعو بصمت أن لا ينتبه إلينا ..أن لا يلتفت ويرانا بينما هو واقف يتحدث مع طبيب صديق له ..

دقات قلبي الهادرة لم تتوقف ..حتى وسرمد يحثني على المسير ..بدا ابن خالتي وكأنه أسد قد دخل مملكته، ينظر إلى نبيل هو الآخر وقد تلونت

سحنته بلون داكن ..لم يكن غاضبا كما تهيأ لي ..بل بدا مفترسا ..كأنه يعلن للواقف على بعد أمتار بأن التي معه هي فريسته ..لوحده ..فقط.

صعدت بدوري الدرجات القصيرة متوجهة نحو الشقة فيما أوقفت سرمد لأقول له بتجهم: " انتظر هنا، غير مسموح لك أن تدخل ..سأرى نرجس ثم أعلمك بقراري "

وفي تلك اللحظات التي وقفت فيها قبالة سرمد ..كنت أشعر بنبيل ينظر إلي ..شعرت بنظراته تخترقني ..شعرت بصعوبة الموقف عليه ..بماذا تراه سيفكر ..؟

لماذا قدر لي أن أعيش تلك اللحظات الصعبة ؟

لم أزد على كلامي شيئا، حنيت كتفي مستسلمة ودخلت إلى الدار وأنا أكابد دموعي ..كنت أعرف بأني شبه منهارة ولكني في الوقت ذاته تمنيت لو أن الارض تنشق وتبتلعني ..حتى وكلمات نرجس التي أخذت تزرعها عنوة في مخيلتي ..لم تفد بشيء ..كان تقول لي بأني أهول الأمر ..وبأن نبيل لن يظن شيئا لو رأي مع سرمد ..ولو أنني قررت المبيت في بيت جدي ..فهو بيت جدي في النهاية ولا خوف علي هناك.

كنت أفهم كل الذي تقوله لي ..وكنت أصغي لها وأنا أشعر بأن قلبي يتقلص لمدى سوء الفهم الذي يحصل ..ولكن نرجس ..لم تفهم قط كم أن حياتي مسيرة ..بأنني لم أمسك بزمام شيء منذ ولادتي ..وبأنني حينما فرحت يومها إذ تعينت في مدينة غير مدينة الحلة لم تستمر تلك الفرحة طويلا ..فأنا عدت مسيرة مرة أخرى..حياتي ملك أشخاص آخرين ..عائلتي ..خالاتي ..جدتي ..و ..أولاد خالتي ..أنا لم أكن ملك نفسي ..لا ولا حتى أي قرار اتخذته يوما في حياتي ..

من الصعب أن تفهم نرجس هذا، هي التي تدير شؤون حياتها دون أي تدخل.. وإن أرادت أن تأخذ نصيحة فهي تستمدّها من شخص مقرب لها.. وهي تعرف ماذا تريد.. وإن كانت الظروف تعاندها.

في النهاية اتصلت بأمي وسألتها عن بقائي مع نرجس وكنت أعرف ردها.. لن ترضى ببقائي.. ضغطت علي بالمجيء قائلة بأن والدي سيستاء لو لم أعد، وهكذا قمت من مكاني وحضرت كيسة صغيراً جمعت فيه حاجياتي للمبيت هناك ثم عدت وسألت نرجس مرة أخرى: "ألن يرضيك المجيء معي؟.. فقط لوقت العصر "

حركت رأسها نافية: "أنت ترين بأنني لم أقم من السرير حتى الآن.. " وتمطت وهي جالسة وكنت أعرف كم تحب نرجس النوم.. تئاءبت وهي تتابع: "ولكن تعالي عند الصباح الباكر، أرغب في أن نتناول الفطور معاً.. لا أريد أن أفطر لوحدي في الكافتيريا "

أومأت لها وقد أنهيت ما أردته، ثم أغلقت الدولاب وقلت لها ساهمة: "برأيك.. هل سيحدثني نبيل مرة ثانية؟"

حركت حاجبها ساخرة وردت: "وثالثة ورابعة.. يا ابنتي، الرجل معجب وينوي التقدم.. بالطبع سيحدثك، إلهي كم أنت متشائمة!"

سلاسة الحديث مع نرجس تجعلني دوماً أبتهج.. حتى وأنا في أسوأ حالاتي.

تقدمت لأضربها بكيس الملابس وقلت لها بذات لهجتها: "وأنت تقرئين الكف ببراعة.. أخبرتني قبل أيام بأنني سأدخل مرحلة جديدة في حياتي.. قولني مرحلة كئيبة.. مزعجة.. بأن.. " وخفضت صوتي من دون مبرر وأنا أشير إلى الباب الخارجي: "بأن سيادة البطل سيخرج من

السجن ويعكر صفو حياتي .. أخبريني فقط نرجس .. أين المرحلة الجديدة
برأيك ؟"

تحدثت بضحكة وعيناها تلمعان: "اصبري وسترين .. أنت متشائمة
فقط"

تأوهت وأنا أتحرك باتجاه الباب: " عودي إلى النوم وأغلق الباب خلفي
" ثم مددت لها رأسي من الباب وقلت أمازحها: " ولا زيارات من
الحبيب .. لأنك ستكونين خارج إطار المراقبة .. ماشي ؟"

وصلتني كلماتها وأنا عند باب الشقة الداخلي: " تحملين فقط !"

وفي الخارج .. قابلني سرمد الواقف عند أعتاب الشقة، ما يزال يدخل
.. لا أعرف كم سيجارة دخن أثناء انتظاري .. وبعين خاطفة لاحظت أن
الساحة فارغة تماما ولا أثر لنبيل حتى، لا أعرف إن أراحتني هذا أم لا
.. خاصة وسرمد ينظر إلي كأني ارتكبت جريمة بالفعل .. كأني هدرت
سمعتي بلا طائل، ذلك التفكير جعلني أتجهم بوجهه كما يفعل هو وأحبته
باختصار: " لقد رفضت المجيء .. يمكننا الذهاب "

لقد حصل على ما أراده .. أليس كذلك ؟ .. أراد أن يحطم عنفوان نبيل
.. وقد فعل ذلك .. وأراد إذلالني .. وقد حصل هذا .. لكنني ولسبب ما لم
أشعر بأني هزمت .. حتى حينما رن جهاز موبايلي بوصول رسالة كنت
أعرف جيدا بأنها من نبيل .. ضمنت حقيقتي جيدا ولم أتفوه بكلمة
بالرغم من نظرات سرمد التي ألقاها علي وقد شعرت بانزعاجه فجأة .

تسنى لي قراءتها أثناء صعود سرمد إلى السيارة و قد أمرني أن أنتظر
ريثما يستدير بها ويوصلها حتى مكان وقوفي، كنت أعرف بأن لا
فرصة أفضل من هذه لقراءة رسالة نبيل، ففتحت حقيقتي بعجل وتناولت

جهازى بدون أن أخرجه .. استطعت أن أفتح الرسالة وأن أقرأ المكتوب متوقعة أسوء الاحتمالات ..

كان قد كتب بشكل موجز: (لقد خسرت معركة ليس إلا .. مازالت الحرب في أوجها ..!)

وأنا أقرأ الكلمات المكتوبة .. ندمت على شعوري بالألم تجاه نبيل، وقلت في نفسي .. إلهي كم هما متشابهان ... إلهي كم من المرات التي سأصبح ضحية حربهما تلك ..!

وحينما صعدت إلى السيارة فاجأني سرمد بقوله: " عليك أن تعيدي أولوياتك يا ابنة خالتي الموقرة .. " كان صوته خشنا لاسعا كما اعتدته، نظرت إليه بجمود فتابع يقول وهو يشغل محرك السيارة: " الدكتور المدلل يبدو وكأن دلوا باردا ألقي عليه .. لقد نسي تماما أصول السلام ..! " .

تغيرت نظراتي الآن .. شعرت بالغضب يزحف في عروقي وأنا أرد عليه بهجوم: " ماذا قلت له؟ .. إلهي سرمد أنت تتدخل في ما لا يعنيك ..! "

رد محذرا بلهجته المتشددة: " أنا أتدخل في ما يعنيني وفي ما لا يعنيني أيضا " والتفت ينظر إلي نظرة بعثت القشعريرة إلى داخلي وتابع يقول بلهجة لاسعة: " وأنا لم أتحدث إليه .. ولو فعلت لوجدته صريعا في المستشفى يلفظ أنفاسه الأخيرة " .. لم أقل شيئا فتابع سرمد وهو يرفع لي حزام الأمان ويقول باستهزاء لاذع: " واربطي حزامك .. لا يجب أن أعيدك إلى عائلتك وأنت مقطعة الأوصال .. صحيح ! "

امتثلت لأمره وأنا أكابد كل القهر بداخلي، لقد بدى وكاني نجعة تقاد إلى مذبحها، في تلك اللحظة شعرت بأنني أكره سرمد أشد الكره ..وبأن هذا المخلوق الذي قدر علي أن أشقى بسببه سيكون سبب هلاكي ..وسبب فراقى لهذه الدنيا ..

وإلهي كم كنت محقة...!

““““““““““

صوت المسجل الذي شارك جلستنا لم يبعد عني أفكارى الفوضوية، شعرت بأنى فى متاهة سرمدية لانهاية لها، تشدنى تارة بفكرة ما، تقض مضجعى، وكنت أشعر وكأنى فقدت هاجسا كنت أتمسك به واهمة ..وكانى أدركت حقيقة الاثنين فى حياتى، وكأن نبيل برسالته الأخيرة قد أزال الغشاوة عن عينى وفتح بصيرتى تجاه كل ما حدث، فقد فهمت سبب تعلقى الواهم بنبيل ..سبب خوفى من غضبه، سبب لهفتى لمراضاته، وأيضا سبب تريثى فى إعطائه ذاك الوعد ..ربما لأننى ظننت بكل سذاجة بأن نبيل سىكفلنى باهتمامه، وبأن اهتمامه ذاك سىكون نقياً مثل مشاعره الوليدة تجاهى ..وبأنه فى يوم ما ربما سيعوضنى عن جفاء أذاقنى إياه سرمد منذ سنوات خلت ..

تحركت في مقعدي بعدم راحة وأنا أنظر بعينين كئيبتين من النافذة ..فثمة شعور قاتم يطارد أوجاعي تلك ..فهذه هي المرة الأولى التي أشعر بها بعدم الأمان ..وكأنني أمسيت بلا سند ..بلا معين حقيقي في هذه الحياة ..وبأنني عدت وأصبحت وحيدة ..والوحدة تلك كانت عدوي من الماضي ..

"هل ربطت حزام الأمان بشكل جيد؟"

اندفع صوت سرمد ليوقط أفكاره الكئيبة، دون أن ألقي عليه نظرة
أجبتة مهمة: " أجل .. " ثم توقفت منتبهة إلى أصابع يديه المشدودة
بقوة على المقود، رفعت بصري تجاهه: " مالذي .. " وتوقفت بغتة إذ
فطنت لنبرة صوته للتو .. فيما صفعنتي معالم وجهه المحتدة ونظرات
عيناه المتضايقة بخشونة لسبب لم أعرفه.

سرمد .. !

هتفت أفكاره باسمه مستفسرة عن سبب بصره المعلق بالمرآة الأمامية
بتركيز جعلني أقبع في مكاني.

" ارتدي هذه " باغتتني يده وهي تمتد لتفتح علبة السيارة وتخرج نظارة
شمسية .. أخذت أنفاسا عميقة وأنا أمسك النظارة بيدي بعد أن ألقتها
بعنف في حجري ثم تابع يقول أمرا: " حالا فاتن "

لامستني قشعريرة الخوف فارتديت النظارة الشمسية ذات الإطار
العريض، وأدركت بأنها تخص علاء ... ابتلعت أسناني منتظرة منه
أدنى التفاتة ولكن لساني خذلني بعد أن سمعته يهدر بشتيمة وقد احتدت
عيناه بوحشية.

" سرمد .. من يلاحقنا ؟ "

لا بد وأنه أدرك بأنني فهمت ما يحصل نظرا لأنه ضغط على الدواسة
ليسرع بالسيارة أكثر فيما اختض قلبي خوفا وقلقا مما يحصل لنا،
خاصة وقد ابتعدنا عن مسار بيت جدي، وحينما التفتت نصف خائفة إلى
الوراء منعني بصوته الغاضب: " تبا .. لا تتحركي "

خرج صوته لاذعا كما اعتدت عليه .. وأدركت بأني دخلت في مطاردة
الخوف تلك ..

لم أعد أشعر بالأمان حقا !..

ارتجف صوتي: " سرمد أرجوك .. أخبرني ماذا يحصل ؟"

" أصمتي قليلا فائن .."

وهكذا صمت .. ابتلعت خوفا وقلقي وكل أسئلتي، وجعلته يركز على
الطريق جيدا بعد أن أنحرف لأكثر من مرة داخلا بالسيارة في طرق
جانبية لم تكن مألوفة بالنسبة لي، وبعد عدة دقائق وحينما خرجنا مرة
ثانية إلى الشارع الرئيسي استمعت إليه وهو يطلق نفسا مرتاحا ، فيما
عادت أصابعه إلى وضعها الطبيعي.

سرمد بارع في القيادة .. وبارع أيضا في إيقاد الخوف في قلبي بزمان
قياسي !..

" هل يحق لي أن أسألك الآن ؟"

تكرم علي بنظرة سريعة: " ماذا تريد ؟" وتابع بشكل موجز: " إنها
أمر تتعلق بالعمل "

استفزتني جملته تلك: " أتعني بأن أتجاهل ما حصل ؟" تابعت معترضة
بانفعال: " هناك من كان يلاحقنا .. لا أراك نسيت هذا الأمر ؟ "

أجابني بجفاء: " لم أنسَ .. ولكنني سأدعي فقدان الذاكرة !"

هذا يعني أن أدعي أنا هذا أيضا وألغي استجوابي ..

عدت أقول: " لا يمكنك أن تتصرف وكأن شيئاً لم يحصل، لقد مررنا للتو بموقف خطر "

" لأنك معي .. هذا فقط ما جعلني أراو غهم "

أهذا يعني بأنه سيتصرف بطريقة أخرى لو لم أكن بصحبته ؟

ألقيت عليه نظرة غاضبة أدركت بعدها أنه لم يرى شيئاً منها بفعل النظارة السوداء التي كانت تغطي نصف وجهي، نزعتها بعنف وتمتت كارهة: " أنت لن تتوقف عن زج نفسك في الخطر "

اكتفيت بهذا فسمعته يقول بلهجة مستمتعة: " من الممتع أن أراك قلقة علي " وأهداني ابتسامة صغيرة وعلى وجهه تعبير غير مفسر ... ثم أخذ النظارة مني وتابع بقليل من تودده الساخر: " إنك أكثر إمتاعاً من فائن المملة تلك .. "

أنا مملة ؟ !!..

وسمعه يقول أيضاً: " أما فائن الغاضبة القلقة فهي حلوة المنظر بالنسبة لي "

" هل اكتفيت ؟ "

تمنيت لو يعود إلى مزاجه الشيطاني .. من قال بأنني أستطيع تحمل سخرية سرمد اللاذعة القارصة كقرصة عقرب .. !

لحسن حظنا فقد وصلنا إلى بيت جدي وحينما نزلت مسرعة ناداني وقد عادت نبرة صوته إلى الجدية: " اسمعي .. "

والتفتت إليه فقال لي محذرا: " لا تخرجي لوحذك بتاتا " واحتدت عيناه وهو يتابع: " وإن شعرت بأي شيء فرقمي مخزون لديك، لا تترددي بالاتصال "

أغلقت باب السيارة بعنف فطاردتني كلماته المحذرة التي جمدت أوصالي رعبا: " فائن ..إياك أن تخالفي أوامري "

وما أن أصبحت في أمان بيت جدي وأغلقت الباب مستمعة لهدير السيارة وهي تبتعد بسرعة شعرت بقلبي يرتجف من هول ما حصل لي ..فيما أفكاري المذعورة تحتل جانبا كبيرا مني: يا رب السماء ..بم أنت متورط يا سرمد ؟.

الفصل السابع والعشرون

عبودية

كنا على أعتاب حياة جديدة، نخوض غمارها وكأننا نعرف أننا بعد كل التجارب التي مررنا بها سنتغير ذات يوم وستتغير دوافعنا وتطلعاتنا نحو المجهول، لم أستطع كتمان تقدم نبيل إلي بين البنات .. لقد عرفنا بطرقهن الخاصة .. لكنهن انتظرن مني إشارة للبت في الحديث .. قصتي لم تكن مشوقة .. ولم تكن سعيدة .. بالرغم من الضحكات والغمزات والأمنيات التي طارت إلى جعبتي .. أنا لم أكن سعيدة .. لأنني لم أكن أعرف ماذا سيكون قراري لو عاد وفتح الموضوع معي .. كما أن ارتباك الشديدي بعد قراءتي لرسالته القصيرة قد ولى إلى غير رجعة .. لم أتجرأ واسأله عن سبب عودته المفاجأة .. تصرفت وكأنني لم أر أو أسمع شيئاً .. ويبدو أنه هذا حذوي والتزم الصمت المشبع بكافة الاتهامات ..

بعد ذلك اليوم مررت بفترة مراقبة من قبل البنات .. كن يراقبن نبيل بطريقة مكثفة .. سوسن العاقلة دفعتني ذات يوم لأن أجلس معه بمفردنا في غرفة الفحص، أخبرتني فيما بعد أنها تود أن تكون العلاقة بيننا أنا ونبيل متينة .. يومها تحسنت الأجواء بيننا .. وكنت قادرة على التعامل معه كزميل وصديق مقرب أكثر منه شخصاً خاصاً بي .. وهو يتركني على سجيّتي ما دمت أعامله كذلك ..

أما سمية المتزوجة، فقد تعمّدت ذات يوم ونحن جالسون في وحدة حشوات الجذور فتح موضوع الزواج، وأخذت تحت نبيل على إخبارها بمواصفات زوجة الأحلام التي تناسبه، تصرفت وكأنها لا تشعر بتعبس

أعصابي وأنا الصامته إلى جانبها أطلع في محمولي .. متمنية أن لا يبدو وجهي محمرا وأنا أستمع لأجوبة نبيل التي تعمد أن يجعلها فكاهية .. ومع هذا لم تستسلم سمية .. تعاملت معه بكل أريحية وتعمقت بأسئلتها حتى وصلت إلى الحياة التي يودها في المستقبل مع شريكة حياته .. هل سيتترك لها الحرية .. الاستقلالية ؟ .. هل سيدعها ترى عائلتها ؟ .. تبيت عندهم ليلة في الاسبوع ؟ .. هل سيخرجان معا ؟ .. يسافران ويتجولان بكل أريحية ؟ .. هل سيجبرها على ارتداء العباءة السوداء التقليدية لكونه من محافظة كربلاء ؟ .. هل سيتشدد دينيا عليها ؟ ..

كل تلك الأسئلة التي جعلتها سمية تبدو وكأنها أسئلة فضولية ذكية، كانت مهمة بالنسبة لي .. لأنني قطعاً لن أجزؤ على سؤاله إياها مطلقاً .. وقتها تذكرت ما قاله لي في حدائق المطعم .. وكيف سيبدل جهده لجعلي سعيدة .. كيف رسم لي حياتنا القادمة معا بكل تفاهم وود ومحبة .. حياتي القادمة التي من الممكن أن أجعلها تبدو كذلك بكلمة نعم واحدة .. وحينها يتوجب علي أن أودع بيت جدي إلى الأبد.

مرة واحدة رفعت رأسي لأنظر إليه وهو يجيب سمية عن سؤالها المبطن المتعلق بملابس المرأة التي يفضل أن تكون زوجته المستقبلية .. كانت إجابته هادئة .. كهدهوء روحه التي بت أراها واضحة على معالمه: " من الممكن ان أبدي رأي بشأن ملابسها .. أن أساعدها في اختيار ما يلائمها كما أودها ان تفعل لي المثل .. سأكون سعيدا لو جعلتني أرثي القميص الفلاني الذي يليق بالزي الفلاني وهكذا "

سألته سمية بإصرار: " سنفترض أنها ليست من ذات محيطك، هل ستجبرها على ارتداء العباءة ؟ "

ابتسم: " والنقاب أيضا .. " وضحك متابعا حينما حدثت به بعدم تصديق:
" لست أنا المسؤول عن الزبي الملائم لمدينتي .. يمكننا اعتباره جزء من
التقاليد الموروثة، لكنني قطعاً لن أجبرها على ذلك " نظر إلي بسرعة
وكأنه يطمئنني: " يجب أن تكون هي متفهمة لذلك .. لن يسمى إجباراً إن
كان مبنياً على التفاهم المطلق بين الشريكين "

همهمت سمية بشيء ينم عن الرضا الكلي .. وعدت أتطلع بمحمولي
شاعرة بكم هائل من الخجل يكتسحني .. كان علي المغادرة حينما ابتدأت
سمية بتحقيقها الحق.

" حتى الآن أنا أراك إنساناً معتدلاً .. لكن الظروف قد تجبر الشخص
على التحول .. نسمع الكثير من الوعود قبل الزواج وما إن يتم الود بين
الطرفين حتى تطير الوعود من الشباك "

نظرت إليها متسائلة إن كانت تتحدث مع نبيل عن تجربتها الشخصية
.. لكنها لم تبرر أكثر حينما أجابها نبيل " كل شيء سيبدو مناسباً في
الوقت المناسب .. أجل أنا معك .. ظروف الزوج العراقي في هذا الزمن
غير ثابتة .. والإمكانيات .. دعينا نقول بشكل عام: محدودة جداً .. يتمنى
الزوج أن يفتح بيتاً لزوجته .. يضع حدوداً بين أهله وعائلته الجديدة .. لا
يجب التقصير تجاه كلا الطرفين، ولكن في الوضع الحالي وبعد مرورنا
بالعديد من الأزمات من الحصار الجائر إلى التطور الهائل ثم الكساد
الاقتصادي والتكشف نجد أن كل شيء قابل للتغير .. "

علقت سمية قائلة: " إذن كيف ستكون المرأة واثقة من وعود الرجل؟
كم المدة التي تلزمها حتى تكتشف معدنه؟ "

أجابها نبيل بثقة: " العشرة هي الحكم .. أنا قد أجيبك عن نفسي .. لأنني أعرف نبيل جيدا .. ولكن مع العشرة سيبدو كل شيء واضحا "

ابتسمت سمية في النهاية: " من رأيي أن لا تعدها كثيرا .. كي لا تجبرك الظروف وتتغير "

شعرت بابتسامته ولكني خشيت أن أنظر .. تصرفت مثلها .. وكأني غير عالمة بشيء !

وبعد ساعة من هذا الحديث الشيق همست لي سمية بنبرة متشوقة: " اسمعي فائن ستأكلين أصابعك ندما لو رفضته، لو أن زوجي تحدث أمامي بهذه الصراحة لقبلت أقدامه شاكرة "

" ولكنك تؤمنين بأنه قابل للتغير "

وكزتني: " أصمتي .. ماذا تودين أكثر؟ ستعيشين بسعادة بعيدا عن تدخلات عائلته، يملك بيتا وسيارة وكل وسائل العيش " .

علقت بعناد: " وسأرتدي العباءة .. وسأقيد بملابسي ! "

كنت أخبرت البنات أن سبب رفضي لنبيل في الوقت الحالي كونه من كربلاء .. وهذا يعني بأنني أرفض بتاتا ارتداء الحجاب الكامل من عباءة وما شابه .

" فقط في كربلاء .. لكنك ستكونين ملكة في منزلك "

تخيلت نفسي أرتدي العباءة وشعرت بالثقل يكتم على كاهلي، ثم تخيلت بأنني في منزله .. أتصرف كوني زوجته .. يحلو لي ارتداء ما شئت وقول ما شئت واعترتني الرجفة ..

لسمية نظرة ثقابة في الأمور، صريحة ..جريئة ولكنها تبقى فتاة كآية واحدة منا ..ترغب العيش في بحبوحة طوال عمرها ..ترغب بالمنزل والسيارة والزوج والأطفال ..متطلبات العيش بأكملها ..زينة الحياة الدنيا ..وكان ذلك من حقها ..ومن حقها أيضا أن تشعر بالمرارة لأنها ما تزال تسكن مع عائلة زوجها في غرفة صغيرة، خالية من الخصوصية ..حياة مليئة بتدخلات الأهل من الأب إلى الأم والأشقاء ..تتقيد بملبسها في منزلها ..بالإضافة الى الضغوطات التي فرضت عليها بعد مرور سنة ونصف على زواجها ولم تصبح حامل حتى الآن !

جل ما كانت سمية تخشاه، أن تمر ذكرى زواجها الثانية وتصبح عاقرا رسميا في نظر عائلة زوجها، وخلال المدة التي قضتها في الدار أصبحت مسألة الإنجاب عالقة بسبب دوامها الأسبوعي ونزولها ليومين في بغداد ثم عودتها المسرعة إلى الديوانية ..لا يخلو نزولها الأسبوعي من مشاحنات مع زوجها مؤيد طبيب الأعصاب المشهور في بغداد ..فكلاهما مشغول بعمله ..منغمسان في دوامة الحياة والواجبات والمسؤوليات ..مراعاة أهل الزوج وأهل الزوجة وأيضا فراقهما الأسبوعي والذي بات يصعب بمرور الأشهر ..لم تفصح سمية عن مكونات قلبها لأية واحدة منا ..كننا نعرف أنها تمر بفترة انتقالية ..وبأنها تنتظر أن تصبح أما في أقرب فرصة ..تظن بأن مشاكلها ستتلاشى ما إن يكتنز جسدها ويثمر رحمها ..لكننا في بعض الليالي نستمع إلى شجارها ومجادلاتها مع زوجها في الهاتف، و التي تنتهي بخروجها من المطبخ ثم دخولها العاصف إلى غرفتها وإقفالها الباب ثم تفتحه من أجل البنات بعد وقت متأخر من الليل.

مضت عليها أسابيع متوترة ..تزعل وترضى ..تبكي لأيام طويلة ثم تعود تتشوق لنزولها الأسبوعي لرؤية زوجها، فنراها تتحضر وتعتني

بنفسها وببشرتها فتبدو منعشة للعينين، لقد أصبح يوم الأربعاء ..يوم الدلال الرسمي لها، وقد جعلت الفتيات يتبعنها في الاهتمام بأنفسهن..وكنا نزور صالونا نسائيا افتتح حديثا قرب المستشفى وندلل أنفسنا بالرغم من أنني أنا ومنال وداليا نفعل ذلك لأنفسنا فقط.

لم تغب ريهام عن فعاليات الفتيات في أيام الأسبوع الأخيرة ..ولكنها ولأنها تتبع نظاما معيناً في الاهتمام بنفسها فلم نلاحظ تغييراً عليها ..اللهم إلا في عينها العاشقة التي ما عادت قادرة على إخفاء لمعتها الخاصة بالدكتور محمد ..كنت أشعر خلال تلك المدة أن ريهام تطير في السماء لكونها لم تتخيل أن يغدو الحب حلوا ..ناعماً ..مفعماً بكلمات الشوق والغزل ..الزعل والمرضاة ..المكر والتحبيب ..التدلل والخصام ..كانت تعيش أجواء خاصة ..تقضي ليلة كاملة في اتصال هاتفي مع الحبيب..ثم تداوم في اليوم التالي وتتصرف وكأن محمد زميلها المقرب ..ربما لأنه لم يستطع التنازل عن الكلفة بينهما أمام الآخرين ..وحدها العيون كانت تفصح ..والقلوب تعزف موسيقاها الخاصة الصامتة ..!

لقتبني ريهام بالفراشة ..رغم أنني كنت فراشة صامتة ..أطلع لزميلاتني مع أمنيات أن يكن سعيدات ..وكنت أدلل نفسي حينما اعتبرني محمد ابنته الفعلية ..يفضي إلي بهومومه ..ويشكو لي من تدلل ريهام عليه وتحكمها الجائر بشأن تدخينه الشره ..وكانا يتعمدان إدخالاً في معمة خلافهما الأزلي بشأن السجائر ..وكانت ريهام تسرق علبه السجائر ثم يطاردها محمد طوال اليوم ويأمرها بإعادة العلبه إليه ..وكانت الحرب سجالاتاً بينهما ..غير أنها كانت حرب محبين ..أصبحت بفترة قياسية وكأنهما يشبهان بعضهما ..يلائمان بعضهما البعض .

ولأن محمد كان رجلاً ملتزماً دينياً وأخلاقياً فقد فاتح عائلته بأمر ريهام وقد دعتها والدته لزيارتها في النجف، وقد ذهبت كل من داليا وسوسن معها لأداء مراسيم زيارة الإمام علي (عليه السلام) لأول مرة في حياتها.. ثم التقت بوالدة الدكتور محمد التي كانت تنتظرها عند أحد المطاعم لتناول الغداء وأيضاً للتعارف بينهما وقد سرت ريهام عندما اكتشفت أن الوالدة معتدلة دينياً.. امرأة مثقفة.. كاتبة وشاعرة.. صلبة العود، تبادللت الالتهام الإعجاب.. ومن لا يستطيع أن يعشق ريهام النسمة المنعشة من اللقاء الأول؟

وبعد يومين أخبرتنا ريهام أن محمد قد زار عائلتها وتعرف بدوره إلى أشقاءها.. ووالديها وأن الزيارة قد تمت على خير مادام لم يدخلوا في نقاشات دينية متشددة تخص الطرفين.

كانت الخطبة تطرق الأبواب وبدأت الفتيات في غاية السعادة لأن الأمور جرت كما تهوى القلوب.. ثم حل الشتاء وفتحت أبواب التقديم لسنتي التدرج الطبي، لم أكن مشمولة لكوني من الدور الثاني ولكن ريهام وداليا وسوسن لسنّ كذلك.. جرت مناقشات كثيرة نظراً لأن الحصول على مقعد للتدرج الطبي في بغداد أمر صعب.. داليا لم تكن تنتظر رأي أحدهم.. فهي سيان لديها المحافظة التي ستنتقل إليها.. أما ريهام وسوسن اختلفن كثيراً.. ونظراً لأن الدكتور أحمد فاروق خطيب سوسن كان من الديوانية وكان من شروط الموافقة على الزواج هو الانتقال والعيش في بغداد فقد تم اختيار محافظة أخرى غير الديوانية لأن الأخيرة لا تمنح وثائق نقل بالسهولة التي تفعلها دائرة صحة السماوة.

ريهام انتظرت رأي محمد الذي لم يعطها جواباً محدداً.. نظراً لأن من السهل عليه الحصول على مقعد في محافظة النجف بينما سيصعب

عليها هي ذلك .. عوضا عن هذا فهي لم تود الذهاب إلى النجف .. كانت تأمل أن تحدث معجزة ما ويتم قبولهما في بغداد سوية .. وهكذا أقنعتة بالتقديم في بغداد وانتظر الجميع النتائج بفارغ الصبر.

أما نبيل فلم يفتح معي أي موضوع للتقديم .. وكنت فضولية بشأن صمته وعزوفه عن إخباري بشيء .. أتراه قدم للحلة .. أم كربلاء أم غيرهما ؟ .. ثم فكرت بأن الأمر ليس من شأني .. من أنا كي أحدد خياراته المستقبلية؟

وبحلول العام الجديد تمنينا أمانا جميلة، يومها ذهبنا إلى بغداد جميعا وقضيت الليلة في بيت نرجس، و لأنني كنت منقطعة تماما عن بيت جدي فلم أخبر سوى أبي وأمي بذلك، وقد وعدتني أُمي أن لا تأتي بسيرة أمام خالاتي كي لا يعرف سرمد بذلك.

تواعدنا على اللقاء في المنصور وحضرت الفتيات: داليا، ريهام والدتها، سمية، سوسن وهند أيضا، بالإضافة إلى نرجس وخطيبها أحمد، كنت أتمنى لو وافقت منال على القدوم معي ولكنها رفضت وعادت إلى الحلة دون أن تعبا بتوسلاتي .. وخلال تلك الليلة الجميلة التي لم أعش مثلها من قبل .. أتجول مع صديقاتي في المنصور .. أعيش الحرية لأول مرة .. أتذوق العالم الذي لم أعشه قط .. أضحك وأمرح وأتبضع، كنت المدللة بين البنات لكوني قادمة إلى بغداد لأول مرة كضيفة وفي ليلتها اتصل بي نبيل قبل الساعة الثانية عشر بدقائق .. كان قد أعلمني في وقت سابق أنه سيتصل ليطمئن علي ولكنه كذب علي تماما فاتصاله المعلن قبل دقائق من دخول عام ٢٠١٢ كان لأنه أراد الاحتفال معي بدخول العام الجديد .. ابتعدت عن البنات وكن جالسات عند مرطبات الرواد يتناولن البوظة، وبالرغم من الضوضاء والعالم

المحتفل من حولنا بدا صوت نبيل واضحا ..تمنى لي أمسية جميلة
وعاما زاخرا بالأمنيات، حينما حل العام الجديد أخبرني أنه يتمنى لو
أنه معنا الآن يحتفل، وبعد أن أنهينا الاتصال أرسل يقول لي (فاتن
أتمنى لو أنك معي ..تتيرين درب أيامي الآتية ..نحتفل سوياً حتى
يحسدنا الكل على سعادتنا)

حدقت في الرسالة وأنا أتنفس بوجع ..كان الاستماع الى صوت نبيل
والتصرف معه وكأنه زميلي المقرب ثم قراءة رسالته تلك التي أريتها
لنرجس ساعة وصولها ..فأمرتني بصوت هامس: " تنازلي قليلا
..عيشي الحياة، افتحي قلبك للحب " كان الاستسلام صعب ..كنت أتوق
للحرية ..ولم أكن أرغب بالاستسلام لعبودية الحب !

الفصل الثامن والعشرون

تحكم

في اليوم التالي حضرنا حفل عقد قران سوسن وأحمد فاروق في نادي الضباط ، دعت فيه سوسن كل صديقاتها وأقاربها بالإضافة إلى أقارب خطيبها، ارتديت طقما أسود موشحا بورود حمراء وأثنى الجميع على ملبسي ..كان النادي يقع في بغداد _ منطقة اليرموك الجميلة التي اتصفت بالهدوء في ذلك الوقت من النهار ..وبدت سوسن مذهلة بفستان الخطوبة بلون الفوشيا وتحلقت شقيقاتها حولها فيما بدا الدكتور أحمد محرجا أمام الجمهور الهائل من الفتيات ..قام بتقطيع الكعكة مع سوسن ورقص معها على أنغام موسيقى هادئة ..ثم اعتذر ليخرج تاركا لنا نحن الصبايا مطلق الحرية ..فخلعنا الحجاب وقضينا وقتا ممتعا ..رقصنا حتى هلكنا من التعب ..غينا ..تحلقنا حول العروس وقمنا بهتافات العرس المألوفة وعندما عدت لأجلس إلى الطاولة متعبة تقربت مني والدة ريهام والتي نادرا ما فارقت ابنتها في الخروج معنا، كانت امرأة جامدة الملامح ..ذات بشرة حنطية ..وعينان حادتان تنمان عن عودها الصلب ..اجتماعية للغاية ولكنها لم تكن على ما يرام مع ابنتها، لاحظت أنا ونرجس منذ خروجنا سووية إلى منطقة المنصور أنها كانت تراقبها وتتنصت على كل أحاديثها، الأمر الذي أربك ريهام بعض الشيء، هي التي اعتادت التصرف براحتها ومن دون مراقبة.

حينما عادت نرجس لتجلس قربي حدثتنا والدتها بعجل وعيناها تراقبان ابنتها من بعيد: " حبيبتي ..أود التحدث معكما بموضوع عاجل ..الأمر أنني أرتاح لوجودكما قرب ريهام، تبدوان أهلا للثقة وأنا سعيدة لأنها

ليست بمفردها هناك في الديوانية " وأخذت تستجمع كلماتها على عجل:
" الموضوع يخص الدكتور محمد .. سأكون صريحة معكما لأن ابنتي
ما عادت تستمع إلي .. أنتما صديقتاها وتعتبركما أختان .. يمكنكما التأثير
عليها .. جعلها تعدل عن رأيها، محمد رجل محترم جدا لكنه لا يناسبها ..
رجل مطلق ومن طينة أخرى .. من النجف الأشرف .. أي أنه سيعامل
ابنتي معاملة تختلف عن عائلتها .. عنا نحن " وأردفت بتوتر: " و فوق
كل هذا هو شيعي .. ومتشدد أيضا .. ابنتي التي لم ترتد جوربا في ساقها
ستجبر على ارتداء العباءة .. صحيح أنها ترتدي الحجاب ولكنها تمتلك
حريتها الخاصة، لا أحد من أشقائها تدخل في حياتها وفي ملابسها
وخروجها .. ولو وافقوا على تزويجها للدكتور سأعترض وسأحاول قدر
إمكاني إبطال الزواج .. " ولم تتوقف على الرغم من الصدمة التي
ملأتنا أنا ونرجس: " تحدثوا معها .. أنت يا نرجس فتاة عاقلة ولا يعني
ارتباطك بطبيب من محافظة أخرى بأن الفكرة ناجحة "

سارعت نرجس لنقول: " خالتي .. سوسن أيضا ارتبطت من محافظة
أخرى "

قاطعتها والددة ريهام بتوتر: " سوسن تمتلك أقارب هناك، كما أن
الديوانية ليست متشددة مثل النجف .. ثم إنني قابلت الدكتور محمد ولم
تعجبني ثقته الزائدة بالنفس .. سيسحق ريهام ويخفقها بتشده .. ابنتي
وأعرفها .. لن تستطع العيش في محيط منعزل، وبعد أظن أن عائلتها
ستوافق عليها ؟ "

لم نقل شيئا .. فهي لا تعرف أبدا بزيارة ريهام إلى النجف وتعرفها بوالدة
محمد .. ارتأينا أن نصمت ونستمع لما تقوله: " على الإطلاق .. لن توافق
على تزويج ابنتها من فتاة تكبره بعامين " اشتدت الصدمة في

أنفسنا.. أردت أن أسألها ماذا تقصد ولكن نرجس وكزتني وتداركت الأمر في آخر لحظة ..أخذت والدة ريهام تنفّس بحدة وبدت عليها العصبية فجأة: " وهو سيستغل مشاعرنا ..ويبعدها عنا ..أظن أن الأمر سهل علي، أن أزوج ابنتي لرجل مطلق لا يوجد أدنى تكافؤ بينها وبينه؟..على الإطلاق!"

انتبهنا لعودة ريهام إلى الطاولة واغلق الموضوع ولكن الأخيرة بدت غير مرتاحة، كأنها أدركت بغريزتها أن وجود أمها معنا هو لإقناعنا كي ننصحها بالابتعاد عن محمد ..

ولساعة كاملة لم نستطع أنا ونرجس قول شيء ..وماذا علينا أن نقول؟..بدت ريهام كئيبة هي الأخرى حتى لكأنني رأيت دمعة تطفّر من عينيها ..وارتجف قلبي خوفا عليها ..كانت أحلامها وعشقها لمحمد مهددة بكلمات من والدتها ..وكانت تارة تبتسم لنا ..وتارة تننيه بأفكارها فيما يبدو أَلَمها واضحا عليها.

وقبل أن اخذ إلى النوم تلك الليلة، سألت نرجس عن فحوى كلمات والدة ريهام بشأن عمر ابنتها ..فأخبرتني بأن ريهام ليست بعمرنا: " إنها تقول أنها أكبر منا بعام ..ولكن الحقيقة أن الفرق عامان اثنان" شعرت بالضيق: " ولماذا تراها تكذب؟".

هزت نرجس كتفها: " لا أعرف ..ربما تشعر بالحساسية من الأمر..لكوننا أصغر منها، ولكني رأيت هويتها الشخصية مرة بأم عيني..ولا أعرف لماذا تستمر بالادعاء بكل بساطة؟ "

وهل سيهمني لو أنها حقا بعمرنا أو أكبر منا أو غير ذلك؟!

لقد تعلمت من نرجس أن لا أضع ثقتي بأي إنسان، كانت تؤمن بأن المظهر الخارجي خداع للغاية وآلمني أنها كانت مصيبة في كثير من الأمور.

ليلتها لم أستطع النوم.. شعرت بأني لم أعرف ريهام قط.. بأني نسجت هالة من الوداعة والجمال والحنان حولها.. كنت أعتبرها أُمي الثانية في الدار.. ومن الصعب علي توقع نهاية مؤلمة لقصتها مع محمد.. الذي اعتبرته أبي.. والذي لم يمض يوم في المركز منذ بدأ علاقتهما ولم يهتما بي.. كانا يدللاني.. يتجادلان حول محبتهم لي.. يتدخلان ليساعداني في العمل.. ويغتمان حينما يريانني حزينة أو متعبة.. كنت بالنسبة لهما الفراشة التي تحبب علاقتهما معا.. أذكر يوما أننا لعبنا لعبة في المركز.. محمد هو والد أحمد خطيب نرجس.. و ريهام والدتها.. وقام محمد بصفته الوالد بالتقدم لطلب يد نرجس من أمها ريهام.. كان المشهد تمثيلا بحت.. كنا نحاول أن نبدو جادين خاصة وأن محمد أخذ يتحدث بلهجة جدية.. لكن عيناه لا ترى سوى محبوبته ريهام.. يحاول أن يبدو وقورا لكنه يبتسم لها بين الحين والآخر وهي تخفض بصرها خجلة، تعقد أصابعها بارتباك وكأنه يقوم بخطبتها هي.. وليس نرجس..

يومها وددت لو حضنت قلبيهما سوياً.

بعد عودتنا إلى الديوانية تغيرت أمور كثيرة.. كان الشتاء باردا.. وتغيرت القلوب بمحيئه.. سمية التي احتفلت بعيد زواجها الثاني انزوت بعيدا عنا.. لم تعد تضحك أو تشارك في جلساتنا كأنها أخذت تشعر بأنها نالت كفايتها من الحياة التي لم تمنحها ما تود.. كانت تقضي أيامها في الدار تدعو على سجادة الصلاة، تسبح بمسبحة زرقاء

اللون..تناجي ربها أن يرزقها بمن يقر عينيهـا ..صارحتنا أنا ونرجس ذات يوم بمشاعرهما التي أخذت تضطرب في الفترة الأخيرة ..تأخرنا في النوم كعادتنا وجاءتنا سمية حيث أن النوم جافاها ...ومما بدا في عينيهـا فلعلها قضت الساعة الأخيرة في البكاء ..حاولنا إشغال فكرها ..عرضت نرجس أن نشاهد فلم رعب وكنا أدمنا أفلاما مماثلة في الفترة الأخيرة ..كانت متعة مشاهدتها تفوق أي شيء ..لكن سمية هذه المرة لم تبد أي تفاعل معنا ..أوقفت الفيلم بعد مرور نصف ساعة والتفتت أقول لها: " سمية ..هل تودين الحديث ؟" ..قلت ذلك لأن تنفـسها ازداد توترا في الدقائق الأخيرة ..وكانها تكتـم مشاعرهما ..تجبر روحها المنكسرة على مداواة نفسها بنفسها.

استمرت تسبح ولم تقل شيئا، تبادلنا أنا ونرجس النظرات ولم نعرف ماذا نقول كي نخرجها من حالتها تلك ..بعد دقيقة أخذت تتمتم وعيناها تراقبان حبات المسبحة وهي تنزلق بين أصابعها: " أنا لا أود أن أشغلكما بمشاكلي "

أجابتها نرجس: " أنت لن تفعلـي ..كل ما نوده هو أن نراك بخير "

لفترة لم تستطع أن تقول شيئا ..بعدها أخذت نفسا عميقا مشبعا بالمرارة: " أنا لم أعد أفكر بشكل سوي، لقد تشاجرت مع مؤيد منذ يومين وهو لم يتصل بي أو يطمئن علي " وتاهت عيناها بوجع ..بدت وكأنها تجبر نفسها كي لا تنفجر بالبكاء ..ابتدأت نرجس تقول: " ربما تحتاجان بعض الوقت لـ.."

قاطعتها بمرارة: " الوقت ما عاد يسعفنا .." ورفعت بصرها نحونا ..عيناها مغشيتان بالدموع وخرج صوتها ضعيفا ..مفككا: "

أتعرفان ماذا قال لي قبل أن يغلق الهاتف .. " وشهقت لتأخذ نفسا حادا: " بأنه سيفكر جديا بعرض والدته لتزويجه "

شهقت نرجس غير مصدقة: " هل تنوي والدته تزويجه ؟! "

أومات سمية وتساقطت دموعها: " لقد حدث ذلك الشهر الماضي حينما اكتشفت بأني لست حاملا، وبأني قد لا أكون كذلك يوما .. "

قلت بتعاطف: " سمية لا تقولي هذا .. "

هزت رأسها نافية: " بنات .. أنتن لا تعرفن الوضع المزري الذي أعيشه في بيت زوجي، الضغط الذي أعيشه، التدخلات المستمرة من حماتي .. إنها لا تحترم كوني طبيبة أيضا، تعتبرني مجرد وعاء لإنجاب الأحفاد .. وبما أن الله لم يرزقني بعد فأنا ما عدت ضمن مخططاتها ..! "

سألته نرجس بجدية: " هل قمت بفحص عند الطبيبة ؟ "

ضحكت بمرارة: " لقد قمت بمئات الفحوص .. حتى مؤيد .. بالرغم من اعتراضه الشديد، لكنه قام بذلك إكراما لي، كل التقارير تؤكد بأننا لا نشكو من شيء .. " وبدا صوتها مفككا من البكاء الغاضب: " لكني ولسبب ما غير قادرة على الحمل .. كان علي ان أواجه نفسي بالحقيقة منذ البداية .. أنا عاقر .. أنا .. امرأة عقيمة .. امرأة غير قادرة على حمل جنين في رحمها، كل صديقتي حملن منذ أول شهر .. نساء العالم قدرات على الإنجاب بشتى الوسائل .. حتى القطط في الشارع تحبل وتنجب بكل بساطة ..! "

قمت إليها .. حضنتها حينما أخذت تنتحب غير مصدقة .. وحينما لففت ذراعي حولها أخذت تتم بقهر: " ما يوجعني أن مؤيد لم يعد يقف إلى صفي، يلقي اللوم على دوامي وعدم تواجدي بقربه .. هو محق .. آه يا فاتن إنه محق ..! " .. ولم تستطع قول شيء واستغلت نرجس الفرصة لتقول بصوت هادئ: " سمية .. تحلي بالإيمان .. الله الوحيد القادر على تحقيق مرادك، أتركها على الله .. "

اشتدت ذراعاي حولها كيؤكد على كلام نرجس، ثم ابتعدت عنها لأترك لها مجالاً لتتنفس، ناولتها عدة مناديل ورقية وأخذت تمسح دموعها وهو تهز رأسها: " ونعم بالله .. ونعم بالله "

عادت نرجس تقول: " وأيضاً ضعي في حسابك أمراً مهماً ، الحالة النفسية تؤثر تماماً على رغبتك .. الآن دعي كل السخافات بشأن تزويج مؤيد على جنب، هو لن يفعلها .. ربما قالها في لحظة غضب وهذا لأنه يتعرض إلى ضغط من عائلته هو الآخر "

أخذت سمية تجعد المناديل في يديها: " لكنني لا أقدر على فعل شيء، لو أن الأمور وصلت إلى طريق مسدود .. من أنا كي أمنعه من فعل ذلك .. إننا ندور في ذات الدوائر منذ أشهر .. نتأمل أن يحصل هذا الشهر شيء ثم نركن لخيبات متواصلة .. وهو رجل .. لا يملك مثل صبري .. " رفعت رأسها نحونا: " إنه لم يكن هكذا من قبل .. لم يضغط علي أو يفاتحني بمواضيع الحمل .. لكن منذ تعييني في الديوانية انقلب الأمر بيننا " ورمت المنديل من يدها، بدت يائسة بشكل أثار عطفى كله .. كيف ستحافظ على زواجها لو أنها لم تصبح حامل ..؟ أبعدت الوسواس وتمنيت أن تكون مشكلة وقتية ستتلاشى بلا ريب .

اقترحنا عليها: " لماذا لا تقدمين إجازة لشهر ؟..ربما تتوصلان إلى حل ما "

" كلا، الإجازة ستطيل من فترة بقائي في الديوانية، وأنا بحاجة لأن تنتهي مدة الإقامة كي أقدم على التدرج و أأمل أن يكون في بغداد " التقت نظرانتا أنا ونرجس بقلق ..فالحصول على مقعد للتدرج الطبي في بغداد حلم صعب المنال لجميع الفتيات.

سألتها نرجس: " ما رأيك بأسبوع ..؟.. سأكون بديلة لك، قدمي إجازتك الأسبوع القادم وحاولي هذا الأسبوع النزول مبكرة " لم تقل سمية شيئا فأصرت نرجس: " أنت بحاجة لأن تكوني معه ..أن تحدثيه بمخاوفك..أن تطمئني لكونه لن يخذلك لو قررت عائلته فعلا التدخل بينكما "

" سمية ..نرجس محقة، وبرأيي فإن عليكما الخروج سوية ..تغيير المكان قد يساعد على تحسين الوضع بينكما "

نظرت إلينا ولاننا نظرانتها: " ربما أنتما محقتان .." وأخذت نفسا عميقا: " بالرغم من أن الذهاب إلى المنزل في مثل هذه الظروف صعب ..أشعر بأن المكان هناك يكتن على مشاعرنا وتصرفاتنا .." ثم فجأة استعادت سمية قوتها وأسلوبها الهجومي: " أكبر غلطة ارتكبتها هي الاستقرار مع عائلة زوجي، لم تعد لنا أية حياة خاصة " ثم بان التحذير في عينيها: " لا تتركبن الغلطة ذاتها ..أنت يا نرجس، حتى وإن كانت إمكاناته المادية ضعيفة، إياك التنازل والبقاء مع عائلة زوجك " هزت نرجس كتفها: " لا تقلقي ..نحن ننوي الاستقرار في غرفة الأطباء !" ولوت شفتها ممتعضة ..امتعت أنا عن قول شيء ..ولكن عينا سمية تحولتا نحوي وأخذ صوتها يعلو بتحذير: " وأنت فاتن،

احمدي ربك أن نبيل يعيش بمفرده .. ولأن عائلته مهاجرة وإلا لقلت لك أنه قضية خاسرة "

شعرت بالانزعاج: "إننا لا نتحدث عني "

" بل يجب أن نتحدث .. ما معنى عنادك هذا؟ تعرفين شيئا؟ .. لقد راقبناك أنا والبنات .. الكل يدرك أنك مولعة به، أنتما مناسبان لبعضكما .. نرجس .. " والتفتت إلى نرجس: " لم لا تقنعينها بفعل الصواب .. عليها أن تقول نعم وينتهي الموضوع "

عدت إلى مكاني وأنا أعرف أنهن لن يتركنني وشأني .. بينما ابتسمت نرجس .. ابتسامتها الغامضة المألوفة: " ستقول نعم .. ولكن في الوقت المناسب .. وللشخص المناسب "

لم أنظر إليها .. كانت نرجس تتعمد أن توقعني في فخاخ أحلامها .. وهكذا وبالرغم من أن قلبي اختض لكلماتها ارتأيت الصمت .. والتظاهر بأنها لا تعني شيئا من جملتها تلك !..

قدمت سمية الإجازة واختفت لأكثر من عشرة أيام، وخلال تلك المدة طرأت تغييرات جمة على علاقة ريهام ومحمد، فحديث والدتها معنا لم يكن سوى شرارة الحرب، بعدها وصلت إلى الديوانية في يوم دون موعد، صدمت ريهام تماما حينما اتصلت بها والدتها وأخبرتها بأنها عند باب المستشفى وهي تود أن تلتقي بمحمد بعيدا عن المركز، فعادت إلى الدار ووافاه محمد فيما بعد .. لم يبد مرتبكا أو مصدوما مثل ريهام وحسدته على برود أعصابه وعلاقته بريهام مهددة تماما.

لم نعلم ما حل في اللقاء والذي حصل في شقتنا .. عادت ريهام بعد الثانية عشرة في حين اختفى محمد ولم يعد إلى الدوام .. لم نخبرنا بشيء بل أخذت تسد شواغر الوحدات وعملت حتى الثانية ظهرا، وحينما رأيتها عند باب غرفة البصمة كان وجهها شاحبا وقد خارت عيناها بوجع صامت .. وفي الدار اجتمعنا حولها .. كانت لا تزال تشعر بصدمة باردة .. تنخر روحها .. حثتها منال على الكلام وسألتها نرجس عن والدتها فأجابتنا بصوت خافت: " عادت إلى بغداد .. وذهب محمد ليوصلها للكراج "

" و .. " عادت منال تسألها بنفاذ صبر .

عقدت ريهام يديها لتوقف ارتجاف جسدها: " لم يسر الأمر على ما يرام .. لقد تشاجرا "

شهقنا كلنا غير مصدقين .. لم تكن تلك بداية طيبة بين أقرب الناس إليها، أخذت سوسن تسألها: " كيف حصل ذلك؟ .. هل تهور محمد و قال شيئا؟ "

نفثت بحركة من رأسها: " كلا ، لقد كان هادئا على عكس أمي .. استمع لكلامها ولم يقل شيئا، وهذا ما جعلني اقع من فورة أعصابي .. " ورفعت رأسها: " لم يكن محمد الذي اعرفه .. ولم تكن أمي هي أمي التي أعرفها .. كانا خصمين .. ببساطة ، محمد لم يعر أي اهتمام لكلام أمي .. أخبرها بأنه يريدني على سنة الله ورسوله، وبأنه يريد مني العيش معه في النجف .. وأن أتخلى تماما عن كوني فتاة سنية .. أن أنشيع بمجرد أن أصبح زوجته، وأمي .. " أخذت نفسا حادا: " أمي جن جنونها .. قامت وثارت عليه، قالت كل الكلمات التي اعتملت في صدرها منذ أن أخبرتها عنه ذات يوم .. أرغت وأزبدت وأخبرته بأنها ستموت لو

سلمتني له .. وأنها مستعدة أن تجعلني عانسا ولا توافق على زواجي منه .. " اشتدت الرغبة عليها: " وهو جلس بكل هدوء .. وحوارها بكل ثقة، قال لها بأنه يتأسف لأن والدتي بعيدة عن طريق الصواب .. وأن التمسك بمذهبها لن يفتح بصيرتها للهداية .. " وبانت الصدمة عليها: " لقد قالها بكل وقاحة .. بوجه أُمي معلمة الإسلامية الفاضلة .. وأنا لم أستطع قول شيء، جلست مرتجفة بينهما أحاول استيعاب هجوم كل واحد منهما على الثاني .. بعدها خرج محمد من الدار وعاد بعد دقائق مع زجاجة ماء بارد قدمها لأُمي، وأخبرها بكل هدوء أنه لا ينوي إعلان حرب بينهما لكنه رجل صريح .. رجل يفعل ما يقول، لا يود خداع عائلتي وإيهامهم بشيء ثم التصرف بشيء آخر بعد الزواج .. وهي لشدة استغرابي احترمت هذا الشيء وأثنت عليه .. أخبرته بأنها معجبة جدا بشخصيته وثقته .. ولكنه ببساطة ليس مناسباً لأبنتها .. وقالت له بكل صراحة: " ابنتي أميرة في بيتها وأودها أن تكون ملكة في بيت زوجها! "

وحينما صمتت ريهام سألتها بلهفة أن تكمل فأردفت وهي تهز كتفها: " لم يحصل شيء بعدها .. قالت أُمي شروطها التامة لتوافق على زواج كهذا .. بيت في بغداد .. أن أحافظ على مذهبي .. وأن أكون ملتزمة بحجابي فقط "

سألتها منال بعصبية: " وماذا كان رده ؟ "

أجابت: " لم يكن رده واضحا، أخبرها بأن كل شيء سيحصل في الوقت المناسب وحينما علم بأنها عائدة إلى بغداد عرض عليها إيصالها إلى الكراج وذهبا سوية بعد أن أقلتني إلى المركز .. " وأردفت بتوتر: " لم

أكن أود تركهما فهما لم يأخذا رأيي في أي شيء ..تصرفا وكأنني غير موجودة، كل منهما يفرض رأيه على الآخر "

قلت بتعاطف وأنا أراها تكاد تنهار: " والنتيجة؟"

هزت رأسها: " لا أعرف ..لم يكلمني محمد منذ افتراقنا "

حثتها نرجس: " اتصلي به واستعلمي ..هيا بنات فلندعها تتنفس براحة ونأتي بالغداء ..فاتن .." . أشارت لي بأن أرافقها إلى المطبخ فخرجنا مسرعتين، وما إن اقتربنا من البهو حتى اتصلت نرجس بأحمد وتركنتي مبتعدة ..لا بد وأنها أرادت أن تستعلم منه عن ما حصل، فأكملت سيري إلى المطبخ وقابلت نبيل الذي كان يشرف على وجبات الغداء، أخذ يتفحص القائمة بعجل مشيرا للكاربر بأن يوفروا وجبات للأطباء المتواجدين اليوم، وحينما رأيته أشرفت أساريه وتقدم نحوي، سألتني بود بعد أن حياني: " كم وجبة تريد الدكتورة؟" كان سؤاله رسميا وحينما ابتعد المشرف عن المطبخ إلى الداخل سألتني نبيل هامسا: " لم أنت بمفردك ؟ أين البنات؟ "

شعرت بالخجل يكتسحني ..منذ ليلة رأس السنة وحينما أرسل إلي رسالته المفعمة بالآمال ..وقد تغلب علي روعة ذلك اليوم ..فأرسلت أقول له بأنني أتمنى ذلك بدوري ..ولازلت أذكر شعوري في الصباح عن مدى تهوري . لم أستطع سحب كلماتي التي لامست نبيل وجعلته يصبح أقرب إلي من أي وقت مضى ..لم تتوقف رسائله التي تارة ما تكون عادية ..و في بعض الأحيان تكون دعوة لرؤيتي ..كأن يقول لي بأنه ينتظرني عند البهو وعلي ان أسرع في جلب العشاء من المطبخ ..مما يجبرني على مرافقة إحدى زميلاتي بالرغم من أننا نسير على جدول محدد مقسم على أيام الأسبوع ..لكن بعض البنات تكن متعبات أو

متبرمات من تبديل ملابسهن والخروج إلى المطبخ .. وهكذا كنا نلتقي لدقائق معدودة .. يحاول العاشق أن يجعلها صدفة .. لكنه نادرا ما ينجح .. فما إن ندخل الممرات المؤدية إلى البهو حتى تتسائل كل واحدة فيهن: " أين حبيب القلب ؟ " وما إن يظهر حتى تكلزني مبتسمة : " في ذات الموعد ! "

منال الوحيدة التي تكره الخروج إلى المطبخ، في حين كانت داليا مرافقتي على الدوام وكانت دوما تضحك حينما ترى وجهي المتوهج بالاحمرار: " وقعت وبسم الله على وقوعك ...! "

ولمرتین فقط أرسل لي رسالة مليئة بكلمات الغزل التي لم تطرق باب قلبي من قبل .. مرة كتب لي بعد غيابي لثلاثة أيام في الحلة: " فاتن .. اشتقت لك .. " . ومرة كنت مصابة بالرشح ولم أستطع النهوض إلى المركز فأخذت لي منال إجازة وعندما علم نبيل عاد إلى الدار حاملا معه كيسا كاملا من مختلف الأدوية قدمه للخالة التي تقوم بتنظيف الدار لنا عند الصباح، ثم أرسل لي يقول بأنه لن يغادر المكان حتى يعلم بأني أصبحت بخير .. شعرت بأن قلبي يطوف في موجة لذيذة من الحب .. أهكذا يكون الحب؟ .. عطاء لا محدودا .. عشقا غير مشروط .. ولكنه كان كذلك بالنسبة لي .. العشق بشروط .. وحينما أخبرته بعد نصف ساعة بأني بخير .. أرسل يقول (أتمنى أن أكون أنا دواءك) .. أخفيت رأسي في الوسادة وأنا أتقد من الخجل .. !

وهكذا حينما تطلعت إليه، تمنيت لو أنني قادرة على أن أفضي له بهمومي مرة واحدة .. فريهام المفطورة القلب بددت كل فراشات الحب الملتقة حولي .

أجبتة بإيجاز: " نرجس في الخارج تجري اتصالا هاتفيا " وصمتت..فحثني على القول: " وماذا ..هل هناك شيء ؟"

نفيت بهزة من رأسي وأخذت القائمة، وقعت على أسماء زميلاتي وأخبرته بأني أريد ثماني وجبات للغداء، وبعد أن انتهيت رفعت رأسي إليه فرأيته يتطلع نحوي متأملا ..لم يشح بنظراته عني ..نظراته التي دائما تتخلل روحي، فأشعر بأني مراقبة ..بأنه قادر على قراءة كل أفكارني ..كنت أنزعج وأرتبك من نظراته تلك ..لكن نبيل لم يعد شخصا غريبا بالنسبة لي ..كنت أقابله بمعدل مرات عديدة كل يوم ..صباحا ومساء ..ما عدا أيام العطل التي كانت تفرقنا وينتظر نبيل نهايتها بفارغ الصبر ..كان دوما ينزعج حينما أقدم إجازة ليوم ..حتى أنه في مرة من المرات رفض أن يكون البديل لي لكوننا نداوم في ذات القسم ..قسم تقويم الأسنان ..وأخبرني أنه غير راض عن إجازتي وسيخاصمني ليوم كامل.

هذه المرة أشحت بصري عنه فالتف حول المكان ليصبح إلى جانبي وعاد يسألني: " فأتني ..ماذا حصل؟... تبدين شاحبة " أجبتة بأني متعبة..وجاء علي المشرف ليقدم لي الوجبات فساعده نبيل وحمل معي الأكياس ثم توجهنا للخارج ..وهناك رأيت نرجس ما تزال تكلم أحمد وشعرت بشيء يكوي قلبي، كانت معالم نرجس تضج بالقلق ..بدا وجهها أكثر شحوبا من وجهي ..وانتبه نبيل لذلك واستفسر قائلا: " هناك أمر ما، لكن يبدو أنك لا تتوین إخباري "

أجبتة هامسة: " لا تشغل بالك ..الأمر على ما يرام "

لم يصبر والحمد لله ..فماذا علي أن أقول ..بأنه كان محقا رغم كل شيء .. وأنه تنبأ بحدوث مشاكل بين عائلة ريهام ومحمد ..بأنه وضع

العاطفة على جنب وأوضح لي الجانب السيئ من نشوء علاقة غير متكافئة بين الاثنين؟..في تلك اللحظة فقط أدركت بأنه ربما يعرف أمورا أخرى عن سرمد فعلا ..وبأنه بتحذيري المستمر منه كان محقا في شيء كنت دوما أجاهله ..بأن سرمد يشكل خطرا كبيرا علي ..خطر قد يهدد حياتي القادمة.

أوصلني للدار وقال بأنه سيتصل في وقت لاحق فلم أعترض ودخلت مع الأكياس ..تبعنتي نرجس وفي المطبخ سألتها بلهفة قبل مجيء البنات: " ها ..ماذا قال أحمد؟ .."

بشيء من العصبية أجابت: " أحمد يقول بأن محمد لم يعد للدار حتى الآن " وانشغلت بإخراج حافظات الطعام من الأكياس فسألتها بإصرار: " نرجس ..أنت تخفين شيئا ما " هذا لأن وجهها أخذ يحمر من العصبية لكنها أجابتني ببرود: " لا أخفي شيئا ..هلمي نتناول الطعام ..لقد جعت "

لكنها لم تستطع أن تلمس طعامها ..تمنيت أن تكون مشكلة عابرة بينها وبين أحمد ..وان لا يتعلق الأمر بريهام ..وبحضور البنات حول السفرة ..كن صامتات ..الوجوم يخيم على الأجواء ..وما إن أقبلت ريهام وأخذت تتناول طعامها بصمت، حتى تساءلت وأنا أراقب وجهها المنكمش وعينيها الحمراتين الدامعتين ..ما ذنبها هي في كل تلك المعمعة ..؟..ما يهمها إن كانت هي من مذهب ومحمد من مذهب آخر..قلبها عاشق له ..روحها تهفو إليه ..أشواقها المعلنة ستكون له دائما ..ما يهمها في كل ذلك الصراع الأزلي ..كانت تتمنى أن يكون الحب منتصرا ..أن يعبر كل تلك المسافات ..متجاوزا كل الخرافات المتعلقة بالطائفية ..والتشدد والتزمت، أن يغدو طريقها لمحمد سالكا..أن

تصبح زوجته دون شروط وفروض وطاعات وتحكم .. لقد استيقظت في ذلك اليوم .. وصدمت بالواقع المر الذي بات ملتفا حول رقبتها .. وما كانت تستحق شيء من كل هذا .

الفصل التاسع والعشرون

نهاية

لم أظن يوما أن الحياة قد لا تنصفنا في منعطف ما .. كنت في دوامة مع نبيل وصديقاتي ومشاكلهن .. عائلتي التي أعود إليها كل أسبوعين كانت تنتظر مني تفسيرا لسبب ابتعادي عنهم، المشاكل التي حصلت لريهام وخلافها مع والدتها ولدت لدي شعور بالخوف مما ستقوله أمي لو أخبرتها عن نبيل، وهكذا حزمت أمري في نهاية الأسبوع وقررت إخبارها، حضرت نفسي لما سأقوله لها .. هذا لأنني أثق في حكمها على الأمور .. علاقتي بوالدتي جيدة تماما .. كنت بنتا مطيعة خدومة وحينما نضجت أصبحت صديقتها .. وبعد أن عينت في الديوانية لم تحزن لأنها تعرف أنني لم أذهب بعيدا عنها .. ومن عاداتها حينما لا أنزل في نهاية الأسبوع أن تأتي مع أبي لرؤية جدتي وخالاتي ثم تعود عند العصر .. كانت تتمنى أن أعود يوما إلى الحلة وإن كان البديل عن مدينتي سيكون الديوانية لا غير .

كان البدء بالحديث صعبا بالنسبة لي، لطالما كانت تسألني في الجامعة عن زملائي .. تستفسر لو كان أحدهم قد أبدا ميل تجاهي، لكنني كنت دوما محافظة على مسافة منهم .. أبتسم وأتحدث، أعتبرهم زملاء لا أكثر .. أما بالنسبة للخاطبين من طرف أهلي فكانوا ينالون الرفض بلباقة .. لم أسأل أبي وأمي عن ذلك .. كنت أثق بقراراتهم في اختيار الأفضل لي والحمد لله لم يكونوا كثر.

في النهاية عزمت على إخبارها في عطلة الأسبوع ، كانت في المطبخ تشاهد مسلسلا المفضل فجلست قربها وسألتها أن تصغي لي، فأخفضت التلفاز وسألتي بقلق: " ماذا هناك حبيبتي؟ ..ليست هناك مشكلة لا سمح الله؟ "

سارعت أطمئنتها: " كلا، ولكنه موضوع خاص وددت أن أستشيرك به" لو قالت كلا ..سأكون سعيدة بذلك ..ولكن قلبي سيشعر بخيبة أمل قاسية ..!

أثرت انتباهها كليا، أدركت من معالم وجهي المرتبكة أنه الموضوع الخاص الذي لطالما تمننت أن أحدثها به ..كنت عملية تماما ..أخبرتها عن زملائي وبأن أكثرهم من محافظات أخرى ..ثم وصلت إلى نبيل وتلكأ صوتي: " الدكتور نبيل مهذب و من عائلة محترمة، هم صاغة معروفون في كربلاء ..عائلته الآن مهاجرة لكنه ينوي الاستقرار في العراق .." وذكرت جملة سمية التي تفيدني في مواضيع كهذه: " لديه بيت وسيارة وأمالك أخرى ..الأمر أنه ..هو يود.. " تلكأت حينما رأيت عينيها تضيقان بإصغاء: " أن يتقدم ..أقصد ..أنه فاتحني بالموضوع قبل عدة أيام .." ارتأيت أن أكذب حتى لا أدخل في دوامة من الأسئلة والاستفسارات وشكوك الظن " لكني لم أعطه اي جواب ..ارتأيت أن أستشيرك في البداية " كنت بارعة في اختيار كلماتي وشعرت بالراحة حينما سألتني أمي بهدوء: " وأنت ما هو رأيك به؟ ..هل تجدينه مناسبا ؟"

شعرت بالاحمرار يغلف وجهي: " لا اعرف ..أنت تعرفين أننا زملاء مقربون هناك في المركز وقد خرجت معهم أكثر من مرة ..أراه رجلا شهما يهتم بكل شيء .." وتابعت أقول بقليل من الخجل: " أخبرني بأنه

مستعد لأن يفتح بيتا في المكان الذي أوده .. وهذا يعني أنه لا يصر على انتقاله إلى كربلاء ..

سألتني باهتمام: " وماذا عن ملابسك؟ .. هل سيجعلك ترتدين العباءة؟ "

عرفت أنها ستصل إلى هذا السؤال .. الأهل دوما يقلقون على الأشياء التي يفرضها الخاطب في المستقبل .. أدركت أن كل الأمهات يرغبن أن تصبح بناتهن ملكات في بيت الزوجية .. أحببتها بكل هدوء: " هو لن يفرض علي هذا الشيء .. لكني بطريقة ما فهمت أنه يحترم جدا عادات مدينته وبأنه يعتبر العباءة مجرد تقليد .. لا فرض .. "

هزت أمني رأسها متفهمة: " لا بأس .. سأخبر والدك وسنرى "

تجمدت في مكاني .. هل الأمر بهذه السهولة؟ .. سألتها وأنا أشعر بتبلد: " ماذا ترون؟ "

عادت تنظر إلى التلفاز وكأنها حصلت على ما أرادته: " سنرى ما سيقول .. لا بد وأنه يرغب بمقابلة الدكتور نبيل " عاد الاحمرار يغلفني .. بدت والدتي متفهمة تماما ثم إذا بها تتابع: " وأيضا علي إخبار بيت جدك " .

مادت الأرض بي: " لماذا ..؟ "

لطالما رفض نبيل تدخل بيت جدي في حياتي، تخيلت الأمر يصل إلى سرمد وحينها سينهار كل شيء ..

" لأن الأمر يهمهم أيضا .. يستطيع أولاد خالتك السؤال عن الدكتور في المركز "

أن تكلف والدتي سرمد السؤال عن نبيل، ستكون مهزلة تماما: " أمي، أولاد خالتي مشغولون ثم إن أبي يستطيع السؤال عنه في أي مكان "

قالت بحزم: " فائن .. والدك ما عاد قادرا على الانتقال هنا وهناك براحة، أولاد خالتك أولى، هم شباب ويستطيعون الحصول على معلومات كافية تفيد والدك " أردت التكلم فمنعتني: " ولا كلمة .. أدرك أنك محرجة ولكن الأصول تقول هكذا .. أتركي الموضوع على عاتقنا الآن "

تفهرت في مكاني وأنا أشعر بأني ارتبكت خطأ فظيحا و ما عدت قادرة على سحب كلماتي، ها هي العاصفة السرمدية قادمة لتحاسبني تماما ..

قضيت نهاية الأسبوع بتوتر، علم والدي في اليوم التالي و سألني بطريقة مباشرة عن أصل الدكتور ومن اي عائلة هو ولكني أجبتة بالنفي .. فأننا لا أعلم كنيته ولا من أي عشيرة وأجهل تماما في أية منطقة يسكن في كربلاء، بعدها تذكرت أن لديه عمّة في الحلة هو غالبا ما يأتي معنا في سيارة الخط لتناول الغداء عندها ثم إكمال طريقه إلى مدينته، ولم يستفسر أبي بعدها .. والحمد لله فقد كنت محرجة بما فيه الكفاية لأجيب عن أسئلة أخرى.

اتصلت بمنال في ليلة نزولنا وأخبرتها بالأمر .. ارتجف صوتي وأنا أقص عليها ما حدث فسألتني بعدم تصديق: " فائن .. أخبريني الآن بكل صراحة .. هل تتوين الموافقة على نبيل ؟ "

أجبتها بشرود: " لا أعرف .. أردت معرفة رأي أمي فقط ، وأرى أن الأمر يتطور دون إدراك مني "

غمغمت منال: " أنت معتوهة .. متى سترسين على بر ؟ "

" أنا ..حسنا ..أنت شعرتِ بأني بدأت أميل إليه، قولي لي يا منال ما المانع لارتباطي به، إننا مناسبان تماما ..يمكنك أن تقولي أننا بدأنا نفهم بعضنا و .."

قاطعنتي بشراسة: " وماذا عن شرطه المهيّب؟.. هل نويت فعل شيء تجاه الأمر؟"

نرجس ومنال كانتا الوحيدتان اللتان تعلمان بشرط نبيل أن أترك بيت جدي، واقطع كل روابطي بسرمد.

" كلا، أنا أظن بأني لو تزوجت في أي مكان من العالم، فكل روابطي الاجتماعية ستتلاشى تدريجيا "

زفرت منال: " فأتين أنا لا أفهمك ..أنت تقررين مصيرك بعدم اهتمام..فكري قبل أن يكون الأوان قد فات "

ولكنه قد فات تماما ..

جاءت والدتي معي إلى الديوانية وبعد أن وصلنا الدار لنضع أغراضنا أنا ومنال، ذهب السائق بوالدتي إلى بيت جدي ..لم أستطع العمل في وحدتي بالمركز، كنت من الارتباك والتوتر بحيث أن يدي أخذت ترتجف أثناء العمل فتولّى نبيل عني البقية وهمس لي ما إن جلس على الكرسي الدوار: " أنت شاحبة ..اذهبي لتناول الفطور مع البنات "

فغادرت شاكرة، لكنني لم أستطع الذهاب لأي مكان ..أخذت أدور في المركز أقلب بهاتفني و دقات قلبي المتسارعة منتظرة اتصال سرمد..لا بد أنه سيتصل ..ولكن ماذا سأفعل لو جاء و قاصصني أمام الملاء ..ماذا ستكون ردة فعله ..هل سيغضب ويهدد ؟

وفي نهاية الدوام تنفست الصعداء .. وحمدت ربي لأنني لم أتصل بأمي لأرى ما حصل، ستظنني متلهفة وأنا أريد التصرف بطبيعية تامة .. أثنت علي نرجس لأنني لم أخبر نبيل بشيء وبأنني قمت بالخطوة الصحيحة في إعلام عائلتي .. عاجلا أم آجلا سيكون القرار بيدي وحينها سأعرف بأنني قمت بالصواب في كل شيء.

ولكنني ما إن خرجت مع البنات في نهاية الدوام حتى صدمت بسيارة علاء المتوقفة على الرصيف المطل على النهر .. وبسرمد المنتظر جعلني أتوقف في مكاني أشار إلي من بعيد أن أعبّر الشارع ولكنني وبخوف بحثت عن نبيل وألفيته يخرج من المركز مع أنور والآخرين .. كنت لا أزال متوقفة في مكاني حين ابتسم لي نبيل، لكنني أشحت ببصري مرتعدة إلى سرمد المتوقف النافذ الصبر.

حشنتي نرجس أن أصعد إلى سيارة الخط ولكنني حركت رأسي نافية وأخبرتها بأن سرمد ينتظرني عند الشارع المقابل .. مسكت مرفقي بحذر كي تنبهني إلى خروج نبيل هو الآخر فأومأت لها عالمة بأنني سأكون في وجه المدفع .. كان القرار صعبا بالنسبة لي: أن أعبّر الشارع وأذهب إلى سرمد أمام نبيل الذي لا بد وأن يتساءل عن سبب وقوفنا العرضي عند الرصيف .. ولكنني لم أشأ إثارة غضب سرمد .. فخوفي منه أكبر من احتمال إغضاب نبيل .. سرمد قادر على انتشالي من سيارة الخط عنوة ونبيل لا يستطيع التسبب لي بفضيحة وسط الشارع .. كنت بين نارين .. لم أرغب يوما في جرح نبيل .. وهذه المرة لن أجرحه فقط بل سأكسر كلمته .. وأعرف انه أبي .. عزيز النفس.

بقلب خافق وأطراف مرتجفة درت حول سيارة الخط متخذة الدرب الذي يفضي للمجهول .. فالمرور من جانب نبيل لن يوجب سوى

الصراع الأزلي.. سيجعلني مكلفة بالعار.. ويجعل الثقب الذي في قلبي
يكبر ويتسع.

كانت خطواتي وثيدة وأنا أعبّر الشارع شاعرة بكمية الوجد التي
لامست نبيل في تلك اللحظة.. أترأه واقف عند باب المركز يشاهد
تقدمي نحو سرمد؟.. أكان قادرا على مواجهة نظرات سرمد الساخرة
التي لم تكن موجهة نحوي.. أدركت ما إن أصبحت قرب سيارة علاء
أن سرمد لا يزال ينظر إلى نبيل المتجمد في مكانه.. أردت أن أصرخ
به كي يكف عن النظر.. لثوان فقط رفعت بصري وأنا ألتف حول
سيارة علاء.. مرورا بجسد سرمد المتكى على السيارة إلى نبيل الواقف
بعيدا.. رأيت نظرة عينيه المشحونة بالغضب.. ويده المكورة إلى
الجانب.. أنفاسه الغاضبة لفحت نظراتي العجلة المرتبكة.. فغضضت
بصري ولم اعرف ماذا أفعل ماعدا سرمد الذي أمرني بلهجة متكاسلة:
" اركبي "

شعرت بالدموع تبلل رمشي.. للمرة الثانية أضع نبيل في موقف كهذا،
أجبره على رؤية وضاعتي وجبني من جبروت سرمد.. أم حصل ذلك
لمرات عديدة؟!

تحرك سرمد أخيرا ليركب ويستقر إلى جانبي، شعرت بحضوره القوي
وهو يضع يده على مقود السيارة ويسألني ساخرا: " أليس هناك
مرحبا؟ "

التفتت إليه، لكن عيني تعلقت بنبيل وهو يتحرك ليعود إلى الدار
بخطوات سريعة حازمة.. كدت أبكي لمنظر وجهه النافر
بغضب.. وكبريائه الجريئة لكنني تماسكت بقوة وعدت أنظر

لسرمد..ومضت عيناه بسخرية جمة وكأنه يعلم ما أشعر به ..ويعلم ردة فعل نبيل ..شعرت في تلك اللحظة أنني أكرهه أكثر من أي وقت مضى.

" هل لي أن افهم سبب مجيئك الآن ؟"

أجابني وهو يتحرك بالسيارة: " لسبب واضح تماما ..أنت ما عدت تأتين وعلينا أن نأتي بك قسرا "

كنت غائبة لأكثر من أسبوعين ..عقدت يدي بتوتر أحاول إيقاف ارتجاف : " هل ماما ما تزال موجودة هناك؟"

علق بسخرية: " ماما فاجأتنا بأخبار لطيفة ..علي أن أهنئك ..أديت دور العروس بشكل ممتاز "

لم أقل شيئا، أشحت بوجهي إلى النافذة: " لقد سعدت الماما حينما أخبرناها أننا نعرف المبجل نبيل، لأننا لم نبتعد عنك و نعرف كل زملائك " ألقى علي نظرة سريعة جعلتني اقبع في مكاني ..سرمد كان متقدرا ..وكنت أخشى لهيبه ...تخيلت ردة فعله وهو يستمع لأمي تخبره عن نية نبيل في التقدم لي وتابع يقول بلهجة مستفزة: " من الممتع أن تكلفنا خالتي بالسؤال عنه ..هي لا تعرف بأن ملفه مخزون في ذاكرة هاتفك " إشارة إلى اتصالاتنا سوية.

قضمت شفتي كي أمنع نفسي من الرد: " أخبريني كيف ستكون ردة فعلها لو قلت لها بأن ابنتها الدكتورة المحترمة تعيش حياتها كما يحلو لها ..تفسح المجال لنبيل ولصديق نبيل ولزملائها الآخرين .."

قاطعته غاضبة: " سرمد لا تجرؤ وتفسر الأمر حسب منظارك السيئ، أنا إنسانة محترمة ونبيل زميل لي فقط .."

التهبت عيناه: " وماذا يعني تقدمه إليك ؟!..أتظنين أنني لم أعرف نيته منذ البداية "

ارتجفت: " كيف لك ان تعلم ؟! "

حقا كيف استطاع سرمد كشف نبيل منذ اللقاء الأول ؟

أجابني وكأنه قرأ أفكاري: " الأمر واضح ..منذ أن أخبرني قيصر عنه، كونت فكرة مناسبة عن الرجل الذي دافع عنك ولم يمض شهر على لقائكم "

نظرت إليه بعدم تصديق ..كان يتحدث بلهجة باردة، لكنه كان متشجعا..يكبت نفسه كي لا ينفجر بي ..ردة فعله أسوء مما تخيلت ..تلك الستارة التي يخفي بها شخصيته الداخلية المتهورة كانت تهدد بالانهيار..وكننت أخشاه لأنني بت اعرف أنه قادر على إيذائي والتفنن بتعذبي.

شعرت بالصدمة تنخر جسدي، لهذا قام باستفزاز نبيل منذ اللقاء الأول..ولهذا تعمد أن يأتي بنفسه في كل مرة ..لقد كشف نبيل منذ البداية، وكان يتقن باستفرازه ..حتى تعمد انتظاري في باب المركز متفاخرا بأني لا أستطيع عصيان أوامره ..أستطيع الخروج والذهاب مع من شئت أمام أنظار نبيل !..

تنفست بقوة ..الوضع أسوء مما تخيلت ومهما قلت فسرمد يملك دماغا ضيق التفكير ..ولكنني لم أستسلم: " أنت مخطئ ..لقد تصرف بتلك الطريقة لأننا كنا بعهدته ولو كان طبيبا آخر معنا لتصرف بالمثل .. "

ضحك بخشونة: " أنسيت أنني محام ..وأني اعرف جيدا ما تعنيه وسائل الدفاع كلها .. " وقال كلمة الدفاع وكأنه يبصقها مشمئزاً .

" لم أنس شيئاً .. "

شيء متوحش لمع في عينيه: " إذن لا داعي لأن تمثلي دور الغبية ..وقوفه هناك عند بوابة المركز كالصنم الأحمر اثبت لي الكثير .. " وسارع لأن يقول وقد انتفخت أوداجه: " لقد سمحت لذلك الثقيل أن يكون شيئاً في حياتك ..يتدخل ويغضب في كل مرة يرانا معا " قاطعته دون تفكير: " وأنت كنت تعتمد هذا ..أليس كذلك ..تود إثبات وجهة نظرك ليس إلا ؟ "

اشتدت يده على المقود: " تعلمي أن تكلميني باحترام ..السبب الوحيد الذي يمنعي من الذهاب وكسر رأسه هو أنني لا أود العودة للسجن حالياً ..أنت وكل تصرفاتك الغبية سأضعها في الحسبان منذ اليوم "

قلت بعدم تصديق: " عليك أن تراقب تصرفاتك أنت أولاً ..أتود كسر رأس نبيل لأنه يطرق باب أهلي بالمعروف ؟ "

صاح لاعنا: " بل سأخنق معروفه اللعين ذاك .. ". وأوقف السيارة على جانب الطريق ..كان يتقد غضباً ..الآن بدا سرمد الذي حاسبني منذ اكتشف اتصالات نبيل بي ..بدا كالشقيق الغاضب الذي تهمة سمعة اخته وانكششت تلقائياً في مقعدي ..الأمر الوحيد الذي منعه من ضربني ذلك اليوم هو أن عائلتي في الغرفة الثانية ولكن ما الذي سيمنعه الآن من ارتكاب المحذور؟ ..وحضرت نفسي لمحاضرة طويلة عريضة ..

" الآن عليك أن تنظري إلي وتفهمي ما سأضعه في رأسك العنيد هذا، أنت لست حرة بخياراتك .. أنا وعائلتك من نملك القرار .. لقد تمردت علينا منذ أن اخترت الدار وكذبت حول مجيئك وذهابك الى الحلة .. جعلت زميلاتك البغداديات يؤثرن عليك .. غيرن من طريقة ملبسك وعلمنك التصرف بحرية وكأن لا أهل لك .. تخرجين وتتفسحين .. تذهبين إلى بغداد، تحتقلين دون أن تخبريني .. (لمعت عيناه بغضب ناري) مع أنني حذرتك من الخروج .. وشرحت لك الوضع الخطير الذي يحيط بي "

صحت بغضب: " لا تجرؤ على محاسبتي وكأنني فعلت أمرا خاطئا .. عائلتي التي تتحدث عنها من تملك الحق فقط .. ولم اخرج مرة دون أخذ الإذن "

اشمئز قائلا: " وتجعلينهم يظنون أنك الفتاة المثالية .. عليك ان تفتحي عينيك على الدنيا يا ابنة خالتي المصون وأن تحافظي على احترامك وسمعتك "

" أنا أحافظ على نفسي جيدا دون إهانات .. قلتها بغضب بارد .. " ولن أسمح لك بالتعدي علي والتصرف وكأنك حامي الحمى .. والدتي طلبت منك وعلاء ان تستفسروا عن الزميل المتقدم لي .. لا تجعلها قضية شرف لو سمحت "

رد لاذعا: " كان عليك أن تتربي على يدي، كنت لأقطع لسانك لو أنك بعهدتي "

" لن تقطع لساني .. أنا امرأة بالغة وطبيبة مستقلة بذاتها .. عليك أن تفكر بي على هذا النحو، يؤلمني طبعاً أن تظنني منحلة الأخلاق .. وبأن زميلاتي علمنني التخلي عن مبادئ، ولكن لا يهمني ما ستقوله ... أنا

واثقة من أنني لم أفعل شيء خاطئاً .. وتابع بتصميم: " نبيل تقدم لخطبتي وأنا أخبرت عائلتي بذلك وانتهى الموضوع " حاولت أن لا أقضم شفتي خشية ردة فعله .. للحظات بدا عليه وكأنه صقع لحديثي .. لم يتحرك لثوان .. احتقن وجهه بالغضب وهو ينظر إلي متأملاً عيناى ومظهري .. كأنه لا يصدق أنني تجرأت على محاورته بتلك الطريقة .. ولأنني لم أشح بصري عنه بدونا وكأننا خصمين .. تلاشت كل مشاعر القربة بيننا .. سرمد كان عدوي منذ الصغر وأصبح الآن أكثر شراسة .. العدو الأكثر قسوة في حياتي.

بعدها تغير شيء .. بدا وكأنه يتنفس بغضب ليبعد شيئاً عن تفكيره .. أكان يتمنى أن يكسر رأسي في تلك اللحظة .. ولكنه ولحسن حظي لم يفعل شيئاً كهذا .. بدلاً من ذلك مد يده ليمسك معصمي .. كانت مسكته قاسية علي .. شعرت بالألم ولكني لم أقل شيئاً من صدمتي الشديدة لجرأته في فعل ذلك ونحن في الشارع .. أدركت بعدها أنه فعلها كي يقحم كلماته المهددة في رأسي.

" إذن سأعمل جاهدا على أن لا يتم هذا الزواج .. "

غار قلبي في ضلوعي: " م .. ماذا ؟ "

اشتدت مسكته واشتد الألم علي: " سمعتني .. " تحدث بقسوة متوحشة: " سأنهاي هذه المسألة برمتها "

رشت بعيني: " لا تستطيع " واختنقت بأنفاسي متوجعة .

كرر بصوت جعلني أنكمش: " بل سأفعل .. سأجعل نبيل يتمنى لو أنه لم يرك .. سأشوه سمعته .. وأحطم عالمه .. سأجعله يحتقر الكون الذي يعيش فيه .. يتمنى لو أنه رضخ لعائلته وهاجر معهم .. "

صحت مرتجفة: " توقف ..توقف ..أنت مجنون !"

" هذا هو أنا .." وشدد على يدي: " وعليك أن تعرفي أنني قادر على فعل أسوء من ذلك .."

تهدج صوتي من الانفعال: " لماذا تفعل هذا؟ ..ماذا ستجني من تدميره ؟" وتلاشت صورته بموجة من الدموع ..كنت أحاول أن أسيطر على دموعي ..لقد كان نبيل محقا ..سرمد يملك شخصية أخرى ..شخصية قاسية محطمة ..تمتعت بدون وعي: " من أنت؟ ..أخبرني ..لأنك لست ابن خالتي الذي ترعرعت معه ..! "

حرر يدي أخيرا وسمعت صوته اللاذع: " يؤسفني أنك لست الوردة التي ظننت أيضا .."

وكان هذا أكبر من كل شيء ..نزلت دموعي فأشحت بوجهي إلى النافذة أنظر بمرارة إلى الفراغ ..شعرت كأن سرمد صفعني وشحب وجهي.

عاد يشغل السيارة ورجع إلى الطريق الرئيسي ولبرهة لم نستطع قول شيء، لم أنهار ولم أتوسل به ليحررني ..كنت صامتة وقبل أن نصل إلى بيت جدي وصلتني رسالة من نبيل ..تحفز سرمد إلى جانبي وكأنه أدرك بغريزته أنه نبيل ..تجاهلته تماما وأنا أتذكر كلماته المهددة ..لم يعد لي شك بأن سرمد من قام باختطاف نائب المحافظ ..بأنه تورط بأكثر من جنحة ..بأنه ربما يملك صلات خطيرة لا اعرفها أبدا ..ولكن ما كان ذلك ليفيدني بشيء.

كانت رسالة نبيل موجزة ..مختصرة ..موجعة ..(فاتن .. لقد انتهى كل شيء بيننا).

الفصل الثلاثون

إختناق

كان سرمد على حق، لقد لعبت دوري بمهارة فائقة ..لم أنهر ولم أبك بعد قراءتي لرسالة نبيل، كابدت وجعي وقهري وخيبة أمني ..تجرت كأس الخذلان والتزمت الصمت ..بعد رسالة نبيل ما عاد شيء يهمني .. ولا حتى محادثة سرمد وإفهامه الأمور من وجهة نظري ..فليعتبرني امرأة سيئة التصرف ..ما عاد أمره يهمني.

وصلنا بيت جدي وكنت للمرة الأولى أشعر بالغربة هناك ..صعد سرمد إلى غرفته مباشرة ولم تحدثني أُمي بشيء ..خالتي سعاد ظلت ترمقني بنظرات غريبة اقشعر لها جسدي، علاء ابتسم لي مرحبا ..وشعرت بأن ابتسامته فقدت قليلا من دفئها ..أما خالتي نجاح فقبلتني بأسلوبها العفوي وأخذتني إلى المطبخ بحجة مساعدتها في تحضير الغداء ..وشعرت من تحركات يديها أنها كانت متوترة، وحينما كنت أقطع السلطة كعادتي في المناسبات سألتني بتردد: " فتونتي ..هل ..صحيح أن هناك دكتورا قد تقدم لك؟ " .

غشت الدموع عيني لكنني لم أبين ردة فعلي، استمررت بتقطيع الخيار: " أجل خالتي " لم يعد هناك بعد الآن خالتي ..!

" وهل هو إنسان جيد؟ "

أومأت لها وتمنيت أن تظن أن عزوفي عن الكلام سببه حرجي ..وليس كوني محطمة كليا.

تنفست خالتي وجاهدت لترسم ابتسامة صغيرة: " لقد كبرت حبيبتي.. من حقك أن تخطبي وتتدلي، ألف رجل يتمناك ..".

زادت كلماتها من أوجاعي ..كابدت دموعي بقوة وأنا أفكر .. لا أحد بعد الآن سيتمناني.

سمعتها تتابع وهي تحرك قدر الحساء: " علاء مدحه وهذا أراح والدتك بعض الشيء ..ولكن سرمد .." وهزت كتفيها عازفة عن قول شيء..سمعتها تذرد ريقها: " وقيصر حبيبي قال أنه رجل حسن المظهر ودكتور محترم للغاية .." وأضافت بتوتر: " أنا أمل أن يكون من نصيبك لو كان يقدرك حق التقدير، الزواج مشاركة وتفاهم ..محبة وتنازل " وعادت تحرك القدر بعد أن شردت في أفكارها: " ربما لم أنزوج لكنني كنت فكرة عن مدى أهمية الزواج، كما تعلمين: أبو علاء استشهد في الحرب الإيرانية و قد كان مثالا للزوج ..ووالدك أيضا ..آه.. أنا أعرف أن هذا الجيل جيلكم يختلف تماما عن جيل أهلنا ولكن ستظل الأمور الأساسية واضحة ..الرجل يحب أن تكون امرأته مطيعة لا تكسر كلمته أبدا .." رفعت بصري وشعرت بالدموع تسيطر علي ..لقد كسرتها ..أنا لا أصلح أن أكون زوجة لنبييل ..لأنني جبانة وكفى.

" فاهمة ..تعلم كل احتياجاته ..لا تعاند ..لا تجادل خاصة في السنوات الأولى ..ولكن بعد ذلك ستكون العلاقة أسهل ويعتاد الزوجان على بعضهما، وتبدأ مرحلة المودة والاحترام والتقدير .."

خفضت رأسي حينما التفتت إلي: " ولهذا حبيبتي، لو رأيت أن الدكتور نبييل ملائم لك فأنت تستحقين السعادة ..إن سعادتك تهمنا " كررت كلمتها بابتسامة مرتجفة مما جعلني أتوقف عن عملي ..هل تظن خالتي نجاح أني صغيرة على الزواج ..لم أسألها ..لم أكن في مزاج تام

لأستفسر عن سبب ارتباكها ..ولكن جدتي كانت قصة أخرى، كنت أنا المتوترة المرتكبة فيما كانت هي ترمقني بعدم استحسان ..عيناها الداهية تلمعان بتفكير جعلني أشعر بالذنب ..

" إذن يا ابنة سهام ..لقد كان سرمد محقا .."

شعرت بالاحمرار يتصاعد إلى وجنتي ..سألتها بارتباك: " ما ..ماذا تعنين ؟"

أخذت تسبح بمسبحتها الخاصة ..وانتظرت لدقيقة كاملة قبل أن تقول وهي تهز رأسها: " كنت تحتفظين بعريس في جيبك "

ازداد احمراري: " كان الأمر مزحة !"

استمرت تسبح: " لا أراها كذلك الآن " ورمقتني بنظرة مليئة بالشك " لا أعرف ماذا أخبرتك والدتك ولكني أحب أن أسمع عن حبيب القلب هذا "

ازدردت ريفي: " إنه ليس ..جدتي ..أنت تفكرين بعيدا " وأخذت نفسا عميقا ..كان إقناع جدتي أسوأ من تغيير رأي سرمد السيئ بي: " إنه دكتور محترم وأنا أقدره كثيرا " شعرت بالألم يكتنز قلبي حينما تذكرت كلماته ..انتهى كل شيء ..!

" إذن كيف حدث وأن تقدم لك؟ ..كيف استطاع الوصول إليك ؟..من طرف آخر ؟"

نفيت: " كلا، ..إننا مجرد زملاء في المركز " نويت أن أكون صادقة .

" منذ بداية الدوام، أخبرتني الفتيات أنه يبحث عن عروس ملائمة .. ولم يحدث شيء بعدها .. إننا مجرد زملاء وأصدقاء مقربين .. ولكني كنت أشعر .. " وتلعتنمت: " بأنه يكن اهتماما خاصا بي " ورفعت بصري نحوها ورأيتهما تنتظر إلي بطريقة أرعبتني .. لم تكن سعيدة قط بصراحتي تلك.

" وكنتما تجلسان بمفردكما ؟ "

سارعت لأن أقول: " كلا، أقصد .. الأمر أننا زملاء و من الطبيعي أن نتشارك العمل سوية .. وبعد انتهاء الدوام نجلس كلنا في وحدة وأنا عادة أقضي الوقت مع صديقاتي " .

لم تقل شيئا .. مرة ثانية جعلتني أنتظر لدقيقة .. وربما أكثر .. كنت متوترة بحيث لم أستطع التفكير بشيء سوى الانتهاء من الاستجواب .

كان الأمر أسهل مع أبي وأمي .. ربما لأنهما يثقان بي .. وربما لأنني لم أكن تفتهما تلك يوما .. تمنيت لو أنني لم آتي .. كنت مشوشة الذهن ولم أفكر بأني سأخضع لاستجواب أكثر من شخص واحد .

تحدثت جدتي أخيرا: " أمل أنك تعرفين ماذا تفعلين .. أنت أمانة لدينا قبل أن تكوني حفيدتي " وشعرت بأن تسبيحها يزداد سرعة: " أولاد خالتك متفاجئون تماما، لكنهم أثنوا على الشاب .. سنرى إن كان مناسباً بعد أن يسألوا عن أصله وفصله .. " كنت ابلع ريقى المرة تلو الأخرى .. ما الفائدة .. ؟

شعرت وكأنني في مصيدة .. من تهديدات سرمد لي وتخلي نبيل عني .. كنت لا أعرف ماذا سأفعل .. كان نبيل يستحق امرأة أفضل مني .. ولكن ضميري الخائن .. وقلبي الذي لم يحب كسر قلبه الذهبي كانا

يؤنبانني تماما ..فهو يستحق أن يعرف بأني أخبرت عائلتي عنه ..ولو
أنني أخبرته بذلك في الدوام لربما فهم دوافع سرمد في المجيء وأخذي
من المركز أمام أنظاره ..ومن جهة أخرى كانت تخيفني تهديدات سرمد
و كلماته وقدرته على فعل شيء يؤدي نبيل، فعلا وليس مجازا ..كان
قلبي يدور في دوامة قاسية في ذلك النهار ..كل ما وددته أن أعود للدار
وأتقبل نكران نبيل لي ..وغدا ..غدا كيف أستطيع الجلوس معه في ذات
الوحدة؟ العمل معه في نفس المكان ..؟..ولكن أترأه سيأتي فعلا ويعمل
معي بكل طبيعية وكأن شيئا لم يحصل ؟..شككت بذلك، فنبيل مهما بلغ
اهتمامه بي فإن لديه كرامة ..وقد هدرتها اليوم بكل وقاحة.

" واحذري من غضب سرمد لو عرف شيئا آخر " انتشلني تحذير
جدتي من شرودي ..حدقت فيها بعدم فهم فتابعت تقول موضحة: " بناتنا
نحن محافظات ..من يرغب بنيل ودهن يطرق الباب مباشرة !"

وفهمت سبب ارتباك خالتي نجاح ..الجميع هنا يظنون أنني على علاقة
غرامية بنبيل ..ملأني الغضب ..لم يكونوا يعرفون من هي
فاتن..وتذكرت كلمات سرمد وتأسفه بأني لست الوردية التي يظنها
..الخطأ يقع على عاتق أمي فهي التي سارعت لتخبر بيت جدي ولم
تفكر جيدا في أنهم سيأخذون عني نظرة خاطئة.

كان الغداء محنة بالنسبة لي ..لكني لم أكن منهارة ..كنت غاضبة من
عزوف الجميع عن الكلام وكأني قمت بعمل شنيع ..تأملت وجوههم
جميعا ..من أولاد خالتي إلى خالاتي وجدتي ..كانوا يأكلون بصمت
ويتجاهلونني حتى قيصر الودود لم يمزح معي ولم نتشارك في تبادل
الأطعمة المفضلة لدينا، بل إنه لم يرفع بصره نحوي وكأني فجأة
أصبحت عارا بينهم.

لم تتوفر لدي فرصة للحديث مع أمي، وهكذا قررت أن أحدثها بعد نزولي في نهاية الأسبوع وحينما قرر علاء إيصالها إلى المرائب العمومي ذهب معهم وأنا أجر أذيات الهزيمة ..وفي قلبي كل القهر والغضب فسرمد عاد ليصعد إلى غرفته دون أن يقترح شيئا ..ولم يعبا حتى بالنظر إلي أو توديع والدتي.

وحينما صعدت سيارة علاء شعرت وكأن بيت جدي لفظني تماما...

كانت الرحلة قصيرة إلى الكراج، التزمت الصمت بدوري وحينما ودعتني أمي، أخذت تقول لي أن أنتبه لنفسي وبأنها ستتواصل معي هاتفيا طوال الأسبوع ..وبعد أن نزلت أشار لي علاء: " تعالي فاتن، اجلسي بجانبني "

نزلت بطاعة ..إكراما لوده السابق ..فعلاء المتجهم الذي طالع نظراتي من النافذة كان يختلف تماما عني ..لقد أخبرني مرة أن أبتسم على الدوام.. هو الآن لا يعرف أنني أود لو أصرخ وأفجر غضبي وأخبر الجميع بأني فتاة محافظة تماما ..!

حاولت السيطرة على أفكاري ..كنت أعرف أنه يود التحدث إلي وتحضرت لتحقيق ثالث ومحاضرة طويلة مملة.

" لم تتوفر لنا الفرصة للحديث في المنزل ..هل تودين .. "

قاطعته بلهجة مقفلة: " هل لديك أنت الآخر شكوك حول مبادئي؟ "

شعرت به يجمد في مكانه ..التقت نظرانا ..وبدا مصعوقا...

" فاتن ..ماذا قال لك سرمد ؟" ولمعت عيناه بعدم تصديق ...

أشحت بوجهي عنه ..كنت ما أزال أشعر بالغضب ..عاد يكرر ولكن
بلهجة حذرة: " فأتن؟ ..أخبريني ماذا قال لك سرمد؟"

سألت بعناد: " لماذا تظن أن سرمد الوحيد الذي اتهمني بذلك؟ ..كنت
هناك في البيت والكل يحاسبني وكأنني ارتبكت جرما ما "

غمغم علاء قائلا: " إننا لم نحاسبك ..كننا متفاجئين فقط ..". لم أقل
شيئا ..حرك علاء السيارة وأخذ يتمتم وعيناه على الطريق: " كنت
أعرف أن سرمد سيفعل شيئا " وضافت عيناه بتوعد: " أقسم أنني
سأحاسبه لو قلل من شأنك، سيكون لي حديث طويل معه ..لقد كاد
يخرج والدتك بتصرفه ..حينما علم .." هز كتفيه و صمت ..مما جعلني
أحدق به بفضول قوي ..ماذا كانت ردة فعله ..حتى خالتي نجاح لم
تستطع وصف حالته.

" هل كان غاضبا ..؟"

شدد علاء يده على المقود: " كلا ، في الواقع فعل العكس .. لقد
ضحك ..!"

" أخذ يضحك ؟". كنت مصدومة تماما...

أوما علاء: " كان تصرفا غير لائق بالمرة .. وكأن فكرة أن يتقدم لك
شخص ما لوحدها مضحكة " وبان الاعتذار في عينيه.

عاد الغضب يزحف في داخلي ..إن كان قد ضحك في منزله فما معنى
هجومه الشرس علي في السيارة ؟ ..وازداد الكره في داخلي ..أكثر
فأكثر ..

" وماذا قال لوالدتي ..؟"

لوى شفتيه: " أنت تعرفين سرمد، بالرغم من استهزائه من الموضوع كله فقد أثنى على الدكتور "

" مدح نبيل؟!!! " قلتها دون تفكير فالتفت إلي علاء مندهشا ..بعدها وكأن الإدراك وصله ..تأمل وجهي وشعرت بالاحمرار يغلفني تماما.

" فاتن ..ألن أتجاوز لو سألتك عن رأيك أنت؟ "

عقدت يدي بتوتر: " رأيي بماذا ..؟ "

تنحنح حرجا: " بالدكتور طبعاً "

أشحت بوجهي نحو النافذة وتاهت أفكارى ..ما عاد رأيي مهما بعد الآن: " الرأي رأي عائلتي يا علاء "

لسبب ما شعرت به يتشنج في سياقته: " ولكن لو حصل وأن رأوا الطبيب مناسباً ..هل ستوافقين؟ "

إن كان نبيل نفسه لم يعد موافقا...

هزرت رأسي: " الرأي رأيهم "

ذكرني قائلًا: " ولكن القرار سيكون بيدك فاتن ..عليك أن تكوني صريحة مع نفسك فقط "

بعدها شعرت بأنه ما عاد يود الحديث معي ..فقد ادار الراديو والتزم الصمت وكأنني خيبت أمله هو الآخر.

في اليوم التالي، توقعت أن لا يحضر نبيل لأي سبب كان، ظننت أنه سيأخذ إجازة أو ربما يغير قسمه أو حتى يحل محل طبيب آخر في قسم

آخر .. لكن أيا من هذا لم يحصل .. فما إن ولجت وحدة التقويم حتى رأيته جالسا يعمل على مريضة والساعة لم تتجاوز الثامنة والنصف .. أُلقيت التحية بتردد، فلم أحصل منه سوى على إيماءة صغيرة ولم يرفع عيناه عن المريضة .. وضعت أغراضي واكتشفت أن يدي ترتجف .. أردت في تلك اللحظة الهروب منه .. تمنيت لو أنني أنا التي قدمت إجازة كي أنتهي من مواجهة مريضة.

لا شيء أسوأ من التعامل برسمية مع شخص عنى لك الكثير.

كان نبيل من طينة خاصة .. معجون بأخلاق وشهامة لم أر مثلهما من قبل .. مع أن كثيرا من الألم اكتنز قلبي أثناء عملنا سوياً .. فهو لم يبتسم لي ولم يعاونني في عملي، بل إنه جلس بعض الأحيان عند المكتب مع الدكتورة شهد مسؤولة الوحدة وتبادل معها أحاديث ودية .. شعرت بالقلق حينما رأيته يبتسم لها مع أنه لم يكن لها مودة من قبل .. كنت أعمل بصمت ولكن أذني التقطت كل حرف قيل .. استغلت الدكتورة تلك الفرصة للتحدث عن نفسها .. كانت مغرورة بعض الشيء ولكنها متحدثة لبقة وقد سئمت انسجامنا أنا ونبيل فلم نعطيها من قبل الفرصة للتدخل بيننا .. كانت فضولية تماما ولا بد أنها تخيلت أن شيئا مميزا يحصل بيننا .. غضضت بصري حينما رأيتهما يتفاهمان سوياً، يتشاركان الحديث وكأنهما من الأصدقاء القدامى .. حتى أنه حدثها عن هجرة عائلته وبأن بيت جده الآن في أمريكا .. تعجبت الدكتورة شهد من عزوفه هو عن الهجرة وكان رده كما أخبرني تماما .. أنه ينوي الاستقرار في العراق .. غضبت لأنه يتكلم عن مخططاته المستقبلية بكل أريحية.

حينما خرجت الدكتورة أخيراً، تنفست براحة .. لكن نبيل تبعها بعد ذلك بدقائق .. كأنه لم يعد تحمل فكرة بقائنا بمفردنا، وحينما أنهيت المريض الأخير وخرج شاكرًا، بقيت وحيدة، فدخلت منال كالعاصفة علي..وبادرتني بلهفة: " ها بشري .. "

ولأنني أخبرتها هي ونرجس بما حصل لي بعد عودتي للدار ..فقد كن ينتظرني على نار لمعرفة ما حصل ...

أجبتها بهدوء: " لم يحدثني .. "

تراقص الفرح في عينيها: " تمزحين .. "

هزرت رأسي نافية ...

أغلقت الباب وسارت نحو منتصف الغرفة وهي تؤدي حركات راقصة، صحت بها غير مصدقة: " منال !!! .. "

استمرت ترقص: " هششش ..دعيني أعيش اللحظة !"

جعلتني خفتها في الرقص أختنق بالضحك ..بعدها شعرت بأني تجاوزت اللامعقول في مشاعري، تلاشت ابتسامتي وطفرت الدموع من عيني، وحينما انتبهت لي منال أخذت تصيح بي غير مصدقة: " فائن إن بدأت بالبكاء سأقتلك"

مسحت الدموع بسرعة: " أنا فقط لست معتادة على تصرفه "

" لا تكوني حمقاء ..إنها فرصتك للتحرر، نبيل لم يعد قادرا على خنقك بتصرفاته ..يمكنك الذهاب والعودة إلى بيت جدك براحتك ..يمكنك السير مع ابن خالتك في الديوانية كلها ولن يهتم "

ولكن دموعي عادت تهطل دون توقف ..إنها لا تعلم بتهديدات سرمد..لا تعلم بأنه وضع شفرة أفكاره الضيقة على عنقي، بأن الطريق إلى نبيل بات شائكا ..التهديدات وحدها من منعتني من الركض خلف نبيل وتوضيح ما حصل له ..ربما لأجل هذا لم يعد يغريني التمسك ببيت جدي الذي أنكرني ما إن عرف أهله بتقديم نبيل لي.

حاولت السيطرة على بكائي: " ولكنني لم أرد أن يحصل هذا بتلك الطريقة ..أنت تعرفين أن نبيل أصبح مقربا إلي أكثر من أي وقت مضى، وأنا قد اعتدت عليه ..اعتدت على ابتسامته واهتمامه وسؤاله عني ..اعتدت على حضوره القوي ..منذ الصباح وحتى الآن لم يلقي علي نظرة .." وتابع بقهر: " تصوري أن يتجاهلني تماما ويتحدث مع الدكتورة شهد !..شهد التي يظنها معتدة بنفسها ..مبالغة في كل تصرفاتها ".

نظرت إلي منال بعدم تصديق: " وأنت سمحت له أن يسيطر عليك؟..من هو حتى تنزعجي من جلوسه مع شهد أو غيرها ؟.. " وتابع باشمئزاز: " ينقصني فقط أن تقولي بأنك وقعت في غرامه "

" وماذا إن حصل ذلك؟ .." سألتها بقوة: " ما الذي يمنعني من الوقوع في حبه ؟"

أجابتي وقد تلونت عيناها بالغضب: " أتتوین أن تصبحي عبدة له ؟..تتبعين أوامره ..تطيعينه وتجعلين منه الأمر الناهي عليك !"

" ولماذا لا أود ذلك ..؟"

صاحت منال: " لا تكوني غبية ..فاتن أخبرتك أنها فرصتك للتححرر..إياك أن تركضي خلف عبوديتك "

تجدد المنديل الورقي في يدي: " تصورين الأمر وكأنه سجن .. ولكني لم أر السجن إلا بتحكم سرمد بي .. نبيل وعدني أن يعطيني حريتي واستقلاليتي .. أن يحترم أفكارى وطموحي، مقابل شرط واحد .. وأنا ماذا فعلت ؟ .. رميت شرطه في الهواء وركضت نحو سرمد "

غمغمت منال بعصبية: " كان عليك أن تصعدي معنا إلى السيارة وليذهب كلاهما إلى الجحيم "

أجبتها بقوة: " أجل، كان علي فعل ذلك .. ولكن إن كان علي التحرر من بيت جدي تماما .. علي فعل ذلك للأسباب الصحيحة "

" حسنا، حظا طيبا في ذلك .. " وأردفت: " ولكن لا تلجئي للبقاء لأنك تتمنين عودة نبيل .. أنت تبكين لأن كرامتك مجروحة فقط "

أخبرت نفسي .. أنا أبكي لأنني خذلت نبيل فقط ...

بعدها طيبتني بكلمات معذرة .. وجلست جنبي وأخذت تتحدث عن عودتها الدائمة للحلة .. كانت منال تحسب الأشهر وتعد الأيام كي تقدم للتدرج الطبي وحينما اقترحت أن ألغي الديوانية تماما من قائمتي أخذت أضحك رغما عني .. فأنا لم أظن أن يأتي اليوم الذي أفكر فيه بالتخلي عن الديوانية.

لم يعد نبيل إلى العيادة، ولم أخرج أنا منها .. وكان اليوم التالي يشبه الأول .. لم يوجه لي كلمة واحدة .. كان يعمل بصمت .. ينهي عمله ثم يخرج ولا يعود .. وفي الأوقات التي كانت الدكتورة شهد موجودة فهو يتحدث معها بكل طيبة ويمزح أحيانا مما يجعلني أعض شفتي قهرا .. فهو لم يأس على فراقى .. وفي يوم الأربعاء اتصلت بي أمي وأخبرتني أن علاء قد سأل عن نبيل وأن والدي يحب التعرف به، لم أستطع

إخبارها شيئاً.. فقد ملأتني المرارة وأنا أنهي اتصالي بها.. فضلت أن أخبرها بعد نزولي وسأجد حجة ما لتخلي نبيل عني وإنهاء كل ما بيننا.

وحل يوم الخميس.. كنت أشعر بضيق يكتم على نفسي وكأنني بلغت حدود الاختناق العليا.. لم أستطع تحمل وجودنا سوية في نفس الوحدة.. نعمل دون أن نتحدث، وكنت أجبر على استشارة دكتورة شهد بدلا منه حينما أحتاج مساعدة ما.. وفي مرة من المرات بعد خروج الدكتورة ألقيت عليه نظرة خاطفة فرأيت أنه يتطلع بجهاز هاتفه واجما.. حينها أدركت أنه يجاهد لأن يتصرف بطبيعية أثناء تواجده في الوحدة وأنه ربما بات يختنق من وجودنا معا هو الآخر.. مثلي تماما.. وهذا دفعني للتصرف أخيرا.. فما أن أنهيت عملي مع المريض حتى خرجت قبله وتوجهت نحو الدكتور أحمد فاروق خطيب سوسن وطلبت منه أن يغيرني لأعمل في وحدة أخرى.. أخبرني بأن علي الانتظار لأسبوع آخر كي نتحول إلى وحدات جديدة.. ولكنني أخبرته بعزم بأن عملي في التقويم لن يفيدني بشيء وأنني أود العودة إلى قسم الأطفال أو تحويلي إلى قسم حشوات الجذور وقد وافق على مضمض نظرا لأنه أرادني أن أسد الشواغر وأن أعمل وقت حاجة الوحدات.

وهكذا بعد أن اتفقنا ذهبنا إلى وحدة الحشوات لأخبر منال ونرجس بذلك.. فلم يقلن شيئاً.. ما عدا منال التي ابتسمت لي مشجعة وكأنها تقول لي بأنني أتقدم خطوة إلى الأمام.. ولكن نرجس التزمت الصمت وجعلتني أتمنى لو أعرف بماذا تفكر.

وقبل نصف ساعة من انتهاء الدوام عدت إلى وحدة التقويم لأخذ حقبيتي، وما إن فتحت الباب حتى صدمت بوجود نبيل وكنت أظن أنه غادر بعدي.. أدركت بأنه كان يفعل ذلك طوال الأيام الماضية حتى لا

يضطر للبقاء معي ..صمت كعادتي ..أثنت على نفسي حينما اتخذت قرار المغادرة حفاظا على كرامتي ..فليهنأ ببقائه مع الدكتورة شهد !

تحركت نحو الدولاب متجاهلة تعبيره الواجم وجلسته المتشنجة، كان ما يزال يتطلع في جهازه حينما مررت من جانبه، تناولت حقيبتي وأغلقت الدولاب وما إن تحركت خطوة حتى سمعته يقول بلهجة خشنة " خذي كل أغراضك "

ولأنه تحدث معي بعد صوم أسبوع كامل سألته بعدم فهم: " عفوا ..!"

أشار نحو المشجب: " الصدرية أيضا ..قد تحتاجيها للأسبوع القادم "

هبط قلبي بين ضلوعي ..لقد عرف ..ولكن من أين ..أتراه الدكتور أحمد فاروق من أخبره ؟..لم أظن أنني سأجعله أكثر غضبا ..تصورت أنه سيتنفس ارتياحا لرحيلي ..

" شكرا " شكرته بغمغة خفيفة ..أخذت الصدرية وطويتها ..كنت أشعر بدقات قلبي تقفز بوتيرة سريعة مع أنفاسه الخشنة ..كان علي الخروج بأسرع ما يمكن ..مواجهة مرة مع نبيل ستكون بلا فائدة ..

" هل أخذت إذن الدكتورة شهد ؟" بدت جملة حادة مما جعلني أجفل في مكاني.

" كلا "

عاد ينشغل بجهازه ولكنه تمت بعد ثوان: " لا أعتقد أنها ستوافق ..ماذا حصل؟.. هل من الصعب عليك البقاء لأسبوع ثان ؟ "

رغما عني ارتجف صوتي: " ظننت أن هذا أفضل لكلينا "

ند عنه صوت مستهزئ، التفت إلي ونظر أخيرا .. عيناه غاضبتان
تشعان بقسوة غير معهودة منه: " يحلو لك أن تظني ما شئت .. لماذا لا
تكونين صريحة مع نفسك ؟"

تمتت أقول: " صريحة مع نفسي ؟"

" أجل " احتدت عيناه : " لقد وجدت لها فرصة مناسبة للتحرر مني .. أليس
كذلك ؟"

أجفت: " أنت مخطئ " أترأه استمع لحديث منال في الوحدة قبل أيام ؟

" أنت تعرف أن منال صريحة جدا .. "

قاطعني محتدا: " لا تدخل منال بيننا "

" ماذا يعني هذا ؟ .. "

نظر إلى جهازه: " هذا يعني: دعيها خارج ما يخصنا .. إنها لم تكن لي
مودعة يوما ولا أراها ستفعل ذلك . "

تساءلت بحنق: " هل هذا شخص آخر علي توديعه لو ارتبطت
بشروطك ؟"

قال بعد صمت طويل: " لم يعد هناك شروط .. لقد حررتك ! "

تمتت أقول بغضب: " شكرا .. " تحركت من مكاني ولكنني توقفت
لأقول له: " قد تكون منال غير ودودة ولكنها تتكلم لمصلحتي .. "

قاطعني ساخرا: " منال حاقدة على الجنس البشري "

" إنها طبيعتها فقط " صحت بغضب .

" بل هي طبيعتك الطيبة التي تجعلك عمياء عن كل من حولك .. ألم تفهمي بعد .. منال تغار منك ! "

تهدج صوتي: " توقف و حسب .. "

رمى جهازه على المكتب وأجابني غاضبا: " دعيني أقول شيئا يخص صديقتك تلك .. أنا أحترمها لأنها فتاة محترمة تماما .. ولكن أفكارها مسمومة .. تبث سمها في الجميع، والكل يشتكى منها .. "

كنت مصدومة بما يقول: " البنات لا يشكين منها بشيء ..! "

أجابني: " بل يفعلن .. كل واحدة تخبر خطيبها .. والنتيجة واحدة، أنها تحاول إفشال كل الزيجات المحتملة في المركز .. "

هزرت رأسي: " أنا لا أصدقك .. ". لابد وأنه يكذب .. منال صريحة أجل .. ولكنها صريحة معي فقط .. لا يهمها شأن كل واحدة في الدار ..

" عليك أن تفتحي عينيك جيدا إذن .. "

قلت بغضب: " أنت تتكلم عن صديقتي بالسوء .. "

قاطعني مرة ثانية: " أنا أخبرك الحقيقة .. ". وأخذ نفسا عميقا: " هناك أشياء لا تعرفينها عن صديقتك تلك .. لقد تساءلت مرارا عن سبب كرهها لي، ولكنني تفاجأت حينما تكلم الزملاء عنها بتلك الطريقة .. بعدها عرفت سبب كل ذلك .. "

كنت لا أصدقه .. إنه يتكلم عن منال أخرى .. واحدة لا أعرفها أبدا ..

" لقد مرت بتجربة سيئة في حياتها جعلتها تكره الرجال عموما .. "

كدت اضحك .. ولكني تماسكت بقوة .. فقد كان الغضب يهدد بالانفجار في داخلي.

" وكيف علم زملاؤك بهذا الشيء .. ؟ " سألته ساخرة.

أجابني بهدوء : " لقد كانوا يعرفون بالامر من أيام الكلية "

تحركت من مكاني، وضعت صدريتي وحقييتي على المكتب وقلت له غاضبة: " حسنا، لقد كذبوا .. منال صديقتي لأكثر من ست سنوات .. لم نكن نفترق خلال أيام الكلية أبدا .. "

سألني بتوتر: " هل تعرفين إذن أن والديها مطلقان ؟ "

تجمدت في مكاني .. إنها ليست منال .. أبدا .. لا يمكن أن تخفي منال عني شيئا كهذا.

لا بد وأنه لاحظ شحوب وجهي لأنه تابع يقول: " الأمر لا يتوقف عند ذلك فقط .. لقد أحببت شخصا ما خارج الكلية .. دكتور اختصاص يكبرها بعشر سنوات من سكان بغداد .. " أردف موضحا: " زملاؤنا البغداديون من أخبرونا بذلك .. "

احتجت لأن أجلس .. كنت مصدومة تماما .. لقد شككت مرة ولكني لم أضع شكوكي في محلها .. كنت عمياء تماما !..

جلست على الكرسي المقابل لنبييل: " لقد ارتأيت أن أخبرك بحقيقتها منذ أن مرت قبل نصف ساعة لتخبرني أنك ستبدلين الوحدة " وتابع بتردد بعد أن رأى شحوب وجهي: " لقد قالتها بطريقة عفوية ولكنني قرأت الشماتة في عينيها .. "

ولهذا كان متحاملا عليها ..وأنا ظننت أنه استمع لحديثنا قبل أيام .

سألته: " هل أنت متأكد من ما تقول ؟"

أجابني وقد لمعت عيناه بنظرة مشفقة: " أجل ..أقاربي في الحلة أكدوا لي هذا الأمر .."

" كانت تخبرني أن والدها رجل أعمال ومسافر على الدوام "

تتحنح نبيل: " لقد هجرها والدها منذ أن كانت في الرابعة عشرة "

لماذا لم تخبرني بذلك ..كنت صديقتها المقربة ..كنت الصديقة الحمقاء التي تصدق أكاذيبها فحسب ..عدت أسأله بتردد: " وماذا عن قصتها مع ذلك الدكتور ..كم استمرت ؟..".

بسط نبيل يده: " لسنوات طويلة ..افترقا بعد أن أصبحت في المرحلة الثالثة .."

عدت أنكر: " كنت معها ..لم تخبرني ..لم تسمح لي أن اشك بشيء .."

" لابد وأنها كتومة للغاية ..فاتن ..الدكتور كان ينوي التقدم لها، لكنه فزع من محاولتها الشديدة للتمسك به .." وتابع قبل أن أمنعه من قول المزيد: " أنا أدرك أنها صديقتك ..ولكنها تحتاج لعلاج نفسي جدي .."

أسبلت رمشي وأطرقت أفكر بكلامه ..لقد واجهني بحقيقة منال الخافية عني ..و كنت حتى تلك اللحظة أتمنى ان يكون كابوسا ما ..للمرة الثانية أفف في ذات الموقف ..كان هناك حقائق مخفية عن البنات زميلاتي..كل منهن لها سرها الخاص ..وقد ظننت أننا و قد تشاركنا نفس

المكان..الملبس والمأكل فإن أسرارنا ستفرش على بساط من الثقة..كنت غبية بما فيه الكفاية لأصدق بأننا أخوات حقيقيات.

" أعذريني إن سببت لك الكدر ..بالرغم من كل ما حصل بيننا ..فأنا لا أريدك أن تتخطي في عالم مليء بالأكاذيب ..". رفعت بصري إليه..كان ينظر إلي وكأنه لم يرني من قبل ..كنت الشيء الأعلى لديه..وما عدت بعد الآن .

أدركت أنها النهاية فعلا ..وبأن نبيل لن يركض نحوي بعد الآن ..ولن يتصل بي لو غبت أو مرضت ..غرقت عيناى بالدموع فبدا التأثير عليه..وسارع لأن يقول: " فاتن ..لا تتكذري أرجوك .."

من الصعب عليه مشاهدتي أبكي ..لن يكون قادرا على ترميم ما كسر بيننا ..لن يستطيع تجاوز ما حصل بكل سهولة ..أردت إخباره في تلك اللحظة ..أردت أن أقول له أن سبب مجيء سرمد هو إخباري عائلتي عنه ..أردت أن أطيّب خاطره في تلك اللحظة ..وأن أمحو كآبته ووجومه ..حزنه وغضبه ..أردت العودة إليه ..لكني تذكرت تهديدات سرمد ..وشعرت بأن الأرض تميد بي.. اختنقت ..حولت بصري عنه وقمت قبل أن تهطل دموعي أكثر ..كنت أعرف أنني لو بقيت لتوسلت به أن يسامحني ويغفر لي خطئي وجبني.

وقفت عند الباب الموارب وقلت له قبل أن أخرج: " تمنيت لو ..لو أنني أعطيتك الفرصة لتخبرني بكل مساوئ سرمد .." والتقت إليه ..كنت أرتجف من البكاء والصدمة..فرايته ينظر إلي بآلم..أدرك هو ما عنيت..كان الأوان قد فات.

استنشقت دموعي .. أردت التنفس ولكني اختنقت .. فخرجت من الوحدة
وأنا أبكي قهرا...

الفصل الواحد والثلاثون

تأثر

مهما كانت الطريقة التي اخبرت بها أمي فأنا أظن بأنها لم تقتنع بحديثي.. اخبرتها بأن الدكتور نبيل سيهاجر بعد انتهاء فترة الإقامة .. لأن والده اصبح مريض في الفترة الأخيرة وهو بحاجة للعناية ولأنني كنت ارفض الهجرة تماما فأنا رفضت طلبه بحزم .. امرتني ان لا اخبر احد بذلك ولم اعرف السبب .. بعدها عدت إلى غرفتي وانا افكر بأني بت حرة بالفعل .. وكان علي ترميم روحي المنكسرة بعد تلك الفترة .. قررت ان اخذ اجازة في يومي الاحد والاثنين لأنني لم ارغب برؤية أحد .. ومنال لم استطع قول شيء لها .. نظرة واحدة إلى عينيها الممتلئة بالدهاء جعلتني افكر كم كنت حمقاء حينما بحثت لها بكل اسراري ، حينما جعلتها تقرر معي في كل شيء .. كنت اظن بان الصداقة تتجاوز كل شيء .. الاهل القرابة ، الوجد ، الخذلان ولم احسب ان النفس البشرية معجونة بخليط غريب من التصرفات والافعال .

كانت الاجازة بمثابة مداواة لي .. لقد أن لي ان اسدل ستارة على حياتي الماضية وان ابدأ صفحة جديدة من عمري .. اقل تأهباً وأكثر حذراً .. قضيت يوم الاحد في جولة تسوق مع والدتي .. اشترت فيها ملابس جديدة وأحذية .. ثلاث حقائب والعديد من الايشاربات .. بذخت على نفسي كي اجملها .. لقد أن لي الاهتمام بروحي .. بقلبي وجسدي .

حينما عدنا إلى البيت تفاجأت بوجود خالتي سعاد هناك ، رحبنا بها انا وامي وطلبنا طعام جاهز من المطعم القريب نظرا لأننا تأخرنا بالعودة

والوقت قارب الظهر . خالتي سعاد كانت حذرة معي اثناء غدائنا
سوية.. أخبرتني انها لم تعرف بأني مجازة .. وشعرت بعدم الارتياح من
نظراتها اللوحة .. كانت تخفي شيء .. وحينما صعدت إلى غرفتي
تاركة مجال للأختين كي يتحدثا أدركت بغريزتي ان الحديث سيكون
عني .. بشكل ما او بآخر .

بعد رحيل خالتي عند العصر اخذت ادور قرب امي احاول معرفة
فحوى الحوار ولكنها لم تتعاون معي .. امي بارعة مثل الآخرين في
اخفاء الاسرار ولكن لا بد وان يأتي اليوم الذي يتضح كل شيء .

قلت بأني حاولت بدأ حياة جديدة ولكن كان هناك شيء لم استطع طويه
رغم كل شيء .. تحكم سرمد بي ، لم يكن يعرف بما حصل .. وظننت
بأننا بعد الحديث المر الذي دار بيننا وعزفه عن الكلام معي بأنه قد رفع
يده عني .. ولكنني كنت مخطئة .. ففي ليلة الاثنين اتصل بي من رقم
غريب هو ذاته الرقم الذي اخبرني ان احتفظ به في حالة الطوارئ .. لم
ارغب في التحدث إليه .. ولكن بعد اتصاله للمرة الثالثة وجدت اني افتح
الاتصال واتحدث إليه بتبرم : " نعم .. هل هناك شيء ؟ " .

سألني بدلا من ذلك : " هل انت عائدة غدا إلى الديوانية ؟ " .

اجبته بملل : " أجل .. " .

فقاطعني مسرعا : " سأوصلك أنا .. بأي ساعة تحبين ان امر عليك ؟ " .

استوعبت كلامه ببطء : " توصلني أنت .. ؟ .. انت تقصد أن تنتظرني
عند الكراج ؟ " .

اجابني بلهجة خشنة : " كلا ، انا قادم للحلة غدا " .

مرت دقيقة لم افهم ما كان يقوله ..وحيثما تحدث خرجت كلماته ساخرة : " ماذا ..انت هادئة جدا .." .

" أنا متفاجئة فقط .." اخذت نفسا عميقا مشبعا بالغيط : " لماذا تود القدوم ..ما معنى هذا ؟" ..

اجابني : " معناه كما هو واضح ..سأتيك بنفسى .." .

قلت باحتجاج : " لذي سائق خاص .." .

" اصرفيه .." .

مسكت موبائلي بقوة : " سرمد ان كانت هذه احدى طرقك لتخبرني انك تتحكم بي فيسعدني ان اخبرك بأني لن استجب لك ..ولن اطيعك .." واضفت بقوة : " لذي سائق خاص اتفقت معه ولا احتاج لمساعدتك .." .

قاطعني بعدم اهتمام : " اذن سأتصل بالسائق وأخبره بأنك غيرت رأيك" .

" تتصل به ..؟" واشتعلت غضبا ..كيف توصل إلى السائق الخاص بنا ؟.

" سرمد ..اسمع جيدا .." .

قاطعني بنفاذ صبر : " اسمعيني انت يا مدللة ..سأتيك بنفسى لأنك منذ مدة تتصرفين براحة وايضا لأنك لم تكوني اهلا للثقة .." .

اخذت أنفاسي : " انا لم افعل شيء خاطئا ..أنا .." .

" أنت لست حرة يا فاتن .. وسأعمل جاهدا على جعلك تصغين لي .. بالقسوة أو بدونها .. المهم ان يسقط رأسك العنيد هذا ويصغي لمن هو أكبر منه وأعقل .. والآن لا تجادلي اخبريني بالساعة كي أتيك ولا تدعيني اعيد كلامي .. "

قلت بغضب : " لن استسلم ولن اصغي إليك " وانهيت الاتصال دون الاستماع لردده .. ثم عدت واغلقت الهاتف كي لا يحاول الاتصال ويسمعني موشحة من الالفاظ العذبة وضرورة اطاعة اوامره .

وفي الليل فتحت الجهاز فرأيت ان منال ارسلت لي رسالة تقول فيها : " الكل مشتاق لك .. حتى نبيل المعتوه " . سابقا كانت تدفعني عبارات كهذه إلى الضحك .. ولكني الآن لم اعد اجدها مضحكة بل بدت سخرية فجأة وكأن منال تتعمد ان تجعلني في ذات الدائرة من رثاء النفس .. انتبهت للتو كم تتفنن في الشماتة بالآخرين .. اللوم يقع علي لأنني كنت عمياء تماما فيما يتعلق بها .

لم ارسل لها شيء بل خلدت إلى النوم وعند الساعة السابعة خرجت من المنزل متوقعة ان ارى سيارة الخط الخاص ولكني تفاجأت حينما رأيت سيارة علاء متوقفة .. وبأن سرمد موجود في الداخل .. لقد فعلها .. !

على مضض ادخلت الحقيبة فوق المقاعد الخلفية وصعدت إلى جانبه .. كان يبدو عليه اثار النعاس .. حسنا .. يستحق ذلك .. فهو من أصر على المجيء .. كنت اتقد بالغضب .. بدأت اقول له : " هل تظن ان والدي سيوافق على مجيئك ؟ " .

برقت عيناه : " انا اظن انه سيظمنن لأنك بين ايدي امينة " .

" لا تكرر ذلك مرة ثانية "

شغل السيارة : " سأفعل ما اراه مناسباً " .

لم يزرنا سرمد ربما لمرة واحدة وتفاجأت لكونه يتذكر باب منزلنا ،
كانت سياقته مريحة .. سألته بعد ان خرجنا من الحلة " هل لي ان
اعرف سبب اصرارك على المجيء ؟ "

" انا اوفر لك نقودك " ونظر الي مبتسماً بسخرية .

" كن جادا ارجوك " .

اخذ يقود بيد واحدة وقام بتشغيل الراديو باليد الثانية : " أنا جاد
بالفعل .. " . وانبثق دعاء الصباح من الاذاعة .. التقت نظراتنا انا وسرمد
وبدا الغموض عليه .. لم استطع يوما سبر غوره .. كان يقرر وينفذ
لوحده .. حينما طالت نظراتي أردف قائلاً : " تودين الحقيقة ؟ .. ولكنها
ستزعجك حتما " .

" انت تعترف بأن كل ما تفعله يزعجني جداً ! " .

ابتسم " انت صريحة جداً .. " .

رفعت حاجبي : " هل هذا انتقاد ؟ " .

" بل مدح .. " ورمقني بنظرة مأكرة .. ولسبب ما شعرت بخدي يحمران
خجلاً .

" حسناً .. ماذا قلت للسائق ؟ " .

اجابني ببساطة : " اخبرته بأنني شقيقك " .

ابتسمت ..كم تمنيت لو كان فعلا شقيقي ..لكان قد وضع ثقته الكاملة بي وما كان ليفكر بأني خنت الثقة تلك .

" من الجميل ان نرى ابتسامتك ..بماذا تفكرين ؟". التفت إليه وقلت بصراحة : " بك أنت ..لو كنت شقيقي لكنت سعيدة بأنك توصلني " .

علق بمرح : " لو قدر لنا ان نكون اشقاء لكنت حبستك في المنزل " .

" انت رجل متخلف ..وأنا اشفق على المرأة التي ستزوجها " .

ضحك : " الحمد لله اني لن اتزوج " .

" وأنا كذلك .." قلتها دون تفكير فتغير الجو في السيارة ..بدت عليه نظرة متشنجة وبدا صوته نضحا بالانفعال : " هذا تغيير جديد ..ماذا حصل لحبيب القلب ؟" .

اشحت بوجهي إلى النافذة وقد غاب المرح في داخلي ..كنت مترددة في اخباره بحقيقة انفصالنا انا ونبيل وفي الوقت ذاته كنت اخشى تهديداته التي سينفذها فيما لو ادرك اننا لازلنا معا .

عاد يسألني : " هل تم رفض الموضوع ؟" .

نظرت اليه بحدة : " وما شأنك انت ؟" .

ابتسم : " اذن قد تم رفض الموضوع ..هذه بادرة خير ، الان بدأت تفكرين بعقل " .

تشنجت من الالم ..تذكرت نبيل ونظرته الاخيرة الممتلئة بالوجع ..لقد كسرت قلبه ولم اكن فخورة بنفسي حتى وان فعلت ذلك لحمايته . تابع سرمد بعجرفة : " السبب الذي جعلني آتي للحلة لأنني عرفت من خالتي

ان نبيل من تكفل بتأجير سيارة الخط لكم انت وصديقتك .. لا اذكر اسمها ..".

اجبته ساهمة : " منال .. اسمها منال .. " وعاد قلبي يتلوى بآلم .

" على كل .. السائق هذا عليك ان تنسيه .. سأقوم بتأجير شخص موثوق آخر .. " . غامت عيني .. ماذا علي أن أقول .. لقد اخذ على عاتقه التحكم بحياتي وسمعته يتمم وكأنه ادرك ما أفكر : " قد تظنين انها نهاية العالم ولكن الحياة ستمنحك فرص اخرى " .

لم ارغب بشيء بقدر رغبتى بإنهاء الإقامة والعودة الى الحلة .

قررت ان آخذ غفوة قصيرة .. ولم استيقظ الا بعد دخولنا الديوانية ، نظرت الى الساعة فوجدتها قد قاربت الثامنة سألت سرمد : " هل تود ايضا لي للدار .. ؟ " .

بدا عليه التعب .. ولكني لم اشفق عليه .. لا يزال يستحق كل التعب في الدنيا ... !.

اجابني : " هل تستطيعين اللحاق بالبصمة ؟ .. " .

اومأت له وتمطيت في جلستي فسمعت ضحكته : " ذهبت كل الاناقة .. بالتأكيد عليك الذهاب إلى الدار " . بادلتها الضحك وانا ادرك ان مظهري بعد النوم يبدو وكأنه الانتهاء من معركة .. ملابسي تكرشت ، كحل عيني سال وبدوت متوردة من النوم .

بعد ان اوصلني للدار دخل سرمد بالسيارة إلى الداخل .. لطفه جعلني اشعر بالتأثر .. كان سرمد قادر على تحويل مزاجي من طور لآخر .. ولكن مشاعر الكره لا تزال هي المتفوقة .

التقيت بصديقاتي ..وتصرفت بطبيعية مع منال التي قفزت ما ان رأنتني وعانقتني بشوق : " لقد ظننت اننا سنراك في المركز .. " لم اشأ ان اخبرها بإيصال سرمد لي ..قررت ان اكون اكثر حذرا اما نرجس فوجدتها تتناول فطورها قبلتني بود وقالت لي كي تسمع منال : " لا تتركيني مع هذه المجنونة ..لم تجعلني انام الا ساعة واحدة .. " جلست انتاول من فطور نرجس : " هل ضاعت علي سهرة حميمة ؟ " .

ضحكت منال : " لقد اجبرتها على قراءة الكف لي .. " .

كنت اعرف ان نرجس باتت تتضايق من الحاح البنات على قراءة الكف ، او تفسير الاحلام او اللجوء الى خيرة في القرآن ..كانت تهوى تفسير الامور بإرادتها ولكن البنات لم يكن يرحمنها ابدا .

سألتهن : " اين بقية البنات ؟ " .

اجابتنني نرجس وهي تقف عند النافذة لتعدل حجابها : " انهن يتناولن الفطور في الكافيتريا .. " .

صاحت منال : " فائن اين صدريتك ؟ " . وكانت تسحب حقيبة سفري الى غرفتنا .

القيت نظرة عجلة على غرفة الجلوس بينما توقفت نرجس لتسأل : " لا تقولي انك نسيتها ... " .

ابتدأت اقول : " كلا ، انا وضعتها في المقعد الخلفي و ..تبا .. " جاءني الادراك : " لقد نسيتها في سيارة سرمد .. " .

كلاهما سمعا الاسم وتجمدتا تماما ..سارعت لأخذ حقيبتني بينما سألتني منال بعدم تصديق : " سرمد؟ .. ولكن اين السائق ؟ " .

كذبت : " لقد جئت مع سرمد وخالتي سعاد التي قضت ليلتها في منزلي " اتصلت بسرمد وابتعدت عنهن كي لا تتكشف كذبتى بسهولة .. ولم يدعن سرمد انتظر طويلا تساءل ما ان فتح الاتصال : " مرحبا .. اترك نسيت شيء ؟ " .

لابد إنه يقرأ كل افكاري أجبته بتوتر : " أجل ، صدريتي وضعتها على المقعد الخلفي .. " .

اللوم يقع على نبيل هو الذي اجبرني على اعادة الصدرية للبيت ..

اجابني : " اجل ، ها هي .. اين انت ؟ .. هل لازلت بالدار .. سأمر إلى المركز ما دمت قد وصلت هناك .. سأضعها لك عند الذاتية .. ما رأيك .. ؟ " .

ارتبكت ولكنه كان افضل من العودة للدار ونحن خارجون على كل حال .

وافقت على مقترحه وانهينا الاتصال .. وحينما اخبرت البنات سمعت نرجس تتمتم : " علينا الذهاب اذن قبل ان تقام حرب عالمية ثالثة .. " .

قلت في داخلي .. لا بل قامت !..

اجتمعنا مع البنات داليا وريهام وسوسن وسمية التي غابت كثيرا .. كنت سعيدة بلقائهن وتمنيت ان تكون الفترة الاخيرة من الغياب قد اثمرت بشيء . توجهنا جميعا الى المركز بسيارة الخط وظننت اني لن اقابل سرمد ولكننا تقابلنا عند وحدة الذاتية ، كان قد جاء لتوه .. رمقته البنات بفضول وشعرت بالحرج لأنني اقف معه للمرة الاولى امامهن .. دخلن الى الداخل وتباطأت كل من نرجس ومنال لينتظرني وانا اخذ الصدرية

من سرمد ..ولأني كنت اشعر بأن سرمد لن يخيب املي بمنظره ..فقد كان ممشوق القامة وعلى عكسي حينما اكون متعبة بدا سرمد ايقونة من الانتعاش .. إذ رأيت نظرة الاعجاب في عيني نرجس اما منال فوقفت تنظر إليه مبهورة .. ادركت في داخلي انها لم تقابله شخصيا ..لسنين طوال كانت تسمعني اتحدث بالسوء عنه ..ووجدت انها اصبحت في صفي فجأة مما دعاني لأن اعرفهما ..وكالعادة كان سرمد البطل في جعل صوتي يخرج متعثرا ..بينما وقف وقفته المتكاسلة تلك وهو يرد على تعرفه بمنال ..:" لي الشرف فعلا .." وتقابلا الاثنان ..لم يشح بصره عنها ..ولم ادهش حينما رأيتها تحذو حذوه ..فلم يخلق الرجل الذي يهرب منال ..وهي بعد ما سمعت من قصص عديدة عنه ظنت انها ستقابل الرجل الحديدي أخيرا .

ابتسمت بفتنة : " اهلا وسهلا ..فاتن تحدثنا عنكم كثيرا .." .

ضحك سرمد وغاص قلبي من ضحكته الصادقة ..ومن كلمات منال الملعومة .

وضع يده في سرواله : " لا شك في ذلك ..إنها تعبد الارض التي نمشي عليها " .

شهقت حينما ضحكت منال مستمتعة بمبالغته ..

اين انت نرجس ..؟..التفت لأراها قد اختفت تماما في المركز ..ويبدو انها رأت احمد فتركنتا .

بدا سرمد مستمتعا باحمرار وجهي واستنكاري الشديد لكلامه ..ولسبب ما لم استطع تناول الجانب الفكه من الموضوع كله ..اردت ان اسارع للدخول انا ومنال الى المركز .

وفهم هو استعجالي فقال بلباقة دافئة : " حسنا .. لا اود ان اعطلكما .. دكتورة .. " وأوماً لمنال بتهذيب ثم اشار الي مودعا باختصار .. وحينما ابتعد خارج المركز بسيارة علاء اطلقت منال انفاسها بلهفة : " حقيرة .. معتوهة .. الديك مثل هذه الوسامة الحادة وتركضين خلف نبيل السحلية ؟!! " .

انزعجت من كلامها : " انا لا اركض خلف أحد .. هلم بنا .. البصمة تنتظرنا .. " .

ولكنها بقيت تتأفف غير مصدقة .. وظلت تضغط على رسغي ونحن نبصم وتتمتم بأني معتوهة وبأني عمياء لا ارى الذهب الحقيقي من المغشوش .

في وقت ماض كنت لأنفجر من الضحك .. من تعارف سرمد بمنال .. من نظراتهما التي بدت كأنها مقابلة الند بالند .. ولكنني كنت اشعر بانزعاج كلي بعد ما عرفت عن منال .. أحاسيني لأنني لم اخبرها عن وسامة سرمد وهي في المقابل كذبت ومثلت علي ادوارا لا تعد ولا تحصى ...!

وما ان خرجنا من وحدة البصمة ارسل سرمد لي رسالة فتحتها ما ان ذهبت منال إلى قسمها .. وجدته قد كتب لي (صديقتك الفاتنة ستسبب لي ازمة في السير .. سبحان الخالق لعينها)

لقد نسيت تماما كم ان منال جميلة .. وكم تجذب النظر لها ، نسيت كل زملائي المنقادون لها .. الدكاترة الاختصاص اللذين كانوا يرومون لطلب ودها .. عشرات الطلبات من زملاء من مراحل متقدمة .. الوالدات اللواتي ينذهلن من جمالها الطبيعي في حفلات الاعراس فيتسارعن للتقدم لها .. لقد نسيت كل ذلك ما ان ادركت طبيعتها الحقيقية ...!

ولكن سرمد لم يكن يعرف كل هذا .. لقد رآها بعينيه كم هي فاتنة .. ولا بد وإنها اسرت قلبه مثله مثل العديد من الرجال من قبله .. ولم يعجبني هذا .. لأنني ببساطة لم اعد ارى الجمال الا وسيلة لإيذاء الآخرين .. ومنال طالما كسرت قلوب وحطمتها ببرودتها اللاذعة .. وفار قلبي بنار لم اعلم مداها حتى ارسلت اقول له بتشفي (احذر .. فمنال لا تجبر الخواطر ..) .

اردت ان يفهمها كتحذير لطبيعة منال ولكنه ارسل يقول (فداها روجي .. ماذا قالت عني ؟) .

هذا ليس سرمد .. وقفت في منتصف المركز احرق بالرسالة وقد اعماني غضب لاسع .. سرمد الذي اعرفه لا ينقاد وراء الفتنة .. ولا يتغنى بكلمات غزل معسولة .. ولا ينتظر الود من فتاة ما .. ولكن مهلا .. ومن اين لي ان اعرف هذا الجانب منه ؟ .. لقد كنت دوما افكر بأنه رجل جاف .. فاتر العواطف .. تهمة السياسة .. واز عاج فائن على الدوام .

ارسلت اقول بتصميم (ماذا تظنها ستقول .. تفاجأت لأنك وسيم فقط .. !) .

لا بد وإنه اخذ يضحك لأنه ارسل يقول (كم من السنين التي تكلمت عني بالسوء ؟ .. عليك تصحيح ذلك منذ الآن) .

ارسلت بغيط (لماذا ؟) .

اجابني بعد دقيقة (لأنني قررت ان اعالج اسناني .. وما اجمل ان تصبح هي طبييتي .. هل لديك اعتراض ؟ ..) .

وكننت املك كل الحق بالاعتراض ..لم اجبه لأنني كنت اغلي غضبا..كان
يتعمد استفزازي فذهبت إلى وحدة الاطفال وانا افكر بأن مشاعر الكره
تجاهه لا تزال متفوقة تماما .

الفصل الثاني والثلاثون

تشتت

اسبوع آخر مر على الوتيرة ذاتها .. عدت مرة اخرى إلى وحدة الاطفال .. المكان الذي اشعر فيه بالراحة ، كأنه بيتي الأول .. يذكرني بمجيئي الأول إلى الديوانية وكيف رحبت بي الوحدة واعطتني جرعة معنويات عالية ، لطالما آمن الدكتور عماد بقدراتي في العمل ودعمني بكل صبر وتأيي .. وكان يعتمد علي في العمل بعد أن ادرك اني اتقنت كل شيء على يده ، حتى أخذ يمدح بي امام المسؤولين والادارة .. ولهذا كانت وحدة الاطفال بالنسبة لي الملاذ الآمن .. فلم اخرج منها الا نادرا .. لأنها كانت تقابل وحدة التقويم وكنت اخشى ان تدفعني الصدفة للالتقاء بنبيل وكنت اعرف اننا الاثنين بحاجة للابتعاد عن بعض كي نحاول ان ننسى اننا كنا سوية تربطنا صداقة جميلة وربما كادت ان تتكسر بالزواج لولا الظروف .

كما ان سرمد في نهاية الاسبوع ارسل لنا سيارة خاصة مع سائق موثوق .. واجبرت على اخبار منال بالسبب لأنها رفضت أن تبديل السيارة .. فكان من الافضل لنا ان ننفصل عن نبيل حتى في سيارة الخط .. وذهبت هي لتخبره وحينما عادت سألتها بلهفة مخفية عن رده .. فأخبرتني بأنه لم يقل شيء .. بعدها انتهت كلامها بنعته بثقل الدم وأنا لم اعقب على كلامها .

كن صديقاتي يتناوبن علي اثناء وقت العمل ، فتارة تأتيني منال ومرة تأتيني نرجس وكنت في نهاية الدوام اجبرهن على القدوم الي وقضاء

نهاية الدوام حتى وقت البصمة ..ومن عادة نرجس ان تتركنا بعد الواحدة لترى خطيبها احمد فنبقى انا ومال نتفرج على التلفاز ونتحدث في اشياء بسيطة عابرة ..لم اتجرأ على مفاتها بما عرفت عنها ولكني اصبحت انظر إليها بنظرات مختلفة الآن ..لم تعد هي كاتمة اسراري وكنت احاول جاهدة ان لا اخبر نرجس بما عرفت ولكن أتراها سمعت هي الاخرى من احمد ولم تخبرني ..كنت اخشى ذلك ..وربما هي ستفعل ذلك حفاظا على مشاعري .

في الوحدة كانت تعمل معي فتاة موصلية اسمها ظلال ..كانت مؤدبة ، مثقفة ، ارتحت لطبيعتها الهادئة ، كانت تسكن في الشقة المقابل لشقتنا في الدار مع طبيبات أخريات ..وبعد ان تعرفت عليها عن كثب اخذت ازورها بين الحين والآخر في شقتها وتعرفت على الفتيات الاخريات من ضمنها فتاة تعمل في المستشفى اسمها غفران ..وكانت مهندسة طبية من أهالي ديالى ..كانت خلوقة مهذبة للغاية ..واحبتها على الفور ..وسرعان ما جعلتها تنضم إلى شقتنا في الدار وتآلفت مع البنات بسرعة ..وتغيرت تلك الشقة لتصبح بدل المطبخ مكان خاص لأجراء المكالمات مع الخطاب والأحباب ..وكانت ريهام تروم الذهاب إلى هناك وتتكلم لساعات طوال ثم تعود ..ولكنها ما عادت تبدو مشرقة بعد مكالمتها مع محمد ..كل شيء تغير فيها ..بدت أكثر توتر ..واكثر عصبية ، وقد مرت أيام شعرنا بأن امن الدار قد تهدد ..كل واحدة فينا لديها ظروفها الخاصة والتي تجبرها على ترك مشاكلها والتصرف بطبيعة في الدار ..ولكن أحيانا تفقد الاعصاب بسهولة ..وتدور المشاكل بيننا و يحدث سوء التفاهم بين البنات وكان هذا امر طبيعي نظرا لاختلاف وجهات النظر وطبيعة كل واحدة المختلفة عن الأخرى .

وكان ذلك الاسبوع هو الاكثر توترا بينا فقد قاربت نتائج التدرج الطبي على الظهور وظهرت اشاعات في الأنترنت عن مدى سوء ترتيب المحافظات وبأن بغداد بحد ذاتها اغلقت ابوابها بالاكتفاء الذاتي لأطباء الاسنان ..وبدت الوجوه شاحبة بعد سماعها تلك الأخبار ..وكننا نعلم ان مصيرنا نحن اطباء الدور الثاني سيكون مشابها للدور الاول .

ريهام كانت الأكثر توترا بيننا ..كانت تدور بين اروقة الشقة تروم تنظيفها وبعد ان تنتهي تعود لتنظيفها مرة اخرى ..ثم تذهب إلى الشقة الأخرى وتفعل المثل ..وكننا نراقب تحركاتها بقلق .. اما محمد فقد كان قصة أخرى ..لم يعبأ لتهديدات والدتها ..واستمرت الاتصالات غير ان نرجس ما عادت متفائلة بشأنها ..سألناها في احدى الليالي التي نسهر بها عادة سوية نستغل خلود الفتيات الى النوم ولكنها لم تفصح إلا بالقليل ..أخبرتني ان الامور ليست على ما يرام مع عائلتها وانها اخذت تضغط عليها لإنهاء علاقتها الغير متكافئة مع محمد ، وقد حاولت نرجس الحصول على معلومات من أحمد صديقه المقرب ولكنه اخبرها ان محمد ما عاد نفس الشخص وان علاقته بريهام جعلته اكثر غموضا من ذي قبل .

وعلى الرغم من انعزالي في المركز ولكنهما كانا يمران بي ويسأل محمد عني باعتباره والدي واستمر وده معي بل أصبح يهتم بي وكأني ابنتهما فعلا ..فكانا يدللاني بشراء الطعام والحلويات وفي بعض الاحيان يتخذان من وحدة الاطفال مكانا للجلوس سوية وأكون انا قد وضعت سماعة هاتفي لأستمع الى بعض الاغاني تاركة لهم مجالا كافيا في الحديث وحينما يتشاجران كان يهددها بتدخين علبتين سجائر في اليوم الواحد ..وبأنها كلما زادت في مخاصمتها كلما دخن اكثر ..كان محمد يعرف نقطة ضعفها فنادرا ما تستسلم ولكنه بعد تهديدات مثل هذه

ترضخ على الفور ويتلاشى غضبها فقد كانت تخشى عليه من شرايته بالتدخين وتعذو وديعة معه ..كان ماكرا وهو يهددها بتلك الطريقة ثم يغمز لي بينما اضحك انا بصمت ..كنت اراهما عاشقين مثاليين ولم ار ابعد من ذلك .

وحل يوم الخميس واعلنت نتائج التدرج حيث استطاع كل طبيب الاتصال بالوزارة للاستعلام عن مكان تدرجة قبل صدور الأمر رسمي في كل دائرة صحة ..لم يكن يوما سعيدا كما اذكره ..خاصة لزملائي البغداديين ..فلم يعد اي منهم إلى مدينته ..اجبرت في ذلك اليوم على الخروج من وحدتي والذهاب إلى الحشوات حيث اجتمع الكل ، فقد ارسلت نرجس بطلمي برسالة وهرعت إلى هناك ..وكانت النتائج صادمة ..ريهام وداليا تنسبوا في الناصرية ..اما سوسن والدكتور احمد فاروق في السماوة ..دكتور غسان ودكتور سلام ودكتور انمار وزملاء آخرين تنسبوا في مدينة العمارة ..كانت تلك المدن في زمن النظام السابق تعتبر بالطاردة ولكن بعد ذلك تغيرت القوانين واصبحت تلك المحافظات مكان يستقر به الاطباء نتيجة قلة اعداد الاطباء المتخرجين من تلك المحافظات ..وبأن اي طبيب من الطبيعى ان ينهي تدرجه في سنتين وبعدها ربما لا يستطيع النقل والعودة إلى مدينته إلا بعد الحصول على الموافقات الرسمية وذلك صعب إزاء الظروف القاهرة للمدن .

اما زملائي من الجنوب فقد كانت الاخبار مفرحة فقد ردوا الى مدنهم فالدكتور احمد خطيب نرجس في الديوانية ، ودكتور حارث عاد إلى مدينته في النجف ..زميلي الودود أنور قبل في كربلاء أما نبيل فقد دخل الوحدة مبتسما بهدوء ومبشرا الجميع بأن قبوله ايضا في كربلاء ..رأيت فرحته الخاصة في عينيه واشحت وجهي مبتعدة ..فقد بدا واضحا ان مدينته كانت المراد الاول له ..وإن كل كلامه المتعلق

بالاستقرار في المدينة التي ارغب بها كانت مجرد حديث مجازي لا أكثر .. لقد مر ما يقارب الاسبوعين منذ ان رأينا بعض آخر مرة .. فبقدر ما كنت ابتعد عن التجمعات في المركز بقدر ما كان نبيل معتزلا عن الجميع .. وكنت اعجب بإرادته الصلبة في تحاشي وجودي .. حتى ان نرجس قالت لي مرة لو إن احمد فعلها معها لماتت من قهرها .. فهو لم يتوسل وبقى صامدا .. كان يمتلك كرامة منعه تماما من اعادة الصلات او حتى ترميم ما حصل .. لقد ايقن يومها اني لن اتخلى عن بيت جدي وإن لا فائدة من شروطه تلك فقد حررتني تماما .

كانت الوحدة في تلك الدقائق تعج بالأطباء والذين كانت مشاعرهم مختلفة ما بين الصدمة والفرحة .. ولكن حينما طل محمد من الباب بطوله الفارع والابتسامة تعلو وجهه والبشر يطغي على ملامحه مسكت قلبي في الحال .. كان قلبي معلق بكلمات قليلة .. فقد آن لمصيرهما ان يتحدد ولكن حينما بشر الجميع بفرحة غامرة بأن قبوله تم في النجف التفت انظر إلى ريهام فورا .. كان وجهها شاحبا تماما وعيناها الزاهية بدت ميتة فجأة .. لقد كذب محمد عليها .. أو همها بأنه قدم معها إلى بغداد .. ولكنه لم يفعل شيء من هذا القبيل .. كان الانتماء إلى المدن شعور يفوق مشاعر الحب والوله .. الانتماء إلى العائلة والاقارب والاصدقاء والأرض التي ولد عليها تفوق على كل شيء آخر .. ادركت في تلك اللحظة ان ريهام لم تأبه لنقلها الى الناصرية بقدر ما كانت تحمل قلبها بين يديها على قبول محمد .. وخلال تلك الثواني السريعة لم يرفع بصره نحوها .. تقبل التهاني والتبريكات بكل ترحاب وكأنه نال مراده وما عاد هناك شيء قد يبدد فرحته تلك !..

تفرق الجميع في النهاية .. هناك من ذهب لبشر عائلته وآخرين من تلقوا الأخبار بهدوء وكل يبحث عن مساوئ المدينة التي قبل بها .. كان

الجميع متجه إلى مكان مجهول ما عدا عدد ضئيل منهم من عاد إلى مدينته ..وحينما عدت إلى الحلة مع منال في ذلك اليوم كان الوجود يرتسم علينا ..فعلى الرغم من أننا الوحيدتان من أهالي الحلة ولكن ما كان أحدا ليعرف اين سيكون المصير وقد قرر موعد التقديم بعد شهر من تلك الأيام العصبية .

اتصلت يومها بريهام لأطمئن عليها فحدثتني بصوت خشن ابح وكأنها قضت طريق العودة كله بالبقاء وقبل ان تنهي اتصالنا قالت لي بصوتها الابح بأنها لاتزال حتى الان لا تصدق أن محمد قد قبل بالنجف و اضافت بصوت مجروح متألم : " توته لقد كان سعيدا ..هل رأيت كيف أخذ يضحك ..لم يأبه لي البتة! "

خففت عنها بالحديث أخبرتها بأنه ربما ما كان يفكر بشكل سوي..ولكنها اعترضت : " لقد كذب علي وأخبرني بأنه قدّم إلى بغداد معي ..لقد كنت حمقاء لأصدقه ..!"

كانت ريهام تظن بأن مشاكلها ستحل ما ان يكونوا في محافظة واحدة ..ولكن بما إنهما افترقا الآن في المدن ..بات مصير علاقتهما مجهول تماما ..فكيف سيلتأم شملهما والمدن تأبى ان تجمعهما سوية ؟!

لم تأت ريهام يوم الاحد لأنها كانت مجازة ولكنها لم تحضر الاثنين ايضا وعندما اتصلت بها نرجس في المركز كان جهازها مغلق..انتظرنا حتى وقت العصر ولم يفتح جهازها ايضا ..ساورنا القلق بشأنها امن الممكن ان تكون غاضبة من محمد بحيث اغلقت جهازها تماما ؟..ولكن ماذا عن دواهما ؟ بقينا نتصل بها ولا نحصل على رد بعدها اتصلت نرجس بأحمد وطلبت منه ان يسأل محمد عنها وكان رده كالعادة بأنه لا يعرف عنها شيء هو الآخر .

مضت ثلاثة ايام على غيابها ..تمنينا أن تكون بخير وبأن لا مكروه قد اصاب عائلتها وفي اليوم الرابع حضر شقيقها الاكبر وقدم لها اجازة لمدة شهر ، اردنا معرفة اخبارها ولكنه بدا متحفظا وغاضبا بعض الشيء ..أخبرنا ان ريهام مريضة وتحتاج للراحة ..ولكن لماذا كان جهازها مغلق طوال اليوم ؟! نرجس استنتجت كعادتها بأن الامر يتعلق بمحمد وبدا الامر منطقي كذلك ..فالأخير اختفى لعدة ايام وحينما داوم لم يطرأ عليه تغيير ما عدا انه لم يمر علي في الوحدة ولم يسأل عني ابدا .

وبعد فترة من تلك الاحداث ظهرت الحقيقة حينما استطاعت ريهام الاتصال بنرجس واخبارها بأن عائلتها اكتشفت في يوم نزولها الى الديوانية ان محمد كان ينتظرها في المرآب العمومي وبأنهم منعوها من النزول واجبروها على تقديم الاجازة وقد سحبوا منها الموبايل ايضا .

كل تلك الاخبار التي علمناها لم يؤكد عليها محمد بل التزم الصمت تماما حتى ان ريهام اخبرت نرجس بأنها لا تعرف أخباره فهو لم يحاول التواصل معها قط .

كانت المناقشات تدور في الدار عن ما حصل وجميع البنات اتفقن على رأي واحد وهو مصير علاقة ريهام بمحمد خاسرا تماما ..وكنتم لحزني الشديد معهن في هذا الادراك ..وقد اشارت سوسن في احدى المرات التي كنا نتحدث بها قائلة : " كان الامر واضحا كالشمس حينما قدم للنجف بدل من اي محافظة أخرى ..محمد من البداية لم يكن يرغب بها وإلا لفعل المستحيل لأجل ان يبقى معها .." وكانت محقة نظرا لأن خطيبها احمد فضل السماوة بدلا من مدينته الديوانية من اجل ان يبقى معها وكانا متأكدان تماما ان القبول لن يكون في بغداد .

كل تلك الامور جعلتني اغضب منه ..كنت مثل ريهام ..حمقاء تماما ..اعيش اجواء الرومانسية معهم ، أظن بأن القصص الخيالية من الممكن ان تتحقق ..بأن الفتاة من حقها ان تعشق وتنال محبوبها بأي وسيلة ..ولكن الحب كان محرما علينا تماما ..كنت امر في ذات الموقف مع ريهام ..فماذا فعل بيت جدي حينما علموا بنية نبيل ..اتهموني بأني على علاقة معه ..ونفس الشيء مع ريهام فقد حاربتها عائلتها تماما لأنها اختارت أن تمشي وراء قلبها واغلقت اذنها عن اي اعتراض .

لم تنه ريهام اجازة الشهر كاملة ..غيابها كان لمدة عشرة ايام فقط ، واقنعت عائلتها بأن مدة بقاءها في الديوانية ستطول لو انتهت شهر الاجازة فنحن ملزمون بتعويض كل الاجازات الرسمية وغير الرسمية ..وهكذا عادت إلى الديوانية وبدأت كالميتة ونحن نستقبلها في الدار ..شاحبة ..بعينين غائرتين ..كانت الرجفة تلازمها أكثر الاحيان ، وشرودها المستمر كان يفصح مدى سوء حالتها ..فقد تخلى محمد عنها ..بعد ان نكرها بيت أهلها .

وفي الايام التي داومت فيها لم يلتقيا سوياً ..فقد تهرب محمد من كل لقاء ممكن ..وكان يأخذ اجازات لأيام ..وفي ايام دوامه يقدم اجازات زمنية فيخرج ولا يعود بعدها ابدا ..حاول كل من احمد ونرجس جمعهما سوياً في احدى الوحدات ..وقد رأيت محمد في ذلك اليوم بعد مرور ثلاث اسابيع من الغياب المتواصل والمتقطع ..لم استطع ان القي التحية عليه ..كان قلبي يؤلمني من وجع ريهام وبكاءها الليلي وشجونها التي حرمتها من حياة طبيعية ..كيف استطاع محمد ان يتخلى عنها وهي تحمل له كل الحب في قلبها ..لقد كنت ابكي لبكائها واضحك لفرحها ..وحينما كانت تذكره امامي في الليل كانت تفيض عيونها دمعاً وهي تحلف لي بأن محمد يحبها ..وبأن كل الذي تعيشه هو خصام

محبين لا ينفك وأن يعودان إلى بعضهما ..ثم تعود وتغضب وتقول بأنها حمقاء لأنها صدقته وبأن الحب كان يعميها من رؤيته على حقيقته وكان الاولى ان تستمع لنصائح والدتها ولكنها في نهاية كل ليلة تضع رأسها على الوسادة بقلب موجوع وجسد يرتجف ..

بعد اجتماعهما اخيرا في الوحدة كنا ندور انا ونرجس والآخرين في دائرة من القلق ننتظر من صميمنا ان يسفر اللقاء عن تبشير فرح بعودة العاشقان إلى بعض ..تناسينا كل الامور التي تفرقهما ..فكان الالم من ذلك ان لا يفترقا قليلا ..ولكن بعد ساعة من الانتظار القاتل ..خرج محمد وبقيت ريهام لوحدها ..وحيثما مررت من جانبه لم ارفع وجهي له ولم اسلم عليه ..لأنني ادركت حينها بأنه تخلى عنها فعلا ..وبأن لا شيء قد يجمعهما مرة ثانية .

ريهام بدت شاحبة حينما دخلنا الوحدة إليها ، لم تبك ..لم تشر بشيء عن محمد ..لقد ماتت ريهام العاشقة في ذلك اليوم ..وظهرت أخرى إلى السطح طافية بجسد من دون روح ...!

ما بقي من علاقتهما ذرته الرياح ..فقد وصلت الامور الادارية المتعلقة بالنقل وانهى محمد خدماته في الديوانية عائدا إلى النجف وحينما قدم إلى المركز اخيرا لتوديع الكل عدت الى وحدتي في الاطفال وقفلت الباب علي ..لم استطع وداعه ..كنت مع ريهام ..اندب موتها البطيء .

ومرت الأيام ببطء ..ما عاد الفرح يسكن انفسنا ..فقد حان وقت وداع الأحبة ..فراق ريهام كان الاصعب بالنسبة لي والأمر ..لقد بكيت كثيرا بعد وداعنا ..بكيت لأنني سأفارقها وبكيت لأنها فارقت قلبها وما عادت تبدو مثلما عرفتها ..لم تعد تتكلم كثيرا ولا تتصل ..سفرها إلى الناصرية وبدأ عمل جديد ابعدنا عنا كلياً ..غير انها بعد اشهر جاءتنا في زيارة

سريعة وقد بكينا فرحا لرؤيتها وايضا لأنها بدت منعشة للعينين وقد اعتنت بمظهرها وكأنه الشيء الأهم لديها .لم تأت بسيرة محمد ويبدو إنها بدأت تنساه ولكنها لم تتجراً على الذهاب إلى المركز ..نظرة عيناها التي هربت منها نظرة شوق جعلتني أتمنى لو إن الظروف لم تعاكسها ولكانت الآن من نصيب محمد ..

افنعتني نرجس بمنطقها بأن محمد لم يحبها ابدا وبأنه ربما رآها تناسبه بمظهرها الساحر واهتمامها الكبير به ..وقد اعجب بها لأنها زميلته المقربة ولكن حينما بدأت المشاكل باعتبارهما من طائفتين مختلفتين اعتبر الامر تحدي بالنسبة له ..أراد ضمها إليه وجعلها تغير مذهبها ولم يعر اهتماما لانتمائها لعائلتها وبأن كونها من طائفة أخرى لا يعني شيء في قاموسها ..لقد كانت ريهام ضحية قضية عالقة بين الطرفين ولم تكن تستحق ذلك .

وكان وداعي لداليا مؤلما هو الآخر ..فهي ورغم كل الظروف التي مر بها الآخرين بدت وكأنها الناجية الوحيدة من قصص الحب التي طرقت باب دارنا ..وحسدتها على ذلك ..فهي حين تركت الديوانية لم تتكسر ولم تبك ..كانت مبتسمة فقط ..وقد ظلت صورتها المبتسمة حافزا لدي لكي احافظ على المتبقي من قلبي سليما.

سوسن ايضا تألمت لفراقها ورحيلها مع احمد إلى السماوة وقد بدأت لهما رحلة جديدة ..وحينما تزوجا بعد عام من ذلك كانا يعانيان من قساوة المكان في السماوة في ناحية نائية عن المدينة ..ودار الاطباء الذي يسكنان فيه كان شبه مهدم ..بنوافذ مكسورة وأبواب عالقة..وجدران تأكلت بفعل الرطوبة ..ولكنهما صمدا رغم كل ذلك وبقيتا سوية يجرعان مرارة الغربة .

أحمد خطيب نرجس لم يبق طويلا ايضا ولكنه اختار مدينة في الديوانية
تقرب من المركز بحيث يستطيع المرور ورؤية خطيبته بين الحين
والآخر .. سحر زميلتي من الكلية ايضا رحلت إلى مدينة نائية في
الديوانية وكنا نستمتع لأخبارها وبأنها خطبت لمهندس من أهالي
الديوانية ..وقد دعتنا ليوم زفافها ..ذهبنا نحن المتبقيات من الدار وقد
اردنا تغيير الجو الكئيب الذي مررنا به بوداع البنات ..اما انور فقد
رحل هو الآخر بعد اسبوعين وغادر زملائي البغداديين المقبولين في
العمارة .. غادر الجميع إلا نبيل ..بقي صامدا في وحدة التقويم يعيدها
للمرة الثالثة على التوالي !.

امتلى المركز بأفواج جديدة من اطباء الاسنان الدوريين ..شباب
وشابات أغراب بالنسبة لنا ..فنحن صرنا قدامى ولم ننتبه إلى ان سنة
الاقامة قد جعلتنا اكثر خبرة وأكثر حذرا ..

كان من الصعب علي ان يمتلى الدار بطبيبات شابات جدد ..لا اعرف
عنهن شيء ..يحتوين أسرة صديقاتي المغادرات ويستعملن الدوايب
الخاصة بهن .. يملئن المكان بضحكات سعادة وصادقات واسرار
وقصص حب جديدة ..

كل فتاة جاءتنا كنا نرفض استقبالها في الدار ..ولم نقبل إلا من كان لنا
معرفة سابقة بها ..عاد الدار ليصبح اكثر فوضى وبأصوات أعلى من
اصواتنا وكن الفتيات الجدد يسكن في دار قريبة منا تسمى دار
المتزوجين هي اشبه بكرفان كبير ومقسم إلى غرف صغيرة ..في الدار
استقبلنا وفاء وزهراء وافدتان جدد إلى المكان ..وفاء كانت طبيبة اسنان
من الحلة من أهالي الشوملي اما زهراء فقد كانت طالبة طب مرحلة
اخيرة او بما يعرف (ستاجير) وتداوم في مستشفى الولادة ..

اما الفتيات الاخريات فكن اكثر .. تعرفنا بأوس ، ياسمين ، انفال ،
زينب، غفران ، زهراء من اهالي الحلة ، مريم وزهراء من اهالي
الديوانية ..سرى، رلى، زينب ، مينا ، براثا من اهالي بغداد ..كن مجرد
اسماء بالنسبة لي ..لم اكن اود ان اصادق اي واحدة ..كنت متمسكة
بصديقاتي القدامى ولم ارغب ان يتعلق قلبي ويتشتت بقصص فتيات
جدد.

الفصل الثالث والثلاثون

تسلط

قد يكون القدر من اعتاد دفع نبيل لمقابلتي سابقا .. وكان يهياً لنا اجواء ودودة للتعرف ببعض ، ولكن بعد انفصالنا المر والسريع ما عدنا نلتقي بتاتا .. حتى بعد نهاية الدوام كان نبيل يعتمد التأخر في غرفة التقويم ريثما ننهي البصمة ونخرج عائدين إلى الدار .. ورغم كل ذلك .. كنت اشعر بتيارات الهواء المليئة بوجوده .. كان قلبي ينبض وأنا على الجهة المقابلة له اتساءل عما يفعله هناك ؟ .. مرت اشاعات في المركز تقول بأنه يبقى لأجل الدكتوراة شهد وبأنها سحرته كما تفعل بأكثر الاطباء المقيمين .. واشاعات اخرى تقول بأنه يبقى لأجل الدفعة الجديدة فهو سيعود للبحث عن عروس جديدة بعد ما انتهت علاقتنا .. ومع هذا فهو لم يخرج للقاء احد والزميل الذي يداوم معه في الوحدة كان صامتا مثله .. ولم نستطع حتى التعرف به ومن اي محافظة يكون .

حتى في الدار ما عدنا نلتقي بعد ان كنا نتسامر شبه يوميا اثناء جلبي لوجبات العشاء من المطبخ .. ولأني اصبحت متأكدة من إنه لن يظهر امامي عدت وواظبت على الذهاب هناك مع نرجس او سمية .. كنا ننتهز الفرصة لنستنشق الهواء خارج محيط الدار الذي بات خانقا بغياب البنات وبامتلائه بوجوه غريبة . وعرفنا من علي المسؤول عن المطبخ بأن نبيل قد تخلى عن كونه مسؤول الاعاشة وبأن الامر اوكل لطبيب جديد معنا من اهالي الحلة .

وبمرور الايام كان السؤال الذي يدور بخلدني لماذا لايزال مصرا على الدوام والبقاء في الديوانية في الوقت الذي يجب عليه العودة إلى مدينته والانتهاء من كل ما يمت لي بصلة ..وحتى وإن كان باقيا لأجلي كما يهمس لي ضميري الغائب ..لماذا لم يفعل شيء ويحاول اعادة جزء من الزمالة التي كانت تربطنا معا ..؟..كان نبيل غائبا ولكنه حاضرا في فكري على مر تلك الأيام .

وعلى الرغم من اني لم اخبر احد غير سرمد من بيت جدي عن رفضي لتقدم نبيل ولكن المعاملة تغيرت تماما بعد زيارتي المتكررة لبيت جدي..فقد عدت واصبحت مدللة لديهم وكأني لم أفعل شيء ..او ربما هم علموا بانتهاء الموضوع وعدت واصبحت فائن التي يعرفونها ..الفتاة الهادئة المؤدبة ..ابنة عائلتها ..!

خالتي نجاح اخبرتني بأن سرمد استطاع العودة إلى الجمعية وبأن هويته في المحاماة ردت إليه وأنه عاد إلى قاعات المحاكم وكأن شيء لم يكن ، لم تكن حادثة دخوله للسجن وصمة في سجله القانوني ..مع اني لم ادرك كيف يكون ذلك ..ربما يملك بعض الصلات خاصة وانه استطاع الخروج من السجن دون الانتهاء من المدة الفعلية ..كانت هناك الكثير من الاسرار التي تفصلني عن معرفة هوية سرمد الحقيقية..ومرت بيننا لقاءات عابرة فقد عاد لينشغل بمشاكل الجمعية ولم يسأل عني ..لقد اطمئن بعد ما قام بتهديم جسر الوصل بيني وبين نبيل ولم يعد الاخير يشكل حاجزا ضد تسلطه علي ..وتكررت عزائم بيت جدي لي وعادت العلاقات طيبة معهم ..حتى جدتي لم تعد تسألني عن نبيل ولا خالتي فعلت ..تلاشى ذلك الجزء من حياتي ..وقد اصبحت حرة بنظرهم .

قدمنا للتدرج الطبي في بداية شهر مارس ، وكنت محتارة في ترتيب المحافظات لدي ..لم اكن اعرف اي محافظة اختار بعد الحلة ..كان قلبي يؤلمني حينما دونتها في النهاية واضعة السماوة ما بعد الحلة ..وتلتها مدينة كربلاء لكونها اقرب إلى الحلة ثم النجف بعدها الديوانية ..لم اخبر احد بذلك ولا حتى عائلتي ..لقد كان هذا قراري لوحدي ولم ارغب بأية نصائح تؤثر على قراري ..كنت اتمنى العودة إلى الحلة بالطبع ولكن لو قدر لي ان اذهب لغير محافظة فأنا قطعاً لن ابق في الديوانية .

ظننت اني استرديت حياتي الهادئة بغياب سرمد وصيام نبيل عني..ولكن في احد ايام شهر مارس اتصل بي سرمد وظننته نسي اقتراحه الغبي في القدوم إلى المركز ومعالجة اسنانه على يد صديقتي منال ولكنه لم يكن يمزح قط فقد جاءني بعد الاتصال مباشرة ، اتصل ليتأكد من وجود منال في المركز ولم اخبرها انا بذلك ..لم اشأ ان اجعلها تتباهى باهتمام سرمد بها ..هو لا ينفك وان يسلم عليها عن طريقي ويسأل ان ردت السلام عليه ..لم اخبرها بذلك ايضا ..كنت اتجاهل محاولته الحثيثة في الزحف وراء منال ..ينقصني ان يصبح سرمد آخر ضحاياها !!..

قابلته عند البهو الخارجي ،كان واقفا بكل ثقة يدخل سيجاره فأخبرته ان يطفئ السيجارة فمنال تكره المدخنين ..ضحك وأخبرني بأني ابنة خالة ممتازة لأنني انسق بينهما ..ولم يعرف بأني كنت اشعر بالثقل من زيارته تلك ..القيت نظرة غير راضية على ملابسه ..قميصه البيج مع سرواله الجينز وحذاءه الرياضي الأزرق اللون ..كانت ملابس مرتبة تماما ..انيقة ..ولكنها تجعله يبدو اكثر ثقة ..وتمنيت في تلك اللحظة ان تكسر قلبه منال ..تستحق هذه الهامة ان تصبح مهشمة ببرودة منال اللاذعة.

" ماذا .. هل هناك خطأ في ملابسي ايضا ؟" شملتني نظراته الساخرة فتوقفت عن النظر إليه بانزعاج : " كلا ، انت تبدو ممتازا " .

عدل من ياقة سترته : " هذا لأنني ابدو وسيما .. اعرف .. لقد اعتنيت بمظهري لأجل ست الحسن " .

كدت اضحك .. ولكن قلبي لم يشعر بالضحك .. بل فار بدقات غريبة وتمنيت ان اخبره بأن ست الحسن لن تعبأ به .. وهي ما ان تلاحظ اهتمامه بها ستجعله يندم لأنها ستصلح اسنانه ..

غمز لي ضاحكا : " هيا ابتسمي وقوديني إليها .. اين تعمل ؟ " .

غمغمت قائلة : " في الحشوات .. " .

" هل اخبرتها عني ؟ " .

قدته إلى الداخل : " كلا ، سأخبرها الآن .. سأجعلها تظن بأنني اعمل ولا املك الوقت لمعالجتك " والقيت نظرة فاترة عليه : " لا تحاول حتى ان تظهر لها بأنك مهتم .. " وتدافعت بين الجموع الغفيرة الواقفة عند باب وحدة الحشوات .. همست له وانا افتح الباب : " سأحاول ان اضع اسمك في السجل .. لا تخبر الآخرين بذلك .. " واشرت إلى الوفود الواقفة بنفاذ صبر ..

لا بد وإن منال بعد عدد هائل من المراجعين ستبدو في اسوء حالها .. وستكون نكده المزاج وتعاملها يصبح أكثر صعوبة مع الآخرين .. وسأفترج على المسرحية المذلة التي سيعيشها سرمد !..

كانت منال تعمل اثناء دخولنا الحشوات .. وكانت تبدو رغم تعبها مرتبة تماما .. حجابها معدل .. حركاتها منتظمة .. نصائحها مع المريض

ممتازة . اقتربت منها على مضض بينما انتظر سرمد عند الباب .. همست بأذنها :.. " منوله .. ما رأيك ان تعملي حشوة لبرايفت لي .. " كنا نلقب الاقارب بالمعنى الانكليزي تجنبنا للمشاكل والاحراج .. رمقتني بنظرة قاتلة هي كل ما وددتها .. ولكنها سألتني : " وماذا تفعلين انت .. ؟ " .

اجبتها بأبتسامة بريئة : " انا اعمل .. " واثرت إلى سرمد من ورائي : " انه ابن خالتي سرمد .. لقد مر علي ظانا بأني غير مشغولة " .

كانت منال منهمكة في عملها .. غمغت منزعة : " كان عليك ان تخبريني قبل أن تأتي و.. " ثم توقفت عن عملها وتجمدت في مكانها .. رفعت بصرها نحو الباب وانتبهت للتو على كلامي .. " هل قلت سرمد .. ؟ " .

لا بد وإنه سمعها .. اذ ابتسم لها ملقيا التحية بصوت خافت .. وشعرت بقلبي يغرق حينما تخلت منال عن ادواتها وتحركت بكرسيها لتقف .. لم تكن مرتبكة كما عهدتها .. ولكنها بدت متوترة بعض الشيء .. حينما وقفت بدت لي وكأنها ستترك المريض وتذهب إلى سرمد .. حتى انها ابتسمت وتحركت من مكانها بالفعل ولكنها توجهت نحو الخزانة لتأتي بمادة الحشوة وتعود إلى كرسيها .. وهمست لي قبل ان تضع الكمامة : " انتظريني لدقيقة فقط " .

اومأت لها وذهبت إلى السجل ، لم يكن احد يجلس على المكتب وسعدت لذلك .. تبعني سرمد ليجلس قربي وسألني هامسا : " ابشري .. كيف هو طير الحب .. ؟ " .

اجبته وانا ادون اسمه في السجل : " تعمل .. ولكنها ستوافينا بعد دقيقة .. " ثم نظرت إليه : " ما رأيك ان افحص اسنانك ريثما تنتهي منال عملها .. " . ضحك مستمتعا : " كلا ، اخشى ان تقشل خطتنا .. " وكان لايزال يرمقني بمكر فأشحت وجهي وانا اعترف في داخلي بأني لم احب مزاجه المرح يوما ما .

لم تمض دقيقة حتى ودعت منال مراجعها وارتدت قفاز جديد ودعت سرمد يجلس على الكرسي الخاص بالأسنان وحينما جلس تشاغلت بأنها ترفع ادواتها من صينية كرسي الاسنان المتحركة ولكنها كانت تشير إلي ان اتبعها وحينما ذهبت معها لنقف عند الخزانة قالت لي هامسة : " لماذا لم تعطني خبر .. ؟ " . همست ببعض الحدة فأجبته مستمتعة : " لماذا .. انا اعرف انك مشغولة .. " .

قاطعتني بهمس : " معتوهة .. انظري إلى وجهي .. لا بد وإني ابدو خرقاء الآن ؟ " ثم سألتني ان كانت البودرة لاتزال على وجهها او كحل عينيها لم يسل اثناء العمل .. كانت منال تحاول ان تبدو بصورة جيدة وهذا ما جعلني اغضب بعض الشيء .. ماذا ستظن بسرمد .. ؟ فهو قطعاً لن يتطلع لأمر كهذه ؟ .

دفعتها نحوه وقلت لها ان تفحصه لأن لدي عمل .. ثم خرجت من الحشوات وتوجهت نحو وحدة الاطفال .. كنت مسرعة لم ارغب برؤية أحد .. لقد تأمر علي الأثنان تماماً وما عاد لوجودي منفعة لهما .. ولكني توقفت لأسيطر على انفاسي الغاضبة .. لا مبرر لانزعاجي .. لأنني كنت اعرف بأن الاثنين لن يكونان جادان معا .. هما مختلفان .. كالزيت والماء .. هما ..

قطعت افكاري حينما فتح باب التقويم المقابل لي وخرج نبيل منه.. شعرت بالصدمة تشلني تماما ..لم تكن نر بعضنا اطلاقا على مدى تلك الاسابيع ..لقد حرص نبيل على عدم خروجه من الوحدة حتى وقت انتهاء الدوام ..ولكنه كان يتصل بشخص ما وربما لهذا قرر التوجه إلى البهو الخارجي مارا بي دون ان يلقي علي نظرة واحدة ..كنت لا ازال اقف عند الباب وانا اشعر بألم خفي ينخر جسدي ..في تلك اللحظة فقط من رؤيتي لنبيل ادركت بأنني حمقاء تماما ..وبأن الرجال متشابهين.. مثله مثل محمد الذي غادر من المركز غير مهتما لمصير ريهام ..بعد كل الحب الذي ربطهما ..هرع إلى مدينته تاركا حب حياته تبدو وكأنها اشلاء محطمة ..وها هو نبيل الآن ..الذي لطالما لاحقني واهتم بي ..وكان يرافقتني في كل شيء ..يتدخل في حياتي ويقرر عني..حتى كان معي في كل الوحدات ، يرتب الأمر بحيث نكون معا في ذات الوحدة ..والآن بسبب سوء تفاهم بسيط وقلة ادراك انهى كل شيء بيننا طائفا بي الظنون ثم نساني بالمرّة ..!

كنت حمقاء ..ولازلت حتى الآن اشعر بذلك ..

ولجت إلى وحدتي وانا اشعر بالارتجاف يهزني ..لم استطع ان اعمل..ارسلت لي منال قائلة بأنها ستعمل لسرمد حشوة ولم اجبها..غضبت لان الكون بات يصبح ضدي ..وبأنني لن اخرج من الديوانية إلا بقلب مفطور ..لم افكر قط ماذا سيكون شعوري لو ان نبيل قرر ترك العمل نهائيا ..لو إنه انهى خدماته وعاد إلى كربلاء ..كيف سيكون موفقني لو غادر دون وداعي ..دون ان يبتسم لي ويقول لي كلمة تطيب خاطري ..لم اكن اود ان اصبح مثل ريهام ..لن اغفو بوجع على أمل ان يصلح كل شيء ..لن افعل ذلك ولن اهدر قلبي فداء لنبيل ولغيره..

بقيت في الوحدة تائهة بأفكاري حتى وافنتي نرجس ، جلست إلى جانبي وقالت لي بأنها تشعر بالملل في وحدة صناعة الاسنان وبأنها تتمنى لو إني معها في الوحدة ثم ما لبثت ان شهقت قائلة : " صحيح ..لقد مررت إلى الحشوات قبل قليل ..وتهياً لي بأن منال مشغولة جدا ..!".

اومأت لها بذهن شارد فصفت نرجس بيديها : " ليتك تري الرجل الجالس على الكرسي ..لقد سلب لبها تماما ..".

التفت إليها وقلت بعدم فهم : " أنت تقصدين سرمد ..!".

صاحت غير مصدقة : " سرمد من ؟..لا تقولي إنه ابن خالتك .." وتأوهت غير مصدقة : " لقد شككت إني رأيته من قبل ولكني لم اركز عليه ..بدا هو مفتونا بمنال كليا ..".

شعرت بضربة تهز قلبي ..ان ارى سرمد مفتونا بمنال كان شيء عجيب بالنسبة لي ولكن ان تنتبه نرجس لذلك فهذا يعني ان الامر حقيقي فعلا ..وبأن الاثنين معجبان ببعض .

شعرت بوجهي يحمر ..كنت غاضبة لأن الامر بدا طبيعيا لنرجس وخاصة وهي تتابع بضحكة غامرة : " ليتك تري الملعونة ..لقد طردتني كليا ما ان اقتربت لمساعدتها ..تربية سز ! " وقد اعتادت نرجس على شتمنا بكل تحبب !..

اخذت اقلب في التلفاز وأنا لا ازال اشعر بالغضب يهزني ..كان العالم هو من يصدمني ..الكل قادر على خذلاني في تلك اللحظة ..حتى نرجس ..حتى دقائق قلبي الهائلة بصخب .

وكزنتني نرجس : " اخبرينا ..كيف حصل وأن جلس المارد على الكرسي بوداعة ؟ " .

اجبتها باختصار : " لقد اعجب بها " .

شهقت غير مصدقة : " وهي ؟ ..كم انتن حقيرات ...لماذا لا تخبراني بأسراركما حقا ! " .

قلت بعصبية : " إنها ليست اسرار ..انا متفاجئة مثلك " وقضمت اظافري : " منال ايضا بدت وكأنها معجبة به ..لقد بدت معتوهة بنظري " .

ضحكت نرجس : " الحب يجعلنا نتصرف بحماقة .. " .

اردت ان اصرخ ..انا لم احب ..ولم اتصرف بحماقة ..كنت منيعة تجاه كل المغريات التي قدمها لي نبيل ..وبالتالي اعاني من جرح في كرامتي ..وأبدو كما لو اني حمقاء جالسة في الوحدة اندب حياتي البائسة ..!

لم اقل شيء لنرجس ..ارتأيت أن اصمت وهي انشغلت بجهازها وبعد مرور نصف ساعة قفزت من مكاني واخبرتها بأني سأذهب لأراها ..وحيثما دخلت الوحدة رأيت سرمد يجلس على المكتب فيما منال تقف إلى الجانب منه تبتسم وهي تدون شيء في ورقة ملونة ..استقزنتني ابتسامتها ..اردت التحرك لأقف بينهما واصرخ ..ولكني وقفت بتصلب ..كانا يبدوان في عالم لوحدهما ..العينان اللامعة ..الابتسامة الأخاذة ..وتيارات الانجذاب بينهما كانت تصلني ..وتشعرنني بالاشمئزاز الكلي .

اقتربت منهما وأنا اشعر باتقاد اعصابي ..كانت منال تقول وهي تنهي كتابتها : " عليك ان لا تتناول طعام على هذه الجهة لليوم فقط ..والآن هذا هو موعدك القادم .."وناولته الورقة .

موعد قادم ؟!...!

تنحنحت لأنبهما بوجودي فالتفتت منال وابتسمت لي بافتتان كلي وتمنيت لو إني قادرة على صفعها !.

سألته بتوتر : " هل قلت موعد قادم ..؟..لماذا ..الم تعلمي له حشوة دائمية مباشرة ؟" .

أجابني سرمد مستمتعا : " بل فعلت ..على ما يبدو اسناني تحتاج لمعالجة تامة .." غار قلبي بانزعاج اكبر ..هل ينوي سرمد الالتزام بالمواعيد والقوم كل مرة بحجة رؤيتها ..؟..ليس هناك رجل عاقل يتحمل ابرة التخدير لأجل رؤية امرأة ما ؟!.

تنقلت ببصري بين الاثنين ..لا يزالان واقفان في برجهما العالي..وادركت في تلك اللحظة انهما قد يكونان متشابهان ..ولكنهما لن يرضخا لبعض ..مطلقا ...!.

لوت منال شفيتها : " في هذه الاثناء لو شعرت بانزعاج من الحشوة اخبر فائن بذلك ، سأحجز لك موعد اقرب من ذلك .." .

ما عادت فائن همزة الوصل ..احتقن قلبي بالغضب ، فسرمد لم يزح بوجهه عنها وهي توهج وجهها بشيء من الاحمرار واستأذنت منا لتنادي على مراجع آخر .

تحركت لأقف عند سرمد وقلت له أمرة بصوت عملي وبنبرة حادة :
افتح فمك .. "

لمعت العينان ببريق اعرفه .. كان يحب استفزازي بمرح : " لماذا ؟
هل تودين التأكد من جودة حشوتها ؟ "

تناولت مرآة الفحص من الصينية وأنا اجيبه بصرامة : " كلا ، اود رؤية
بقية اسنانك .. " وقربت المرآة منه .. فأبعدها عنه وتشابكت ايدينا .. هددته
بنظرة قاتلة فضحك قائلا بمرح : " هل تخيفين مراجعيك بهذه
الطريقة .. إنك لن تؤسسي قاعدة شعبية هنا بنظراتك هذه .. " ولكنه فتح
فمه مدعنا .. كان مستمتعا تماما بمظهري كطبيبة اسنان صارمة لا
اراعي كوني ابنة خالته .

فحصت اسنانه وكنت أمره ان يحرك رأسه يمينا ويسارا كي استطيع
الرؤية على ضوء انارة الغرفة .. كنت اتصرف بعفوية تامة على الرغم
من إنه سرمد .. ولم يكن علاء وقيصر .. ولكن وجوده هناك قربي .. في
ذات عالمي .. شعرت بأننا متساويين تماما .. وبأن لا حواجز تفرقنا عن
بعض .. وبأنني انا من المفترض ان اصلح له اسنانه .. انا وليست طبيبة
أخرى .. وليست منال بالطبع .. !

" همم .. ؟ " وهمهم مقاطعا افكاري .. فأخرجت المرآة وقلت له عابسة :
" منال محقة .. تحتاج اسنانك لحشوات " واضفت وانا اعيد المرآة إلى
الصينية : " وايضا تحتاج لتنظيف اسنانك .. السجائر اضررتها
تماما .. لديك تكلسات .. " وعددت بأصابعي : " وتصبغ في
الاسنان .. ضمور في اللثة وهناك بعض الحركة الخفيفة .. الا تشعر
بها ؟ .. "

اجابني وهو يحرك فكه يفحص اسنانه : " أجل .. هل لها مضار ؟ " .

" بالطبع ..ستسقط اسنانك ما لم تعالجها .. " .

ابتسم بفتنة وجعلني اصدق به رغما عني ..كان سرمد عفويا مثلي ..كله وسامة ورجولة ..وحيثما يبدو طبيعيا كالآن فأن مظهره يجلب دغذغات خفيفة إلى قلبي ..

أتراها منال شعرت بكل هذا ..؟ ..

ابعدت تفكيري التافه وانا اسمعه يعلق : " حينها لن تكون لدي فرصة مع ست الحسن .. " فشعرت بالاحمرار يصعد إلى وجهي ..فمنال كانت قريبة منا وخشيت من انها سمعتنا بالرغم من انها كانت تتحدث مع المراجع الجديد ..

" ما هذا لماذا تحمرين خجلا ؟ " .

سرمد لا يفوته شيء ..ارتأيت ان اخرجه من الوحدة قبل ان يتسبب بأحراجي ..كان ينظر إلي مأكرا وشعرت بان احمرار ييزداد : " أتظنين ان لي فرصة معها ..؟ " .

ربما كانت الغرفة مليئة بالضوضاء ولكن اي من زملائي كان سينتبه لكلامه لو ركز معنا ..اجبته بحذر : " أنا اظن ان علينا الخروج من هنا ..ما رأيك أن نذهب إلى وحدة امراض اللثة ..ربما استطيع تنظيف اسنانك لو وجدت عندهم فراغ " .

التفت منال اثناء ذلك ونظرت إلي بحدة فتابععت اقول بتلعثم : " أو ربما احجز لك موعدا في يوما ما ..ما رأيك ؟ .. " لقد قررت منال ان تصبح المعالجة الرسمية له ..وشعرت بأن الاحمرار لن يفارقني تماما ..عاد

الغضب يكتسحني من تصرفاتها .. لقد اعجبت بسرمد كلياً .. وكنت
أخشى ان تفسر اهتمامه بدورها .

انتظرت اجابة سرمد بتوتر شديد .. ولكنه لم يكن ينظر إلي على
الاطلاق .. كانت عيناه تلمع بلهيب مستفز مما جعلني اشعر
بالقشعريرة .. لا احد دخل إلى الوحدة .. اليس كذلك ؟ .. فباب الوحدة كان
مغلق منذ ان ادخلت منال مريضها الآخر .. تتبعت نظراته إلى الجانب
البعيد وقفزت من مكاني مجفلة حينما رأيت نبيل يشغل كرسي الاسنان
الآخر وبأنه يعمل لمريض حشوة ما .. كان الاثنان ينظران لبعض ببرود
كلي .. ولكني لمحت نظرة نبيل الغاضبة وتوتر وجهه على الرغم من ان
يده لم تتوقف عن العمل .. وحينما اشاح بنظره ليرمقني .. اقشعر جسدي
تماماً .. كانت نظراته قاتلة .. حارقة .. بدوت كالمذبذبة في حضرته .. فأنا لم
انتبه .. قطعاً لم انتبه لوجوده اثناء دخولي الوحدة .. بصري كله كان
معلق بسرمد ومنال ولم ار غيرهما هناك .

أترأه سرمد يعرف بوجوده .. ؟ .. ومنال .. لم تخبرني بشيء .. ؟ .. لم لم
تقل لي بأني دخلت ارض محرمة .. بأني عدت واعلنت الحرب بعد ان
خبا نورها تماماً .. التفت انظر إليها ثم إلى سرمد ثم إلى نبيل والذي عاد
يعمل بصمت ولكن بجسد موتور وانفاس غاضبة وحركة يد سريعة ..

لا بد وانه استمع لحوارنا .. وانتبه إلى كل ما فعلت .. وتلك اللحظة الغيبية
حينما تشابكت يدي بسرمد .. أترأه رآها .. ؟ ..

عقد سرمد ذراعيه وبدا مسترخياً في عرين الأسد .. لقد جاءت الفرصة
حتى ينتقم .. وما افضل ان تكون فرصة انتقامه عفوية .. عفوية للغاية

كنت ارتعد في مكاني فارتأيت ان اسحب الكرسي وأجلس .. ولم استطع قول شيء .. كنت من الانفعال بحيث خشيت ان ابكي في تلك اللحظة .. ان اتوسل للقدر ان يعفني من مصادفات جارحة مثل هذه .. ثم تذكرت تلك اللحظة التي التقينا عند باب كل وحدة منا .. ولم ينظر إلي وبدا متشاغلا بمكالمة هاتفية .. ثم مر من جانبي وكأني لا اعن له شيء .. و ما عدت اشكل جزء من افكاره ولا امنياته ولا مخططاته .. تذكرت تلك اللحظة الكريهة واستعدت انفاسي .. انا لن اصبح مثل ريهام .. لن ابتأس .. ولن اتوجع .. نظرت إلى سرمد وادركت بأن سر وجوده هو ردا لكرامتي واعتباري لنفسي .. وبارادة قوية استطعت ان ابتسم له وان اجعله يشح برأسه ناظرا إلي بتساؤل .. رجوته في داخلي ان يفهم .. وان يترك حاليا كل افكاره المتعلقة بمنال .. ويرد لي كرامتي .. حتى وإن لم يكن يعرف بذلك اطلاقا ..

" لم تجبني على سؤالي .. أتحب ان احجز لك موعد ؟ " واعطيت ظهري لنبييل .. فليدرك بأني ما عدت اهتم لأفكاره بشأني . نظر سرمد إلى ساعة يده : " ربما سأحاول القدوم يوم غد .. وإن كانت ست الحسن .. (قالها هامسا بمكر) مشغولة .. فسأسلم امري لك .. " .

ابتسمت اتخيله جالسا على الكرسي وانا انظف اسنانه بالطريقة التي لن تعجبه ابدأ ..

" اراك تنظرين إلي بأجرام .. ماذا تتوين ان تفعلني ؟ " .

لدهشتي استطعت ان اضحك وانا استرخي بعض الشيء : " لديك فكرة خاطئة عني .. عادة انا طيبة ودودة .. " .

كان سرمد بارعا في قراءة افكاري .. ولكنه جعلني اجفل حينما اجابني بلهجة لاذعة : " ودودة مع من .. ؟ .. سأقطع عنق كل مراجع يظنك طبية ودودة ! " .

عدت اضحك غير مصدقة : " احترت معك حقا .. ماذا تودني أن اكون .. صارمة ام ودودة .. ؟ " .

لثانية فقط .. تجمد الهواء بيننا .. نظر إلي سرمد بهدوء كلي .. تمنعني في وجهي .. عيناى .. انفي وفمي .. اختلجت شفتاه بابتسامة نادرة تماما .. هي تلك الابتسامة التي أراها في كل مناسبة تخصني .. شعرت بقلبي يستجب لنظرته تلك .. كانت مألوفة لديه .. بادلته الابتسامة بكل حلاوة متناسية كل من حولي في الغرفة .. فالتسعت ابتسامته ولا يزال ينظر إلي بطريقته الاثيرة .

" كوني وردة فقط .. ! " .

لم يرد لي سرمد كرامتي فقط .. بل ردني إليه .. عدت وأصبحت وردة في عينيه .. دمعت عيناى تأثرا وأطرقت برأسي إلى الاسفل اشعر بالخجل من نظره تلك .. وحينما رفعت بصري بارتباك ومن بين الضباب المغلف لدموعي رأيت نبيل ينهض من مكانه .. نازعا القفازات بطريقة فظة ليرميها في السلة ثم يخرج من الوحدة بخطوات غاضبة نافرة .. تاركا مريضه لوحده .

ضمت يدي إلى بعض ونظرت إلى سرمد بعينين مليئتين بالود : " شكرا .. " .

ربما فهم سبب شكري له ..وربما لم يفهم ..غير إنه مد يده ليضعها على يدي ..يضغط عليها بحزم ثم يربت عليها قائلا لي بلهجة نفذت إلى اعماقي ...:" ستكونين دوما وردتنا ..".

وكان هذا كل ما احتاجه لأكتشف بأني لست وردته فقط ..بل اني الوردة التي لن يستطيع احد قطفها ..الوردة التي زرعها في بستان قلبه المقفر..وكان يسقها الماء حينما يكون متسلطا عليها متحكما بمصيرها !.

الفصل الرابع والثلاثون

غيرة

لم اكن يوما بارعة في قراءة الاشارات ولكني ادرس مشاعر الآخرين لكوني اتأمل في وجوههم بعض الاحيان .. كان ذلك اليوم بداية لأشياء كثيرة في حياتي .. منحني سرمد فرصة ثانية للعيش بعد أن كنت اشعر الخذلان والغضب لأسابيع عديدة .. حينما عدت إلى الدار في ذلك اليوم تواجهنا انا ومنال .. ووضحت لي سبب وجود نبيل في الغرفة .. فهو دخل مع قريب له واستأذن من مسؤول الوحدة ليأخذ احد الكراسي .. وبعد خروجنا انا وسرمد عاد مجددا لينهي عمله .. ثم خرج إلى الدار ولم يعد للمركز .

سألت منال : " الم يحدثك بشيء ..؟ " .

حركت رأسها نافية : " كلا ، كان الامر طبيعي يا فاتن .. عليه ان يراك مع ابن خالتك ليعرف لماذا خسرك دون قتال .. " .

لم يعجبني كلامها : " اذن تعمدت ان لا تخبريني ..؟ " .

هزت كتفها : " أجل .. كانت فرصة امامي لأوضح له .. " .

قاطعتها بشيء من الغضب : " ان الامر يتعلق بي .. لست معنية بتوضيح شيء لأجل شخص يعينني .. " .

ردت بثقة : " لا داع لان تغضبي .. نبيل يستحق الدرس وانت توافقيني الرأي شأت ام ابيت " تركتها غاضبة ولم احدثها بقية اليوم .. وحينما

تكررت زيارة سرمد إلى المركز تولت هي امره بعمل حشوات له..كانت تجد كل فرصة مناسبة لتعمل وتتوسل بي أن اعتذر منه بحجة اني مشغولة ..حتى إنها قامت بالإغارة على وحدة امراض اللثة واستطاعت ان تعمل له جلسة تنظيف ..وكنتم احسده لما يلاق اهتمام مسبغ منها وكان ذلك يسعده ..ولكنه يصيبني بالإحباط

فهو لم يتنازل مرة ويسألني وكأنه لا يعتبرني طبيبة اسنان حتى ..!

ومع هذا فأنا تعمدت ان اكون رفيقة جلساتها ولم افارقهما الا بعد ان تلح علي بنظراتها ..فأنا من المفترض ان اكون مشغولة وغير قادرة على تولي العناية بأسنانه ..ثم اكتشفت صدفة إن منال تعمل له الحشوة بدون ابرة تخدير ..ربما لهذا كان متحمسا للقدوم كل مرة فهو لم يشتك منها ابدا .

وكلما تكررت زيارته كلما بدا اكثر ودا ولطفا معي ..ربما لأنه اراد ان يترك اثرا طيبا لدى منال والتي لا تنفك وان تتغنى بوسامته في الدار ولطفه وتعاونيه معها ثم تنهي حديثها إذ تضربني بإحدى وساداتها لأنني كنت انقل صورة سيئة عنه على مر السنين .

ومنذ ذلك اليوم كان نبيل يرانا بين الحين والآخر ..فهو انتقل من وحدة التقويم وذهب إلى وحدة الحشوات ..لم اكن اتعمد الظهور مع سرمد ومرافقته في مقدمه وذهابه ولكني اشعر بالحماية والأمان معه ..فما عادت نظرات نبيل ترهبني ولا عدت ارتبك لوجوده في الوحدة ..في مرة من المرات اخبرتني منال ان نبيل يستحق ان يعيش كل يوم ليحترق بنار الغيرة ..فأنا كنت طبيعية مع سرمد تماما ..ابتسم واضحك واتحدث ولا أترك ادنى اهتمام للجسد النابض بالغضب ..لنبيل الذي

يعمل ولكنه لا ينفك ان يراقبنا كما ادعت منال وهي تبتسم بشماتة .. ولم
افكر ان النار التي اشعلتها .. قد تحرقني هي الأخرى ...!

وحيثما مرضت منال مرة ولم تستطع المجيء وكان ذلك في يوم موعد
سرمد لانتهاه آخر حشوة فسعدت لأنني اخيرا سأعمل له وتحمست في
ذلك اليوم كثيرا .. لا انكر اني ارتبكت وأنا ابتداءً معه عملي ولكنه بدا
غير مرتاح .. مرة يقاطعني .. ومرة يأمرني أن اتوقف .. ومرة يخبرني
بأنه يود ان يتغرغر بالماء وحيثما طفح الكيل بي سألته بانزعاج : " هل
تفعل ذلك مع منال ..؟ .. إنها لم تشتك منك أبدا .. " .

فكان ان رد علي بغرور : " بالطبع لا .. ان يد ست الحسن خفيفة بعكسك
انت .. " .

كان لا يزال يلقيها بست الحسن .. ربما ليغيظني فقط فهو معها يتصرف
بأدب تماما .

ولأن الرحي كانت عميقة خشيت ان يكون التسوس قد وصل إلى لب
العصب فكنت حذرة في العمل معه ولم انتبه لنبييل الجالس على
المكتب .. لم يكن يعمل ولم يكن يتحدث مع احد من الوافدين الجدد من
الاطباء الدوريين وهذا ما جعلهم فضوليين بشأنه خاصة
الفتيات .. ارتبكت حينما شعرت به ينظر إلي .. مرة واحدة استطعت ان
ارفع بصري فرأيتة جالس على الكرسي الدوار ، مستند بظهره عليه ،
رأسه مرفوع بتحفر .. يده المقبوضة على مساند الكرسي .. وعيناه التي
التقت بعيني واحرقتهما تماما كانت مجوفة .. مخيفة .. نارها اللامعة تشع
غضبا اسود .. ارتبكت واهتزت الأداة بيدي .. وشعرت بقلبي يقفز في
ضلوعي ، ولا بد ان سرمد اللماح انتبه لذلك .. وشعرت به يتشنج
للحظة .. ثم اذا به يخبرني ان اتوقف وحيثما اخرجت الاداة امرني

بوجوم : " فأتن انظري الي .. " فنظرت ..كنت محمرة الوجه ..يدي ترتجف ..كانت نرجس محقة ..فنبيل يجلس في الوحدة ويعمل فقط لأنه يود مشاهدتنا ..لأنه حتى وان كانت الغيرة تحرق قلبه فهو يحتاج لأن يرى مدى التغير الذي طرأ علي ..ان يراني على حقيقتي ..ربما ليساهم ذلك في نسياني ..فكلما رآني مع سرمد ..كلما احترق قلبه بالغيرة ..وكلما التئم جرح قلبه المتيم بي ..

اسبلت نظري نحو سرمد ..واستطعت ان افهم ما يقول ..فهو كرر هامسا بصوت خشن : " انظري إلي .. وإياك ان تنظري للبعيد .. " .

كلماته كانت واضحة ولكني شعرت بالتشوش ..ماذا يقصد ؟.

ازدردت ريقى ..فسرمد على علم تام بوجود نبيل الدائم في الوحدة وكان كعادته يتجاهله ببرود ..حذيت حذوه ..تناولت الاداة وهمست له وانا ادخلها في فمه : " ماذا كنت تقول ..بأن يدي ليست خفيفة مثل منال ؟ " .

لمعت عيناه بأبتسامة فأردفت بحقد : " هذا جزاءى لأنى ارتب لكما المواعيد باستمرار ؟ " ازدادت عيناه مكررا ..وتلقائيا تراجعت دقات قلبي المنفصلة وانهيت الحشوة بسلام .

وحينما قام لينتظرني ريثما اسجل اسمي في السجل ..اصبحت قريبة من نبيل الجالس على المكتب ..كنت احدث نفسي ان لا ارتبك ..ان اكون واثقة من نفسي وانا اضع اسمي في المربع المجاور لأسم سرمد ثم اختمه بختمي ..للحظة اختل تنفسي حينما ادركت الجسد الجالس بتشنج وبأنه كان يكتم انفاسه بدوره ..قاومت النظر إليه ..ثم رفعت بصري نحو سرمد ..كان واقفا بشموخ عند المكتب ..يبدو وكأنه يحتل المكان بحضوره ..ينظر إلي بتصميم بالغ ..شموخ نظراته ملكت

بصري..استمددت منه القوة.. ورباطة الجأش.. وادركت في تلك اللحظة ان سرمد طوق الامان بالنسبة لي.. ابنتمت له بارتباك واستمعت لنصيحته.. فأنا لن انظر إلى نبيل.. ولن انظر الى البعيد.. فقط إليه .

تركت السجل وخرجنا من الوحدة وحينما وقفنا عند باب المركز سألني : " أتظنين ان ست الحسن ستقبل لو دعوتكما للغداء ذات يوم ..؟" .

نظرت إليه بعدم فهم : " أتود ان تعزمننا .. لماذا ،،؟" .

" لماذا برأيك ؟.. اود ان اشكرها على ما قامت به لأجلي .." .

انقدت بالحرارة : " ان هذا عملها .. ولا اعتقد انها ستوافق .." ولو وافقت سأقوم بخنقها .

نظر إلي هازلا : " لا بأس .. كان مجرد اقتراح .." وقبل ان يبتعد اردف يقول : " بالمناسبة .. لقد ابليت حسن في الداخل " .

ولم استطع ان اسأله ان كان يقصد بشأن عملي .. أم تصرفي مع نبيل ؟.

عدت إلى وحدة الحشوات لأنني كنت بديل لمنال وحينما رأيت الكراسي مشغولة وبأن نبيل لا يزال يجلس على المكتب ارتأيت أن اخرج فأنا لم اكن شجاعة لأنفرد معه .. الله وحده يعلم ماذا تراه سيقول لي .

وما ان خرجت حتى سمعت صرير الباب ورائي يفتح .. جفلت حينما خرج نبيل مسرعا .. وما فعل ذلك إلا ليلحق بي .. اهتز قلبي من الغضب المنبعث منه .. بدا وكأنه وصل حد لم يعد قادرا على البقاء صامتا.. اردت التحرك ولكنه اقترب مني قبل ان افعل شيء آخر .. لم

يشح نظراته عني .. كان ينظر إلي وكأنه يود قتلي .. ولو كانت النظرات تقتل .. لقتلتني ..!

ازدردت ريقي وعدت خطوة إلى الوراء حينما سمعت هسيسه الغاضب : " ماذا تودين ان تفعلي ..؟ " .

تلعثمت بارتباك : " ماذا .. ماذا تقصد ..؟ " .

خرجت الكلمات منه بقسوة : " تظنين لا اعلم ما هي لعبتكما .. أنا لم اكن اعمى يوما ما .. " اختنقت انفاسه بغضب : " الا بما يتعلق بك .. " .

" نبيل .. ارجوك .. لا اود أن .. " قاطعني بعنف : " كان الامر واضحا من البداية .. ولكني تمنيت ان اكون مخطئا .. "

عقدت يدي لأوقف ارتجافهما .. كنا واقفان في البهو القريب من الحشوات .. وفي ذلك الوقت من الظهيرة لم يكن احد موجود .. وكنت شاكرة لذلك .. ولكنني خشيت تلك المواجهة المرة .. سمعت نبيل يتابع وصوته يحتقن بالغضب : " منذ ان رأيتك تذهبين اليه بإذعان عبر الشارع أدركت انك اخترته .. ولكني لم اظنك ستأتين به لتتباهي امامي .. " .

قاطعته بارتجاف : " نبيل ارجوك .. انت تفهم الموضوع خطأ ، كل ما في الامر .. " .

قاطعني مرة أخرى وقد احمرت عيناه بالغضب : " كيف تجرأت على اللعب بمشاعري .. " وانخفض صوته وبدا كالمارد امامي : " كيف تظنين من السهل علي ان اراقبكما معا .. تضحكان وتتقاربان .. تجعلاني ابدو اضحوكه .. ذلك الحقيق الذي لطالما حذرتك منه .. "

امتألت عيناى بالدموع ..لم يكن هذا نبيل ..لقد ايقظت الوحش الكاسر
فى داخله ..وما عدت قادرة على السيطرة عليه ..حاولت ان اخذ نفسا
عميقا لأوقفه عن جنونه ..ولكنه بدا وكأنه سينفجر ..قلت له وانا اعود
خطوة إلى الوراء : " انت مخطئ ..إنه معجب بمنال ..".

رد باشمنزاز : " بل هو يستعملها وسيلة لإخضاعك ..ألم تفهمى
بعد..حتى متى على ان اوضح لك مدى استهتاره وسطوته .." وخفت
صوته : " لذي كل المعلومات التي تدينه ..التي تكشف كذبه ودناءة
روحه ..ولكنى لن اخبرك ..أتعرفين لماذا ..؟ " ونظر إلى عيناى
الدامعتين ..والى شحوب وجهى وامتقاعه : " لأنك تستحقين المصير
الذي اخترته بيدىك ..كان على ان اقسو على قلبى منذ البداية ..منذ ان
عرفت صلة القرابة التي تربطكما ..ولكنى املت أن تكونى شجاعة
لتنفضى يدىك من بيت جدك ..منه هو ..".وبدا الالم فى صوته
واضحا..لقد عرى نبيل روحه ..وكنت واقفة اشعر بكل كلمة
يقولها ..بكل سكين يطعنفا فى..

حينما نزلت دمعة خائنة رأيت عيناى النابضة بألم ..واصبح صوته خشنا
من الانفعال : " حتى بعد ان اخترته وذهبت معه كنت آمل أن تعودى لى
بتفسير ما ..اعتذار على حماقة فعلتك ولكنك وجدتها فرصة عظيمة
لتتحررى منى ..كونى صريحة مع نفسك هذه ..علاما تبكين ..الفرصة
جاءتك وانت اغتنتمها .." وخفت صوته وبدا ناضحا بغضب اسود : "
حتى بعد ان اخبرتك بحقيقة منال لازلت تتعاملين معها وكأن شىء لم
يكن ...تأمنين على صديقة تكذب عليك طوال سنين .." واضاف
بخشونة : " انت تحيطين نفسك بالأكاذيب وتصديقينها ..تعرفين حقيقة
كلا منهما ولكن الحب يعميك ..".

"أنا.." وتهدج صوتي..وابتلعت ما قلت..أردت اخباره بأن الموضوع كله بدأ من سوء فهم..حينما اخبرت عائلتي عنه وحينما عرف سرمد..ولكني تذكرت تهديداته..وشعرت بأن روحي تختنق..تمتص كل عذابات نبيل..تكتم على انفاسي ودموعي..خرجت إلى الممر الجانبي وأنا ابكي..لقد كان نبيل محقا في كل كلامه..كنت محاطة بالأكاذيب..ولم اظن ان حياتي كلها اكذوبة مضحكة..

ظننت ان نبيل تركني وذهب..ولكنه كان ورائي..تركني ابكي لدقيقة وحينما استعدت سيطرتي على دموعي..اخرجت منديل ورقي من جيب صدريتي..كنت لا ازال ارتجف واشعر بالسوء من حولي..نظرات نبيل المدانة لي لاتزال تضرب قلبي كسكين حاد..استنشقت من بين دموعي وسمعته يتمم محتقرا:" انت لست سوى امرأة جبانة..أتظنين ان النهاية السعيدة هي ختام لكل افعالك؟..انت مخطئة..من يلعب بالنار تحترق اصابعه.."

استطعت ان اقاطعه:" ان كان رأيك بي متدن..لمماذا كنت تتودد لي..تتهم الآخرين بالكذب ولكنك الكاذب الأكبر.. " واقتربت منه..اصبحت بمواجهته..لقد آن الاوان لأضع حد لكل هذا:" لقد انهيت كل شيء لأنك لم تمنحن الثقة الكافية..وما كان الامر سينجح بيننا..انا افهم الآن " واکملت بانفعال:" انا افهم اني حتى وان رضيت بشروطك سيبقى جزء في داخلي معلق هنا..في الديوانية..الجزء الذي لو انتشلته لمت على الفور.." واخذت نفسا عميقا مشبع بالقهر فيما ظلت اعيننا متشابكة..انا بلوعة وهو بعدم تصديق:" يا الله!! أنت تعترفين أن..انت تحبينه..".

اغمضت عيناى وهزرت رأسى : " كلا ، ..أنا لا انكر ان جذوري
ستبقى هنا ولكن هذا لم يكن السبب في رفضك ..".

عادت عيناى تحترق ..تطلع بي اولا وكأنه يتمنى أن اجيبه بصدق..بعدها
شعرت بأن روحي تختنق حينما قال بلهجة حارة : " بل أنت
تحبينه..تحبين ابن خالتك الشرس ذاك ، لقد راقبتك على مر الايام
تلك..أنت تغارين من منال لأنك تظنين إنه معجب بها ..".

حدقت به بعدم تصديق ..لقد اصبح نبيل يخرف الآن ..صحيح انى كنت
غاضبة من منال ..ولم تصبنى الغيرة ..كلما وددته ان لا تصبح العلاقة
بينهما قوية ..أن لا ..

وضع نبيل يده في جيب صدريته وبدا تنفسه اكثر خشونة من ذي
قبل..وكانه ادرك فعلا ان كلامه صحيح ..فيما امتنعت عن الكلام ..ان
كان يظن انى احب سرمد ..فليظن ..ما دام ذلك سيساعده على تخطي
وجودي ..

" أتعلمين ماذا اتمنى الآن .." ونظر إلي بعينين جريحتين : " اتمنى ان
يكسر اللعين قلبك ، يحطم عنفوانك هذا ..يجعلك تتمنين الموت مرة تلو
الأخرى.. " ثم ابتسم مشمئزاً " شكرا لأنك وضعتني في محلي ..هذا
درس استحقه ..غروري وثقتي بنفسى جعلاني اصدق بأنى قادر على
جذبك لي ..على جعلك زوجة لي .." شعرت بالألم يكتسحني حينما لفظ
كلمة زوجة باحتقار ..: " ما عاد هناك سبب يبقني هنا ..ابقي
أنت..تجذري في هذه المدينة اللعينة كما يحلو لك ..سأنهي الشهر هذا
وأغادر ..".

اسبلت عيناى ..لم اود النظر إليه ..لم ارد ان اصبح ضعيفة ..قسوت على قلبى لأجله ..فهو يستحق فتاة افضل منى ..وأنا ..أنا سأبقى تائهة فى المجهول ..

تحرك لىبتعد ولكنه توقف عند الباب ، التفت إلى لىقول متابعا بكبرياء : " يوما ما ..حينما يتحطم عالمك هذا ..تذكرى إنى كنت مستعدا لأن أهبك كل شيء ..العالم كله لو أردت ..".

بعدها غادر ..ولم أراه فى أى مكان آخر ..

تقهقرت روى لوداعنا المؤلم ..لىس هناك ما يشدنى إلى العالم إلا جذورى التى تأصلت فى الديوانية ..تلك الجذور التى تهددت فى ذلك اليوم بعد ساعات من لقاءى البشع مع نبيل ..اتصلت بى خالتى نجاح لتزف لى الخبر الأكثر بشاعة على الإطلاق ..جدتى الحبيبة كانت تصارع الموت فى تلك الليلة بعد ان اصابتها جلطة دماغية ..هرعت إلى المستشفى دون ان انتظر احد وهناك رأيت افراد بيت جدى هناك مجتمعين فى ردهة الطوارئ ، كانت الوجوه شاحبة ..والقلق مرسوم فى النظرات ..مما جعل قلبى يتوقف عن النبض ..خشيت ان استمع ما سيقولونه لى ..على بعد عدة خطوات رآنى علاء وهرع إلى فهتفت أسأله بقلق : " ماذا حصل ..أين جدتى " .

وصل عندى وأخبرنى بأن أهدئ من روى ..فقد اصيبت جدتنا بجلطة قبل ساعة من ذلك ..كانت خالتى نجاح تبكى وهى تستمع لعلاء بينما خالتى سعاد تبدو وكأنها واقفة كالصنم ..شحوبها وازرقاق شفيتها جعلانى ادرك ان الامر اسوء من ان يكون مجرد جلطة عادية ..

سألت علاء بلهفة : " هل هى بخير ..هل نستطيع رؤيتها ؟..".

عانقت خالتي نجاح التي همست لي ودموعها تجري : " يا حبيبتي.. جدتك في غيبوبة الآن .. لقد ارتفع ضغطها منذ يومين ولم يهبط بالرغم من أننا اسعفناها مرتين للطوارئ .. "

نظرت إليهم .. وسألت قيصر الواقف قرب والدته : " اين سرمد اذن .. لقد كان عندي صباحا .. لماذا لم يخبرني ؟ .. "

أجابتنى خالتي : " إنه يتحدث مع الطبيب الآن .. " وضغطت على يدي فأدركت حينها لماذا قاموا بالاتصال بي .. إنهم يظنون ان جدتي لن تستيقظ من الغيبوبة .. وإن الأمر حتمي تماما .

تركتهم لأبحث عن سرمد فرأيتة عند طبيب الطوارئ .. كان يتحدث معه وفي يده ملفات وبعض صور الاشعة وحينما انتبه لوجودي .. وضع الملفات جانبا وسألني : " فائن ها قد اتيت .. دكتور هشام هذه ابنة خالتي دكتورة فائن طيبة أسنان .. " .

كنت اشعر بالارتجاف يهزني وانا اومئ للطبيب مرحبة به بينما تناول الطبيب الملفات من المكتب وقال لي بعد ان حيان بلطف : " دكتورة فائن اخبرت ابن خالتك بأن حالة الحاجة اصبحت رهينة للوقت .. التقارير الطبية تقول بأن الورم منتشر منذ زمن في الدماغ و .. "

قاطعته برعب : " ورم ؟ .. ! " .

أجفل الطبيب ونظر إلى سرمد الذي اومأ له .. ومن دون وعي مني وجدت نفسي امسك بمرفق سرمد .. كنت اعرف بأن الذي سأسمعه لن يكن سارا ابدا .. ولن يكن هينا علي الظن بأن جدتي التي ترقد في الغيبوبة الآن مصابة بورم دماغي مميت .

" انا ادرك ان الموضوع صعب عليكما .. ولكن التقارير هذه منذ ثلاث أشهر .. والحاجة كانت تأخذ علاجها الكيميائي دون علم منها .. لقد اجرينا فحوص اخرى الآن وعلينا ان ننتظر حتى الغد لفحصها بجهاز الرنين .. ضغطها حاليا مرتفع .. ولكن لو هبط بقدرة الله ربما ستستيقظ من الغيبوبة .. "

تناولت الملفات منه .. كلها كانت تقارير وأشعة .. منها تقرير السونار الذي قرأته بصمت حينما استأذن الطبيب ليكمل عمله في الطوارئ .. كان الورم في الفص الايسر من الدماغ وبحجم ٤ سم .. كان ورم خبيث .. قرأت الكلمة وشعرت بدموعي تنزل لوحدها .. رفعت بصري لسرمد الذي كان وجهه مكتئبا .. ينظر إلي .. عالما بما يدور في ذهني...: " هل البقية يعلمون .. ؟ "

اوما لي فسألته بصدمة : " لماذا لم يخبرني أحدهم ..؟ لماذا اخفيتم الامر عني .. ؟ " .

تناول سرمد التقارير مني وأجابني بهدوء : " كان ذلك افضل .. جدتي احتاجت لترى شخص يعاملها بصدق دون ان ينهار لكونها تعيش ايامها الأخيرة .. ارتأينا ان لا نخبرك لأنك لن تستطيعي التمثيل امامها " .

كان كلامه قاس علي ولكني مسحت دموعي وقلت بقوة : " ولكن من حقي ان اعرف .. لا بد وانها فكرتك اليس كذلك .. ؟ " .

اوما بعد ثوان من الصمت .. فتمنيت لو اني استطيع ضربه .. " لقد حرمتني من وداعها .. كيف تجرؤ .. لو كنت أعلم انها مريضة لبقيت جنبها ليل نهار .. " .

قاطعني وهو يضم الملفات بحدة في كيس اسود : " حسنا هذا كان خيارك منذ البداية .. أنسيت .. انت اخترت منزلا آخر ا غير بيت جدك و عليك ان تتحملي النتائج .. " .

شهقت غير مصدقة ...: " هل ستبق تحملني اللوم لأنني اردت الاستقلال بحياتي .. " .

امرني بصرامة : " اخفضي صوتك .. نحن لازلنا في المستشفى .. " .

التقت عينانا .. كان سرمد يتحكم في حياتي وكنت عاجزة تماما عن ردعه .. احتقن وجهي بدماء الغضب .. اردت ان افجر فيه كل النعوت التي يستحقها .. ولكني شعرت بقلبي يدوي بعنف .. وبأن طاقتي على التحمل تتلاشى شيئا فشيء .. اردت الاختباء عن العالم .. عن الاشخاص الذين لطالما وضعت ثقتي بهم .. ولكنهم يخذلوني .. ولا يحترمون روحي وكبريائي ..

تركته خارجة دون التفوه بشيء .. طالعني سلم امام غرفة الطوارئ فنزلت مسرعة وأنا لا ادرك اين سيقودني .. تمنيت الهروب والاختفاء .. فلو غادرت جدتي الحياة .. ماذا سيبقى لي في الديوانية .. وكأن لعنة نبيل حلت علي .. وكأن ما فعلته به اليوم هبط ليحقق له مبتغاه .. كان السلم يفضي إلى المخازن وغرف مهجورة أخرى .. وحينما تأكدت خلو المكان جلست على الدرجات الأخيرة .. حضنت حقيبتني وشعرت بهزة البكاء تأخذني حيثما شاءت .. اخذت ابكي بصمت لدقائق معدودة .. اتخيل فيها وجه جدتي المليح .. وابتسامتها العذبة .. روحها الماكرة وقدرتها على فك كل الغازنا .. كان سرمد محقا .. لقد كان ذلك اختياري .. ووضعت من عمري معها اياما طويلة ..

بعد مرور الوقت شعرت بأني لم اعد وحيدة ..وبأن الجسد الذي نزل بصمت ليجلس إلى جانبي لم يكن سوى سرمد ..افسحت له المجال فيما كانت يده تعصر الملفات سوية ..فأمرها لم يعد مهما ..الحقيقة كانت واضحة ..وعلينا تصديقها واستيعابها مهما كانت .

" عليك ان تتماسكي يا وردة ..الحياة هكذا ..لا شيء يبق على حاله .." ونظر الي من الجانب فيما كففت دموعي : " حتى نحن ..إننا نتغير على الدوام ..مثل الآن .." وابتسم متابعاً : " تغيرت واصبحت في غاية السوء وبعيدة تماماً عن الطيبة الفاتنة التي عالجتني صباح اليوم .." .

لا بد وإن يقصد الكحل الذي سال ووجهي المغرق بالدموع ..ابتسمت قليلاً فتابع يقول بصوت رفيق غريب على مسامعي تماماً : " ان كان سيجعلك تشعرين بتحسن فأنا اقدم اعتذاري ..أنا لا املك الحق لأمنعك من وداع جدتنا .." .

ذكرته بألم : " ولكنك فعلت .." .

اوماً لي وبدا عليه الكدر ..وشعرت بشيء يتحرك في داخلي ..إطالما رأيت سرمد رجل قوي ..صلابته لا تنهز في الازمات ..ولكن الآن كان رجل يواجه الموت ..فبدا طبيعياً بالنسبة لي ..الرجل الأكثر حيوية على الإطلاق .

التفت ينظر نحوي وتشابكت نظراتنا سألني بعد لحظة : " هل ستكونين بخير ..؟" .

اوأمأت له ..وشعرت بأن الكون يصمت على اثر نظراته تلك المليئة بالرضا ..كان سرمد مصدر قوتي ..غضبي وانفعالي منه ..كرهي الشديد لتسلطه كانا بدلاً من ان يدفعاني بعيدة عنه ..يقرباني الف خطوة

منه ..وكنت في تلك اللحظة قريبة منه ..روحيا ..وفكريا ..كنا جالسان في فضاء لوحدها ..كان يفهمني وأفهمه من نظرات العيون ..وحيثما مد لي يده ليعلنني انهض ..تشابكت يدي به وكأن الامر طبيعي بيننا ..وكاننا كنا على مر الأيام ..نتشابك بمصير خاص يلفنا معا ..وحيثما صعدت السلم معه لم اتخل عن يده ..كنت بخير اجل ..ولكني لازلت احتاج لمصدر القوة التي يبثني إياه ..كان سرمد قوتي ..والجزء الأكبر من جذوري الممتدة في تلك المدينة ..وكل درجة نصعدها سوية ..: كلما كان قلبي يهمس بحقيقة كانت مخبئة في طيات بعيدة ..لقد كان نبيل محقا كما هو على الدوام ..كنت احب سرمد حقا ..هذا الرجل الذي لطالما كان شوكة في خاصرتي ..كنت احبه ..ومن الصعب ان اكتشف ذلك في اليوم الذي حام به ملاك الموت حولنا .

الفصل الخامس والثلاثون

معجزة

مرت أيام طويلة ونحن في المستشفى نتناوب على البقاء مع جدتي التي استيقظت من غيبوبتها ولكنها بدت متعبة .. لا تتحدث كثيرا .. حركتها ، وئيدة ، شلت ساقها من اثر الجلطة ، وكان الورم يضعف ذاكرتها ، تقلص جسدها من اثر المرض وبدت أكبر من سنوات عمرها بكثير ، جاءت والدتي في اليوم التالي لتبقى معنا وانتقلت انا بدوري إلى بيت جدي ، فكنت اساعد خالتي في البيت وحتى وقت خروج جدتي من المستشفى لم نذق طعم الراحة والنوم ، بدا البيت كئيبا بغياب الفرح فيه .. ارتأينا ان لا نخبر والدتي بالأمر .. فالحزن كان يسيطر عليها ولم تتوقف عن البكاء حتى بعد رؤيتها لجدتي .

تواجدي المتواصل في بيت جدي كان يدفعني باستمرار لمحاربة مشاعري المكتشفة .. فلم يكن من الملائم ان اشعر بالحياة تنبض في داخلي ونحن نمر بظروف صعبة .. المشاعر التي كانت تطاردني كل تلك السنين لم تكن سوى تمهيدا لما اشعر في الوقت الحالي .. الارتباك والانزعاج والكره .. التوتر والانفعال وكتمان الأنفاس كلها ليست غريبة علي في حضرة سرمد .. إلا إنها أصبحت اقوى بألاف المرات .. ولم اكن بدوري ممثلة ناجحة كما ادعاني مرة .. كنت سأفتضح لو اطلت حديثي معه لأكثر من عشر دقائق .. ولهذا بالرغم من اننا نتقابل كل يوم ونبيت في نفس المنزل فأنا احاول تحاشي اللقاء به .. غير إنه يتواصل معي بشأن ادوية جدتي والمواظبة على اعطائها العلاج اللازم .. وقياس ضغطها .. بينما اهتمت خالاتي بشأن جلوسها وحركتها وملبسها .. وبعد

اسبوعين حينما استطاعت التحدث بصعوبة كدنا نبكي فرحا ..كانت معجزة بالنسبة لنا حينما اخذت تتهمنا بأننا اهلناها خلال المدة الماضية.. اتهامها ذاك افرحنا فهذا يعني بأن صحتها اخذت تعود بالتدريج لها ..وإن تقريعها المستمر لنا يدل على استعادة سيطرتها الماضية ..فهي بالكاد كانت تتكلم في الايام الماضية ..وبالكاد تركز لما نقول ..حتى طعامها تتناوله بدون استيعاب ..وشيء فشيء ردت الحياة لها ..وردت الروح الى غرفتها ..فلم افارقها قط حتى إني فرشت الارض ونمت قربها ..

وما ان زففت الخبر لصديقتي في الدار حتى جنن اربعتهن منال ، نرجس ، سمية وهند واستقبلتهن خالتي نجاح في غرفة الاستقبال ولما علم قيصر بوجودهن توسل إلي أن افتح باب غرفة الاستقبال الاخرى فهو اراد رؤيتهن ..زجرته ضاحكة واخبرته بأنهن الاربع شبه مخطوبات ..وحينما كنت احضر العصير لهن مر بي سرمد إلى المطبخ وسألني غامزا وهو يفتح زجاجة عصير : " هل ست الحسن معهن ..؟".

كنت انزعج حينما نجتمع في المطبخ فالمكان ضيق وسرمد يملئ الاجواء بتيارات من التوتر بت ألفها وانفر منها ..وده معي لم يقل..ولكني اتضايق من الحوار معه ..واصبحت عصبية وخاصة تلك اللحظة ..فهو لم ينس منال قط .

حينما اعلمته بوجودها اشرقت اساريره ..وشعرت بأي اكره منال حقا..فهو لم يبتسم بعمره لي بتلك الطريقة ..اقترب مني وهو يضع الزجاجة بعد ان انهاها ..كان لا يبعد سوى انشأت معدودة وقال لي بصوته المليء بالجابية : " أخبريها إني اسأل عنها باستمرار ..أتراها تفعل بالمثل ؟".

لم ينتظر اجابتي ..والحمد لله ..اطلقت انفاسي المكتومة وخرجت من المطبخ من بعده ..قدمت العصير للبنات وجلست معهن وحينما تأكدت خلو المكان من اولاد خالتي قدتهم نحو غرفة جدتي ..جلسن حولها ..قبلنها ..تمنين لها بالشفاء العاجل ..وخطفت جدتي قلبي حينما توردت وجنتها وهي تقول لهن : " كم انتن جميلات مهذبات ..إن فاتن تتحدث عنكن بالطيب دوما ..".

تأثرت كثيرا ..فأنا لطالما اصررت على البقاء في الدار مفضلة صديقاتي على اي شيء آخر سررت لأن جدتي وخالتي اعجبوا بهن وعاملوهن بكل ترحاب ورقة ..وحينما عدنا إلى غرفة الاستقبال قالت لي نرجس : " لو إن هذه جدتي لما فارقتها قط .." فقد كانت جدتي مليحة المعالم ..ودودة مع الآخرين ..حازمة معنا فقط ..ولكن الجميع يقع في غرامها منذ اللحظة الأولى ..

لم يبقين طويلا بالرغم من كل توسلاتي لهن في البقاء معنا للعشاء ولكنهن اعتذرن ..وكنتم احب سماع آخر اخبارهن ..فأنا اعلم ان نرجس تحضر لعرسها والذي لم يبقى عليه سوى اسابيع ..وهند كانت تمر بفترة انتقالية بعد خطوبتها لطبيب يدرس الدكتوراه في محافظة البصرة ، كان من اهالي بغداد ..وحينما سألتها عن قصتها مع الطبيب الذي كان يداوم معها في المركز ..خفضت رأسها واحتقنت بشرتها العاجية بالدماء وتكررت عيناها ..بدا ان القصة تلك لم تنجح وأخبرتني نرجس في وقت لاحق بأن الطبيب لم يكن جريئاً بما فيه الكفاية للتقدم لها ..فقد تعلل بكونه الابن الوحيد لعائلته اليتيمة الاب وإنه لا ينوي الزواج مكرسا نفسا لخدمة عائلته واعالتها ماديا ومعنويا ..

سمية لا زالت على حالها .. غير إنها ازدادت تمسكا بإيمانها .. وازدادت رغبته في انجاب الأطفال .. وربما كانت تمر بفكرة راكدة خالية من المشاكل مع عائلة زوجها .. فقد تركوها لسبيلها بعد ان ايقنوا ان زوجها لن يتخل عنها .. ولن يتزوج غيرها وأخبرتني يومها بأنها تتحضر للذهاب إلى مؤتمر اربيل لطب الاسنان بعد اسبوع مع زوجها .. وسررت لذلك فربما تغيير الاجواء ستساعدهما على حلول مشاكلهما وإكمال مسيرة حياتهما حتى وإن لم يرزقهما الله بالابناء .

أما منال بجلستها الواثقة من نفسها اخذت تتأمل المكان بكل برود كما إنها اثناء عودتنا من غرفة جدتي وقفت لثواني تتطلع إلى غرفة الجلوس ثم مدت بصرها إلى السلم وسألتني عن بقية الغرف فأجبته وأنا لا اعرف سبب استفسارها : " هناك غرفة لخالتي مقابل غرفة جدتي " ثم اشرت إلى الاعلى : " وغرف الشباب فوق " .

فرفعت حاجبها ولم تقل شيء .

مع ذلك كنت غير مرتاحة من وجودها هناك فهي تصنعت المجاملات مع خالتي وبرزت بين البنات بلباقتها المعهودة ، وتولت هي مجمل الكلام حتى حينما رأيته جدتي .. لم تتوقف عن ابراز وجودها ولو لم تكن صديقتي وأعرفها جيدا لقلت بأنها تحاول اثبات شيء ما .

وبما إنهن رفضن البقاء للعشاء اصرت خالتي سعاد ان يقوم احد ابناءها بإيصالهن إلى الدار ورأيت من طرف عيني كم إن خالتي سعاد تأملت منال باعتبارها العزباء الوحيدة بينهن فهي سألتهن عن حالتهن الاجتماعية كعادة الأمهات .. وحينما عرفن إن منال عزباء تماما تبادلت خالتي نجاح وسعاد النظرات مع بعض .. ولا اعرف لماذا اعتصر قلبي اثناء ذلك وانزعجت لكونهن قد يجدنها عروس مناسبة لأحد الشباب .

وبما إن سرمد كان موجود في تلك الليلة فقد عرض علي ان يوصلهن
وحيثما امتعت واصررت على الذهاب معهن قال لي بحزم: " بل
ستبقين هنا .. كما إن السيارة لن تكفينا نحن الستة ..! "

كان محقا ولكن فكرة ان ينفرد بمنال والتي لا بد وإنها ستجلس جنبه
تجعلني اشعر بالدوار .. فلا ادري كيف سيكون التقارب بينهما وبماذا
سيحدثان سوية .. ودعتهم مرغمة عند الباب وحيثما رأيت منال تصعد
إلى جانبه بكل ثقة عضضت شفتي قهرا .. فقد بدا سرمد من نافذة
السيارة كله رجولة وبأنه سرعان ما سيخطف انظار البنات وأولهن
منال .. راقبتهم بحسرة وعدت إلى الداخل وانا امتلئ بالغضب .. وظننت
ان الامر سيكتفي إلى هذا الحد ولكن لدى اقترابي من باب المطبخ
سمعت خالتي سعاد تقول لخالتي نجاح: " والله ما شاء الله على
جمالها .. انا اظن بأنها هي التي عملت له اسنانه .. يا زين ما اختار ..! "

مادت الأرض من حولي .. تمسكت بالباب الحديدي وانا استمع لرد
خالتي نجاح: " علينا ان لا نستبق الأمر سعاد .. ربما الفتاة لن ترضى
بشهادته .. "

ندت صيحة استهزاء من خالتي: " بشهادة من .. سرمد؟! .. إنه محامي
بطوله وعرضه ولديه كل الصفات التي تجذب بنات العراق كلهن له .. "
ثم تابعت تقول: " كما إنها تبدو تملك شخصية واثقة .. أما رأيت
لباقتها .. أنا اقول انها ستكون مناسبة له تماما .. "

لم استطع ان اتنفس حتى ولا استطعت ان اتحدث لأنبهما عن
وجودي .. شعرت بشيء يختض في داخلي ، تسارعت انفاسي بصدمة
فهرعت إلى الباب المؤدي إلى غرفة الاستقبال وتهالكت على الكنبه وأنا
اتنفس لهيب محترق .

لا يمكن ان يحصل ذلك ..كانت صفة بالنسبة لي ..أن يجدن خالاتي في منال ما لم يجدنه في أنا ..أن يعتبرن منال هي المناسبة والمرشحة الأولى لسرمد ناسين إنني لا ينقصني شيء لأكون انا الأولى في بالهن ..أنا ابنة شقيقتهن ..أنا التي تربيت على أكفهن ..أنا من ناضلت كثيرا لأحافظ على نفسي ..لأختار بيت جدي فوق كل شيء ..أنا الطائفة لأوامرهن ..المهتمة لتفاصيل كل واحد من ابناء خالتي ..أنا المفضلة لجدي وحبوبة قلبها وحفيدتها الوحيدة ..كيف من الممكن ان يخترن عروس لسرمد دون ان يفكرن حتى بمشاعري أنا ..يخطبن صديقتي دون أن يهتمن بكرامتي واعتباري لنفسي ..!!؟.

كان علي أن استرد قوتي من جديد وأن امثل بأن الامر لا يعنيني ألبته ..في تلك الليلة لم انجو من تحقيقات خالتي بشأن منال ..سألتني عن عائلتها وعن كل التفاصيل التي ترومها الام لكي تخطب لأبنها ..كنت اشعر بالغثيان وانا اجيبها ..كرهي الجديد لمنال لم يستطع ان يدفعني لأخبارها بحقيقة انفصال والديها ..اخبرتها كما كانت منال تكذب علي بأن والدها تاجر وهو يسافر باستمرار وإن والدتها موظفة في دائرة الاتصالات القديمة في الحلة . كرامتي منعني من سؤالها عن سبب تحقيقاتها وتشاغلتي بتحضير العشاء فقط كي لا افكر بقلبي المفطور وكرامتي الجريئة ..ثم عاد سرمد متأخرا تلك الليلة ، كتمت انفاسي وانا استمع للباب الخارجي يفتح وبأن صرير الباب المألوف له وهو يفتحها كان دوما يشل يدي عن الحركة ..وتتسارع دقات قلبي ما إن يدخل ..كنت احاول السيطرة على مشاعري المهزومة وتمنيت ان يكون وجهي من الجمود بحيث لا ينتبه لشيء آخر ..

ما إن رأيته ارتب المطبخ حتى قال لي إنه يحتاج لكوبا من الشاي ثم صعد إلى غرفته دون ان يتطلع إلي حتى ..عضضت شفتي وأنا احاول

مكابدة المي .. فلست بذلك الضعف بحيث الجأ للدموع فقط لأنه لم ينظر إلى وجهي ..!

صعدت إليه بالشاي وحضرت معه صحن من الفطائر لكونه لم يتناول عشاءه .. حينما رأيت غرفته والباب المغلق تذكرت المرتين التي دخلت بهما الغرفة وأدخلني سرمد إلى عالم اسراره .. وكنت من التوتر بحيث إنني لم اهتم لسلامته .. فكلما دار بخدي إنه شخص اناني .. غير مسؤول .. لا يهتم بسلامتنا على الاطلاق ..

طرقت الباب ودخلت بعد أن أذن لي .. كان قد غير ملابسه واستراح على سريره يدخلن سيجارة وفي يده كان يدون بعض الاشياء في المفكرة ، بدا مشغول البال وهذا كل ما احتاجه لأصاب بخيبة أمل .. وضعت الصينية على الطاولة وتنحنت لأنبهه بوجودي .. فلم يرفع بصره .. بدا متشاعلا في الكتابة وربما كان يكتب مقالة ما .. فقد رفع رأسه للحظة .. القى علي نظرة سريعة ثم عاد إلى كتابته وقال بعد دقيقة : " احسنت وردة .. هاتي الشاي لي .. " .

اوامره لم تكن محببة لي من قبل ولكن الآن .. وبعد أن اكتشفت إنني احب هذا الرجل العنيد وددت لو أخدمه طوال العمر .. وضعت الصينية على السرير وقلت له بهدوء : " حضرت لك بعض الفطائر .. " .

فشكرني مبتسما : " لماذا استحق هذا الدلال منك .. وكنت اظنك تنتظريني بأعصاب محروقة ..! " .

" لماذا ..؟ " وكتمت انفاسي حينما اتسعت ابتسامته : " لأنني اوصلت صديقاتك للدار من دونك .. " .

ازدردت ريقى : " كان من الممكن ان اجلس أنا في الأمام ..إن سيارة علاء تكفيننا ..".

اخذ يدور المعلقة في كأس الشاي : " أوف ..أوف كم انت قاسية الفؤاد..أحرميني من رفقة ست الحسن !".

" كانت هذه غايته اليس كذلك ..لأنك أردت ان تجلس منال جنبك ..".

فضحك وهو يتناول الفطيرة مع الشاي ..وشعرت بأن قلبي يذوب من وسامته ..كنت غاضبة أجل ..ولكن قلبي العنيد كان يرقص طربا لوجودنا سوياً .

" ويا لها من جلسة شاعرية ..لم تنطق ست الحسن بشيء ..تحدثت معي..همم ..ما اسمها ..سمية ؟".

اومأت له واصابني الفضول : " ماذا قالت لك ؟".

تبسم ضاحكا : " لن يعجبك الامر ..".

" اخبرني " اخذت دقات قلبي تقفز.

" حسنا لنرى ..قالت بأنها اعتادت على الديوانية وبأنها مدينة هادئة..همم وماذا قالت بعد ..؟" ارتشف الشاي متذكرا : " قالت إنهن يفتقدن وجودك في الدار .." ونظر إلي من طرف عينه " وبأنك تحدثين فرق بوجودك ..وإنهن ينتظرن عودتك بفارغ الصبر .." ثم توقف لينظر نحوي بتركيز : " أتراك حرضتيهن علي ..؟ ".

" لماذا ؟".

" لأنهن يظن بأنني احبسك في بيت جدك ..من همساتهن وترددهن في الحديث .." ثم ترك الشاي في الصينية : " وردة .. هل تودين العودة إلى هناك ؟".

ازدردت ريفي .. انا باقية في بيت جدي منذ ثلاث اسابيع .. هي مدة طويلة عليهن فالأشهر التي ستجمعنا سوية قلت تدريجيا .. او مأت لسرمد بصدق .. وهذا لأنه حدثني بغاية الرقة .

رأيت عيناه تتقلص بتركيز : " هل مللت هنا .. ؟".

" كلا ، أنا فقط اشتقت لهن ..".

عاد يتناول الفطيرة : " وإن غادرت .. ألا تظنين إننا لن نشتاك لك .. ؟".

تمنيت ان لا يحمر وجهي .. قال جماعة .. ولم يخص احد بالحديث : " أنا اتمنى البقاء هنا لأنني اعرف ان جدتي بحاجة لي .. بحاجة لنا جميعا .. ولكن في الوقت ذاته اتمنى العودة إلى الدار " .

تهكم قائلا : " أنت ترينهن في الدوام كل يوم ..".

حركت رأسي مجيبة وتهذلت خصلات شعري .. للحظة تطلع إلى شعري بتركيز مما جعلني احمر تماما .. فانتبهت كم ان جلستنا بدت طبيعية وحميمة .. كنت جالسة على سريره باسترخاء تام وهو يتناول الشاي والفطائر بكل عفوية .. كان سرمد يملك قلبي حينما يتصرف بتلك العفوية .. فهو يجعلني ابدو مثله وأكون على سجيته معي .. و فقط حينما انتبه لما افعله حينها ادرك بأن قلبي الخائن من قادني إلى تلك التصرفات الخرقاء الغير مسؤولة .

سألته لأخفي مشاعري المتناقضة : " ما رأيك ان اذهب هناك يوم غد بعد الدوام ثم أعود في الليل " .

" غدا انا مشغول .. سأسافر لبغداد .. " .

" لماذا ؟ " . وشعرت بشيء ينكمش في داخلي .

" لأسباب العمل يا وردة " وانهى الشاي ودفع بالصينية لي : " سنتحدث بشأن ذهابك للدار بعد عودتي .. " .

سألته وأنا اقوم : " ومتى ستعود .. ؟ " .

نظر إلي مأكرا : " في نهاية الاسبوع " .

اعترضت في الحال : " هذا ظلم .. لماذا يجب علي انتظارك .. سأخبر علاء ليوصلني للدار .. " رفعت الصينية حينما ولع سيجارة اخرى : " إن فعلت سأمنعك من العودة للدار على الاطلاق .. ويمكنك ان تشبعي من صديقاتك في المركز فقط " .

" لا يحق لك ان تمنعني .. " ونظرت إليه بتحدي ولكنه ابتسم .. تلك الابتسامة الواثقة التي تنهي كل جدل بيننا : " لقد وقعت في شرك العنكبوت يا وردة .. إننا لن نستغني عن وجودك في البيت بكل سهولة " .

لم اقل شيء .. ارتأيت ان اغادر قبل ان ابدأ بالغضب منه .. حسنا وإن غاب لأسبوع في بغداد وكيف سيعلم بأني غادرت المنزل بغيابه .. ؟

وفي اليوم التالي حينما اوصلني علاء إلى المركز أخبرته بنيتي في الذهاب الى الدار بعد الدوام وحينما سألني عن السبب أخبرته بأني

سأعود لبيت جدي في الليل فقال لي مبتسما : " لقد اثر عليك مجيء البنات البارحة اليس كذلك ؟ " .

لا ضير من التحدث بصراحة مع علاء : " أجل ، لقد اشتقت لهن ... " .

" انت لا تحتاجين إلى اذن مني .. ومن حقك ان تغيري بعض الجو ، الفترة الماضية كانت عصبية وأنت تحتاجين للراحة بالفعل " .

لماذا لا يتحدث معي سرمد بتلك الطريقة .. لماذا دوما يعارض كل قرار اتخذه .. ؟

شكرته ولكنه تابع يقول بهدوء : " ولكن سرمد قد يعترض على ذهابك .. هل حدثته ؟ " .

نظرت إليه بدهشة فأدركت إنه يمزح معي لأنه ابتسم بعد عدة ثواني وتابع قائلا : " لقد سمعتمكما تتحدثان البارحة .. هل ظننت إن اشراكي بالمؤامرة دون علم مني سينجح ؟ .. " .

ضحكت : " حسنا ، أملت ان يمر الأمر دون أن يعرف سرمد " .

ابتسم بود : " لحسن الحظ فهو في بغداد الآن .. وأنا شريك صامت يا فاتن .. سنكون بخير إذن " .

عدت اضحك وأنا اشكره لكونه يتعاون معي رغما عن انف سرمد المتسلط .

وقبل أن نصل إلى المركز نتنح علاء قائلا : " فاتن وددت أن اسألك عن شيء وكنت آمل أن نتحدث بعد عودتك من المركز .. " .

" هل هو شيء مهم ..؟" ونظرت إلى ساعتى فوجدتها قاربت الثامنة وسياقة علاء الآمنة دوما تجعلني اظن انى تأخرت على البصمة ..تردد علاء في كلامه : " حسنا ..قد يكون أمرا عابرا ..ولكن أحببت أن اعرف رأيك " .

" بماذا ؟" وشعرت بالقلق من نبرة صوته .

بدا علاء مترددا كعادته حينما يدخل في تفاصيل شخصية ..ظننته سيحدثني عن نبيل او شيء كهذا ولكن ولدهشتى أخذ يقول : " حسنا ..انا لا اعرف كيف سأخبرك ..ولكن الامر يتعلق بتلك الفتاة .." .

" اي فتاة ؟" ومسكت قلبي ..

" الطبيبة التي تعمل معك ..تلك التي قامت بمعالجة اسنان سرمد " .

لا بد وإن وجهي اصبح شاحبا : " ماذا بشأنها ؟" .

لقى علي نظرة سريعة : " هل صحيح ان الوالدة حدثتك بشأنها ؟" .

اسبلت بصري ..لقد بدأ الامر يتطور بشكل جدي ..وكان هذا يخيفني حد الموت .

التفت انظر إلى النافذة وانا اجيب علاء بهدوء : " أجل ، لقد سألتني الاسئلة المعتادة " .

من جانبي شعرت بتشنج علاء : " و ..؟" .

نظرت إليه ..كان داخلي يغلي ولكن وجهي كان صفحة بيضاء : " لا شيء آخر ..كانت فضولية بشأنها فقط .." .

التقت نظراتنا .. علاء بدا متوترا .. ومنزعا بعض الشيء .

" الامر قد لا يكون مجرد فضول .. لقد كلفتني البارحة ان اسأل عنها في الحلة .. "

لا تجزعي فائن .. انت اقوى من ذلك بآلاف المرات .. انت شجاعة .. ستمرين بالأمر ولن تهزمي .. حدثت نفسي دون الالتفات إلى قلبي الذي اخذ ينبض بألم .

كانت يدي ترتجف وأنا أجيبه : " هل الموضوع يتعلق بسرمد ؟ "

اوماً بقلق : " أجل .. " ولم يقل بعدها شيء .. وماذا يمكن ان يقال .. شعرت بالاختناق في السيارة .. تبدد العالم من حولي .. وكأن السماء أظلمت فجأة في عيني .

" سرمد لا يعرف .. إننا نجس النبض فقط .. "

لا تبكي .. فائن .. أنت اقوى من البكاء نفسه .

" احببت ان اسألك إن كنت ترينها مناسبة .. انت صديقتها .. ولا بد وإنك تعرفينها جيدا .. "

وهل اعرف منال حقا ؟ .. كنت اعرف منال التي عشت معها خمس سنوات من الكلية ولكني لا اعرف منال التي عشت معها سنة في الدار !

لم أحبه .. لم استطع .. كنت اكفح الدموع التي هددت بالانهيار .. ولكنه كان ينتظر ردي .. شددت على شفتي أمنع شهقة الألم وقلت له بصوت هامس : " الله يقدم الخير .. "

كانت لعنة نبيل فحسب ..نبيل الذي غادر الديوانية في ليلة مظلمة كما
اخبرني البنات رافضا توديع أحد ..كانت لعنته التي القاها علي متمنيا
ان يتحطم قلبي ..أن ينكسر عنفواني ..أن اموت في اليوم الف
مرة.. هكذا شعرت في تلك اللحظة ..الموت .

لا بد إن شيء ظهر على السطح وما عدت قادرة على الكتمان إذ سمعت
كلمات علاء الأمرة المجفلة : " فأتن انظري لي .. " وتلقائيا شعرت
بالسيارة تتوقف على جانب الطريق .. ذعرت حينما سمعت علاء يتمتم
بكلمات اشبه بالاعتذار ..كيف ذلك ؟ لقد جاهدت ان لا تنزل دموعي
ابدا .. اخذ علاء نفسا عميقا وسألني وهو ينظر إلى وجهي بتجهم : " هل
الامر صعب بالنسبة لك؟ " ..

كانت كرامتي تناديني ان لا امسح دمعتي ولكني لم استطع
السيطرة ..كبت شهقة والتفت بعيدا إلى النافذة فكرر علاء مناديا إياي
برقة : " فأتن .. لا تنكدي ..أنا أسف لأنني حدثتك بتلك الطريقة ..الامر
فقط اني وددت ان اعرف ردة فعلك .. " .

لم اقل شيء ..عضضت شفتي لأوقف ارتجافي وسمعته يتابع بتنهد : "
كنت اعرف ذلك منذ البداية ..بل أنا موقن من الأمر ..أنت تظنين أنني
اتدخل في خصوصياتك ولكن الحقيقة إن الأمر خرج من نطاق يدي في
اليوم الذي اخبرتني خالتي سهام بتقدم زميلك إليك ..لقد شعرت بالصدمة
يومها ولكني لا املك الحق لمنع حصول شيء كهذا ..ففعلت ما طلبت
مني والدتك ..سألت عن الطبيب والحق يقال فالأخبار عنه كانت طيبة
وتشيد به وبأصله وحينما أخبرت سرمد ..حسنا ..لقد جن جنونه وهددني
أن اترك الأمر وإلا سيكون له عاقبة غير محمودة " .

اخذت ارتجف وانا استمع إليه : " بعدها حصل هذا الأمر وتعرف سرمد بالطبيبة تلك .. وانا اصبت بالحيرة لوقت طويل ولكن انشغالنا بمرض جدتنا منعني من قول شيء ، واعذريني لو قلت الآن بأن الموضوع بدأ يصبح لعبة حمقاء بنظري .. كيف من الممكن ان ترتبي مواعيد للقاء الأثنين .. فأتن .. أنا لم اعد قادرا على استيعاب ما يحصل .. فهلا أخبرتني لماذا تحاولين التنسيق بينهما ؟ .. "

لقد انكشف كل شيء .. ولبئس الأمر .

" سرمد معجب بها .. " قلتها بعينين لامعتين بالدموع .. وجرح كرامتي غائر في صدري ..

" معجب بمن ؟ .. بتلك الفتاة .. ؟ وكيف ذلك هل أخبرك ؟ .. "

اومأت وتحشرج صوتي " إنهما معجبان ببعض .. " وتابعت أقول بقهر : " أنا لم أخبره بذلك .. ولكن لا بد وإنه استنتج الأمر بنفسه .. "

" دعيني أفهم .. هل قال لك بلسانه بأنه معجب بالدكتورة منال ؟ .. "

نظرت إليه بكبرياء : " أجل .. وبعد .. من أنا لكي امنع حصول شيء كهذا بينهما ؟ .. "

احتقن وجهه علاء بشيء من الغضب : " لماذا برأيك ؟ .. ألم يهدد هو وتدخل لينهي بدوره موضوعك مع الطبيب ؟ .. ما هذا الجنون .. هل لك ان تفهميني لماذا تلعبان لعبة القط والفأر ؟ .. "

تلعثمت : " أنا .. أنا لا اعرف ماذا تقصد .. ؟ .. إننا لا نلعب شيء .. سرمد .. "

قاطعني بحزم : " ينبغي ان اتحدث مع سرمد قبل ان تتطور الأمور فعلا.. ووالدتي ايضا عليها ان تعلم .. " .

وضعت يدي على مرفقه وقلت شاهقة : " إياك .. سأموت في خلجي .. إن عرف أحدهم علاء .. " .

قاطعني بغضب : " أنتوين ان ترينه خاطب لتلك الفتاة ؟ " .

" كلا " قلت دون ان امنع نفسي .. ثم تقهقرت بعيدا عنه وارتبكت قائلة : " أنا اقصد .. الامر لا يعنيني .. هو صاحب القرار .. " .

" بالطبع هو صاحب القرار .. لذلك عليه أن يكشف كل اوراقه لك .. لقد أن للعبة أن تتوقف " .

عاد مرة ثانية لذكر اللعبة .. نظرت إليه بصدمة .. أتراه يعني .. ؟ .. أتراه يقول إن سرمد .. قاطع افكاري بقوله بحزم : " حينما يعود من بغداد ستتوضح كل الأمور ، وعليك من الآن ان تبعدي تلك الطيبة عن دربكما .. " .

عاد علاء إلى الطريق .. لم أكن في وعيي تلك اللحظة .. كنت أخلق بقلب خافق .. بأمنيات بدت مستحيلة في الماضي اصبحت الآن في متناول يدي .. أتراه يقول بأن سرمد يشعر بشيء نحوي .. وبأنه فعل ما فعل .. هدد وغضب وتدخل وتوعد .. أكل ذلك لأنه ربما ..

في ذلك اليوم لم أعش حقا .. كنت في عالم خاص .. عالم من مشاعر لذيذة كانت تجعلني اطلق في الغيوم .. كان وجه سرمد لا يبعد عن خيالي .. كنت اعمل وافكر به .. وحينما عدت إلى الدار كنت مستعدة لأن اصرخ هناك وأخبر الجميع بأنني ربما سأكون على ابواب علاقة حب

حقيقية .. تربط بين روحين .. بين شريكين .. وبأني قطعاً لم اشعر بتلك المشاعر مع نبيل .. كانت علاقة من طرف واحد .. وكنت أجبر نفسي على أن اكون الطرف الآخر .. أكراما لمشاعره واهتمامه ..

كان الدار مضيء بوجودي كما اخبرني البنات .. لم يزعجني امر منال البتة .. فهناك المشاعر التي سيطرت علي كانت أقوى من كل شيء آخر .. لقد قال لي علاء بأن اللعبة عليها ان تنتهي وكان علي ان اتأكد من ذلك بعودة سرمد من بغداد بعد اسبوع .. تمنيت ان تسرع الايام وكنت أمسك قلبي بين يدي .. أتراه سيوضح كل شيء ..؟ .. أتراه حقاً يشعر بما اشعر ..؟ .. بأنه يشناق .. ويفكر ويتمنى أن تزول كل الحواجز بيننا ..؟ ..

كانت نهاية الأسبوع عظيمة .. استطعت ان ابقى ليلة في الدار وقبل نزولنا كانت سمية تتحضر لوداعنا لأنها ستسافر في رحلتها إلى الشمال مع زوجها .. ولكنها قبل ان تغادر الدار اخذت تدور قلقة في الارحاء .. بعدها وحينما تحضرنا للذهاب إلى العمل دخلت علينا فجأة .. كان وجهها شاحباً .. عيناها واسعة مكحلة بدموع الفرح .. وفي يدها شيء صغير وردي اللون .. ثم إذا بها تبشرنا بالمعجزة التي لطالما انتظرتها .. وأخبرتنا : " بنات .. أنا اظن بأني حامل ..! "

الفصل السادس والثلاثون

انكسار

كان خبر حمل سمية جعلنا لا ننطق من الصدمة .. ولكننا سرعان ما شاركناها البكاء والفرح وعدم التصديق ، واخذت ترتجف وهي تتصل بزوجها تبشره بالخبر السعيد .. اخبرناها ان تتأكد من اختبار الحمل بفحص الدم ولكنها لم تصبر بشرت زوجها وقضت ساعة طويلة بالبكاء ونحن تركناها لتتشارك مع زوجها تلك اللحظات الفريدة والتي لطالما تمنتها ..

وما ان اصبحت الساعة العاشرة جاء زوجها الدكتور مؤيد إلى المركز بالرغم من انها كانت قادمة إلى بغداد في نهاية الدوام .. واجرت هي اختبار فحص الدم والنتيجة كانت ايجابية تماما وكنا نشاركهما الفرحة بدموع خفية وقبل ان تذهب الى بغداد جاءت لتعانقنا انا ونرجس وشكرتنا لأننا دعمناها كثيرا ورحلت بعدها ودموعها لا تتوقف . وظننا انها ستكتفي بإجازة الاسبوع التي اخذتها مسبقا ولكن زوجها جاء بنهاية اجازتها وقدم لها اجازة لثلاث اشهر من دون راتب .. ولفتره طويلة لم نرها واكتفينا باتصالات هاتفية لنعرف اخبارها .

في عطلة الاسبوع نزلت مرغمة الى بيت اهلي ..كانت المرة الوحيدة التي اشعر بها كذلك .. تمنيت البقاء في الديوانية وفي بيت جدي .. كي أرى سرمد وهو يعود .. وتمنى قلبي المضطرب رؤيته ليعرف إن حقا سيرسو على ميناء المشاعر التي حاربتها لطوال عمري ..كنت اتساءل ان كان يشعر حقا بشيء نحوي لماذا لم يقل ذلك ولا مرة ... لماذا كان

يلجأ الى العنف والسخرية والتهكم مني.. والى التقليل من شأنى ؟.. لقد جاهد ان نبقى اعداء ..متخاصمان ..نلعب في لعبة تحدي لا نهاية لها.. تذكرت تلك المرة التي طلبني بها للزواج امام جدتي وكيف جعل جدتي تنظر إلينا بريبة ..تذكرت كيف جعلني اعيش لحظات التوتر الحقيقية ..وليتني فقط قرأت تلك الاشارات ..ليتني فهمت في وقتها ماذا كان يعني يومها ..ربما لتوضحت لدي الكثير من الامور والتي كان علاء يعرفها ..وجعلني اتخبط في المشاعر لأيام طويلة .

وفي يوم الاحد عدت الى الديوانية بقلب متلهف وانتظرت ساعات الدوام الطويلة ولم اعد للدار بالرغم من اني كنت متعبة من طريق السفر وايضا من العمل المتواصل في ذلك اليوم وحالما وصلت بيت جدي كان قلبي يخفق بعنف وتوتري يزداد ..كنت احاول السيطرة على مشاعري فلا بد وإنه جاء من بغداد في العطلة ولا بد اننا سنقابل بعد دقائق معدودة ..بالرغم من ان الوقت كان ظهرا وربما سيكون نائما في ذلك الوقت .. بيت جدي كان يرفل بالهدوء حين دخلت ..ولكني رأيت قيصر يتفرج التلفاز مع خالتي نجاح ، سلمت عليهما ثم مررت لأرى جدتي . علمت بأنها نامت لتوها فغيرت ملابسي وذهبت بقلب خافق إلى المطبخ لتناول الغداء ..كنت اخشى السؤال عن سرمد ولكني اصغيت بقلب منصت إلى احاديث خالتي مع قيصر ثم دخل علاء إلى المطبخ وتفاجأ بوجودي ..تردد قليلا في الدخول مما اثار استغرابي ولكنه حيان بهدوء وتناول قدح ماء ثم خرج من المكان قبل ان افتح فمي لأقول شيء .

وعاد الهدوء يرفل في بيت جدي ولا بد ان الجميع ذهبوا للنوم ولم استطع الذهاب بدوري كنت من التوتر بحيث قبعنت في مكاني افكر فيما علي فعله لمعرفة مكان سرمد وحينما حضرت الشاي انتبهت لنزول

احدهم وماهي الا ثواني ودخل سرمد الى المطبخ ، دخوله المفاجئ اربكني وكادت علبة السكر تسقط من يدي ..سلمت عليه بخجل فرد التحية وهو يشرب الماء من الثلاجة ..راقبته بانبهار خفي ثم تولتني خيبة امل لدى رده المقتضب وصببت الشاي بأنفاس مكتومة وكدت افقر من مكاني حينما تحدث معي بلهجة امرأة: " حضري الشاي وتعالى الى غرفتي " .

شيء في طريقة حديثه لم يعجبني ..بدا مزاجه متعكرا ..أتراه غضب لأنه عرف اني ذهبت للدار عدة مرات في الاسبوع الماضي ؟ لم يترك لي مجالا لسؤاله عن شيء لأنه غادر عائدا الى غرفته فوق ..فحضرت الشاي وصعدت إليه وفي الطابق الثاني مررت من غرفة علاء فالتقت نظراتي به ..ورأيت والدته تجلس معه .. لم تدم نظراتنا سوى لثواني بعدها اشاح ببصره وبدا عليه الذنب فأوجست خيفة من الأمر ..هذه المرة كان شعوري مختلف وأنا اقف قرب باب غرفة سرمد ..وحتى حينما دخلتها لم يتوقف شعوري عن الرهبة .. ولكني اعتدت على وجوده في غرفته ..جالسا على السرير ويكتب في مفكرته ..يدخن ويبدو مشغول البال .. غير إنه لم يبدو مشغول البال فقط بل كان متجهما ..غاضبا بعض الشيء ..

وضعت الصينية على السرير وتناولت قدحي لأجلس على كرسي المكتب ، بلعت ريقى حينما لم يقل شيء ..ولم يظهر عليه اي دليل للترحاب او الحديث بود :

" هل حصل شيء؟ " .

بقي صامتا للحظة ثم نظر إليّ بعينيه السوداء الحادة : " سنتكلم بعد أن افهم شيء واحد " .

" ماذا ؟".

اغلق المفكرة وانزل قدمه على الارض ..بدا متشنجا بعض الشيء وهذا ما جعلني اخشى ما سيقوله .

" هل انت من اخبر علاء بأني معجب بزميلتك ؟".

ازدردت ريقي بخوف : " أجل ..، قلتها مازحة " .

رأيت عيناه تضيقان بعنف : " الآن دعينا نكون واضحين واتركي المزاح على جنب ..هناك لغط في البيت عن كوني معجب بصديقك " .

" ألسنت معجب بها ؟" تحديته وانا ارتشف من كوبي .

" الموضوع بيني وبينك فاتن .. هذا لا يعني ان تتبحجني بالأمر في المنزل " .

" انا لا افعل ذلك .. قلتها بحدة .

تمنيت ان اعرف ماذا حصل في العطلة الماضية بحيث كان سرمد غاضبا .

" أمل ان تكوني على حق ، والدتي الحبيبة تنوي ان تخطبها لي ..هل لديك علم بالموضوع ؟".

لسبب ما استطعت ان ابتسم ..وفي داخلي يرقص بشماتة ..سرمد لا يريد منال ..مدتني هذه المعلومة بالأمل : " أجل ..".

" لماذا تبترسمين ؟". ضاقت العينان السوداء .

رطبت شفتي : " انا اتساءل كيف تهربت من الموضوع ؟".

نظر إلي ولانت عيناه : " ملعونة أنت .. علي ان اعرف الشيء
الأهم .. هل نوهت للفتاة بشيء ؟ " .

" كلا ، وحتى وان كنت متأكدة من اعجابك بها .. أنا لن ابوح بشيء " .

تناول قذح الشاي ورد علي بلهجة لاذعة : " متأكدة ..؟ وكيف
ذلك ؟ .. اثري مخيلتي رجاء " .

هزرت كتفي : " كنت تأتي للمركز باستمرار .. " وتابعت حينما لمعت
العينان بالتهكم : " وكنت تصر على ابداء اعجابك بها وبعملها " .

" كانت طبييتي يا ذكية .. عملت لي اكثر من ست حشوات ! " .

" ولكنك اعجبت بها ! " .

" لأنها فتاة جميلة .. " .

فقدت ابتسامتي شيء من دفئها واشحت بوجهي بعيدا عن الحقيقة
الدامغة ثم سألته وانا ارتشف الشاي : " حسنا .. وماذا بعد ..؟ .. ماذا
اخبرت خالتي ؟ " .

" أخبرتها بأن الأمر سوء فهم .. وبأنني لست معجب إلى الحد الذي
يجعلني خاطب لها .. " خفق قلبي بعنف من رده غير انه تابع بلهجة
ساخرة : " كما ان زيارتي للمركز لم تكن لأجل رؤية ست الحسن
فقط .. " كتمت انفاسي .. لأبد وإنه سيقول الشيء الذي يهمني سماعه : " .
كان ذلك لأجل شيء آخر .. بعيدا كل البعد عن توضيحي بأسناني " .

شعرت بالقلق من نبرته الساخرة .. هل ينوي الفصح عن ذلك ام علي ان
احزر ؟ .

" ماذا ؟.. "

التقت نظراتنا واشاح بوجهه فشعرت بالحيرة .. ارتسم التجهم عليه ونضح جبينه بالغضب .. ثم جاءني الادراك حالا : " أكان ذلك من اجل نبيل ؟.. " .

لابد وان يكون الامر هكذا .. كان ذلك السبب الرئيسي لمجيئه المتكرر للمركز ..

توهج وجهه بالغضب : " عليك ان تنسي اللعين هذا .. لا اود ان تذكر لي اسمه مرة اخرى "

قلت بعناد : " حسنا ولكن لابد وإنك كنت تتعمد المجيء ل .. " .

قاطعني بغضب : " فائن .. انس هذا الموضوع .. تلك القصة انتهت قبل ان تبدأ ، لقد تأكدت من هذا الشيء .. " .

قاطعته بدوري : " اذن عليك ان تخبرني .. أنا لا اعرف ما يدور في رأسك يا سرمد " .

" بالطبع لا تعرفي .. انت موقنة فقط من كوني معجب حقًا بزميلتك .. " .

شعرت بالغضب : " انا اقول ما رأيته .. والآن هل ستخبرني بالأمم ام اغادر الغرفة ؟ " .

لمعت عيناه بغضب متوحش .. وادركت حينها بأنها ردة الفعل التي لم اكن اودها منه .. أردته ان يظهر .. ماذا يظهر .. ؟.. وهل انا قادرة على جعل سرمد يعترف بشيء دون ان يخبرني هو بدوره ؟ .

" انصرفي .. امرني بلهجة مقفلة .

تلعثمت : " عفوا .. " .

ناولني الصينية وقال لي بكل برود : " هاك .. ما دامت تحملين هذا العقل المحدود فلا مكان لك هنا .. " .

لا بد واني توهمت حقا بأن سرمد يكن شيء تجاهي .. قطعاً لا يبدو إنه مثلي .. كنت حمقاء لأصدق كل كلام علاء ..

تمسكت بالكوب ولم اقم .. ارتأيت أن اعود إلى فاتن القديمة .. فاتن التي باح لها كل اسرارها المتعلقة بعمله .. تلك فاتن التي وثق بها وليست تلك العاشقة التي تتخبط في مشاعر الرفض والنكران .

" أنا اعتذر .. تماديت قليلا .. " .

للحظة بدا انه لن يتخلى عن غضبه ولا عن امره النهائي .. ثم تحرك ليعيد الصينية لمكانها وقال وهو يولع سيجارة : " كوني مطيعة اذن واستمعي لما سأقول .. " .

انصت بقلب خافق .. غارق في خيبات أمل متتالية .

" انت تذكرين بالطبع قصتنا الماضية عن نائب المحافظ المختطف ؟ " .
اومأت له وشعرت بالتوتر حينما تابع : " قضيت تلك الفترة احقق بالأمر حسب طريقي الخاصة .. اردت معرفة الجماعة التي قامت بتوريطي بالأمر .. كنت اشك .. اجل .. ولكني لم املك دليلاً ملموساً .. تحرياتي قادتني إلى الموظف الصحي الذي يعمل معكم .. " .

" ذلك الذي اخبرتني بأنه ينتمي إلى نفس الحزب ؟ " .

ذر رماد السيجارة في المنفضة : " أجل .. جيد انك تذكرينه " .

قلت ببرود : " انت لم تخبرني عن هويته .. " .

اشار بيده : " أجل ، وهذا لصالحك .. أردت ان اكون معروف في المركز تلك الفترة .. كزائر دائمي لأجل التقرب منه .. " .

بلعت ريقى .. هذا يعني بأن الرجل يعمل في الحشوات .. كان هناك اثنان مساعدي اطباء اسنان .. أحدهم كان شاب نحيل الملامح يعرف بمسلم وهو شاب خدوم وكنا نعتمد عليه في كل الاشياء .. والآخر كان رجل في نهاية الثلاثين ماکر .. يتدخل في كل شيء .. وكنا لا نحبز رفقته وتعامله مع زملاءنا وكأنه في ذات المستوى معهم ..

استفسرت منه بهدوء : " هل هو سامي .. ؟ " .

لم يجبني .. ولكن عيناه لمعت بالإجابة .. إنه يعلم بأني سأتوصل لهذا الامر بسهولة ، عدت اسأله : " وهل توصلت معه إلى شيء ؟ .. " .

استمر يدخن : " بالطبع .. لقد اخبرني بما كنت اود معرفته حقا .. " .

انتظرته ان يكمل بأعصاب من حديد : " لم يبح بالأمر بسهولة .. كلمة هنا .. وكلمة هناك ثم أخبرني بعدها بأن الامر كان مدبر .. " .

" هل تحدثتما في الحشوات .. ؟ " .

نظر إلي بتركيز : " كلا ، .. في احد الممرات الجانبية للمركز .. " .

" ماذا يقصد بأنه كان مدبر ؟ " .

انتظر قليلا قبل ان يبح لي بالحقيقة : " بأن نائب المحافظ لم يختطف قط .. وبأنه موّه عملية اختطافه لزجي بالسجن .. " .

قلت بحيرة : " ولكنك برئت من تلك التهمة في المحكمة " .

رد بجفاء: " كنت املك حجة غياب .. غير ان الامر كله مدبر .. وسقطت بالفخ المرسوم لي .. السيد كريم الدجيلي اراد سجنني رسميا .. فهو لم يكتف بتهمته تلك .. بل تعمد ان يكون القاضي المشرف على قضيتي من جماعته .. " .

" ولهذا استفزوك هناك .. اليس كذلك ؟ " .

اوماً قائلاً : " أجل ، يومها لم اعرف شيء ، القاضي كنت اعرفه ولكن لم اعرف إنه منتمي لهم .. لقد درسوني جيدا اثناء تلك الفترة .. وكانوا يعرفون بأن اسلوبي العنيف قد يولد شيء .. وقد نجحوا في ذلك .. " .

تمسكت يدي بالكوب .. حينما يتحدث سرمد بتلك الطريقة اشعر بأني امام رجل لا اعرفه قط .. كان لا يهاب شيء .. ولكن هذه المرة كنت اتمنى ان اجلس إلى جانبه واتوسل إليه ان يأخذ حذره .. أن يهتم بنفسه وان يبتعد عن السياسة اللعينة .

" كيف استطاع سامي اخبارك بكل هذا ؟ " .

" لقد رشوته طبعاً ! " ونظر إلي بجفاء .

من البديهي ان تكون هذه اجابته .. فنحن كنا نكره سامي لأننا كنا نشك بأنه يسرق المال من حقائبنا المعلقة في الوحدة .. وبعد ان تكررت المرات في اختفاء الاموال لم نعد نترك حقائبنا هناك دون رقيب .. ولكن كيف استطاع سرمد عمل كل هذا دون ان نشعر انا ومنال بشيء ؟ .. كنت حمقاء حقا .. ادور في فلك مشاعر الغيرة .. والترقب والتوتر من وجود نبيل معنا .. وكان الاخير يظننا نلعب لعبة لأثارة غيرته

وغضبه..كلانا مخطئ..فسرمد كان يدور في فلكه الخاص واضعا
مشاعرنا عرض الحائط .

" ما هو المطلوب مني ..؟".

لابد وإن حديثه سيفضي إلى شيء ..هو لا يفضي بأسراره إلا إذا اراد
ان يوصل لي رسالة ما ..تحذير ما ..

ابتسم للحظة : " بدأت تعرفيني..".

سرمد كتلة من الاسرار ..ولا أراني سأعرفه يوما .

وضعت الكوب على المائدة وقلت بهدوء : " أتمنى أن لا يشكل الامر
خطرا عليك ..".

لمعت عيناه : " هل انت قلقة علي ..؟".

ولماذا لا اقلق .. سرمد فلكي الذي ادور في داخله ..!

" بالطبع ..سامي لابد وأن يعلم بأننا اقارب ..وهذا يتعين أن اقلق
بشأنك " .

شيء في نظراته ارسل الرجفة إلى قلبي ..اكان دوما ينظر إلي بتلك
الطريقة الاخاذة ..ام اني بدأت اكتشف ذلك لتوي ؟.

" بل عليك ان تقلقي على نفسك يا وردة ..سامي هذا انسان لعوب..يخدم
مصالحة فقط ، ولا اريد ان يحتك بك أو يمهد لأي موضوع معك ، لقد
اعطيته مبلغ مناسب من المال ولكنه جشع ..".

قاطعته باعتداد : " لا تقلق بشأنني ..أنا قادرة تماما على صدّه " .

ابتسم ..وسحرتني ابتسامته الدافئة : " عظيم .. " ثم تابع بلهجة محذرة ذات معنى : " الآن علي ان اسأل لماذا خالفت اوامري وذهبت للدار ؟ " .

احمر وجهي ..لقد اخذني بالحديث ..ولم استطع قول شيء ..لم استطع الكذب ابدا ..

" هل اخبرك علاء ؟ " . حينما قلت ذلك شعرت به يتشنج للحظة ..ولكن لابد واني توهمت لأنه قال مجيبا : " عسايفيري الخاصة اخبرتني بذلك .. " .

استفسرت بدهشة : " عسايفيرك ؟ ..سرمد هل انت تراقبني ؟ .. " .

انهى المتبقي من كوبه : " فقط عند الضرورة ..حينما اكون غائبا ومسافرا ..وبعيدا عنك ..انا اراقبك .. " ونظر إلي منتظرا ردة فعلي ..كنت لا ازال اشعر بالصدمة ..وربما في وقت ماض كنت لأقفز واهجم عليه واخبره بكل الصفات والنوعت التي يستحقها ..ولكن يومها لم استطع ..فكرة ان يراقبني ويحميني كانت تدغدغ قلبي الخائن : " انا لا اصدق ..هل هناك سبب لذلك ؟ .. " .

اجابني وهو يورث سيجارة أخرى : " هناك اسباب كثيرة يا وردة ..اسباب قد تصيبك بالصدمة ..ربما لو قررت البقاء في منزلنا هنا سيختلف الأمر تماما .. " .

ها قد عدنا للمشكلة الأزلية ..

" انا باقية منذ اكثر من ثلاث اسابيع .. " .

حينما وضع السيجارة المشتعلة في فمه بدت عيناه مشتعلتان ببريق اخافني تماما : " ولو ترتب الأمر ..ربما ستبقين هنا طول العمر .. " .

تجمدت في مكاني .. أهذا يعني .. أترأى يعني ..؟...تسارعت انفاسي وانا اتوسل في داخلي ..تابع ..بإلله عليك أخبرني بكل تلك الاسباب الصادمة..

ذر الرماد في المنفضة وتابع حينما لم اقل شيء : " والدتي الجميلة والتي خيبت أملها بشكل ذريع وكل مخططاتها بشأن ست الحسن تأمل أن يحصل أمرا آخر ..".

" أمرا آخر ؟" خرج صوتي محشرج ..احتجت ان اتمسك بالكرسي من هول انفعالي وارتابكي وخجلي ..

" أجل .. الامر الذي تفضله كل الأمهات في العالم ..يوم فرح ابنها..ومن هي افضل من ابنة شقيقتها لتناسبها وتجعلها كنة لهذا البيت ؟".

قمت بغتة ..حملت كوبي واستدرت اعطيه ظهري ..خرج صوتي مفككا من الارتباك : " ما .. هذا الكلام ..سرمد ..إننا اخوان .." ارتأيت ان اقول ذلك من شدة الخجل الذي اشعر به والذي يدفعني للهرب من غرفته والاختباء في ابعد زاوية من البيت !.

ماد قلبي حينما استمعت لضحكاته والتي لشدة دهشتي كان ضحكات مليئة بالتوتر ..وكانه ارتبك ايضا وانتبه لما قاله .. بعدها شعرت به يقترب مني .. واصبح خلفي تماما ..كنت متجمدة تماما وحينما مد يده بالصينية ليضعها على المكتب قربي انتهت ليده المرتجفة والتي بثت الرعب في داخلي ..ثم إذا به يتابع بصوت ساخر ..لم اكن ما وددته قط :

" الآن فعلا انت تملكين المذيعة الأكثر غرابة .. لقد اتهمتن بأنني معجب
بست الحسن .. وها انت تفهمين الموضوع خطأ يا وردة .. " رفعت
بصري والتقيت به من الجانب .. ماذا يقول .. ؟ .

كان داخلي يرتجف بقوة .. اردت ان ابتعد ولكنه وضع كوبي على
الصينية وقال متابعا على الرغم من تلكى صوته بعض الشيء : " الا
تعرفين بأن والدتي لها مخططات عظمى بشأنك .. ؟ .. ربما لهذا السبب
خيبتي املهم حينما جنئت بعريس الغفلة على بابهم .. (يقصد نبيل)
وبعد .. أنسيت إن جدتنا تحتفظ لك بالأفضل .. ؟ " .

" الافضل ؟ .. " خرج صوتي مختفقا .

ابتسم .. ولكن ابتسامته كانت جامدة تماما .. جافة كروحه التي قرأتها في
عينيه : " أجل الأفضل .. وهل هناك افضل من شقيقي البكر علاء ليكون
هو العريس المحفوظ لك بالجيب .. ؟ " .

لم اقل شيء .. دارت الأرض من حولي .. ومن بين ضباب الدموع التي
طاردتني حملت الصينية .. بيد ترتجف .. وبقلب متهشم .. منكسر سارعت
لأخرج من غرفته .

الفصل السابع والثلاثون

وهم

مغادرة بيت جدي كان الحل المناسب لي .. بالرغم من ان قلبي لم يطاوعني على ترك جدتي ولكني لم استطع البقاء حتى وقت العصر فهربت بعد ساعة من لقاءي بسرمد .. اختليت في غرفة جدتي وانتحبت بدون صوت هناك .. ثم غيرت ملابسي .. قبلت جدتي النائمة .. رأيت وجهها المتورد بأثر النوم وانفاسها المتقطعة .. وازدادت دموعي .. ولكني وعدت نفسي أن لا ابكي ما ان اخرج من الغرفة وهكذا فعلت .. خرجت من البيت بوجه جامد .. لا احاول التفكير بما سمعت .. لا اود الشعور بخيبة الامل العاصفة تلك .. ولا بقلبي المكسور .. ولا بخجلي وكبريائي المهذورة .. عدت إلى الدار مهزومة .. ولم ابك مرة أخرى .. غير اني جلست على سرير نرجس وايقظتها وحينما قامت متفاجئة من وجودي اخبرتها بهمس ان تغير ملابسها وتأتي معي إلى الشقة الاخرى فهناك نستطيع التحدث بكل هدوء وبعيدا عن آذان منال .

لا بد ان نرجس لاحظت بأني لست بخير لأنها تبعنتني مسرعة وحالما اصبحنا هناك في غرفة جلوس الشقة الأخرى .. انهزت على الكنبه وانا ارتجف .. اخبرتها بصدمة ان الامور باتت سيئة بالنسبة لي ثم بحث لها بكل شيء من وداعي لنبييل إلى اكتشافاتي حب سرمد ثم غيرتي الشديدة من منال ثم اخيرا صدمتي بعلاء وبكونه قد يكون العريس المتقدم لي .. صدمت نرجس مثلي ولم تقل شيء لبرهة بعدها سألتني : " ألم تقولي بأن علاء يظن أن سرمد .. " .

قاطعتها بضياح: " كلا ، لابد وإنه توهم لأن سرمد بدا بعيدا عن كل هذا.. الأمر اني ظننت ان سبب تدخله في حياتي وتهديد نبيل على انه غيرة ..بأنه لطالما يعتبرني جزء من حياته ..ولكني كنت مخطئة .." والتفت إلى نرجس " كل ذلك لأنه ارادني زوجة لشقيقه ..وكنت حمقاء لأنني صدقت علاء ..بل معنوهة لأنني آمنت بأن قلب سرمد قد يكون لي حقا ..".

" لست المخدوعة الوحيدة هنا .." قالت نرجس بجفاء .

احتدت عيناها: " منال امرا آخر ..لم يقد سرمد ابداء ..".

قاطعتني: " أنسيت ان لدي عيناان ؟..الرجل كان معجب ..كلاهما معجبان بالآخر " .

انتفضت من مكاني وأخذت ادور في الغرفة بتوتر: " لا يمكن ذلك .." وضمت يدي لأوقف ارتجافهما: " لقد أخبرني ..بأنه ..ليس معجب بالدرجة التي ينوي التقدم لها " .

" ربما لأنهما لم يتعارفا لمدة طويلة ..كما ان خالتك تنوي خطبتها له..أتعلمين ما معنى هذا ؟".

" ماذا ..؟" سألتها واحتبست انفاسي .

" معناه إن خالتك تبدو شخصية واثقة من نفسها وبأنها ترتب الامور بما يصبوا لمصالحها ومصالح ابناءها .." وازافت بالرغم من إن كلامها اوجعني: " امور كهذه لا تتخذ بين ليلة وضحاها ..لابد وإنها اختارتك منذ البداية لتكوني عروس علاء بدلا من شقيقه ..".

" أنا لن اصبح .." اختنق صوتي : " أنا لن اكون عروس لعلاء ولا
لغيره .. لا يمكن أن يصل الامر بحيث يجبروني على ذلك .. " .

ابتسمت نرجس : " فائن .. دعينا نكون واضحين .. انت تعلمين ان بيت
جداك هم متسلطون .. وبأن اولاد خالتك لطالما تحكموا بحياتك .. ماذا
تظنين ؟ ..؟ .. انا موقنة بأن والدتك تعرف شيء عن الموضوع .. اخبرتك
هذه الأمور تطبخ بالسر وعلى نار هادئة .. " .

ازداد اختناقى .. عدت وجلست " ماذا افعل ..؟ " وبدا الذعر علي إذ
تخيلت بأني اصبحت زوجة علاء .

ردت بهدوء : " لا تستسلمي قط .. " .

لن استسلم ابدا .. ولكن ماذا عن منال .. حينما سألتها قالت لي : " عليك
ترك الموضوع ولا تتدخلى .. ان كانا معجبان ببعض ام لا .. ما شأنك
انت ..؟ " .

" وماذا عن مشاعري أنا ..؟ " نظرت إليها بغضب : " أنا لا احب
التدخل فعلا ولكن لا اريد لها ان تتأمل كثيرا " .

" لماذا ؟ .. أنا لا افهمك .. أنت تتعاملين مع الامر وكأن منال قامت بشيء
فعلا لجذب ابن خالتك " .

" إنها لم تفعل شيء .. اللهم إلا اذا كان اهتمامها بأسنانه يؤول إلى شيء
آخر .. " .

" إذن لماذا انت منزعة ؟ " .

صمت للحظة بعدها أدركت بأني لا أستطيع اخفاء حقيقة منال عن نرجس فأخبرتها بكل شيء قاله لي نبيل وهي لم تتفاجأ .. لقد كان شكى في محله .. نرجس تعرف بحقيقتها فعلا ولم تخبرني .

سألتها عن ذلك فأجابتنى بهدوء : " احمد اخبرني بالطبع .. "

" وهل كانت فعلا تؤثر على قرارات البنات ؟ "

اخذت نرجس نفسا عميقا : " أنها تتصرف بطبيعية يا فاتن .. أنت بنفسك لم ترتابي منها ولكننا بعد كل مرة بدأنا نظن إنها تغار لكوننا نعيش في علاقات بينما هي لا " .

" لماذا لم تخبريني بهذا ؟ "

اجابتنى بعد ثوان من الصمت : " لأنني في الحقيقة ظننتك تعلمين .. لا يمكن ان تكوني صديقتها المقربة كل تلك السنين ولا تعرفين ادق التفاصيل عنها " .

اجبتها بكآبة : " لأنني كنت حمقاء فقط " .

" بل لأنها تعلم كيف تستمر في الكذب دون ان يعلم عنها احدهم شيء .. "

تذكرت كلمات نبيل .. وعن كونها بحاجة لمعالجة نفسية ولم اقل شيء لأنني عدت افكر بقصتي مع علاء .. سألت نرجس : " ماذا سيقول علاء حول هذا الأمر ؟ .. لقد بدا متأكدا ان سرمد يلعب معي لعبة .. "

" من خبرتي انا اظن بأنه مخطئ تماما .. فلو كان سرمد حقا يكن لك شيء ما .. لماذا يخبرك بأنك ستكونين زوجة شقيقه ؟ .. "

" لأنه لابد وعرف ذلك من خالتي ..الا تظنين انه سيتراجع لو .. " .

اعترضت نرجس : " هناك حلقة مفقودة اذن ..علاء واثق من ان سرمد معجب بك ..بينما سرمد يعترف بأنك ستخطبين لشقيقه ..؟..ما هذا الهراء ؟..أتعلمين ما اظن ..؟" وتابعت حينما رأنتي اكافح لأستوعب ما ستقول : " انا اظن بان علاء توهم في المسألة كلها ..وربما انت ايضا..انا لا انكر ان تدخلات سرمد في حياتك قد تفسر عن انها شيء ما وهذا ما اوهم علاء بذلك ..ولكن الحقيقة تبقى انهم اختاروك لتكوني عروس للأبن الأكبر وهذا يلغي اي احتمالية أخرى .. " .

" ولكن علاء لا يعرف بهذا الشيء .. " ثم تذكرت نظراته وعدت ارتجف من جديد .. لا بد وإنه علم ..ربما لهذا تردد من الدخول إلى المطبخ حينما كنت موجودة ..وربما لهذا طالعني بذنب حينما صعدت بالشاي لسرمد ، شعرت بالاحمرار يغلف وجهي ..حينما تذكرت ايضا كيف كشف مشاعري المخبأة وبأنه لابد وأن يفكر بأنني هدرت كرامتي حينما صعدت هناك .

اخفيت وجهي في حضني وأنا احاول ان لا افكر فيما يحصل الان في بيت جدي ..كل تلك الخطط المخبأة علي ..لطالما ظننت اني مدللة لأنني تربيت معهم وبأن اهتمام خالتي سعاد بي لأنني ابنة شقيقها الوحيدة وليس لأنني قد اصبح كنتها .

أخذت نرجس تنتهذ : " فائن ..المشاعر التي في داخلك قد تكون أوهام..انت تعرفين ابن خالتك منذ الصغر ..لا يمكن أن تتفجر تلك المشاعر وتسمى حبا بعد كل تلك السنين ..خذيها بالمنطق ..ربما شعرت بأن سرمد مهتم بك لأنه فعلا يعتبرك زوجة شقيقه المستقبلية ..امرأة لا

يمكن ان يقع في حبها ..ولا يمكن أن يتخذها زوجة لأن عائلته تقول غير شيء ..".

قلت بكآبة : " ولكن لا شيء يجمعني بعلاء غير الأخوة ..أنا لا اصدق انه قد يوافق على شيء كهذا "

هل حقا ما شعرت به تجاه سرمد كان وهم ؟ هل كل ذلك التوتر والارتباك ..التوق والانتظار وخفقان القلب ..أتراه وهما حقا ؟..

ما ان عدنا إلى شقتنا ورأتنا منال حتى صاحت علينا بكوننا خائنات لأننا تركناها وذهبنا الى الشقة الأخرى ..لم اكن بمزاج للمرح معها ولكني رأيت نظرات نرجس التحذيرية وامتنعت عن فعل شيء يثير استغراب منال ..لقد شعرت بالشماتة حينما اخبرني سرمد بأنه ليس معجب بها ..وها انا اتذوق طعم الشماتة الحقيقية لمخططات بيت جدي لي .

وبعد ساعة من عودتي إلى الدار ارسل لي علاء رسالة كتب فيها (فاتن..هل عدت للدار ؟..أود التحدث معك) .

لم ارد عليه لبرهة من الزمن ..وماذا يمكن ان يقال ..أنا خجلة ولابد وإنه هو كذلك ثم كتبت له على مضض (أجل انا في الدار ، اعتذر لأنني لم ابلغ أحد بخروجي) .

رد علي بسرعة (لا بأس ..هل يمكنك الخروج ؟..) .

كتبت (أين ؟..ولماذا؟) .

رد علي (اود التحدث إليك ..هل تستطيعين ان تلاقيني عند الباب..سأكون عندك خلال خمس دقائق) .

كان الوقت قارب على الغروب .. غيرت ملابسي بسرعة وارسلت اقول
إليه أني سأنتظره . من الضروري ان نتواجه انا وعلاء بالرغم من
خجلي وهروبي المتعثر من بيت جدي .. فأنا لا اعتبره شخص غريب
بالنسبة لي .. بعد كل ما مررت به .. كان علاء الاقرب إلي من بين
اخوته .

حينما صعدت إلى جانبه في السيارة سألني عن حالي بكل هدوء ، أجبتّه
بأنّي بخير ولكني لم انظر إلى وجهه .. لم استطع .. فالأفكار تدور في
بالى وحواري مع سرمد كان يتكرر مرة تلو الأخرى .. فأدار علاء
محرك سيارته وعاد إلى الطريق الرئيسي .. لم نتحدث لعدة دقائق بعدها
تنحنح ليقول : " ما رأيك ان نذهب لتتشفى في مكان ما ؟ " .

خرج صوتي خافتا : " لماذا .. ؟ " .

" لأنني لا استطيع التحدث معك في السيارة " .

أجبتّه وانا انظر إلى النافذة : " ولكننا تحدثنا مرة في السيارة " ومن
يومها وانا اشعر بأن كرامتي مبعثرة تماما .

" اجل ، انت محقة .. ولكني لا اريد التحدث بينما انت تنظرين إلى
النافذة " التفت إليه ورأيت وجهه الشاحب فشعرت بالشفقة .. علاء لا
يستحق مني معاملة جافة .. مهما كان فهو ليس الملوم في كل ما حصل .

" كما اني لا استطيع ان اكلّمك في البيت " .

اومأت له وتضرج وجهي .. أن يفكر الجميع بأننا قد نكون زوجان
مناسبان كانت تدفعني للغرق بموجة من الخجل .. لقد تربيت طوال

عمري على فكرة ان علاء هو اخي الأكبر ..الأخ الحنون المحب لي..الاخ الذي تمنيته فعلا ..وليس ما يفكرون به الآن .

لابد وإنه لاحظ احمرار وجهي لأنه اشاح بنظراته وبدا متوترا بعض الشيء ..كان علاء يحاول ان يتصرف على طبيعته معي ..وعلي ان افعل بالمثل اكراما للود الذي نكنه لبعض .

جلسنا في مطعم الارض الخضراء ..مطعم زملائي المفضل ..تأملت في الموائد التي خلت منهم ..وشعرت بالحزن لأن أيامنا تلك ولت من غير رجعة ..كل تلك القصص التي لابد وإنها نبضت بشوق في هذا المطعم قد اختفت ..فمنهم من ترك الآخر ..ومنهم من تخاصم ..ومنهم من نجحت علاقته وشرارة الحب لازالت تنبض بداخله .

ومنهم مثلي ..ضائعة في ذلك الكون .

لم نطلب العشاء فورا ..ارتأينا ان نتحدث قليلا ثم طلبنا ..ولم اكن جائعة غير اني اردت شيء يبعدني من التطلع إلى علاء ..كان علي السيطرة على تلك الموجة من الخجل ..ولكني لم استطع ..وتردد هو كثيرا في بدأ الحديث بعدها قال أخيرا : " هل لي ان اتحدث معك بكل صدق ؟"

اجبته : " لطالما كنت كذلك معي " .

" انت محقة ..ولكن هذا الامر يختلف ..وأنت تعرفين جيدا ما اعنيه " اومأت له فتابع يقول : " على ما يبدو ان حديثي مع سرمد لم يفضي إلى شيء ..أليس كذلك ؟"

لم أجبه ..كنت احترق من الفضول لمعرفة حديثهما ..ولكنه لم يفض إلى شيء فعلا ..فلماذا علي أن اسأل ..؟!

تنهد قائلاً: " لا بأس ..من ردة فعله هو الآخر بدا ان الامر لم يسر على ما يرام ."

" انت مخطئ .." نظرت إليه بقوة : " لم يحصل شيء ..ولم نتحدث إلا لتوضيح بعض الأمور " كان علي ان احمي كرامتي حيث تابعت : " لقد اخبرني بأنه ليس معجبا بزميلتي إلى الحد الذي يذهب لخطبتها " .
" وهذا ما اخبرنا به أنا وامي .."

" وهل اقتنعت خالتي ؟" سألت قبل ان امنع نفسي ..لقد زرعت نرجس الافكار تلك ومن الافضل ان اتقبل ما سيحصل .

لم ينظر إلي علاء ..تشاغل بشرب كأس الماء وقال بعدها : " سرمد قادر على غلق الموضوع بنفسه" .

شعرت بالآلم يكتنز قلبي ..الموضوع لم يغلق إذن ..لا زالت خالتي مقتنعة بأن منال ربما هي زوجة مناسبة لسرمد .

وهل هناك اسوء من متاهة المشاعر التي أدور فيها منذ فترة ؟.

" لماذا اردت التحدث معي ؟" سألته بهدوء بالرغم من ان قلبي يأن من الألم .

اخذ علاء نفسا عميقا وقال بعد ان استجمع افكاره : " لأن الموضوع لا يجب ان يؤجل لأسبوع آخر ..لا اود ان يتطور ولا ان يفهم خطأ .."

لقد وصل إلى ما وددت تجنبه حيث تابع مردفا بحزم : " كل الكلام الذي سمعته بشأن خطبتنا سوية هو محظ كلام فارغ ..والدتي تخطط منذ زمن على ما يبدو ..منذ ان تقدم الدكتور لخطبتك ، ان خالتي وامي

متفقتان منذ زمن على هذا الشيء ..وقد اكدت والدتي الامر بزيارتها إلى منزلكم في الحلة .." وتوقف عن الكلام حينما اخذت انظر إليه بدهشة إذ تذكرت تلك الزيارة المفاجأة .. " هذا الامر غير وارد ألبته ..نحن كلانا يعلم بأن كل ما يجمعنا هو الاخوة والصداقة والود .." وبدا حازما كي ينهي كل جدل في الامر : " اخبرت امي بذلك وهذا ما ستخبرين عائلتك لو فتح الموضوع "

تمسكت بكوب الماء وقلت له : " ولكن سرمد بدا واثقا .."

قاطعني : " سرمد مخطئ تماما وقد وضحت له هذا الشيء قبل ايام "

" لا بد وإنه لم يصدقك .."

" لأنه اراد اختبار ردة فعلك ..ألم تفهمي بعد ؟"

قلت بقوة : " علاء ..ما قلته لي سابقا هو كلام لا صحة له ..سرمد لا يفكر بشيء تجاهي ..ولا تجاه زميلتي منال ..لقد توهمت فقط !"

تهكم قائلا : " أهذا ما حاول اقناعك به ..؟" لم أجبه فتابع : " حسنا ..فليقل ما يشاء .. انا متأكد إنه يملك اسبابه الخاصة "

استجمعت شجاعتي وسألته : " لماذا انت واثق من الأمر ؟" ورفعت بصري لأنظر إليه فأجابني بكل هدوء : " لأن الأمر لا يحتاج إلى تفسير ثالث ..منذ سنين تمنيت حصول هذا الشيء ..حسنا وما المانع ؟ ..انت طبيبة وهو محامي ..كلاكما تملكان مهنة خاصة بكما ..كلاكما له هويته الخاصة ..وهو اخي ..وانت ابنة خالتنا الوحيدة ..القريبة التي تضيء على بيتنا نكهتها الخاصة ..وايضا لان هناك دوما روح التحدي بينكما ..صحيح انها كانت امنيات ولكنها تبلورت تماما بعد ان توظفت

هنا .. منذ البداية حينما علم سرمد بأنك تسكنين الدار وبأنك لا تعودين كل يوم إلى منزلك .. حسنا انت تعرفين انه غضب ولكنه لم يغضب لهذا السبب ايضا ..".

قلت باستنتاج : " لأن قيصر اخبره عن نبيل ؟".

اوماً قائلاً : " أجل ، ولهذا اصر علي في الذهاب إلى المركز بدلا من دعوتك في بيتنا .. اراد ان يعرف شيء ، وحينما حضر زميلك وتصرف بتلك الطريقة .." ابتسم علاء : " كنت اظن ان حرب عالمية ستندلع ولهذا عجلته بالخروج .." وتابع يقول : " الامر لم يكن هذا فقط .. بل عرفت في يوما ما انه يخصص لك رقم خاص في هاتفه وبأنه يتبرع في الذهاب إليك في الدار متحملا سيارتي التي يكره قيادتها .. وحينما احتجز لأكثر من اسبوع ..".

" أنت تعلم ؟ .." قاطعته بدهشة .

اوماً : " أجل ، في تلك الفترة اخبرتك بأني سأتوصل لمكانه وهذا كان يعني الاتصال بكل زملائه وتتبع اخبارهم .. ولكنني اكتشفت كل شيء حينما دخلت غرفته اثناء اختفائه واطلعت على مفكرته " .

" تلك المفكرة عادة ما يكتب بها .. اليس كذلك ؟".

" نعم .. ومن هنا تشكل لي حافز لأعرف ما كان يدور خلف بابهِ المغلق، احتوت مفكرته على كثير من الالغاز وفيها ايضا مقالاته التي كتبها .. وبعض من الخطط المدروسة لحل قضاياها .. وهناك بعض الكتابات الأخرى ..".

" عن ماذا نتحدث ؟ .." شعرت بالاهتمام .

في تلك اللحظة من الترقب جاء النادل بوجباتنا وخشيت ان لا يتكلم بعدها علاء .. ولكن كلانا لم يمد يده للطعام .. أرتأى ان يتابع علاء قائلا بشيء من الجدية : " هناك اشياء لم افهمها بالطبع ولكنها احتوت على حقائق وقضايا تدين نائب المحافظ وتورطه في حادثة اختطاف لشخص ما يسمى عادل .. " .

اومأت له : " لقد اخبرني عنه .. " .

ابتسم علاء : " حسنا .. أنا شقيقه الاكبر ولكنه لم يمنحني هذا الشرف قط .. " .

شعرت بوجهي يحمر واتسعت ابتسامه علاء .. كيف من الممكن ان يكتشف علاء كل هذا .. حاولت ان امد يدي للطعام ولكني شعرت برجفة تسري في داخلي .. كنت فضولية جدا لمعرفة ما تحتوي تلك المفكرة ايضا .

" ثم هناك نصوص من صحفه .. ومقالات عادل التي نشرت في اعداد ماضية .. واطلعت ايضا على ارقام هواتف لأشخاص مجهولين .. ثم كانت هناك العديد من الصفحات الفارغة .. " ومد يده ليتناول قطعة من الخبز الحار : " وبعدها وصلت إلى اوراق مطوية اثار فضولي كليا .. وحينما تصفحتها سقطت عدة بطاقات تهنئة وكان هناك شريط تسجيل قديم .. " .

اصغيت باهتمام .. كنت تقريبا اكتم انفاسي .

" اول ما وقع بصري عليه هي البطاقات .. كانت قديمة للغاية .. ربما منذ اكثر من خمس عشرة سنة .. لم املك ادنى فكرة عن محتواها ثم كانت المفاجأة ان تكون البطاقات منك انت .. " .

ذهلت تماما : " مني أنا ؟ .. " .

" أجل ، لقد كان خطك الطفولي .. في اعياد ميلاد سرمد من كل عام .. كان هناك بطاقة لكل سنة .. تقريبا خمس بطاقات " .

" أنت تمزح .. " .

ابتسم : " صدقيني فاتن .. انا بالكاد ميزت خطك .. ولكنك كنت توقعين البطاقة باسمك .. فاتن ! " .

" انا لا اذكر هذا الشيء ابدا ! " .

" ربما لأنك كنت في الثامنة من عمرك .. " .

اخذت اشرب الماء وانا اشعر بالاحمرار يتصاعد إلي .. كيف لا اذكر هذا الشيء ابدا .. أكنت ساذجة حقا .. وطفولية للغاية ؟ .. بحيث كنت ابعث بطاقات تهنئة في عيد ميلاد سرمد من كل عام ؟ .. كيف يمكن ان يحصل هذا الشيء ؟ .

" لقد كنا اسرة واحدة ذات يوم .. الا تذكرين هذا الشيء ؟ .. حينما غادرتنا كنت في الثانية عشر من عمرك " .

" انا اذكر هذا الشيء بالطبع .. واحتقن وجهي بالإحراج .

" اذن ربما لا تذكرين ما يحتويه شريط التسجيل ؟ .. " .

ازداد الذعر في داخلي .. ماذا فعلت في الماضي ايضا ولا اذكره .. استطعت ان انفي بهزة من رأسي .. فأبتسم علاء مستمتعا بفقدان ذاكرتي الكلية فيما يخص تلك الايام وأجابني : " لقد كانت فكرة قيصر الصغير يومها ، في عيد السنة الجديدة ، اقترح علينا ان نسجل اصواتنا

حتى تظل ذكرى لسنين عدة .. وقد احببنا الفكرة وقمنا بتسجيل اصواتنا في تلك الليلة .. قيصر قام بذكر النكات التي يحفظهن .. وأنت قمت بالغناء ..".

قاطعته ضاحكة : " حقا ..؟".

" اجل .. كان صوتك طفوليا جدا ولكنك غنيت اغنية لكاظم الساهر ..".

اخفيت وجهي بيدي من شدة الاحراج : " أكنت احفظ اغنية لكاظم ؟".

اوما مبتسما : " لقد كنت تحفظيها منذ ان كنت في الثالثة من عمرك .. اغنية (تبكي ما تبكي أبد) الا تذكرين هذا الشيء ..؟".

هزرت رأسي نافية فتابع بود : " لقد القيتها بكل جدية بالرغم من موجة الضحك التي يفتعلها قيصر لمنعك من اكمالها .. ثم جاء دور سرمد وقام بإلقاء نشرة اخبارية .. لاطالما حلم ان يكون مذيع يقدم النشرة الاخبارية ..". ابتسمت وانا استمع اليه يتابع : " ثم ختمت انا الشريط بذكر اسمائنا وتاريخ ذلك اليوم والسنة الجديدة .. وحينما اصبحت الساعة الثانية عشرة ختمناه بضحكاتنا .. لقد كنت تقفزين انت وقيصر راقصة ..". وتابع وهو ينظر إلي : " لا تخجلي يا فاتن .. لقد كنا اطفال يومها .. وقد فرحت حينما استمعت للتسجيل .. كأنما حصل هذا البارحة".

هزرت رأسي : " أنا لا اذكر هذا الشيء ابدا .. كنت دوما العب مع قيصر .. رفيقي الطفولي الدائم ... ولكن معك انت وسرمد .. فلا احمل اي ذكريات خاصة ..".

ابتسم بود : " ولكني اذكر كل تلك الايام .. حينما غادرت وانتقلت إلى الحلة اصاب البيت موجة من الكآبة .. لطالما فكرنا بأنك جزء من بيتنا وبأنك ستكونين المدللة لجدتنا ومحبوبة الجميع .. كنا نفخر بك حينما تصلين لمراتب عليا في دراستك .. وحتى حينما دخلت الطب لم نشك يوما انك ستختارين كلية اقل من ذلك .. "

اردت ان اخبره اننا كنا متباعدين في فترات عديدة .. ولكنني خجلت .. وارتأيت ان انصت إليه وهو يتابع : " وحينما قبلت في الديوانية .. حسنا .. كنا محظوظين بعودتك بالرغم من اننا كبرنا واصبحت لكل منا اولوياته وحياته وتطلعاته المستقبلية .. ثم خابت آمالنا بعض الشيء حينما اخترت الدار بدلا من السكن معنا .. " واخذ نفسا عميقا : " لقد تفهمنا هذا الامر جميعنا الا سرمد .. حسنا انا اعرف شقيقي وهو لطالما كان متسلط فيما يتعلق الأمر بشأنك .. ولكن حين تطلعت بتلك المفكرة والبطاقات وشريط التسجيل حاولت ربط الامور معها .. لقد احتفظ سرمد بكل تلك الاشياء لسنين طويلة .. لم يقل شيء .. ولم يظهر الشريط ولا لمرة واحدة وحتى ولو في سبيل المزح وتذكر تلك الايام الماضية .. أتعرفين ماذا كشفت المفكرة ايضا ؟ " .

هزرت رأسي نافية .. وعدت اشعر بأنفاسي تختنق .

" لقد اكتشفت يومها الجانب الآخر من سرمد .. ذلك الجانب الذي لطالما اخفاه عنا .. وابعده بحرص حتى لا نعتبره ضعفا فيه .. لقد اكتشفت بأن شقيقي يكتب الشعر ايضا .. تلك الصفحات المطوية كانت قصائد شعرية لامرأة ما .. لم استطع قراءتها جميعا ولكنني اطلعت على جزء يسير منها .. هناك تلك القصيدة التي تميزت عن البقية .. قصيدة نثرية من عدة اسطر .. وكانت مكتوبة باللغة الانكليزية .. وحينما ترجمتها حرفيا عرفت

لماذا كتبها باللغة الانكليزية .. " ونظر إلي حينما كنت اتطلع لأن يكمل حديثه بفارغ الصبر .

" لقد ذكر اسمك في النهاية .. وهذا لم يكن واضحاً في اللغة الاصلية للقصيدة .. وقتها لم افهم شيء .. ولكنني عدت اتطلع بالبطاقات ثم ذلك الشريط القديم وربطت كل تلك الامور سوياً .. " وتابع بلهجة قوية اثارت انفعالي كلياً : " تلك القصيدة كانت مهداة لك .. كتبها سرمد منذ ما يزيد على السبعة اشهر .. ثم كانت هناك قصائد لم افك شفرتها يوماً .. ذكر فيها اسم وردة .. " احمر وجهي ولم استطع قول شيء وارتعد داخلي .. وكأن علاء يتحدث عن امرأة غيري .. بل عن رجل غير سرمد الذي اعرفه .

ثم نظر إلي نظرة ذات معنى .. هزنتي كثيراً .. وكأنه يخبرني بكل تلك الحقائق التي اخفاها سرمد لكي افهم حقاً شخصيته .. لأنه تابع يقول بصوت رقيق : " وقد تأكد لي الأمر حينما عدت إلى منزلنا خلال الفترة الماضية .. لقد سمعته يناديك بالوردة أكثر من مرة .. حينما تكونان غير منتبهان لأحد غيركم " .

تشاغللت بتعديل صحنِي ولكن توترني فضحني .. فارتجاف يدي منعني من قول شيء .. أردته ان يتوقف وفي نفس الوقت ذهلت لأنني اود سماع المزيد ..

" انا لا اعلم شيء عن الكبرياء التي تمنعه عنك .. ولكن كوني متأكدة من انه منذ البداية كان يعلم بمخططات عائلتي بشأننا وربما لهذا لم يقوم بخطوة .. وحتى بعد ان اخبرته بأن تلك المخططات جرت من دون علمي " .

ماذا كان رده ؟ .. هتف قلبي بلهفة .

" لقد غضب ولم يقل شيء .. ولكني تذكرت ردة فعله حينما تقدم نبيل اليك وكيف تصرف معك بحقارة .. وحينما واجهته يومها اخبرني انك لن تكوني الا جزء من منزلنا .. " ونظر إلي برقة : " ولهذا علينا ان نوضح للجميع بأن لا شيء يربطنا معا سوى الأخوة .. وعلى سرمد أن يتأكد من هذا الشيء .. " .

" كيف .. ؟ " سألته بقلب خافق .

اخذ علاء نفسا عميقا : " بطريقة ما او بأخرى .. عليك اولا اخبار خالتي (والدتك) بهذا الشيء .. ثم يتعين عليك مواجهة سرمد .. ستخبرينه بنفسك .. " .

ازدردت ريقي : " أنا لست شجاعة لهذا الحد " .

" ستفعلين فائن .. انه بحاجة ان يستمع إلى رفضك كي يستطيع القيام بالخطوة الأولى .. " .

الخطوة الأولى ، ، ! . تلك الخطوة التي لابد وستجعلني اقع مغشية عندما اخطوها ... اخبرت نفسي وانا اشعر بالاحمرار يغلفني .. انا لست شجاعة .. انا لا يمكنني ان اواجه سرمد ابدا .. لا يمكنني ان افرض نفسي عليه .. لا يمكن .. فلدي كبرياء .. ولديه هو ..

ثم تذكرت وجه منال .. وتلك اللحظات التي تشع بالغرور حينما آتي بسيرة سرمد .. واعتصرت يد باردة قلبي .. لازالت منال تتأمل حتى هذه اللحظة ان يقم سرمد بالخطوة الأولى .. ولكن ماذا ان خطاها نحوها بدلا

مني ..ماذا ان تمسكت بكبريائي ورأيت منال تنجح في جذب سرمد
حينما فشلت أنا بدوري ..؟..

اخذت الشوكة من المائدة ..قربت صحنى منى ودب النشاط في
داخلي..علاء محق ..حينما اخذ يأكل معي رأيت وجهه الراضى
وشعرت بالامتنان ..انه يحاول جاهدا ان يقربنا لبعض ..وكلانا متمسك
بكبريائه ..كلانا اقوى من الاعتراف بشيء ..إنه محق ..على اخبار
سرمد ..اجتذاب شجاعتي ومواجهته ..فمصيري كورده لا بد له ان
يتحدد ..ولا يمكن ان اجعل منال تصبح تلك الوردة ابدا ..على
الأطلاق ...!

الفصل الثامن والثلاثون

زواج

التقينا انا وسرمد قبل نزولي إلى مدينتي في نهاية الاسبوع ، حينما حضرت لرؤية جدتي وتوديعها .. بالرغم من اني رأيتها اكثر من مرة في ذلك الاسبوع ولكن زيارتي كانت قصيرة .. لا تتجاوز النصف ساعة .. فلم افسح المجال لخالتي للحديث معي ، لأن علي فتح الموضوع مع والدتي قبل كل شيء .. وتمنيت ان نلتقي بعد ان احداثها .. ولكن شاءت الاقدار ان يكون سرمد متواجد في يوم الاربعاء حينما دخلت غرفة جدتي وقد استيقظت لتوها .. بدا على وجهها النحول والتعب حينما كان سرمد يقيس ضغطها .. وجوده المفاجئ في الغرفة أجفاني .. ولكني سلمت عليهما وردت علي جدتي بوهن بينما لم يرد هو .. ولم يرفع بصره حتى لرؤيتي .. اقتربت منهما وسألته عن ضغطها فلم يجبني .. يبدو ان قرر تماما تجاهل وجودي .. وان تجهمي في لحظة اقترابي منهما از عجه للغاية .. حسنا فليز عجه .. انا لن اهرب بعد الآن كما دفعني لذلك قبل ايام .

اجابني في النهاية وهو يعيد الجهاز الى مكانه : " انه منخفض " اجابته كانت قصيرة وحادة .. فلم اصدقه .. وحينما عادت جدتي لتستريح سألتني عن حالي فجلست قربها وتناولت يديها لأخبرها بأني بخير ولكن عيناى كانت على سرمد وهو يرتب كيس ادويتها وحينما رفع بصره نحوي والتقت نظراتنا .. فهمت بأنه كذب بشأن ضغطها .. كان متكرر تماما .. ثم سألتني جدتي عن والدتي فأخبرتها بأننا سنأتي سوياً يوم السبت ، ، ازداد تجهم سرمد وامتألت عيناه بالحدة وسرعان ما اشار الي لخرج من

عرفتها .. فاستأذنت من جدتي وخرجت وانا اشعر بقلبي يرتجف قلقلًا .. وعند الباب سألته بلهفة : " هل ضغطها مرتفع ؟ " .

" كلا ، انه مستقر حاليا " نظر إلي بتفكير وسألني باقتضاب " هل انت عائدة للحلة غدا ؟ " .

اومأت : " اجل "

" ما لداعي لذهابك ان كانت خالتي ستأتي السبت ؟ " .

هل ينوي ان يجننني ؟ .. نظرت إليه وقد تعالت خفقات قلبي : " انا بحاجة لتغيير حقيبة ملابسني " .

" جدتي بحاجتك " قالها لينهي الجدل .

نظرت إلى الغرفة حيث كانت ترقد : " ولكنك اخبرتني ان وضعها مستقر .. " .

همس معنف : " ماذا يعني هذا ؟ .. ألم تعودي قادرة على البقاء يوما واحدا ؟ " .

عقدت يدي وحاولت السيطرة على ارتجاف صوتي : " ليس الأمر هكذا .. ولكنني احتاج للعودة لأن هناك ما سيلزمني .. " .

قاطعني باختصار : " يمكن خالتي ان تجلب ما يلزمك .. " .

التقت نظر اتنا بتحدي .. بعدها سألته باقتضاب : " هل هناك سبب لمنعي من النزول ؟ " .

" وهل هناك سبب اهم من صحة جدتي ..؟..لقد وجدتھا فرصة للهرب في تلك الايام اليس كذلك ..تأتين لنصف ساعة ثم تركضين للدار اللعين .." ولمعت عيناه بحدة ..فقلت وقد ارتجفت شفتاي من الغضب :
لن تتجاوز هذا الأمر أبدا ..اليس كذلك ..؟".

وتركته لأذهب إلى المطبخ ..لم يكن احد هناك لأن الجميع نيام في ذلك الوقت ..لقد عرف سرمد كيف يصطادني يومها ..فتحت الثلاجة..تناولت كأس من الماء المثلج ..كنت بحاجة لأن اعيد إلى روعي الانتعاش ..فسرمد قادر على سحب كل طاقتي الفعلية بجدالنا الأزلي .

ثم اكتشفت بأنه تبعني وعاد إلي توتري ..ولكني تصرفت ببرود..فأغلقت الثلاجة والتفت إليه بتحدي حينما رأيته يتكأ على طاولة المطبخ ، يبدو مسيطرا ..عيناه حادة تلمع بغضب دفين فسألته بعد ان طالت نظراته : " هل هناك امرا اخر ..؟".

أجابني وهو يخرج سيجارة ليدخنھا مستغلا عدم وجود أحدا غيري :
ربما .." واولع سيجارته ثم نظر إلي ولم تزل نظراته تبعث غضبا أصابني بالارتباك ..فقد نفذت نظراته إلى اعماقي ..

" هل كانت وجبة العشاء لذیذة قبل ايام ؟".

" عفوا ..؟".

أخذ يدخن بلا مبالاة : " الوجبة الحمیمة التي جمعتك مع علاء ..أكانت جيدة ..؟".

نظرت إليه بعدم تصديق : " كيف لك ان تعلم ..؟ " ثم تذكرت وشعرت بالغضب يغلفني : " آه .. بالطبع .. عصفورك اخبروك اليس كذلك ؟ " .

ابتسم .. ولكن لم تفتني نظرة التوتر التي القاها علي : " لقد كنت سريعة حقا .. " .

" سريعة بماذا ؟ " عالمة باحمرار وجهي الغاضب .

" بلجوك إلى علاء .. يبدو انك احتجت ساعة واحدة فقط لتتجاوزي صدمة الاخبار التي القيتها عليك .. " .

تمنيت لو ان زجاجة الماء بيدي .. لسكبتها على رأسه المغرور .

" انا وعلاء متفاهمان تماما .. " ثم ادركت ما معنى عبارتي تلك وكيف سيسيئ فهمها عقله الضيق الافق .. وقد حصل ذلك ، اذ لمع الغضب في عينيه وتجمدت يده على السيجارة .

تمنيت لو اني قادرة على كشف مشاعره حقا .. وما يفكر في تلك اللحظة .. بل تمنيت لو اني اتمادى حتى اعرف ردة فعله .. ولكن تلك اللعبة الحمقاء مدتني بتوتر لا حدود له .. كنت ارتجف داخليا وقلبي يخفق بعنف حينما طالت نظراته التقييمية الفاحصة .

" هنيئاً لكما .. " قالها هامسا .. ولكنها خرجت وكأنها شتيمة ما .

اخذت نفسا عميقا .. ان كان علي اقناع سرمد بالحقيقة .. فهذه هي الفرصة المناسبة : " أنت فهمت الموضوع خطأ .. أنا وعلاء متفاهمان صحيح .. ولكننا كالأخوة " .

ابتسم متهكما : " حقا .. افهميني كيف يا دكتورة ؟ .. اعذري ذكائي المحدود " .

تجاهلت غضبي .. تمسكت بصوتي ثابتا وقلت له مفسرة : " هذا يعني بأن لا علاقة غير الاخوة والود تربطني بعلاء .. ويومها حينما تناولنا العشاء سوية وضحنا هذا الامر لبعض .. " .

شخر سرمد قائلا : " أقالها في وجهك بكل جدية .. هل اخبرك .. فاتن انا اعتبرك شقيقة بالنسبة لي ؟ .. " .

اجبته بوجه محمر من طريقته في الاستهزاء بكلام شقيقه : " اجل .. وما المانع في ذلك .. ؟ " .

" لا مانع طبعا .. اخي رجل صريح ولكن ماذا عنك .. هل كنت صريحة معه وأخبرته بالمثل ؟ " . " بالطبع .. لماذا تسأل ؟ " .

لم يجبني بل عاد يسألني بتهكم : " وإن فاتحتك العشيرة بالموضوع الذي يجب على كل فتاة ان تشعر بالحياء منه .. ماذا سيكون ردك دكتورة ؟ " .

كنت اكره حينما يلقبني بالدكتورة .. يشعرني وكأنه يكره لقبني ذاك ولا يستعمله إلا حينما يود الاستهزاء بي .

اجبته بقوة : " سأخبرهم بالحقيقة .. انا وعلاء مجرد اشقاء .. " .

" انتما ابناء خالة يا ذكية .. " .

" ولكننا نشعر بأننا شقيقان " قلت له بتحدي .

" رائع .. هل ستخبرين والدتي بذلك حينما تفاتحك بالموضوع ؟ " .

اجبته متلعثمة: " سيقوم علاء بتوضيح هذا الامر لها .. انا فقط سأخبر عائلتي .. "

علق ساخرا: " يبدو إنكما حللتما كل شيء " .

" أجل .. اخبرتك بأننا متفاهمان " .

وصدحت كلماتي في المطبخ .. كان سرمد يتعمد ان لا يفهمني .. وهذا اشعرنى بالبؤس .. ماذا يريد ان اقول حتى يقتنع ؟ .

" اذن ما دامت العلاقة ودية بينكما ما هو سبب هروبك المستمر من بيت جدك ؟ " .

تحركت نحو المجلى .. حاولت ترتيب المكان لأنشغل عن نظراته الفاحصة .. ماذا سيقول لو اخبرته بأنني هاربة منه ومن مشاعري .. ومن كل ما اخبرني به علاء يومها .. تلك المفكرة التي تحمل كل اسرار سرمد والتي لا تبعد عني الا بضعة خطوات .. ماذا سأفعل لو وقعت في يدي يوما ما .. وقرأت كل ما كتبه سرمد عني .. ماذا ستكون ردة فعله لو اني اخبرته بأن علاء كشفك .. وبأن هذا الجدار الصلب الذي تحمي نفسك به قد ينفطر يوما ما وتظهر كما أنت .. سرمد الخال من الكبرياء .. كإنسان طبيعي مليء بالأخطاء والافواج ؟ .

" انا لست هاربة .. انا فقط لا اود ان تنزعجوا من توصيلي كل يوم " .

" ربما كان عليك البقاء اذن " التفت لأنظر إليه فرأيتة ينهي سيجارته ليقترب ويضعها في المجلى .. فحملتها ورميتها في سلة القمامة حينها فقط شعرت بأننا اصبحنا قريبان من بعض .. اردت التحرك ولكنه سد علي الطريق فسألته : " ماذا .. ؟ " ولكني كنت ارتعد داخليا .

" هل قررت البقاء ؟".

نفيت وانسدلت خصلة من شعري ففتبعها سرمد وسألني ببرود :
وستذهبين بعد نصف ساعة ؟".

ابتسمت ونظرت إلى الساعة : " الواقع ان النصف ساعة انتهت .."
وضحكت حينما لمع المكر في عينيه ، كان سرمد يصر على بقاء
بطريقة غريبة .. " دعينا نفهم ..ماذا ينتظر هناك ؟".

" العشاء في الدار مع صديقاتي ..".

" تناوليه هنا " .

" كلا ،، " أكدت على كلامي بعناد .

" لماذا تصرين على الذهاب ؟".

اجبته : " أنا لا .." واعدت الخصلة خلف اذني ولم يتزحزح سرمد من
مكانه وتابع وكأنني لم اعترض على كلامه : " ما دمنا جميعا اشقاء في
نظرك .. فلماذا الهروب ؟" .

عدت اقول : " انا لا .." ثم توقفت عن الكلام واحمر وجهي .

" انت ماذا ..؟ السنا كذلك ..ام ان علاء المحظوظ الوحيد " لابد وان
احمرار وجهي زاد لان سرمد لم يشح بنظراته عني ..وانا تذكرت كل
كلام علاء وازداد تلغثمي : " بال طبع ..انتم ..ك ذلك .." وعقدت يدي
كي لا ينتبه الى ارتجافي ..

سمعته يتساءل بلهجة ساخرة : " حقا ؟ ..هيا اثبتي لي ذلك ..".

" عفوا .. " وتضرج وجهي حينما رفعته لأنظر إليه .

ابتعد قليلا وقال لي : " أخبريني بذات الطريقة الحلوة بأننا بنظرك انا وقيصر اشقاء ! " .

ما هذه الورطة ؟! لقد تعمد سرمد ايقاعي في الفخ ..

" لماذا ؟ " .

" لأنني اود سماعها منك .. هيا اخبريني .. اقنعيني بذلك " .

لقد كان سرمد يتلاعب بي تماما " قيصر بالنسبة لي كذلك .. " .

لم يعلق بل سألني مباشرة : " وماذا عني انا .. ؟ هل انا ابن البطة السوداء ؟ " وأولع سيجارة اخرى فاتحا باب المطبخ حتى يتبدد الدخان .. نظرت بقلق الى الباب الاخرى خشية استماع احدهم الى حديثنا .. ثم اجبته بصراحة : " كنت اتمنى ان نصبح اشقاء " .

" اف .. اف .. ومن دمر تلك الرابطة الاثيرة ؟ " .

أنت وكل افكارك وتصرفاتك وتسلطك علي .

" لا شيء سوى إنك تحاول دوما زعزعة ثقتي بنفسي .. الشقيق الحقيقي هو داعم لشقيقته واثقا من تصرفاتها ومبادئها " هنأت نفسي لقولي هذا .. ولم يعجب سرمد لأنه اتكأ على باب المطبخ المفتوح وتمتم يقول : " حينما تكون الشقيقة مطيعة .. ملتزمة بقوانين بيت جدها ، لا تتهرب .. " حاولت ان اعترض ولكنه تابع بلهجة مشددة ذات معنى : " لا تتعالى على الآخرين لأنها اصبحت طيبة .. " .

قاطعته وقد استفزني كلامه : " لهذا السبب إننا لسنا اشقاء .. لأننا غير متفاهمان ابدا .. انت تظن الأسوأ بي على الدوام " .

ابتسم : " إذن ان لم نكن اشقاء .. فماذا نكون ؟ " .

عدت ارتب الصحون في مكانها وتمتعت اقول باستفزاز : " أعداء .. " .

سمعت ضحكته والتي زلزلت دقات قلبي .. واحتجت عدة ثواني لأركز في عملي بدلا من الاستماع لنبرة الارتياح في ضحكته : " من الغريب اني اعتبرك وردة يا عدوتي .. " تذكرت القصائد وذاب قلبي من صوته الرقيق : " هل من المسموح للأعداء ان يتشاركوا الاسرار مع بعض ؟ " .

" ربما .. ولكن عندما تصبح هدنة بيننا " .

" وكيف ستكون الهدنة يا ترى ؟ " .

فكري فائن .. انها فرصتك .. " حينما يتوقف القتال بيننا .. " والتفت إليه لأتابع : " وتتوقف عن التدخل في شؤوني ومراقبتي .. تمنحني الثقة التامة .. تصدقني حينما اخبرك بأني لا اتعالى على أحد " .

أخذ يدخل وهو يفكر بكلامي ثم قال : " انها شروط صعبة .. ولكن يهمني معرفة ما بعد الهدنة .. " .

" ماذا تقصد ؟ " .

" ان فعلت كل ما طلبته مني .. كيف ستعاملين معي ؟ " .

اجبته بتفكير : " حسنا .. أنا اعلم بأنك لن تتنازل عن شيء .. ولكن لو حصل هذا .. فربما سنكون اصدقاء .. " .

ابتسم للحظة وعلق : " سأفكر في الكلمة بمعناها الحقيقي .. أصبحت ملائمة أن أعتبرك وردة يا صديقتي " .

قلت معترضة : " عليك ان تنفذ الشروط أولا .. " .

انهى سيجارته وقال مستسلما : " الشروط فروض .. ولأثبت لك بأنني ملتزم بها .. سأوصلك بنفسى الآن إلى الدار .. " .

كان هذا انتصار حقيقي .. أنهيت عملي بسرعة .. مررت على جدتي لأراها فوجدت عندها خالتي سعاد .. ودعتهما متعلقة بأعذار في الدار وخرجت مسرعة إلى سرمد الذي كان ينتظرني في السيارة .. كانت تلك من المرات النادرة التي اشعر بالارتياح لوجودي إلى جانبه .. فهو القى السلاح فعلا .. ولكنه يدفعني إلى الشعور بالخلل خاصة حينما يطيل بنظراته إلي ويترك لي المجال لأتحدث .. لقد اكتشف يومها اني ملمة بالأخبار السياسية والوضع الاقتصادي للبلد . سرني حينما لم يعد يستهزأ بشأن افكاري ومعتقداتي .. ويبدو انه اخذ شروطتي على محمل الجد ..

وحينما تقابلنا في يوم السبت اقترب مني وأنا اهوم بالدخول إلى غرفة جدتي مع الدتي وسألني هامسا : " وردة .. هل اخبرت والدتك ؟ " .

تضرع وجهي إذ رأيت لهفته .. وخفت على دقات قلبي ان تفضحني .. أجبته هامسة : " أجل .. ستحسم الموضوع مع والدتك اليوم " .

ابتسم لي .. وتجمدت في مكاني .. لم اعرف ماذا علي فعله .. ارتبكت وخشيت ان اتعثر وانا ادخل معه الغرفة .. تلك التيارات الخاصة الدفينة بدأت تظهر على السطح .. نظراته المليئة طوال الوقت كانت تتبعني

وهذا ما اربكني .. تقابلنا مرة اخرى بعد الغداء حينما كنت اغسل يدي
فعلق قائلاً بمرح : " لقد كانت شهيتك للأكل مفتوحة يا وردة .. " .

لا بد وإنه راقبني اثناء الغداء .. احمر وجهي وشعرت به يتجمد إلى
جانبي ولكنه فسح المجال لعلاء كي يغسل يده من بعدي .. ابتسامة علاء
المميزة جعلت وجهي يحمر اكثر .. وهربت عائدة إلى الداخل .. كنت لا
ازال اخجل من مراقبة علاء لنا .. ولكنني على امل ان يخطو سرمد
الخطوة الأولى .. وانتظرت لأيام .. وتحولت الايام لأسابيع .. وابتدأ الأمل
في داخلي يخبو بريقه .. فهو بالرغم من التزامه بالشروط ولكنه ابتعد
تماما عني .. فلم يعد يتدخل في ذهابي وعودتي .. ولم يعد يستهزأ بي
ويحاورني بلهجته المستفزة .. كان ودود على الدوام معي .. ولسبب
ما .. لم اشعر بالراحة من ذلك .. فوده ذاك لم يكن يعني شيء .. ويمكن ان
يفسر بأية تفسير بعيدا عن معتقدات علاء وافكاره بشأننا .. وحينما ذهبت
إلى بغداد بعد شهر من ذلك لأحضر عرس نرجس لم أخبره ابدا .. وكان
العرس بمثابة دواء لكل خيبات أمني .. خاصة لأنني رأيت صديقاتي
المقربات مرة أخرى .. ريهام وسوسن وداليا .. وشكلنا بالإضافة الى
منال وانا مجموعة مميزة اثناء العرس .. فتحلقنا حول العروس والتي
كانت مذهلة بفسطانها الابيض .. ورقصنا لساعات متواصلة حتى نهاية
الزفة .. وحينما جاء احمد ليأخذها لم استطع منع نفسي من البكاء .. فهما
كانا مثاليان .. سعيدان .. وذهبت لأعانقها قبل الذهاب فناولتني حقيبتها
وبعض الهدايا لتخبرني أن اضعها في سيارة العرس ريثما تجهز لتزف
مع احمد .. غادرت القاعة وفسطاني الطويل يرفل حولي .. كانت الساعة
قد تجاوزت الثامنة ليلا .. وقد قررنا المبيت انا ومنال في بيت خالتها
الذي يقع في منطقة جميلة في بغداد .. كانت سيارة العرس مميزة من
بين السيارات المتوقفة .. وبالرغم من ازدحام المكان بالمحتفلين

استطعت الولوج إلى السيارة ووضع اغراض نرجس كما امرتني ..ثم خرجت منها واذا بالسائق يقف امامي ويجفاني بطوله الفارع ..رفعت بصري إلى اعلى وأخرستني المفاجأة ..لقد كان محمد ..

" مرحبا باباتي ..كيف حالك ؟"

لم اجبه اول الامر ..كان لايزال شامخا بطوله ..مرتديا بذلة انيقة ابرزت شخصيته القوية ..وابتسامته الذهبية التي اشتقت لها كانت مرتسمة بود على شفثيه ..لقد كان مسرورا من رؤيتي ..ولكني لم اكن كذلك ..لقد سمعت مرة من نرجس انه تألم كثيرا لأنه رحل دون ان يراني ..ولأنني رفضت وداعه وقررت مخاصمته وفاءا لصداقتي بريهام..ريهام الحبيبة التي لا تبعد عنا سوى امتار ..أتراها تدرك بأن نرجس ستزف بسيارة محمد ..

" انا بخير ..وأنت ؟"

اتسعت ابتسامته : " بأحسن حال ..هل استمتعت بالعرس ؟"

اومأت له ..ثم راعني ان انتبه ليده ..ورأيت خاتم فضي يزين اصبعه الرابع ..كدت اشفق وأنا ارفع بصري إليه بصدمة : " هل ..تزوجت ..؟"

اجابني وهو يضع يده على الخاتم : " أجل ..منذ شهر فقط .."

كيف ذلك ..لماذا لم نسمع بهذا الامر ..؟..ماذا عن ريهام ..وهل تعلم ؟..شعرت بالصدمة تهزني ..تمتمت شفثي تقول : " مبارك .." هذا بينما كان قلبي مثقل بخيبة أمل كاسرة ..لازلت اتأمل ان يأتي اليوم الذي يصلح في كل شيء ..يعود الحبيبان إلى بعضهما ..يتحديان كل الظروف التي فرقتهما عن بعض .

شعرت بتيبس اطرافى .. وتحركت لأبتعد ولكنه قال لي : " مهلا توقفي .. " التفت إليه .. شعرت بالدموع ترطب عيني .. لقد كنت محقة لأنني خاصمته .. فهو لا يستحق إلا ذلك .

" ماذا هناك ؟ .. "

بدا عليه التردد ثم سألني مشيرا إلى القاعة : " هل هي موجودة هناك ؟ .. "

اومأت له ونزلت دمعة .. رآها هو وتغيرت نظرتة .. بدت عيونه السوداء مليئة بالعطف والرقّة والاعتذار فأبعدت بصري عنه وسألته : " أترأك أحببتها يوما ؟ .. "

أجابني بعد لحظة : " لا أعرف .. "

كان جوابا صادقا .. عدت انظر إليه ورأيت الضياع مرسوما على وجهه .. أخبرني بعد لحظة : " أنا نادم فقط .. "

" على ماذا ؟ .. لأنك ألمتها ؟ .. "

اخذ نفسا عميقا وأجابني : " لأشياء أخرى .. ما كان علي جرّها معي في تلك المعمة .. "

سألته بقوة : " وهل انت سعيد في حياتك الآن ؟ .. "

" ربما .. لطالما تساءلت ماذا ستكون ردة فعلي لو إننا تقابلنا مرة ثانية .. "

ستكون كارثية بالنسبة لها .. هي بحاجة لسنوات عديدة حتى تنساه .. تقتلعه من ذاكرتها .. وجدانها .. وروحها .. بينما ماذا كان بالنسبة له ؟ .. ثلاث اشهر فقط .. ؟ ..

" أمل ان تملك سنين عديدة كي تبقى تتساءل عن ذلك ..".

كانت هذه اشارة مني ان لا يحاول ان يراها وجه لوجه بعد خروج الضيوف من القاعة .. او مألني مستجيبا .. ثم نظر إلي بوداعة وأخبرني : " كوني بخير بابا .. ألن تفعلني ؟ " .

هزرت رأسي وفاضت دموعي .. كان وداعه مرا .. واعترافه بخطئه وجبته أضاعا الكثير من حياته معها .. رأيت عيناه المكسوة بألم حينما خرج الضيوف من القاعة .. فارتأيت ان ابتعد ودخل هو إلى سيارة العرس منتظرا مجيء العروسان وشكرت ربي ان ريهام لم تظهر بل بقت في الداخل ولا بد انها كانت تنتظر شقيقها ليأتيها .. ولأنني كنت من المقربين إلى نرجس ذهبت لأساعدها لتجلس في السيارة مع عريسها .. وقال كلاهما لي : " ما رأيك ان تأتي معنا في سيارة الزفة " . ارتبكت ونظرت إلى محمد والذي بان الأمل في عينيه .. ارادني ان اوافق .. ولكن من الصعب علي ان اتخلي عن ريهام .. بالرغم من كل الود الذي كان بيننا انا ومحمد .. لم استطع مسامحته .. رفضت وأنا اودعهم مخبرة إياهم بأنني سأعود مع منال إلى بيت خالتها .

تحركت السيارة مبتعدة وعدت إلى القاعة لأجلس مع الفتيات ولكنني كنت اشعر وكأن روعي انتزعت من مكانها .. نظرت إلى ريهام فوجدتها تضحك وهي تجلس على المائدة معنا .. بدت مذهلة الجمال .. ناعمة .. انيقة في اختيار فستانها .. واعتصر الألم في داخلي .. لم تكن تستحق أبدا تلك الطعنة من محمد .. لا تستحق ان تعرف بأنه لم يتخلي عنها فقط .. بل تزوج بعد ثلاثة اشهر من فراقهما .. ولم استطع التفوه بشيء .. حتى وهي تنظر إلي بابتسامتها الرقيقة الحنونة .. وبلهجتها

التي تدلني بها .. كانت لاتزال تعتبرني ابنتها وفراشتها .. وكنت اتمنى ان استحق تلك المكانة على مر السنين .

العودة إلى الديوانية كانت اصعب بكثير من ما توقعت .. فقد اتصلت بي والدتي في اليوم التالي لتخبرني بأن جدتي عادت إلى الغيبوبة وأن حالتها ساءت تماما ، نقلوها الى المستشفى الرئيسي في المدينة ثم اعادوها للبيت لأن طلبها الوحيد قبل ان تسقط في الغيبوبة ان تموت في منزلها .. كانت غرفتها هادئة في ذلك اليوم حينما دخلت إليها .. خالاتي وابي وامي .. علاء وقيصر وسرمد كلهم مجتمعين هناك .. ولكنني جلست على السرير .. قبلتها ودموعي تنزل .. كانت السكينة تملؤها .. لم تتألم وهي في غيبوبة وسكرات الموت تلاحقها .. أمرنا والدي ان نغادر وفعلت كذلك .. هرعت إلى السلم .. جلست على الدرجات وحضنت جسدي المرتجف .. لم اود رؤيتها وهي تفارق الحياة .. انتظرت عدة دقائق واستمعت لبكاء خالاتي وامي .. وصوت والدي يقول : " لا إله الا الله .. " ارتجفت .. وزاد نحبي .. رأيت سرمد يخرج من الغرفة وحينما رأيته جالسة على السلم اتجه إلي .. صعد الدرجات وجلس إلى جانبي .. وكأن مشهد جلوسنا على السلم يتكرر .. ففي ذلك اليوم المشؤوم ادركت بأنني أحبه .. وما هي الا لحظات حتى اهتز جسدي المجفل وشعرت ببيدين تحوطاني .. تلمان دموعي وانكساري وحزني على جدتي .. كانت المرة الاولى التي يحضنني جسده القوي وصوته الذي استمع اليه كان يهتز بالصدمة : " ترحمي لها حبيبتي .. " فتمسكت بقميصه وفاضت دموعي بغزارة .. وبينما كنا نواسي بعضنا البعض ضغط سرمد على يدي ثم تشابكت اصابعي بأصابعه .. وادركت بأن اقدارنا لا تزال معا .. حتى وإن كانت وصية جدتي قبل ان تغيب عن

العالم أن لا يكون لنا نصيب معا .. وأن تتحقق أمنيتها في ان تراني
عروس للبيت .. عروسا لحفيدها البكر .. علاء !.

الفصل التاسع والثلاثون

وداع

وداع جدتي كان الاصعب علينا جميعا .. فهي لم تكن بالنسبة لنا امرأة مسنة مريضة .. بل الحياة لذلك المنزل الذي ولدنا فيه وتربينا على قيمه ومبادئه .. والذي سرعان ما امتلئ بالمعزين من كافة الاقارب .. اناس سمعت عنهم ولم ارهم قط .. لم يتواصلوا خلال تلك السنوات الا قليلا .. رأيتهم هذا اليوم بكون جدتي وكأنهم لم يغيبوا عنها قط ...!.. البكاء المتواصل والانين .. المرارة التي شعرنا بها نحن اصحاب المنزل طغت على كل ارادة لنا .. لم نكن اقوياء ابدا .. انا وامي وخالاتي الأثنين .. اولاد خالتي .. كلهم كانوا بشر .. يتألمون .. ويحزنون .. وربما يكون ...!.. الشيء الذي يعزي قلبي بأن معاناتها لم تطل .. وان ادوية الكيمياوي الذي تأخذه لم يكن له اية جوانب أخرى .. وبأن ذاكرتها الزاخرة بسنين طوال لم تتلف .. وبأنها حينما فارقت الحياة لم تتألم .. بل خلدت في سبات طويل اسلمت روحها للبارئ .. أيام مرت علينا لم نشعر بالليل والنهار .. الطعام ، النوم ، الراحة .. كنا في حالة حداد .. وقد استمر ذلك وكأن سنوات مرت علينا ، اختفت البهجة من المنزل .. وقامت خالتي سعاد بغلق غرفتها كليا بعد مرور عشرة ايام .. وحينما فعلت ذلك تجدد الالم في داخلي .. فتلک الغرفة كانت ملاذ لي في الايام المنصرمة .. ولم يعد من حقي الدخول اليها والنوم الى جوار سريرها اتخيل وجودها في الغرفة ، وحينما خلا البيت من المعزين التفتنا الى انفسنا .. والى البيت الموحش والذي خلا من جدتي .. لملمنا ارواحنا الضائعة وتساندنا كي نقف من جديد على اقدامنا .. ولكنني شعرت بأن

روحي لن تعود إلى ألقها الماضي ..خاصة بغياب سرمد والذي جعل قلبي في وحشة دائمة .في الاسبوع الأول كنت بالكاد اره من انشغاله مع اشقائه في مأثم الرجال ..ولكن بعد مرور العشر ايام الاولى اختفى سرمد تماما ..لم يعد يأتي للبيت ..توقف عن اظهار دعمه للآخرين واختفى ..ولابد وانه عاد لينام في مركز الجمعية التي يعمل بها لأن لا احد من افراد عائلته قد سأل عنه .

الغياب يجعلني في شجن دائم وكأن جرح قلبي لن يطيب ..ولن استطيع التنفس مرة ثانية.. ولن ابتسم ولن يختض قلبي برؤية سرمد ..ولن اكتم انفاسي حينما استمع لصوت الباب الخارجي وهو يفتح ثم يدخل سرمد إلى البيت ..غيابه موجه هو الآخر ..مضت ثلاث اسابيع لم استمع لصوته حتى ..ولا وجوده الداعم حولي . .لازلت اذكر ذراعيه التي ضمنتني على السلم ..ويده القوية التي شابكت اصابعي بدعم ..ونظرات عينيه التي ملئها الكدر والألم وهي تتلقف دموعي المنهمرة ..وصوته العذب وهو يواسيني ..يخبرني ان لا ابكي ..وأن اترحم على روح جدتي ..لازلت اذكر همسته المخوفة وهو يردد كلمة حبييتي ..والتي خرجت كبلسم داوت صدمتي وارتجاف جسدي ..أكانت هي الاخرى اوهام ام انها حقيقة ..ام انه ندم تماما على اظهار ضعفه واختفى دون ان يترك اثرا لغيابه ؟.

كرامتي منعتني من سؤال علاء ، وايضا لأننا نمر بظروف صعبة وليس من المنطق ان الجأ إليه وهو الذي امتنع عن الحديث ودخل في حداد صامت على روح جدتي ، مرت علي أيام شعرت بأنني لوحدي في هذا العالم ..نرجس كانت مختفية في شهر عسلها وسمية جددت اجازتها اما منال فلم تفارقني قط ..بل انها في الايام الاولى من وفاة جدتي تكفلت هي بالاهتمام بالبيت ، فكانت تحضر الشاي والفتائر وتقدم الطعام

للمعزين ..تساعد خالتي نجاح في الطبخ ..تعاونني في تنظيف المنزل..كنت اشكر وجودها ولكن في الوقت ذاته شعرت بأنها لم تفعل ذلك عن طيب خاطر ..وإنها حاولت اثبات مكانها في بيت جدي ..ولأنها مبهرة باللون الاسود وملابس الحداد فكانت النساء المعزيات بعد انتهاء القراءة والخلود للراحة يلاحقنها بنظراتهن ...فكانت تجذب الجميع حتى خالتي سعاد التي زاد اعجابها بها وكسبت رضا والدتي وحب خالتي نجاح ..وحيثما تعود في الليل إلى الدار وابقى بمفردي ..كنت اشعر بوحدة فظيعة ..فيوما بعد يوم كانت منال تتألق ..تبدو اكثر جمالا في عيني وفي عيون الآخرين ..وكنت اذبل لوحدي ..اموت كالوردة العطشة لمائها ..

طال صيامي لشهر كامل ..تجرات أخيرا على ارسال رسالة لسرمد بعد غيابه المر ..اردت الذهاب اليه هناك والصراخ في وجهه ..اخبره بأن هناك في الحياة من هو اهم من عملك ذاك ...بأن الروح التي تركتها معلقة في منزلك تذوي وتذوب كشمعة وأنت لست موجود حتى لتضيئها..لازلت اذكر ارتجاف روحي وانا ارسل له الرسالة في احدى الليالي التي خلد بها الجميع للنوم وبقيت لوحدي اكابد مرارة الوحدة..والوحشة التي اسدلت ستارها علينا ..كتبت في الرسالة (اين انت ؟) فلم يرد ..مرت دقائق طويلة كنت انتظر بلهفة ان يتصل ..او حتى يرد برسالة ولكنه لم يفعل ..بعدها تذكرت الرقم الذي خصصه لي وهكذا ارسلت ذات الرسالة ...انتظرت دقائق ثم اذا به يرد برسالة (ماذا حصل ؟).

قرأتها وتمنيت لو انه الآن امامي حتى استطيع ضربه ..لماذا سرمد يملك القلب الأكثر انانية على الاطلاق ..؟..ارسلت وأنا اداري خيبة املي وبؤسي (لم يحصل شيء ..اردت الاطمئنان بأنك بخير) فأرسل

لي بكل اختصار (انا بخير) ولم يقل غير ذلك .. ولم يكتب ليسألني عن
حالي مثلا .. ولم يتصل حتى .. ونمت تلك الليلة بكرامة مجروحة .. وبقلب
ينوح صمتا !..

في يوم الاربعين رأيت .. ادركت بعدها انه يزور عائلته في الصباح
حينما لا اكون موجودة عادة .. إذ اني عدت يومها من الدوام مبكرة وهذا
لأننا قررنا الذهاب الى النجف فرأيتته هناك جالسا في المطبخ يتناول
الشاي .. اكتنز وجهه المنغلق بلحية طويلة .. عيناه بدت غائرة .. جسده
كان نحيل وكأنه ليس سرمد الذي اعرفه .. لقد أثر عليه موت جدتي
بحيث انه لم يكن في مزاج للحديث مع احدهم .. التقت نظراتنا لحظة
دخولي المطبخ .. واشاح بوجهه عني حينما سلمت عليه بصوت
مرتجف .. متلهف .. رد علي باقتضاب واستمر يشرب متجاهلا
وجودي .. وقفت للحظات في المطبخ لا اعرف ماذا افعل .. هل اعاتب ام
اتجاهل وجوده ولكن الشوق فتك بقلبي .. اردت ان ابقى اطول مدة .. ان
اثبت له وجودي .. ان اخبره بأنني بحاجة له .. ولكنه بدا شاردا في عالمه
الخاص فانسحبت من المطبخ وأنا اداوي كرامتي الجريحة .. وبعد ذلك
لم اتجرأ حتى على النظر اليه .. طوال الطريق الى النجف في سيارة
(الستار اكس) التي أجرها قيصر لنا تجاهلت انه يجلس في المقدمة مع
علاء .. جلست إلى جانب قيصر فيما جلست خالتي الى الورا .. وحينما
مررنا من الحلة اخذنا والدي معنا حتى نؤدي مراسيم زيارة
الاربعين .. كانت القبور مكان موحش للجميع .. آسيت على جسد جدتي
الذي دفن إلى جوار قبر شقيقتها وزوجها الذي انكرها .. آسيت غربتها
الجديدة .. آسيت الفراغ الذي اتسع بيننا لحظة جلوسنا على قبرها .. لازال
قبرها جديدا .. تساءلت كم من السنين ستمر وهي راقدة هنا .. و تمنيت ان
يتوقف الكون حتى انعم برؤيتها مرة ثانية وابتسامتها الماكرة وهي

تناولني قطعة الحلوى .. تخبرني بأنها احتفظت بالأغلى للأغلى . ذرفنا الدموع وقرأنا القرآن على قبرها .. وما ان قمت من الارض ورفعت بصري نحو والدي رأيته يقف الى جانب علاء بينما وقف قيصر قرب والدته وأمي .. أما سرمد .. وقف بعيدا مديرا ظهره عن البقية وبدأ انه يدخل مستغلا انشغال الجميع بقراءة القرآن والفتاحة على روحها .. غضبت من جفاءه وقسوته الظاهرة وعزوفه عن الحديث مع الآخرين .. ثم اذا به يلتفت لينظر نحونا ورآني انظر إليه .. أشحت بوجهي عنه هذه المرة ولكن ليس قبل ان أرى نظرتة الفارغة التي حطمت قلبي .. وحينما عدنا اخيرا بعد ذلك اليوم المتعب .. لم ارجع للديوانية .. ارتأيت ان اعود اخيرا الى منزلي بعد غياب لأكثر من اربعين يوما .. اردت ان اداوي قلبي المحطم .. وروحي التي هاجرت بعيدا عني .. غابت ب وفاة جدتنا .. وبجفاء سرمد معي .

غبت لثلاث ايام ولكني عدت مرغمة بسبب الدوام ولأن التزامي بكل يوم كان الهاجس الذي امتلكته تلك الفترة .. فكلما كثرت اجازاتي كلما التعويض عنها يصبح اكثر صعوبة .. وكنت انوي ترك الديوانية ما ان يظهر التدرج .. آمله في العودة الى مدينتي .. إلى الحلة .

لم اذهب لبيت جدي يومها .. بقيت في الدار لأيام ثلاث ثم مررت يوم الخميس في زيارة سريعة .. رأيت خالاتي وجلست معهن قليلا .. اردت الخروج قبل مجيء سرمد والآخرين ولكن خالتي سعاد اخذتني إلى غرفتها الخاصة .. توجس قلبي من طريقة امساكها بيدي .. خفت ان تفتح معي موضوع منال .. اذ انها اجلسنتني على سريرها وذهبت إلى دولا بها

لتسحب كيس ابيض اللون وعادت لتجلس إلى جانبي ابتدأت اقول : " خالتي .. ماذا .. " .

مسكت يدي لتجعلني اصمت .. بعدها اخرجت من الكيس صندوق خشبي قديم .. وقدمته إلي وابتدأت تقول بصوتها الواثق : " كل ما اوده ان تنصتي إلي .. من دون ان تنطقي بحرف واحد " وفتحت باب الصندوق وارتتي ما بداخله .. كان الصندوق لجدي .. هذا كل ما استطعت استيعابه . رأيت فيه عشر اساور ذهب .. قلادتين من النوع الثقيل .. ثلاث محابس .. وبعض الاقراط لم استطع عدّها لأنني كنت منبهرة .. بينما تابعت خالتي سعاد : " الحياة يجب ان تستمر .. هذا ما علمته لي أمي منذ الصغر .. ولطالما قمت من المحن كما فعلت هي .. وانتهجت نهجها .. لم اتوقف لأنظر للوراء .. ربيت اولادي كما ربّتنا الغالية رحمها الله .. وهذا ما يجب ان تفعله انت في المستقبل .. الصندوق وبمحتواه هو لك .. هدية جدتك .. " ومدت يديها لتمسك وجهي وتبعد شعري عنه .. كنت من الذهول بحيث لم استطع الا وانظر إلى الصندوق في محاولة فهم ما تقصده خالتي : " اصبحت كبيرة الآن لتعرفي بأنك جزء من هذا المنزل .. ربيتك مثل اولادي .. وتمنيت ان تصبحي كنتي منذ ان كنت ملفوفة بالقماط .. هذه هي حبة العين .. اعتادت جدتك ان تناديك .. وستكونين حبيبة هذا المنزل ان رضيت بنصييك .. " ثم اذا بها تقول بصوت مليء بالعبرات : " قبل ان تغيب الغالية رحمها الله مسكت يدي هذه وشدت عليها .. كانت امنيتها ان تراك عروس وقد اخبرتني يوما ما ان هذا الصندوق لفاتن .. وإنه سيكون مهرها .. " .

اردت ان اقاطعها بذعر ولكنها تابعت تسكتني : " أخبرتك ان لا تقولي شيء قبل ان تسمعيني .. " وقربت الصندوق مني : " لم تكوني موجودة يومها حينما اخبرتنا بوصيتها .. الحبيبة .. تمنيت ان تراك عروس

للبيت.. ان تزفي لأبني البكر ، ان تفرح برويتك مرتدية صيغتها وأنا
أمل ان تكوني عاقلة لتفهمي بأني لم اتخل عن رغبتى ابد في تزويجك
لأبني وبأن ..".

" خالتي .. اننا في حداد ..!" قاطعتها بذعر .

شدت على يدي وقالت بصبر : " الحداد في قلوبنا يا ابنتي ..أظنن ان
من السهل علي ان اقيم عرسا وقبر الغالية لم ينشف بعد ..؟ كلا ، ولكنها
وصيتها .. وأمنيتها وقد حدث ذلك امام الجميع ..".

قلت بشفتين مرتجفتين : " امام الجميع ؟".

سرعان ما شعرت بقلبي يسقط إلى هوة عميقة وأنا استمع لخالتي تقول
بثقة : " أجل ، الكل شهود على وصيتها ..حتى ابني البار الحبيب
علاء..كان عليه ان يستمع ليدرك بأن لا ضير من ان نجتمع رأسين
بالحلال .." وتابعت وهي تشد على يدي : " يا ابنتي ما تشعرين به من
مشاعر اخوة تجاه ابني ستلاشى ما ان تغلق عليكما باب واحدة ..وأنتما
ما شاء الله عليكما متفاهمان ..الود بينكما والاحترام ..وعلاء
أعرفه ..ربيته حتى يصبح الرجل الذي انا فخورة به ..لن تجدي مثله في
العالم ..لا اقول لأنه ابني بل هو رجل كريم ومحب ، حنون ودافئ مثل
نبعة الماء العذب ..سيحميك ..ويعزك ..ويمنحك الذرية
الصالحة..ستكونان زوجان على سنة الله ورسوله .." وتابعت وهي
تغلق الصندوق : " سهام تعلم بحديثنا ولا مانع لديها من ارجاء الخطبة
لبعض من الوقت ..ربما ستكون خطبة عائلية فقط ..بيننا .."
وابتسمت ..وكنت منذ فترة لم ارها تبتسم تلك الابتسامة العريضة
الحنونة : " فكري بالأمر يا حبيبتي ..ولكن اعلمي ان جدتك سترتاح في
قبرها حينما تحققين لها امنيتها الوحيدة ..".

" ماذا عن علاء ؟" سألتها بروح ذابلة .

اخذت نفسا عميقا : " لم احده حتى الآن .. ارتأيت ان اخبرك بنيتي .. "

وسرمد ؟..

كان اسمه يحرق شفتي .. وماذا عنه ؟ .. وعن مشاعري التي فاضت جراحا منذ ان جافاني وابتعد .. كتمت شهقة .. أترأه كان في الغرفة ايضا ؟ .. أترأه استمع لجدي وهي توصي خالتي بذلك ؟ .. اخذت ارتجف من الصدمة .. فعاتت خالتي تشد على يدي : " لا بأس .. أتركي لنفسك بعض الوقت حتى تعادين الفكرة " وعانقتني بضمه سريعة خاطفة .. ثم خرجت وتركنتي لوحدي .. لصدمتي .. والصندوق يهتز بيدي.

في طريق عودتي إلى المركز كنت لا ازال اشعر بالصدمة .. وكأن الروح سلبت مني .. ماذا علي فعله .. هل الجأ لعلاء مرة أخرى ؟ .. وكيف سأفعل ذلك وهو كان شاهدا في الغرفة .. وقيصر .. ماذا سيفعل لي وأنا عالقة في قضية محرجة .. وعائلي .. هل وصل الامر ان يتفقوا دون الاهتمام بما افكر .. بمشاعري .. بقلبي المتأرجح .. بروحي التي تهوى كائن آخر .. قرر مجافاتها هو الآخر ؟ .. الى من الجأ في كربتي تلك .. والجميع اتفق علي .. ؟.

في خضم افكاري الهائجة وجدت نفسي ارسل رسالة لسرمد ، تمنيت هذه المرة أن يلتفت الي وكتبت له (هل يمكننا ان نتحدث .. احتاجك في امر مهم ؟).

ظننت انه لن يهتم بالرد علي .. ولكن بمرور دقيقة ارسل يقول (انا مشغول .. اتصلي بعلاء) حددت في الرسالة مطولا ... تمنعت في

حروفها .. وخنقتني العبرة .. نظرت الى نافذة السيارة وخشيت ان
تفضحني دموعي وان لا اسيطر على غربة روحي .. اخذت افكر .. لن
يساعدني احد .. سأجبر على الزواج برجل لا اعتبره سوى اخي .. بينما
داخلي يصرخ بحب شقيقه الذي ينكرني مرة تلو الاخرى ..

دموعي التي كتمتها في السيارة فجرتها في المركز لدى
وصولي .. فكانت هناك اخبار سيئة تنتظرني .. لاقتني منال عند
الباب .. بعينين تلتهب غضبا وقهرا .. سألتها على الفور : " ماذا
حصل .. ؟ " .

اجابتنني بغضب صارخ : " لقد صدرت نتائج التدرج ! " .

" و .. ؟ "

" تدرجي في محافظة ميسان .. هل تصدقين .. ؟ انا منال فيصل تدرجي
العين في العمارة ؟!! " . صرخت غير مصدقة بينما دموع القهر تفيض
على وجنتيها .

" ماذا عني .. ؟ " .

لم تجبني .. دخلنا المركز وتوجهنا نحو وحدة الاطفال حيث كانت فارغة
في ذلك الوقت من احد .. اخذت تدور بعصبية وهي تبكي بصمت
والصدمة وعدم التصديق مرسومان عليها .. ناولتنني بعدها رقم هاتف
الوزارة فاتصلت بالقسم المخصص لإعلان النتائج .. وفي تلك اللحظات
العصبية كانت عيناوي تراقبان دوران منال الغاضب في الغرفة .. وهكذا
حينما حدثتنني المسؤولية عن القوائم احتجت مكان لأجلس عليه .. كانت
النتيجة كما تمنيتها .. لم تكن في الحلة .. ولا في الديوانية .. بل كانت
الساورة من نصيبي !

حينما اخبرت منال بذلك كنت ابكي مثلها .. لأننا لم نقبل كلانا في الحلة ولكن منال توقفت بغتة والتفتت الي غاضبة : " ما هذا الهراء .. كيف تقبلين في السماوة بينما انا في العمارة ؟ .. " وصاحت بعدم تصديق : " معدل تخرجي اعلى من معدلك .. "

سألتها : " هل قدمت السماوة على العمارة ؟ " .

بغضب صاحت وهي تمسح دموعها : " بالطبع .. هل تظنيني غبية ؟ .. لقد قدمت المحافظات القريبة على الحلة .. فكيف اقبل في العمارة ؟ " .

مسحت دموعي بدوري واجبتها : " لا اعرف .. يمكننا الاعتراض " .

عادت منال تمشي في الغرفة وهي تتمتم بالشتائم .. بينما جلست على الكرسي لا اعرف ماذا اقول بينما اسمعها تتكلم عن الظلم وعن كرهاها للوزارة وطريقة توزيع الاطباء ومعاناتهم في محافظات بعيدة .. نظرت الى هاتفي .. علي ان اخبر عائلتي .. رغم اني لا اعرف كيف ستكون ردة فعلهم .. فالجميع سيدرك بأنني لم اقدم للديوانية واني ابعدها في نهاية القائمة .

سألتها عن تدرج البقية .. نرجس وسمية فأخبرتني بحركة من يديها بأنها لا تعبأ بأحد .. ارسلت لنرجس اسألها فردت علي بأن تدرجها ديوانية .. فرحت لأجلها .. اخبرت منال فعادت منال الى البكاء الغاضب وهي تتمتم : " بالطبع .. زوجها من الديوانية وماذا يهمها فينا ؟ " .

اردت ان اوبخها على كلامها الجاف عن نرجس ولكنها توقفت فجأة وتابعت بعينين لامعتين : " علينا ان نفعل شيء .. " واقتربت مني بلهفة : " سرمد يملك صلات اليس كذلك ؟ " .

تلعثمت : " س.. رمد ..؟ " .

ولكنها لم تنتبه لأنها عادت تدور في الغرفة وتقول بتفكير وعيناها مشرقة بالأمل : " لابد وإنه يملك صلات .. بالحكومة .. الوزارة أو اي شيء آخر .. يمكنه ان يتوسط لنا اليس كذلك ؟ .. " والتفتت الي بأمل : " هيا اتصلي به .. ربما يستطيع تدبر واسطة لنقلنا الى الحلة " .

عن من تتحدث .. سرمد ..؟ !!

" من سرمد ..؟ " ذكر اسمه جعل الجرح في داخلي ينزف .

" ابن خالتك طبعاً ! " ونظرت نحوي وكأنها تعتبرني غيبة .

" انا لا افهم .. ما شأن سرمد بنا ؟ " .

" كيف لا شأن به .. الا يملك هو بعض الصلات ؟ " .

تلعثمت : " اجل .. ولكنه لا يعلم شيء عن وزارة الصحة " .

" لا تكوني حمقاء .. اتصلي به قبل ان تصدر الاوامر وتصبح الكتب رسمية " .

مسكت هاتفي وتذكرت رسالته المقتضبة وطريقته القاسية في التعامل معي .. احتجته في الوقت الذي نبذني موكلًا امري لعلاء .. رفعت بصري لمنال وقلت لها بحزم : " لن اتصل به .. انه مشغول " .

شخرت منال غير مصدقة .. وتوجهت نحو حقيبتها وهي تنتم حانقة : " لا اعرف ماذا دهى عقلك .. وحتى وان كان مشغول وفي اقاصي الدنيا .. سأتصل به وارى ماذا سيقول " .

" توقفي لحظة .. " قمت من مكاني وسألتها ذاهلة : " تتصلين به ؟ .. ومن اين لك رقم هاتفه ؟ " .

اخرجت حقيبتها من الدولاب : " وهل يهم هذا الآن حقا .. ؟ " .

اجل يهم .. انه اهم من اي امر لعين آخر . اتجهت نحوها من دون تفكير .. سحبت حقيبتها وقلت لها : " كيف حصلت على رقم سرمد ؟ " .

لم تنتبه الى ارتجاف جسدي من هول الصدمة .. حمدت ربي وقتها .. لأنها اخذت الحقيبة وأجابتنني باختصار : " حصلت عليه .. " .

" كيف ؟ " .

" بالطريقة العادية .. تبادلنا الارقام " .

" متى .. ؟ " . كان قلبي يرتجف من ردها .

" قبل اسابيع .. قبل اشهر لا اذكر .. " .

مسكت يديها التي ارادت اخراج الموبايل : " دعيني افهم .. هل انتما تتواصلان ؟ " .

رمشت عينيها .. ثم استوعبت ما افعله .. كنت اشد يديها بقوة .. وبكل لباقة ابعدت يدي عنها وابتعدت لتقول بعدم اهتمام : " ربما .. وماذا في الأمر ؟ " .

صرخت غير مصدقة : " ماذا في الامر .. ؟ .. أنسيت انه ابن خالتي .. ؟ " .

ومن بين الغضب الذي يكسوني .. رأيت شبح ابتسامتها المستفزة : " لم انس .. انا اعرف جيدا انه ابن خالتك " .

" اذن ؟!" .

" اذن ماذا ؟" ولوت تعابير وجهها المليحة والتي زادها اثر الدموع وجعلها تبدو اكثر جمالا .

اهدئي فاتن .. هذا ما اخذت ارده في نفسي .. اهدئي ولا تنهوري .

ولكن كل شيء انفجر .. من مشاعري المضطربة .. الى جفائه معي .. الى ظهور التدرج والآن .. كان الامر فوق طاقتي على التحمل ، اردت التجلد .. حتى افهم ما يعني هذا .. كيف من الممكن ان يتوصلا دون علم مني .. ؟

اشحت بوجهي بعيدا عنها وانا اكافح لأسيطر على دموعي .. كرامتي كانت اهم من اي شيء آخر .. ولكنه سرمد .. ابن خالتي .. الرجل الذي اكتشفت بأني احبه طوال عمري .. ل طالما انتظرت وده واهتمامه وعطفه علي .. وما ان كدت انال هذا الشيء حتى .. حتى ماذا ؟ .

" اريد ان افهم .." اخذت نفسا عميقا مشبعا بالقهر : " كيف .. تتواصلان ؟ .. ولماذا ؟" .

حركت منال الهاتف في يديها واجابتني : " كعادة الآخرين .. اننا نتراسل " .

سقط قلبي في ضلوعي : " حتى هذا الوقت ؟" .

اردت ان اسأل .. أن اقسو على قلبي كي اعرف الحقيقة .. أكانا يتراسلان معا في الوقت الذي اكافح واموت شوقا لرؤيته ؟ ..

" أجل .. اسمعي ، انا لا يهمني كل هذا الهراء المتعلق بأنه ابن خالتك وان علي اخذ اذنك .. الامر طبيعي بيننا ، اننا نتراسل بين الحين والآخر فقط "

" وماذا يكتب لك ؟ "

ارتأيت ان اجلس لأنني كدت اقع مغشيا وانا استمع لكلامها وهو ينساب من فمها بعدم اهتمام : " اشياء عادية .. أين رقمه .. آه هذا هو .. " كانت تقلب في الهاتف عن اسمه .

كررت مرة ثانية : " ماذا يكتب .. اريد ان اعرف هذه الاشياء العادية ! " .
" اوف فائن .. أنت تأنين على اشياء تافهة وأنا قلبي محروق على النتائج " .

نسيت كل شيء متعلق بالنتائج .. نسيت كل افكاري المتعلقة بالهروب من الديوانية .. اردت البقاء لأعرف لكم من الوقت كانا يستغفلاني .

قمت من مكاني ووقفت امامها .. لا يهم ان ترى دموعي وصدمتي .. اردت ان امنعها عن الاتصال به : " أظن ان قلبي لا يحترق هو الآخر .. انا مصدومة لأنك تتحدثين عن الامر وكأنه امر عادي .. " .

" وهو امر عادي .. انت من تبالغين فقط " .

صحت في وجهها : " هل انا ابالغ ؟ .. أتتحدثين عني أنا بينما انت .. أنت لطالما بالغت بكل ردود فعلك .. " .

" ماذا يعني هذا ؟ " تجهم وجهها .

" انه يعني ما يجب ان تعرفيه .. أن كنت تأملين شيء من علاقتك بأبن خالتي فعلي ان اخبرك بالحقيقة .. سرمد لا ينوي الارتباط !".

ولدهشتي اخذت تضحك وهي تشخر باستهزاء .. وللمرة الاولى في حياتي اراها انسانة قبيحة للغاية : " ومن قال اني اود الارتباط .. أرايت حبيبتي من يبالغ ؟ .. انا وسرمد في طور التعارف فقط .. وأنت تعرفين منذ البداية .. ابن خالتك رجل جذاب وقد سحرني منذ اللقاء الأول ولكن هذا لا يعني ان اصل الى الحد الذي ارتبط به " .

صحت بعدم تصديق : " اذن ما معنى هذا ؟ " واشرت الى الهاتف : " ما معنى كل هذه الرسائل ؟ " . وفكرت لو وقعت احدها في يدي ورأيتها .. ربما سأموت من شدة قهري .

هزت كتفها : " لا شيء .. انها تسلية فحسب .. ! " .

" سرمد رجل لا يتسلى .. " .

ابتسمت بثقة وغرور : " كل الرجال يتسلون .. حتى الذين ينوون الارتباط .. هم يفعلون هذا لأنهم يودون ان يتسلوا .. " .

التوت شفتي باشمزاز : " وانت راضية بهذا الامر .. ان تتسلي مع ابن خالتي دون ان اعرف انا ؟ " .

وضعت يديها على رأسها : " لماذا تنوين ان تعملي من الحبة قبة .. اجل .. انا اتسلى معه .. نحن واعيان وراشدان .. ولسنا بحاجة لنصائح لا قيمة لها .. ! " .

ان هذه ليست منال .. كلا ، ليست على الاطلاق صديقتي التي عرفتھا طوال سنين .. ادركت فعلا بأنني مخدوعة بها .. لطالما انجذبت

لشخصيتها الساحرة واراءها التعسفية وأحكامها المسبقة ..وظننت انها
اعلى من ان تنساق لدرب خطر مثل هذا ..

ولكن لماذا اعطها الاعدار ..ولماذا اتفاجأ ..ألم تكن على علاقة مع
طبيب يكبرها بسنوات ..!

حينما عادت لتجلس اتصلت بسرمد دون ان تنتظر ردي ، ولحسن الحظ
فهو لم يرد عليها وسمعتها تقول بتبرم : " انت على حق .. لا بد وأنه
مشغول ..".

أجل ولكن أترأه سيعاود الاتصال بها بعد ان ينتهي من عمله ؟.

لم تنظر الي ..وفي تلك اللحظة شعرت بأني لم اعد اود
صداقتها..شكرت القدر القاسي اخيرا ..بأننا سنفترق ..بأن كل واحدة منا
ستعيش في حياة مجهولة لمدينة ما ..اقتربت من المكتب وجلست في
الكرسي المقابل لها ، تأملت قليلا وهي تتصفح في الهاتف ، تبدو
مشغولة ..لا تعير لوجودي اي اهتمام .

" ظننت اني اعرفك .." رفعت بصرها الحاد والتقت بعيني : " ولكني
كنت مغفلة .. انت انسانة مغلفة بالأكاذيب ..كان من الممكن ان تخبريني
يوما عن اتصالاتكم السرية ورسائلكم ..".

قاطعنتي ساخرة : " حينها ماذا ..تقومين بثورة من الاعتراضات ؟..الا
تدركين ان رأيك لا يهمني ألته "

" اجل ..وانا سعيدة لأنك اعترفت اخيرا !".

" اعترفت بماذا ؟" لوت شفيتها ساخرة .

" بأن ارائي كلها لن تهملك ..ربما لهذا كنت تخفين حياتك الخاصة عني ، حينما عرفت منذ اشهر بأن والديك منفصلان منذ سنين وبأنك كنت على علاقة مع شخص آخر ..طبيب اختصاص يكبرك بأعوام لم اصدق فعلا ..ولكني اصدق الآن وانا انظر اليك ..انت لم تخبريني بكل هذا ليس لأنك انسانة منعزلة ..بل لأنك لا تضعين لرأي اي اعتبار ..".

قاطعتني وقد احمر وجهها غضبا : " انها حياتي الخاصة ..من سمح لك ان ..".

قاطعتها وانا اقف ..اكتفيت فعلا : " لقد اعطيتك اعدار كثيرة ..ولكن هذه المرة لن اعدرك ، لقد كنا صديقات بحق الله ..شاركتك كل اسراري وفرحي وحزني ..ادخلتك بيتي واطعمتك من زادي ..ثم اذا بك تطعنيني من الخلف ..تتواصلين مع سرمد وتتعاملين معه وكأنك فتاة منحلة ..".

قامت بدورها تصرخ في وجهي : " لا تتجاوزي حدودك يا فاتن "

" سأفعل ما يمليه علي ضميري ..إياك ان تتواصلين مع سرمد مرة أخرى ..".

" لماذا ؟" شخرت باستهزاء ووجهها محمر من الغضب : " هل لي ان اعرف سبب كل هذا ..وان كنت اخفيت عنك اشياء خاصة بي ..هذا لا يعني بأن الامر يمس صداقتنا ..".

" اية صداقة ..هل حقا تسمي هذه العلاقة المريضة صداقة ؟، لقد شئت ان تتدخلني بيني وبين نبيل ..حاولت جاهدة ان تدفعيني لكرهه ..للفور منه ومن تصرفاته ..".

قاطعتني بغضب صارخ : " لا تدخليني بمشاكلك العاطفية ..وما شأني بك انت والتافه نبيل ، لو كنت تحملين ذرة حب في داخلك تجاهه لما همك الامر .. هذه مشكلتك انت يا فاتن ..تظنين ان العالم يدور حولك فعلا ..".

" انا لا اظن ذلك ..ما يهمني الان ان تقطعي كل صلاتك بسرمد ..اكراما لكل الود الذي كان بيننا ذات يوم واكراما ..".

" ألم تفهمي بعد ؟..انا وسرمد لا شأن لنا بخيبات املك المتعلقة بالماضي ..".

زمنت شفتي : " بل لها كل الشأن ..انت لم تحترميني في هذا الشيء ، لم تخبريني بأنك تسلكين هذا الدرب مع ابن خالتي ..".

ابتسمت بتهكم : " وان سلكته ..واخبرتك ..ماذا ستقولين ؟..وان باح لي سرمد بأعجابه لي ..ولماذا يهمك الأمر ؟..".

حينها فقط ..ادركت بأني فشلت ..بأني لن استطيع القتال في حرب خاسرة ..بأني لا املك سلطة على اي منهما ..من انا بالنسبة لسرمد ومنال ؟..انا لا شيء ..مخلوقة لا تملك اية اعتبار في حياتهما ..كل الدموع التي حبستها في ذلك اليوم بدأت بالظهور ..كل خيبة أملتي وحنقي ..وكرهي لما حصل ..وغضبي الشديد من سرمد ومنها ومن كل الاسرار التي اخفتها عني ..لم استطع ..نزلت دموعي الحبيسة ورأتها هي ..

للوهلة فقط ظننتها ستقفز نحوي وتطيب خاطري كعادتها حينما تقسو بالكلمات علي ..ولكني اخطأت ..فسرعان ما اتسعت عيناها بعدم

تصديق .. ثم بان النفور .. والاعتراض .. والاشمئزاز فيهما وهي تتمتم
قائلة : " انا لا اصدقك فعلا !.. " .

وابتعدت عن المكتب .. تناولت ريموت التلفاز واخذت تقلب في
القنوات .. بينما اهتزت الرؤيا من حولي .. اردت الجلوس ولكني
تجلدت .. لأنني لم ارد منها ان ترى ضعفي اكثر من ذلك .. ثم اذا بي ارى
اهتزازات كتفها .. وغردت ضحكتها الغير مصدقة وجعلتني اجفل من
مكاني ..

" آه يا فاتن .. حقا ..؟ .. " .

لقد كشفتني !..

" حتى متى ستقدرين على التمثيل امامي .. أياما ..؟ اسابيع ..؟ الا
تعرفين يا عزيزتي ان وجهك مثل كتاب مفتوح ..؟ " .

لم اقل شيء وارتأت ان تتابع وهي تشاهد التلفاز : " اشفق فعلا على
التافه نبيل .. ولكني اهنته فعلا على هروبه المتأخر .. لكان قد مات كمدا
وهو يراك الآن .. " ونظرت الي باحتقار : " تبكين لأجل رجل ما .. لرجل
لطالما تحكم بك وتسلط عليك .. ألم تعرفي يوما بأن رجل مثل سرمد لا
يمكن ان تكون امرأته انسانة ضعيفة ..؟ .. إنه يبحث عن القوة وعن
العناد والتفرد .. ولا اراها صفات واردة فيك .. " .

تناولت حقيبتني .. وارتأيت ان اتركها تتابع تجريحها : " الحب يا فاتن
بذاته يجعلنا ضعفاء .. ماذا تراه سيفعل بك أنت .. أية هزيمة ستنالك في
نهاية المطاف ..؟ " .

وصلت إلى الباب وكلماتها كانت تناسب بتهكم : " لقد ذقت الهزيمة مرة..ولن اكرر خطأي مرة ثانية ..هذه المرة ستكون اللعبة بيدي ..وكل الخيوط سأنسجها بنفسي ..".

مسكت الكرة وفتحت الباب ..وبالرغم من انها امست بعيدة عني..منشغلة في خطتها العظيمة بالإحاطة بسرمد اردت منها ان تعرف شيء أخير ..

" اذن اعتبري ان صداقتنا انتهت منذ هذه اللحظة .." ثم خرجت من الوحدة واغلقت الباب خلفي .

الفصل الاربعون

استسلام

مثل ما توقعت ..قبولي في مدينة السماوة لم يلق استحسان لدى ابي وامي ، املا ان اعود إلى حضنهما في الحلة او في الاقرب لهما في الديوانية ..واقنعت والدتي بصعوبة لكي لا تخبر احد من بيت جدي ، لم اود منهم ان يتدخلوا ..كان قرارى الخاص بالابتعاد عن الديوانية ، رأيت القلق يلوح في عيني والدتي وهي تراني اتقبل موضوع التدرج من دون اعتراض ..وصارحتني يومها، كنت اوضب ملابسي حينما جلست في غرفتي وسألتني بهدوء : " ماما ..هل الامر يتعلق بأبن خالتك علاء ..ألا زلت مصرة على الرفض ؟".

تجمدت يدي اثناء عملي ، علاء ..كنت نسيت امره في العطلة ..ظننت بأنني لم اسمع شيء من خالتي سعاد وبأن كل امنياتها ووصية جدتي تلك محض افتراء لا اكثر !.

" أمي ..انت تعرفين بأن وضعي غير مستقر ، لا اعلم الى متى سأبقى في السماوة ، أظنن ان علاء او غيره يرضى ان تكون زوجته على سفر دائم ؟..".

" علاء رجل متفهم يا بنيتي ..".

قلت بعناد : " لا اود التكلم بالموضوع ..انا حزينة على جدتي وارفض بتاتا حصول اي شيء يتعلق بالخطبة او ما شابه ".

بدا القلق على وجه والدتي ، لم اودها ان تشعر بالكدر ..ولكن علي ان اكون صريحة فهذا مصيري الخاص ولا اود اي تأثير من اي طرف .

" ولكنه لأجل هذا الشيء ..فكري بجذتك رحمها الله ..".

" وأنا افكر .." وعدت الى توضيب ملابسي بغضب : " وأنا لأجل روحها العزيرة لا ارض بأي ظلم ، وانت تعرفين ردي ..علاء شقيق بالنسبة لي ، أظنين ان جدتي نوت ان اعيش تعيسة ..متزوجة من رجل لا احبه ؟".

" امي رحمها الله تفهم هذا الشيء ..لقد ظنت بأن نصيبك سيكون مع علاء ، لأنه الافضل لك ..علاء لا ينقصه شيء يا بنيتي ..".

شعرت بطعنة تخترق قلبي ..بل ينقصه ..انه ليس سرمد فقط .

" حسنا انا الآن في وضع لا يسمح لي بالارتباط ابدًا ..دعيني استقر اولا ..ولكل حادث حديث " .

لأول مرة شعرت بالفرحة لأن تدرجي في السماوة ..سأبتعد عن كل شيء ..من اي سيطرة وتأثير من احد ..سأكون بعيدة بالاميال عن سرمد ..

قامت والدتي لتتركني ولكنها توقفت عند الباب وقالت بتحذير : " فائن..اثبتي على رأيك لأنني والله لا اود ان تكون قطيعة بيني وبين سعاد " .

وتركتني دون ان تنتظر جوابي ، توقفت عن عملي ..جلست على السرير وانا افكر بكلامها ..لن يصل الامر للقطيعة ..خالتي سعاد

ستتفهم .. لأن علاء سيؤكد على موقفه مرة ثانية .. وهذا ما سيحسم الموضوع نهائيا .

العودة للدار في تلك الايام كانت غربة بالنسبة لي .. نرجس استقرت تماما في غرف المتزوجين ، وهي عبارة عن كرفان ومقسم الى غرف صغيرة اشبه بغرف الفندق ، تحتوي على حمام وغرفة نوم وشرفة صغيرة .. كانت نرجس تختنق في تلك المساحة الصغيرة وهي التي اعتادت على دارنا الواسع وقربها من المطبخ والكافيتريا .. عليها الآن ان تسير الطريق ما يقارب العشر دقائق حتى تصل الى دارنا .. وانا لم استطع الذهاب اليها .. لأنها لاتزال عروس جديدة .

قطيعتي بمنال استمرت طوال الاسبوع .. التفت الى البنات الجدد وقد اعتدت وجودهن وتقبلتهن بحبوية .. كنت بحاجة للنسيان .. وهن فضوليات بشأني فكانت خلال تلك الفترة صداقات لا بأس بها .. بينما كانت منال تتجاهلني تماما .. وجدتها فرصة مناسبة لتعبر عن امتعاضها بكل ما يتعلق بي .. لم تعد تمثل .. ظهرت على حقيقتها .. وقد سررت لذلك .

الخبر الذي افرحني حقا هو عودة سمية الوشيكة للدار .. بعد غيابها الطويل .. خاصة لأنها بشرتني بقبولها في بغداد ، ويبدو ان زوجها تمكن من ترتيب مكان لها في التدرج نظرا لظروفها الصعبة وحملها المتعب .. مستخدما قاعدة لم الشمل لأجلهما .

ولم اذهب الى بيت جدي في ذلك الاسبوع .. كنت امنع نفسي من الذهاب ، لم تعد لدي رغبة في رؤية احدهم .. رفضي كان جاهزا .. تدرجي في مدينة السماوة من سيجعلني ارفض الزواج في الوقت الحالي ، وبما ان علاء لم يتواصل معي ادركت بأن خالتي لم تخبره

بعد.. اما سرمد ..فكنت اجبر نفسي على نسيانه ..لم يعد لدي ادنى امل
بأنه سيتواصل معي ..وانا احتجت للحفاظ على كرامتي ولكن حدث في
يوم الاربعاء حينما كنت اتمشى في الممر الخارجي الخلفي
للمركز..انتظر عودة نرجس اثناء اجرائها اتصال هاتفي مع احمد ..فيذا
بسامي يقف امامي فجأة ..كان طويل القامة ..بشرته داكنة ، عينان
ماكرتان ، وابتسامة سمجة كريهة ..لا بد وإنه رأني من نافذة وحدة
الحشوات ..حاولت تجنبه طوال الفترة الماضية ، بالإضافة الى اني لا
اطيقه ظهوره المفاجئ اربكني ..اذ ابتسم لي احدى ابتساماته البشعة
ويظنها ضرورية لتبادل اطراف الحديث بود ... " مرحبا دكتورة ..كيف
الحال ؟ " .

" بخير " اختصرت بإجابتي ..وعدت لأتمشى متجاهلة وقوفه السمج .

" دكتورة ألا تظنين ان الجو اصبح حارا هذه الايام ؟ " .

" نعم .. " اجبته بملل .

وضع يده في جيب صدريته " ما شاء الله عليك ..تحبين دوما
التمشي..تعتبر نوعا من الرياضة ها ؟ " .

لم اكن في مزاج لتبادل الاحاديث في ذلك الوقت من النهار ..حركت
رأسي موافقة كلامه بترم ..ولكنه بدا مصرا على التحدث معي ..فكرت
في داخلي.. اين انت يا نرجس !

تتنح سامي ثم جلس على المقاعد الخشبية ..تمنيت لو اني تعذرت
بالدخول لأي سبب ولكنه قال بعد برهة : " سمعنا ان تدرجكم ظهر
وبأنك قبلت في السماوة " وتركته يتحدث عن المدينة ومحاسنها وطيبة
اهلها وبأنها لا تبعد كثيرا عن الديوانية وان قضاء الرميثة هو الأقرب

عليهم ..وكنت اوماً له ولكنه ما لبث ان توقف عن الحديث ، تقدم بجسده للأمام وقال وقد تغيرت لهجته : " دكتورة ، أمل ان تصغي لي جيداً .. " توقفت عن المشي بغتة ..ولكنه تابع بلهجة طبيعية : " تابعي المشي من فضلك .. " .

اخذت نفساً عميقاً وعدت اتمشي شاعرة بتوتر من لهجته الغريبة : " لا اود لأحد ان ينتبه لحديثنا .. دعيهم يظنون اننا نتحدث بشكل طبيعي " ارتعد داخلي ..من هم ؟..

كان المشي الخلفي للمركز متصل بمركز صحي آخر ..والعديد من النوافذ تطل عليه ..من يا ترى يراقبنا في تلك اللحظة ؟..نفذت ما قاله ..وبقيت امشي وانا انتظر منه ان يتابع حديثه بفارغ الصبر .. " الموضوع يتعلق بأبن خالتك المحامي .. " اخذ قلبي يرتجف : " في الحقيقة ولأنك عزيزة علينا في المركز وانسانة خلوقة ولم نر منك الا الخير ارتأيت ان احدثك واحذرك .. " .

" ت .. تحذرنى ؟ " ارتجف صوتي .

اوماً وهو يبتسم ..ربما ليجعل من يراقبنا يدرك بأننا نتحدث احاديث طبيعية .

" انه مهذب ..الجماعة لن يتركوه بشأنه ، لقد سمعت طرايش كلام قبل ايام ، هناك من يبحث عن ماضيه واعتقد انهم وجدوا ثغرة " .

لم اعرف كيف اسيطر على اعصابي وانا اسأله بصوت هادئ : " لماذا يفعلون ذلك ؟ " .

" لماذا برأيك .. " و اتكأ على المقعد وتابع وهو لا يزال يبتسم : " لأن لديه ملفات تكشف تورطهم في اختفاء صديقه .. " .

عادل ؟!.. كيف استطاع الحصول على ذلك ؟! ...

ازدردت ريفي : " ماذا.. ماذا سمعت بالتحديد ؟ " .

" انهم سيقلبون الطاولة عليه .. " وهز رأسه : " ربما سيقومون بأرسال احدهم لرمي منشورات تهديد في منزله .. " .

شعرت بالأرض تميد بي .. يقومون بتهديد بيت جدي ؟!.. لقد حصل ما كنت اخشاه .

" افهمني كيف .. " .

اتسعت ابتسامته الكريهة المزيفة : " هل كنت تعرفين بأنه كان يعمل مع الأمريكان بعد السقوط ؟ " .

نفيت برأسي فتابع يقول : " حسب ما سمعت .. لقد عمل عند احد المنظمات في الديوانية قبل سنوات .. وبأنه ربما .. " .

توقف عن الكلام فحثثته على المتابعة بنفاذ صبر : " ربما ماذا ؟ " .

" بأن تلك المنظمة لم تكن قانونية .. وبأنها كانت تعمل تحت ستار مزيف .. " .

قلت وقد احمر وجهي : " لا اصدق هذا .. " .

"دكتورة.. انا اقول ما سمعته ، ليس لي مصلحة في هذا لأن الاستاذ كان كريما معي .." ثم تابع بلهجة محذرة : " اخبريه بما قلت .. هناك من يراقبه والكثير يعلم بأنكما اقرباء "

قلت وانا اضم يدي معا : " لن يجربوا على فعل شيء "

ضحك وشعرت بأن ضحكته تمويه لشيء آخر : " لديهم صلات نافذة.. أنا مجرد ساع انقل الاخبار هنا وهناك ..حزبنا قوي يا دكتورة .." واخشوشن صوته : " قوي وينوي ان يسيطر على الانتخابات القادمة.. لذلك لن يخدمه ظهور اية ملفات .. اخبريه ان يبتلعها .. يحرقها .. يرميها في اية مستنقع .. وان يتوقف عن تهديدهم " ثم اخرج موبايله من جيب صدريته وتظاهر بأنه يقلب فيه .. واصبحت الارض التي امشي عليها صلدة ..خشنة ..مدتني كلماته بخوف اجوف عميق..سرمد بخطر ..بيت جدي بخطر ..أنا بخطر ...!

" من يراقبنا الآن ؟ "

" لا استطيع ان اخبرك ..لسلامتك طبعاً دكتورة ..انت غالية ..تصرفي بطبيعتك ، لن يستطيعوا فعل شيء ان منعتهم من نشر الملفات في عدد الغد " ثم قام من مكانه ليتمشى وهو لا يبعد نظره عن موبايله بعدها تظاهر بأنه يجري مكالمة هاتفية وحينما ابتعد ظهرت نرجس من باب المركز ومرت من جانبه والتوت تعابير وجهها حينما حياها مبتسما..وما ان توقفت قربي اشمأزت قائلة : " ماذا كان يفعل المكروه هذا معك ؟ "

ابتسمت بصعوبة : " لا شيء ..دعينا نعود "

وما ان مسكت مرفقي لندخل الى المركز سألتني بدهشة : " لماذا ترتجفين ؟ " .

ازدردت ريفي : " لا شيء .. اسمعي اود الخروج .. لم امر الى بيت جدي هذا الاسبوع " .

" فائن . ، ألم تقولي بأنك لن تذهبي اليهم ؟ " ..

جاهدت لأن يخرج صوتي معتدلا : " اتصلت بي خالتي .. انهم مشتاقون لي .. " .

وما هي الا دقائق ووجدت نفسي في سيارة التكسي .. اتصلت بسرمد اثناء ذلك فلم يرد .. شتمت في داخلي .. الى متى سيظل ناكرا وجودي .. ؟ .. مررت بلحظات عصيبة وانا في سيارة الاجرة ، كنت اختض قلقا ورعبا على سلامة بيت جدي .. على سلامة سرمد .. وعلى ما ينوي فعله بنشر الملفات فضحهم .. وبدا الطريق طويلا علي .. اردت ان اصرخ في السائق ان يسرع ولكني تمسكت بأعصابي .. وتذكرت ما قاله سامي عن المنظمة الغير قانونية التي يعمل بها .. ماذا كان يعني .. ؟ .. بماذا تورط سرمد في الماضي .. ؟ هل هذا ما نفك نبيل على تحذيري منه ؟ .. هل الامر صحيح ؟ .. أترأه يعمل تحت ستار مزيف .. ؟ .

ولكن كيف .. وهو من ينوي نشر ملفات تفضح حزب نائب المحافظ .. ؟ سرمد رجل نزيه .. ذكرت نفسي في السيارة .. وحينما وصلت الى شارع بيت جدي تنفست بارتياح ، سيارة علاء متوقفة .. هذا يعني بأن سرمد ربما سيكون موجودا ، نقدت السائق أجرته وهرعت داخلية الى البيت .. اخذت نفسا عميقا عند الباب الداخلي .. لم اود ان تشك خالتي بما

يعتمل فيّ ..من الرعب الذي اهتز بداخلي ..من خوفي وقلقي ومن حصول ما خشيته في يوما ما ..

ما ان اقتربت من المطبخ شممت رائحة السجائر المميزة لسرمد..وارتعش قلبي ..انه موجود ..ولا يبعد سوى عدة خطوات.. منذ متى لم اره ..؟ قلبي الخائن المرتعش بدقات ملهوفة قلقة ..مضطربة فضح انفاسي العالقة ..لم يكن الوقت مناسب للتفكير بالمشاعر التي تملكنتي وجعلتني غير قادرة على التحرك والتنفس والتأوه ..منذ زيارة الاربعين الكارثية وحادثة منال شعرت بالغضب وخيبة امل وكرامة جريحة ..في تعمدته لتجاهلي وهو يتواصل مع منال في الوقت ذاته ..

فاتن ..اهدئي ..انت بحاجة للسيطرة على مشاعرك المريضة ..سرمد لا يفكر بك بالطريقة التي تتمنيها ..في نظره ستكونين دوما زوجة اخيه المحتملة .

اخذت نفسا عميقا وولجت المطبخ ، وجدته جالسا على كرسي الطعام من الجهة المعاكسة وكان منغمسا مع علاء في الحديث عن آخر الاخبار السياسية في البلد ..توقفت يده اثناء التدخين حينما انتبه لدخولي..من نظرة عينيه الحذرة عرفت بأن دخولي المفاجئ غير مرحب به ..!

لا تزال اللحية تغطي جانب كبير من وجهه ، بدا متعبا ..غائر العينين وكأنه لم ينم منذ ايام ..أتراها منال تسهره ؟..شعرت بالغضب النافر في قلبي ، انها لا تسهر ..تنام عند الواحدة ليلا ..كنت احاول التنصت عليها..آمله انها لا تقضي وقتها بالتراسل مع سرمد والاتصال به ليلا ..

علاء الذي قام مرحبا بي لا يزال محتفظا بوده والحمد لله ..حسنا..وماذا ان كانت العائلة تخطط لتزويجنا ما ذنبي انا في هذه المجافاة ..وهو يعرف جيدا اني لا اعتبره سوى اخ بالنسبة لي. لم اجلس كما طلب علاء بلطف بل سألته عن البقية فأخبرني بأن قيصر في كليته وبأن والدته وخالتي نجاح في السوق ..ربما هذا يفسر لماذا كان سرمد يدخل براحة ..نظرت بتردد اليه ..وجدته لاهيا في عالم الدخان الخاص به ، بدا منزعا لأنني قاطعت حديثه المهم مع علاء ..اخذت نفسا عميقا وقلت بارتباك : " هل استطيع التحدث اليك؟ .. " وسرعان ما اكتسحتني موجة من الخجل بحضور علاء ..والذي تشاغل بفتح الثلاجة لتقديم كأس من الماء لي ..تقبلته شاكرة حينما سمعت صوت سرمد يقول بوجود : " تحدثي هنا ..لا احد موجود .. " .

لماذا لم يجب على اتصالي ؟ ..كانت هواتفه ملقاة على المائدة ..

علقت بهدوء : " الامر مهم .. " وتذكرت كل كلام سامي وشعرت بالقشعريرة تهزني .

تنحنح علاء : " سأذهب لأشاهد نشرة الاخبار .. " نظرت اليه ورأيتة يشير الي برضى كلي ..علاء لا يزال الرجل الاقرب الي ..خرج من المطبخ وما ان ابتعد بما فيه الكفاية سألت سرمد : " لماذا لم تجب على اتصالي ؟ " .

" كنت مشغول .. وسحق السيجارة في المنفضة ..

بماذا مشغول ..بالتدخين مثلا ؟ ! .

" اخبرتك الامر مهم .. " لم يقل شيء ..زمت شفتي ..حسنا فلنرى الى متى سيظل ملتزما بصمته ؟ ..

" لقد تحدثت مع سامي للتو " ارتفع بصره الحاد نحو ي .. رفعت رأسي بقوة وقلت : " لقد اوصل الي رسالة .. " .

" ماذا يريد ذلك الوغد .. مزيدا من المال ؟ .. " .

" بل انه يحذرك .. " .

لمعت عيناه : " من ماذا ؟ .. وبعد .. الم انهك من التواصل معه ؟ " .

عقدت يدي : " الامر خطير يا سرمد .. " وخفضت صوتي : " يتعلق بالمقال الذي ستنشره يوم غد في الصحيفة .. انهم يراقبك .. " وارتجف صوتي : " يراقبونني .. وهناك من سيلقي مناشير تهديد للبيت " .

" سيناريو محكم .. " تهكم سرمد وتناول هواتفه وعلبة سجائره وتابع بخشونة : " تعالي نتحدث في غرفتي .. " .

اومات له ولكن قلبي ارتجف .. غرفته كانت المكان الذي اود تجنبه .. فهناك ابدو لا حول لي .. ودوما لدي ذكريات عائرة .. تنتهي بخروجي منها .. اما متخاصمة منه او غاضبة .. او خجلة كما حدث في المرة الاخيرة .

مررنا من غرفة الجلوس ونحن صاعدان الى اعلى .. رأيت علاء جالسا .. اختلس النظر الينا ولكني تجاهلت نظراته القلقة .. لا بد وانه يظن اننا سنتحدث بموضوعنا الخاص .. لا يجب ان اشعر بالخجل .. فأنا جنئت لأمر مهم بعيدا عن افكاره المتعلقة بنا .

جلس سرمد على سريره بينما اتخذت مكاني المفضل ، كرسي المكتب .. عيناى المتلهفة اختلست النظر الى مفكرته الموجودة على

الرف المجاور لسريره ..هنا اسراره كلها.. الاسرار التي تعنيني
ربما.. وخفق قلبي وازداد توتري .

" الآن اخبريني ..كيف تحدث معك سامي وبأي طريقة؟".

اخبرته بما حصل ..واصغى الي دون ان يحيد ببصره الحاد عني ،
سرمد الجاد هذا غريب عني ولكنه منحني الفرصة لأتحدث وحينما
وصلت الى المنظمة التي عمل بها ضاقت عيناه وشعرت بالخوف قليلا
ولكنني تابعت بقوة كي ينتبه الى كمية التحذير في كلامي ..وبأن عليه
فعل شيء بعيدا عن تهوره وانسانيته .

" هل هذا كل شيء ؟" سألني بشيء من القسوة .

اومأت له وشعرت بالارتباك من ملامحه الجامدة الحادة ..سألته بقليل
من التلهف : " ماذا ستفعل ؟".

" وماذا تظنين سأفعل ..المقال الآن في مرحلة الطباعة ..".

" ولكنك تستطيع سحبه ، لا بد وانك تملك بعض الصلات "

اخذ يدخن : " بل عليه ان ينشر في كل الصحف " ولمعت عيناه
بتوحش..وذلك اخافني خاصة وهو يتابع : " دم عادل لن يذهب هذرا " .

فاضت روحي من تصميمه على الانتقام من اولئك العصابة ..ماذا عن
سلامته هو ..وسلامة بيت جدي ..الم يفكر بذلك قط؟ .

" انا لا افهمك ..سامي قام ..".

" فليبتلع تحذيره هو ..الكل يعلم بأني لا اهاب احدا ..المقال سينشر
وسيفضح اولئك المتسترين بالدين والفضيلة ..".

قاطعته برجاء : " الم تسمع ما قلته لك ..ينوون رمي منشورات تهديد على البيت .. "

" ليتجراً اقدم على الاقتراب خطوة .. "

تأوهت غير مصدقة : " ليس هذا الوقت المناسب للبطولات .. هؤلاء الناس خطرون .. قادرون على ارتكاب الجرائم "

بثقة اجابني : " ولهذا انوي فضحهم وانهاء مستقبلهم ، أنظنين لا ادرك حجم اكتساح حزبهم .. لقد وصلوا الى القضاء .. الى المهنة التي اعمل بها ، وبعد سنوات لن تبقى النزاهة كما هي .. "

" وانت تنوي ايقاف ذلك بمفردك ..؟ .. افهمني كيف ..؟ الم اخبرك عن تلك المنظمة .. قال لي بأنهم سيقبلون الطاولة عليك وسوف .. "

قاطعني بقسوة : " لم تكن المنظمة غير قانونية .. كيف لا تكون كذلك وانا من قام باستحصال كافة الموافقات لهم .. "

شعرت بالحيرة : " ولكنه بدا متأكدا .. طريقة كلامه .. "

عاد يقاطعني بنفاذ صبر : " دعيني اخبرك شيء عن المدعو سامي .. اخبرك بأنه مجرد ساع .. حسنا .. هو جشع لعين .. الم تفهمي بعد ، لقد اوهمك بطريقته الماكرة بأنه في صفنا .. ولماذا يقوم بخيانة حزبه ؟ .. لأنني اعطيته مبلغ من المال ؟ .. الا تدركين ان لرجل مثله لن يكفيه هذا وبأنه كسبك بطريقته الخاصة كي يمهد لحوارات مستقبلية اخرى معك ، استنار عطفك وقلقك علي ورمى الطعم بكل بساطة .. "

هزرت رأسي : " لقد تصرف وكأننا مراقبان .. "

شخر هازئاً : " لقد خدعك يا فاتن ..ومن عساه يراقبكما ؟ ، شغل الجواسيس هذا نراه في الافلام فقط .. "

استطاع سرمد ببساطة زعزعة ثقتي فيما سمعت ..أترأه محق فعلاً ؟ ولكن ..

" كيف له ان يعلم بأن المقال سيصدر غدا اذن ؟ " .

" علم ببساطة .. لا بد وانه بحث عن الموضوع اكثر واستمع لكل الحوارات التي قد تفيد لترتيب اموره ، انه انسان جشع .. ولا اعرف لمثله كيف يستمر بالوظيفة ! .. " وبصق مشمئزاً ..

" أتريد اقناعي بأنه كذب بشأن التهديدات ؟ " .

اتكأ سرمد على سريره ومدد ساقاه : " اخبرتك .. لن يجرؤ احد على تهديدي " .

" لماذا انت واثق من هذا ؟ .. " . وقمت من مكاني لأقف عند النافذة الصغيرة المطلّة على الشارع .. ونظرت اليه برجاء : " ألا يمكنك ان توضح لي من يقف خلفنا ويحمينا ؟ " .

تغيرت نظرتة .. عاد سرمد الى بروده : " لن يهملك سماع ذلك " .

" بل يهمني .. " اصررت وانا اضع يدي خلف ظهري .

" انا غير مخول لأخبارك .. " لمعت عيناه وهو يقول ذلك .. ولكني لم اصدق .. لأنه بدا مرتاحاً على عكس ما يبدو عليه .. أمناً في مكانه .. متأكداً من سلامة بيت جدي .. " اذن ليس علي ان اقلق .. ها ؟ " .

" فقط من تمادي سامي .. لا تعطه مجالا مرة ثانية .. " حذرني ببرود ..

هزرت كتقي: " لن افعل ..لم يتبق لي الكثير هنا " لا ادري لماذا قلت هذا .. اردت زعزعة الثقة في داخله ..لازلت حتى تلك اللحظة ناقمة على الظروف التي تجعله غامضا بنظري ..وتمنيت ان اعرف ما يفكر به ..خاصة وهو يعدل جلسته ، يضع الوسائد خلف ظهره ويقرب المنفضة ليدخن براحة ..وسمعه يقول متمما: " أجل ..انت مغادرة..أليست السماوة مكان ملائم لك ؟".

" ملائم لي ؟".

ابتسم بتحفظ: " الأغنية المشهورة ..نخل السماوة يگول ..طررتي سمره ..".

شعرت بالخلج من اعتباره لي بالسمراء ..وانا التي ظننت بأني بشرتي حنطية اللون !.

" من اخبرك ..أمي ؟.." سألته وانا افكر بطريقة للانسحاب من غرفته من غير اضرار .

" كلا ..".

" انها ليست مصادرک الاخرى ؟" سألته ساخرة ..فلم يجبني ..ثم توقفت جامدة ويبست اطرافي : " انها منال ..ليس كذلك ؟".

لم يجبني ..ولكني ادركت انها هي ..تجاهلت خيبة الامل القاسية في داخلي ...: " وهل اوكلتك مهمة التوسط لها بالنقل ؟".

" لقد فعلت ..".

كم مرة تحادثا منذ ذلك اليوم ..عشرات المرات ..مئات ؟!..

" هذا جيد .. انكما تتقدمان "

ضاقت عيناه : " ماذا يعني هذا ؟ "

اخذت نفسا : " المعنى واضحا .. أخبرني هل اعجابك وصل للحد الملائم لخطبتها ؟ "

اردت ان اسخر منه كي اوقف الوجع الذي اقتحمني .. وخاصة حينما اجابني متهمكا : " ربما .. لماذا تسألين ؟ "

رفعت حاجبي : " انها بشارة خير .. ستفرح خالتي سعاد وربما ستتشغل عني قليلا " اردت ان اكابر والله يعلم حجم الالم الذي تفجر في صدري.

" أتعنين لأن احد مخططاتها سينجح ؟ .. " وبدا مستمتعا بالحوار .. ورددت في داخلي .. سأموت ولن اكشف له شيء .. بدا انه يخطط فعلا لحياته مع منال .. وعدت نفسي ايضا ان لا اخبره بشيء عنها .. فليقع في حبالها كما يحلو لها .. سأكون متفرجة على من سيكون المهزوم بينهما في النهاية !.

" أجل .. " خرج صوتي مرحا وجاهدت لأضع ابتسامة صغيرة تمنيت ان لا ترتجف شفتي اثناء ذلك .

" ان ظننت ان امي ستكتفي بذلك فأنت مخطئة .. ستنفذ وصية جدتي بحذافيرها " تهكم صوته وشعرت بقلبي يخفق عاليا : " وسيكون ردي كما هو .. انا لن اتزوج علاء " . خرج صوتي ثابتا كما وددته .. ان قرر هو الزواج من منال وبناء حياة مستقرة معها فكيف من الممكن ان اصبح زوجة اخيه .. اراه معها في اليوم واموت قهرا من مظهرهما سوية .

" ستحدثين شرخ في العائلة " صرح بعبارته وهو يدخل السيارة الثانية ..

" لن افعل .. ولن يحصل هذا .. لقد قبلت في السماوة اذا نسيت وأسئلتك هناك الى وقت غير معلوم ، ليس هناك رجل في الكون يرضى لأن تكون زوجته مسافرة طوال الاسبوع وتأتي في العطل والمناسبات " .

تهكم : " علاء من طينة خاصة .. سيرضى ! " .

هزرت رأسي : " قلت لا احد .. " .

شيء من القسوة بان في صوته : " اذن هذا هو عذرك المناسب .. لم تعود تصرحين بأن علاء مجرد شقيق ! " .

" بل هو لا يزال شقيقي .. وانا تبعا لعملي لست مستقرة .. " .

قاطعني : " لنفترض اني استطعت التوسط ونقلك الى هنا .. ماذا سيكون عذرك ؟ " .

شعرت بعدم الارتياح : " لأنني لن اطلب منك ذلك .. " .

تهكم : " لماذا ؟ .. صديقتك طلبت .. لماذا لم تطلبي انت حتى الآن ؟ " .

قلت بشيء من النفور : " ألسنت انت من رفض الاستجابة لأي اتصال بيننا ، اخبرتني انك مشغول وانا احترمت هذا الشيء ، لست بحاجة لواسطة نقل .. انا راضية وقانعة باختياري ولو طلبت منك هذا الشيء فسأطلب ان تنقلني للحلة .. وليست الديوانية " .

لقد قلت ما بداخلي وليفهم هو ما يشاء ! .

" لم تعودى تحبين الديوانية ها ..؟.. الحقيقة تظهر على ما يبدو ".
" ماذا تعني ؟" سألته بعصبية .

ابتسم ساخرا : " يبدو انها حرمتك من اشياء كثيرة .. اليس كذلك ؟ ..كنت في النهاية تأملين ان تخرجين منها عروس " .

شعرت بالغضب ..تعمد سرمد استفزازي بتذكيري ببيل : " ولكن على ما يبدو فأنا قلبك ليس سوى سفينة في بحر هائج ، انت لا تعلمين اين ستترسين " .

" سأرسو في الوقت المناسب ..وللرجل المناسب " قلتها بتأكيد فرأيت لمعة الغضب بعينه ..حسنا فليظنني وقحة ..لم أعد آبه لما يفكر بي .

" هنيئا له اذن .. " ثم عدل جسده وقرب المنفضة اكثر " لا بد وانها ستكون شروط جديدة للتقدم لك ..ان يكون رجل راض باستقرارك في السماوة ، أتأملين ان تجدي عريس جاهز هناك؟ " .

اشحت بوجهي : " أنا لا آمل بشيء ، كما اني في حداد ولست افكر بالارتباط حاليا " .

" وتريدين اقناعي بأنك لا تتكبرين على الآخرين ؟ ..اخبريني حقا كم عدد عروض الزواج التي رفضتها ؟ " .

" هذا ليس شأنك ..؟" احدثت عيناى بغضب : " انها امور خاصة بي...! " ثم تابعت بعصبية : " الاخرى ان تسأل حبيبة .. " وسكت وشعرت بوجهي يحمر واعتذرت في الحال ولكن سرمد لم يكن ليفوت امر كهذا علي ..تغير تعبير وجهه الى الوحشية وقال بلهجة حادة وهو

ينزل قدمه من السرير : " على ما يبدو انك تزاددين وقاحة يوم بعد يوم .. " .

قاطعته معذرة : " انا آسفة .. لم اقصد شيء " وحينما مررت من جانبه لأخرج اوقفني وجرتني لأقف امامه ..مسكة يده على ذراعي اوجعتني .. عاد سرمد الى قسوته .. واختض قلبي من الغضب المنبعث من عينيه : " لا تجرؤ على المغادرة قبل ان تفسري ما قلت ..؟ " .

حاولت تحرير يدي ولكنه منعني .

" اسمع .. انس ما قلت .. انا اتفوه بالتفاهات حينما اغضب " .

نظر الى عيني .. شعرت شيء يتخلخل في داخلي .. بدا عليه وكأنه يركز جاهدا حتى يفهم ما افكر به : " ماذا عنيت ان اسال حبيبة .. ماذا ..حبيبة القلب ؟ " .

اتقدت وجنتي من الخجل .. والغضب في آن واحد ..

انها نهايتك يا فاتن !

" من تعنين .. ست الحسن ؟! " .

تحركت ذراعي بعنف لتبعد يده ولكنه كان شرسا في القبض على يدي .

" لن احركك حتى افهم جيدا .. والان تكلمي .. والا سنبق هكذا حتى صباح الغد ! " .

" لم اقصد شيء .. " .

" كاذبة " . واشتدت ذراعه علي .. وتلويت من الالم .

" سرمد انا .. " ثم استسلمت بلهجة عنيفة : " اجل .. انها منال .. ألم تصبح حبيبة قلبك ؟ " .

وذاب قلبي بعنف نظراته والتي سرعان ما تغيرت لتظهر فرحة عميقة فيها .

" فائن هل تغارين ؟ " .

شهقت غير مصدقة .. وسارعت لأقول بأنفاس منقطعة : " لا اعرف كيف تفسر نفوري هذا هو غيرة .. لأوضح لك شيء سرمد .. انا ومنال لم نعد صديقات ولأسباب لا اود ان ابوح بها .. ربما لهذا انا غاضبة من اتهامي بالغيرة بينما .. بينما .. " وخانني صوتي وانا اراه ينظر الي بشيء من اللهفة لأتابع .. وانتابني الرعب .. ان لم انقذ نفسي سأقع حتما .. وحينما سيكشف امري وستراق كرامتي على ارض قلبه العديم الرحمة .

وانفجرت اقول بعصبية : " ثم انت تحاول ان تسألني عن عروض الزواج بينما لا يحق لك ان تسأل هذا .. والاحرى ان تسألها هي .. " .

" ربما انا فضولي بشأنك اكثر ! " . قالها وشعرت بالكراهية نحوه .. لقد بدا مستمتعا بمحاولتي الفاشلة في تجميل ما قلت .

" لماذا ؟ .. كي تجعلني مادة خام لتهمك واستهزائك بي .. ؟ " .

" درامية على الدوام يا وردة .. ! " .

اختنقت .. وردة .. منذ متى لم يلقبني بها ؟ منذ تلك الايام اللذيذة الفريدة التي ظننت بأنه يهتم بي بخصوصية ويلاحقني بنظراته ويحقق لي كل رغباتي .. تلك الفترة التي ظننت اني على اعتاب حياة

جديدة..وروح عاشقة ستتحرر في النهاية..وماذا اصبحت بعد وفاة جدتي ..؟..روح مدمرة ..وقلب محطم ..وربما كرامة جريحة لن يشفيها الا الزمن !.

" لو سمحت ..اترك يدي .." كدت احارب ان لا تمتلئ عيوني بدموع خيبة الأمل ..كيف سأقدر على نسيانه وهو مزروع في قلبي ..منذ الصغر ..منذ كنت طفلة اتوق لأدنى اهتمام منه ..ربما لهذا اهديته بطاقات التهئة في كل عام دون ان اذكر ..كان سرمد هاجسي الوحيد..وان اتخلى عنه لأجل صديقتي ..التي ما عادت صديقتي بالمرّة كان امرا صعبا ..كأنه انتزاع الروح من الجسد !.

بدا مصرا ان لا يحررني وذلك جعلني على حافة الغضب ..علي ان اخرج من غرفته بأقل الخسائر ..كان هذا كثير على قلبي المكلوم الموجوع به ..وحيثما تأكدت من انه لن يستجيب لي ارتأيت ان اتخذ سلاح آخر : " الم تخبرني بأنك مشغول ..؟ حسنا ..انا انهيت ما قلت واود العودة للمركز " .

" لقد جنّت بنفسك الى عرين العدو يا وردة ..لقد تأثرت حقا بشعورك بالقلق تجاه سلامتي ..والآن على ما يبدو انك قلقة من صديقتك علي.." .
" انها ليست صديقتي .." قلتها بحدة .

سألني وهو يشدد وثاقه علي : " ما سبب الخلاف ؟" .

" اخبرتك ..انا لن اقول شيء لأن الأمر يتعلق بي انا ومنال .." .

" وكيف ستحضرين عرسنا اذن ؟" . تسارعت دقات قلبي وتوقفت عن المحاولة في تخليص يدي .. " انت جاد اليس كذلك ؟" ..اجتاحني رعب

حقيقي ..انه جاد ..سيتقدم لخطبتها حقا !..تمنيت ان لا يظهر شيء على وجهي ..خاصة وانه ينظر الي بتركيز قاتل !.

" علينا ان نعيد الفرح لهذا المنزل اليس كذلك ..؟ انا وانت ..".

" تكلم عن نفسك ..انا سأكون في السماوة .." قلت ثائرة .

ابتسم : " وانا سأكون في شهر العسل حينها !.."

انتفض قلبي ..وانا اتخليهما زوجين حقيقيين ..ينظران لبعضهما بحب ..وشعرت بالمرارة تكسوني ..انا استحق ..لأني من عرفتهما على بعض .

" هنيئا لكما ..والآن هلا تركت يدي ؟".

فحررها أخيرا ..سارعت لأتحرك من قربهِ ..أردت الهروب ..الخروج من غرفته الخائفة ..البكاء في ابعد زاوية في الارض ..الانفجار بصراخ لا يكفي ولا يروي ظمأي والغيط الذي بداخلي ثم توقفت عند الباب فجأة وقلت بنبرة جامدة : " ان نويت الاستقرار فعلا فعليك ان تتخلى عن عملك المحفوف بالخطر " والتفت اليه بشكل جزئي : " منال مثل اي بنت ..لن ترض الارتباط برجل مهدد على الدوام ".

ليتني خرجت ..لأنه قام كالأسد الحامي ..توقف قربي وأجابني بتهكم مرح : " لي طريقي الخاصة ..زوجتي ستكون في الخط الأول للحماية ".

تقلصت يدي وانا اسمع كلمة زوجتي تناسب من فمه بعذوبة ..من قال اني قادرة على تحمل فكرة زواجه ..شدت يدي على اكرة الباب ..لم ارد قول شيء ولكنه بوقفته القريبة مني شعرت بأنه سيمنعني من المغادرة ..رفعت بصري نحوه بقلق ..وانفاسي مقطوعة وقلبي يختنق

بدقات الغيرة الدامية " الآن حاولي ان تقنعيني انك لا تشعرين بالغيرة !".

" ب.. الغيرة ؟".

اوماً وهو يقترب اكثر ومد يده ليمسك يدي ويبعدها عن الاكرة ..شعور مهول اجتاحني حينما لم يترك يدي بعد ان ابعدها ..وكأن شيء صعقني تماما وشلني عن الحركة ، طريقة مسكته ليدي وهو يشبكها مع يده ذكرتني بتلك اللحظة المؤلمة على السلم في المستشفى وفي وفاة جدتي ولم اعرف ماذا اقول ..نسيت كل الحروف ..دقات قلبي فضحتني وانا اسبل بنظري الى ايدينا سوية

" ماذا ستقول العائلة لو اننا غيرنا من خططها قليلا ..".

اريد الذهاب ..الآن ..وفي تلك اللحظة .

" لا اعرف ماذا تعني .." شككت انه صوتي لأنه خرج متعثرا مخنوقا بالارتباك .

" لقد هرعت الى هنا قلقة علي ..بالرغم من اني حاولت الابتعاد عنك طوال الفترة الماضية ..".

" الابتعاد عن ..ي ؟"

اوماً وهو ينظر الي بطريقة جعلتني اشيح بوجهي بعيدا عنه ..لم اكن مستعدة لشيء ..لست مستعدة لسماع كل ما يأمله قلبي ويوده .

" أجل ، ليس من السهل ان ابتعد يا وردة حينما تقر الوصية على شيء آخر " وتابع بصوت يفيض غزوبة : " ولكن قلقك علي .. غيرتك هذه من صديقتك .. "

هتفت بعيون مغرقة بالدموع : " لست غيورة .. وليست .. "

ابعدت رأسي عنه .. لا يجب ان يراني ابكي .. ولكنه كان يسيطر على افكاري ودموعي وقلبي المخذول .. تجرأ سرمد على امساك ذقني ليجعلني قريبة منه اكثر .. لأنظر إليه وهو يتابع بصوت أبح : " من المؤسف انك لا تتوين الارتباط .. وانك تفضلين عملك على أشياء أخرى .. "

" انا .. " وتحشرج صوتي .. ونزلت دمعة خائنة .. شاهدها سرمد والتوت تعابير وجهه الى شيء من الألم وهو يتابع : " ومن الظلم أن ترتبط بي وأنت تبغين حياة هائلة وبساط مليء بالورود .. لا تستحقه الا من هي وردة في الأصل .. "

" سرمد .. ارجوك " وحررت وجهي ونزلت دموعي اكثر .. رأيت من بينها يده المرتجفة وانفاسه المختنقة القريبة مني : " فائن .. " .. لم يتخل عن يدي ... " لو ان هناك أمل في صمودنا سوية لانتهزته .. ولكن حياتي محفوفة بالخطر .. وعلمي سيظل الشيء الذي لن اتنازل عنه .. سأظل الرجل الذي يلاحق الظلام في هذا البلد .. أنه بحاجة لنا .. بحاجة لأن نتخلى عن سلامتنا كي يظل الآخرون سالمين .. دم عادل لن يذهب هدرًا ، وهو الرجل الذي لطالما كافح الظلم ومات وهو يدافع عن انسانيته وحقوقه في هذا العالم .. عادل قضيتي التي لن تنتهي لذلك .. " .. وشد علي يدي وعاد يهذر بالكلام .. يطعنني مرة تلو الأخرى : " أن كانت لديك الفرصة للهرب .. فأهرب .. او تزوجي شقيقي .. او غادري "

للسماوة أو عودي الى مدينتك ..فقط لا تكوني امامي ..ولا تهربي الى هنا قلقة على سلامتي ..علي ان اكون شوكة في اعينهم ..وكوني انت الوردة الخالية من الاشواك !..".

وفي تلك الثواني شعرت بعذابه وألمه ..لقد منحني كل الخيارات ..ولكن أترأه منح منال مثل هذه الخيارات المؤلمة ..أترأه باح لها بعمله الخطر وجعلها تتلوى من الألم ..يرغبها وينبذها في ذات الوقت ..؟..منال القوية التي تبجحت بأن الحب للضعفاء وأتهمتن بأني غير قادرة على تحمل اوجاعه ..أترأه اختارها لأنها الأقوى مني ..لأنها لا تهزم أبدا ..؟

بدت الحقيقة موجعة خاصة وهو يحرر يدي ويبتعد عائدا الى سريره حاملا قلبي المحطم وكرامتي المبعثرة ..ملقيا بمصيري نحو المجهول..لا اعرف كيف استطعت فتح الباب والخروج من سجنه المؤبد ..هرعت نازلة السلم ..لم انتبه في طريقي لشيء ..اردت الخروج..استنشاق الهواء وفي الباحة الخارجية لببت جدي توقفت غير قادرة على الصمود ..انحيت الى الاسفل متوجعة ...شهقت من شدة الألم وانهمرت دموعي اكثر ..لم اشعر الا وبلاء يقف قربي .. لهجته ملهوفة علي : " فائن ..ماذا حصل ..؟". وجلس قربي واصبح بموازة جسدي الملتوي بألم ..تحشرج صوته بالصدمة : " ماذا فعل الوغد ..ماذا قال لك ؟".

بدا علاء حائرا في انتشالي من صدمتي وخيبة ألمي وكرامتي الممزقة..وأنا لم استطع الكلام ..بكييت حتى آخر دمعة لي ..أنا لن اهزم..اخذت اتمتم بين بكائي الموجه ..أنا لست ضعيفة ..لن استسلم..رفعت بصري اليه ورأيت نظراته الحنونة المتألمة والحزينة

بعض الشيء .. وتمتم يقول لي بعطف : " لا تبكي فاتن .. دموعك غالية علينا .. "

ثم مد لي يده لأقف باعتدال .. مسحت دموعي وأنا افكر بمدى تهوري .. حبي لسرمد من جعلني اهرع الى هنا .. خوفي عليه وقلقي من دفعاني إليه .. كلما ابتعدت عنه .. كلما سأكون قادرة على الوقوف والاستمرار بحياتي .. تمسكت بيد علاء وتخاذلت انفاسي وتهدج صوتي : " علاء .. لو فتحت خالتي سعاد الموضوع مرة ثانية .. " استنشقت من بين دموعي : " هل تستطيع ان تخبرها بأنك موافق .. بأنك ستحقق وصية جدتي .. يمكنك ان تفعل هذا .. " وشددت على يده وتوسلت به بصوت هامس " هل تستطيع .. هل تستطيع ان ترد لي كرامتي .. ؟ " .

" لماذا .. ماذا حصل في الأعلى ؟ " .. امتقاع وجهه من جعلني اتابع بلهجة معذبة مكسورة الجناح : " لم يحصل الا ما ظننت أنه سيحصل .. " وهزرت رأسي : " سرمد رفضني .. إنه لا يريدني بالمرة .. " صرخ قلبي بالحقيقة .. مهما حصل .. وأي قرار وخيار اختاره ففي النهاية سرمد يودني ان اصبح بعيدة عنه ..

في تلك اللحظة من ذهول علاء الى توسلي الاحمق ادركت بأنني استسلمت .. وبأن لا شيء سيعيد لي فاتن القديمة سوى الاستسلام ذاك !! .

الفصل الواحد والاربعون

اختفاء

القرار الذي نختاره في لحظة حمقاء هو ما يصبو في مصلحتنا .. وهكذا بدا لي قرار خطبتي من علاء بالرغم من اعتراضه .. والحاحه .. ورفضه القاطع .. ترك لي عشرات الرسائل في هاتفي يحثني فيها على ترك العناد جانبا .. وبأن ما افعله سيحرق كل الاطراف معا .. وبأنه سيكسر وعده ويتحدث مع سرمد عني .. ولكن في كل لحظة اتخيل صديقتي الحقودة منال .. وهي تتبجح بعلاقتها المنفردة بسرمد .. وبكلامه هو عنها ونيته في خطبتها لأنها الافضل والأقوى والأمكن في تدبير امورها .. اعود الى قرارى الأحمق .. أخبرت علاء يومها انها خطبة مؤقتة .. ربما لتبعد الحاح اهلنا عنا .. ريثما استطيع الاستقرار في السماوة .. بعدها ربما سنكون قادرين على فسخ الخطوبة نتيجة عدم تفاهمنا ودأومي المتذبذب .. ارسل لي مرة يقول (فائن ، الامر صعب بالنسبة لي .. انت غالية وانا حاضر لكل طلباتك الا هذه .. !) ثم بعد ايام ارسل (فائن لو قررت المضي بتلك الحماسة ستحدثين شرخ بيني وبين اخي) .

استفزتني الرسالة فأرسلت اقول له (لن يحدث هذا .. انه يصر على خطبتنا .. وفي الحقيقة انا لم اعد أراها فكرة حمقاء .. انها الحل المناسب لاسترداد كرامتي) اتصل بي بعدها واعتذر مني على فظاظته .. كان الامر صعب بالنسبة له خاصة وهو يقول بأنه وافقني يومها لأنني كنت في حالة انهيار .. اخبرته بأنني لا اتعمد استغلاله فزجرني واخبرني في

النهاية بصوت كئيب بأنه سيقوم بما يراه مناسباً لنا ..وبأن يأمل ان يفعل
سرمد شيء خلال تلك المدة ،،وانهى الاتصال ..

ولكنني عرفت سرمد ..لن يفعل شيء ولن يتحرك ولن يعترض ..انه ما
اراده لي في النهاية ..اغمضت عيني وانا استردد طريقة مسكته ليدي
قبل ان اغادر غرفته ..نبرة الالم والاسى في صوته ..لهذا السبب لم يقم
بالخطوة الاولى نحوي ..اختار منال لأنها تناسب خطته المستقبلية
وحياته المحفوفة بالخطر .

وهكذا وبمرور عشرة ايام فقط تمت خطبتي المؤقتة لعلاء ..تمت في
هدوء تام وكتمان ..خاصة لأنها تمت كما ارادت كل من خالتي سعاد
وامي في بيتنا في الحلة احتراماً لجدي المتوفاة ..جدي الحبيبة التي
وضعتنا في ذلك المأزق ..مترابطين ولكن بقلبين مفطورين ..لم اكن
سعيدة ..ولا علاء كذلك ..تركنا السعادة لهم ..لخالتي وامي وقيصر
والذي كان وجوده السبب في تغيير مزاجي الكئيب وروحي
المجروحة ..جلست الى جانب علاء وانا ارتدي مهر جدي وقلادتها
واسورتها ..اقراطها التي تعلقت بأذني ..روحها التي جملتها ..ارتديت
جدي ذلك المساء وتذكرت يومها حلمي عنها ..وكيف فسرت له
نرجس ..لقد سرت على خطاها ولا يبدو اني قادرة على العودة الى
الوراء ..حتى علاء الحبيب ..جلس بعدم راحة الى جانبي يشعر بالخرج
من الفرحة الخالصة في عيون عائلتنا ويتنهد ..ومرة همس لي اثناء
انشغال خالتي نجاح بتوزيع العصير والكيك بيننا :." فائن ..لقد علقنا
معاً..".

اجل .. علقنا ..حققنا امنيات الجميع ..وظللنا انا وهو خارج الدائرة..ولكن
ما اجمل ان اكون عالقة مع صديق مقرب لي ..افضي له مكنوناتى
ودموعى ..علاء سيكون الكتف الذي ابكى عليه ..

امتنع سرمد عن الحضور وكرامتي ابت ان تسأل عنه ..وحدها دقات
قلبي المحمومة من تخيلت ردة فعله وهو يراقب الجميع مسافرا الى
الحلة لإتمام الخطبة التي تنبأ بها منذ اشهر ...!

ولأنى خطبت لعلاء ..فلم يعد من اللائق الذهاب الى بيت جدي ، بل
تحجبت من علاء تلك الفترة تبعاً لأوامر والدتي ..خطوبتي التي ظننت
انها مجرد اجراء تشكيلي اصبحت من الثوابت في حياتي ..الدار
والمركز لم يخفَ عنهما خبر كهذا ..اقمن البنات لي حفلة صغيرة في
الدار تبعا لتقاليدنا السابقة في اقامة حفلة للمخطوبة الجديدة ..وحدها
نرجس كانت تدرك مدى تعاسة قلبي ..وعينا منال الشامطة كانت تدفعني
لأرقص واضحك وامرح غير عابئة بها ..لم تبارك لي والحمد
لله..اكتفت بالنظر الي بالحدة التي تحاول فيها فهم ما افعله ..ولو اننا لم
نتخاصم ..ولو اني لم انهي صداقتي العديمة الجدوى بها لكانت منعنتي
من ارتكاب حماقة مثل هذه .

في ذلك الوقت وصلت الاوامر الادارية ..وتأكدت من قبولى في السماوة
بينما منال لم تستطع فعل شيء ..فقبولها في العمارة دفعها للتقدم
باعتراض متأخر على ذلك ..ربما أملت ان يفعل سرمد لأجلها
الاعاجيب ..وهي لا تعرف بأنه مشغول بقضاياها وبتهديدات حزب نائب
المحافظ ..يومها دفعني التفكير به الى البحث في عدد الخميس الذي
نشرت فيه قضية موت عادل وتناقلت عدة صحف الخبر وانتشر الامر
في التواصل الاجتماعي والذي ابتدأ يأخذ حيزا بين عموم الناس في ذلك

الوقت ..كانت المقالة بعنوان (هدرًا..!) مكتوبة بطريقة سرمد التي آلفتها في كتابة المقالات ..مقالة بأسلوب حرفي وبتحريات صحفية جمعها لما يقارب السنة ..اثبت فيها بأن موكله عادل سعادة اختفى في يوم الثامن عشر من شهر ايلول لسنة ٢٠١٠ وبأنه كان يحضر للهجرة خارج القطر في ذلك الوقت نتيجة التهديدات المستمرة التي مست عائلته والتي دفعت عائلة شقيقه للنزوح الى بغداد محاولين ان لا يتركوا اثرا كي لا يصيبهم المصير ذاته ..فقد تسلم شقيق المغدور جثة اخيه بعد ما يقارب الست اشهر على اختفائه وعلى اثر ذلك غادر المدينة تاركا ثأر اخيه خوفا على عائلته.

دفن عادل في مقبرة السلام في وادي النجف دون ان تقام فاتحة على روحه ..وعلق على قبره شاهد المنجل مع المطرقة ..الرمز المميز للشيعوية ..وكتبت كلمات خطها شقيقه الشيعوي السابق كاتبها قصيدة مؤثرة في رثاء شقيقه ذكرها سرمد في نهاية المقال .. استطاع سرمد التوصل الى عائلته ورتب لهم عن طريق المنظمات الهجرة الى بلد آخر حتى يستقر الوضع ..اما عادل ..فقد قررت جمعية حقوق الانسان اجراء الفاتحة على روحه المغدورة وذكر سرمد فيها التاريخ والمكان ثم كتب في النهاية قضايا الحزب الفلاني والادلة المتورط فيها وهناك قضية في المحكمة موجهة ضده ..بعدها ذكر القصيدة وقد دفعت الدموع الى عيني ..كانت مؤثرة للغاية ادركت فيها لماذا اصر سرمد على نشر المقال دون الاعتبار لأي تهديدات ..كان محقا ..دم عادل لن يذهب هدرًا ابدا ..

كتبت باللهجة العامية :

عادل يا ابو الضحكة الحلوة

تعال وشوفني .. لا تعوفني بالمرّة

تره بعادك عني والله قسوة

عدولي يالسبع يا أبو النخوة

فراكك خلّ النار تكوى بيه

نارك يا حبيب الكلب والجلوة

تعال وشوفني .. لا تعوفني بالمرّة

الروح حنت الك .. والكلب الك يهوه

والعين اذا مو بشوفتك ما تحلى

نزف دمي عليك شلون بلوة

تعال وشوفني .. لا تعوفني بالمرّة

انتشرت القصيدة الرثائية بشكل علني في الصحف والقنوات وفي موقع
الفيس بوك واستطاع سرمد ان يضع بصمته ..وان يأخذ بثأر موكله
وزميله في الجمعية ..بعد تلك الأخبار الموجهة المفرحة قررت
الانفصال عن الديوانية ..فقد اطمأنت على سلامة سرمد ..وبأنه لو مس
بأي اذى ستصبح قضية رأي عام ..حينما اعلمت البنات في الدار
بقرارى في انتهاء خدمتي كمقيمة دورية حزنّ كثيرا ..نرجس اكتفت
بنظرات عتاب ولوم ..لا يحق لي تركها ولكنى مجبرة ..انا لن ابق في
الوقت الذي يحترق قلبي من تطور علاقة سرمد بمنال ..والتي على ما
يبدو قررت ارجاء انفكاكها الى وقت لا يعلم به .

سمية كانت مثلي .. عجلة لأجراء انفكاكها بسبب صعوبة حملها ومشقة السفر كل اسبوع والعودة بعدها .. ولهذا قررنا ان نقدم المعاملة كلانا بعيدا عن احتجاجات نرجس وهند .. وما ان عرف المقيمون في المركز بقرارنا في المغادرة حتى قرروا توديعنا بطريقتهم الخاصة .. فاقترحوا علينا الغداء في مطعم الأرض الخضراء وتقبلنا الفكرة بعد الحاحهم الشديد .

الجلوس مرة اخرى في ذلك المطعم تدفع الى روعي الذكريات .. خاصة واننا انا وسمية كنا بمفردنا وسط المقيمين والمقيمات الجدد .. كانوا جميعا ينضحون شبابا وتألقا وحيوية .. يختلفون عنا بصخبهم وجرأتهم ومزاحهم الذي ظنناه في البداية وقاحة .. ولكننا بعد ان عرفناهم جميعا ادركنا انهم طيبون يتعاملون بود وزمالة وصداقة اختلفت تماما عنا .. فنحن كنا حذرين مع زملائنا .. خجولين بعض الشيء .. بالإضافة الى اننا كنا مشغولين بقصص العشق التي دارت بين كل الأفراد .. ولهذا حينما جلست مع سمية رأيتها تتلفت هنا وهناك وكأنها تتذكر بدورها الأمر الذي جعل عيني تدمعان .. لقد مر الكثير الكثير .. حين ودعناهم جميعا .. وقد حان اليوم وقت وداعنا ..

مر الوقت بنا كما لو اننا كنا هنا البارحة .. ولم نعرف بأن القدر يمنحنا دوما فرصة ثانية .. قد تكون فرص عائرة .. من بعدها نستطيع المضي بحياتنا دون التطلع الى الوراء ..

كدنا ننهي وجباتنا ونتحضر للخروج حينما ذهبنا انا وسمية الى دورة المياه لغسل ايدينا .. مررنا من ذات الممر المتصل بقاعة الشباب وتذكرت المرة الاولى التي اتينا فيها الى هنا وكيف كان حظي سيء برؤية قيصر في وقت متأخر من الليل .. تلك الذكرى طافت في بالي

اثناء مروري مما جعلني التفت بشكل مختلس الى قاعة الشباب ..وبدلا
من ان اتخيل وجود قيصر مرة ثانية علق بصري بعينين ذهبيتين
لامعة..تشع بالحياة..توقفت عن السير بغتة ..وشهقت !..

كم من الاشهر مرت منذ لقاءنا المر انا ونبيل ..أتراه كان يعرف بأني لا
ابعد عنه سوى عدة طاولات ؟..كلا لا اظنه علم بذلك ..لأنه جمد بدوره
وبانت الصدمة عليه ..وحيثما وقف على اقدامه تحرك الكون من
حولي..استطعت ان اتحرك بدوري واتجهت هاربة الى دورات المياه
وحيثما اخبرت سمية بذلك نظرت الي بصدمة : " فائن ..لا انصحك ابدا
برؤيته .." و اشارت الى خاتم الخطوبة في اصبعي ..ومن خلال المرأة
المعلقة رأيت شحوب وجهي وامتقاعه ..كيف سأهرب ..وبماذا سأفسر
هذا ؟.. .

القيت نظري الى اصبعي الرابع والذي زين بخاتم جدتي
للخطوبة..وازدردت ريقي ..لست املك اي مبرر ..ستكون طعنة اخرى
نحو صدر نبيل ..وهو لا يستحق مني ذلك ..ابدا .

" لا اعرف ماذا يفعل هنا .." قلت لسميه بصوت مرتجف ..وتذكرت
وجهه المصدوم ...: " كيف سأمر من القاعة من دون ان يراني .." التفت
الى سمية اناشدها وهي سرعان ما ابتكرت لي الحل : " انزع
الخاتم..!!".

كانت فكرة ممتازة ..لولا اني ..لولا ماذا ؟! انا التي مشيت على الجمر
محترقة ..بيدي هذه رتبت حصول هذه الخطبة ..فهل سأكون جبانة
وانزع الخاتم واتصرف كما لو اني لست مخطوبة ولم اقطع اي وعود
لأي محب ؟..

" انا لست جبانة "

وبختني سمية : " بالطبع .. ولكن عليك ان تفعلي الامر الذي لا يصدق .. لأجله فقط فاتن .. لا تريقي كرامة رجل ابدا .. "

في تلك اللحظة الجزعة تذكرت محمد .. حينما اكتشفت خاتم الزواج في اصبعه .. ماذا سيكون رد ريهام لو انها هي التي رأته .. ووقفت معه تلك الوقفة الموجهة .. تجبر روحها على قول المستحيل .. كلمة مبارك !..

محمد الذي ظننت اني لن اسامحه .. ولكن ها انا الآن في ذات محله .. امنح نفسي مبررات لا طائل لها .. لم تحصل قسمة بيننا .. لست مخطوبة فعليا .. الخطوبة شكلية .. كيف سأبرر وبأية طريقة ؟..

وقبل خروجي تأكدت من وضع الخاتم في جيب حقيبتي وسرت مع سمية بثقة مزيفة وانا اتطلع بذعر في الانحاء باحثا عن طيف نبيل .. وما ان عدنا الى القاعة المخصصة للعوائل ورأيت تجمع الزملاء والزميلات فاض قلبي ألما من وقوف نبيل معهم .. لم يبعد عني سوى خطوات .. لا مجال للهرب والتبرير .. فقد بدا من وقفته المتخاذلة شحوب وجهه وابتسامته المجاملة بأنه عرف ما خشيت ان يعرف .. تحضر زملائي للمغادرة في الوقت الذي اقتربنا من الطاولة .. التفت نبيل نحوي اخيرا .. ارتعد قلبي من نظرات عيونه الجامدة الفاحصة .. ودون وعي مني مسكت حقيبتي .. جررت الخاتم من الجيب وارتديته بحركة مرتجفة .. لن اجبن .. وان عرف حقا فلن اكون محرجة وانكر هذا الشيء .. سمية التي ظننتها ستقف الى جانبي .. ألقت التحية على نبيل بشكل مختصر ونظرت الي بشفقة ثم غادرت مع البقية .. تواجهنا انا وهو اخيرا .. كان يرتدي قميص سماءي اللون وجينز ازرق ، شعره

مصفف بعناية ..وعيناه التي لازالت حتى تلك اللحظة تؤثر بي جعلتني اشبح بوجهي عنه واسأله بكل هدوء : " ماذا تفعل هنا ؟" .

اجابني بعد لحظة : " اتيت مع زملاء قدامى .. وتحرك بين الكراسي ليصبح الى جانبي ويتابع بلهجة خطيرة : " كم هي صدفه غريبة ان نلتقي وفي مناسبة غريبة بعض الشيء ..الا تظنين ؟" .

" لا اريد التكلم في الموضوع " تحركت لأخرج ولكنه لحق بي..اوقفني عند الباب ..لم ارد لأحد ان يتفرج علينا وعلى منظرنا المريب ..نبيل بدا غاضبا وكأنه يود الانقضاء علي ..خرج صوته غاضبا كالهسيس : " لماذا لا تودين التكلم ..لأنك اخطأت بحقي ؟..هل هي مشاعر الذنب من جعلتك تهربين ..؟" واصبح مطلا امامي ..بدا غاضبا مفترسا ..كما في المرة الاخيرة : " لكم من المرات خدعتني ..وجعلتني اظن بأنك تكرهين سيادة البطل ..ولكن ها انا الآن أرى خاتمه اللعين يزين اصبعك ..؟" .

" نبيل .. صحت بجزع ..لقد توهم ..أنه يظن ..

" ذلك السكير الذي تمنيت ان لا تجمعكما صلة قرابة بسبب سمعته القذرة واختلاطه مع اكثر من منظمة غير قانونية .. وعلى صوته : " وتولييه قضايا فاسدة .. أتعلمين بأنه مراقب من قبل الأمن ؟ وبأنه .." .

قاطعته برعب : " من اين لك كل هذا ..انت مخطئ ..سرمد .." .

قاطعني بعنف : " بل هو كذلك ..أنسيت اني وكلت شخص للبحث عن خلفيته ؟" وضرب يده في الجدار القريب منه وتنفس بغضب : " منذ اليوم الذي رأيته في المقهى يتصرف كما لو انه وغد ..يشرب حتى الثمالة ..ارتأيت ان اخبرك وأن اجمع عنه كل المعلومات التي تدينه

حتى تقطعي كل الروابط به .. ولكني اكتشفت ان كل الادانات لن تنفع
ما دام قلبك معلق به "

كدت انهار .. سرمد ليس رجل سكير ولا مطارذ .. أنه رجل
قانوني .. ناشط مدني ولا بد وإن كل معلوماته خاطئة بالمرة .. اخذت نفسا
عميقا مشبع بالقهر وقلت لأوقف هذيانه : " انا لست مخطوبة لسرمد .. "

للحظة رأيته يجفل .. وكأنه يستوعب ما يقول فارتأيت ان افسر له
بصوت متعثر : " انا .. أ .. نا مخطوبة لعلاء "

" علاء ! " ولاك الاسم بصدمة أكبر .. بدا عليه الذهول وتوقف للحظات
في مكانه جامدا : " دعيني افهم .. هل .. أنت .. مخطوبة .. لعلاء ؟ " قال
كل كلمة على حده .

تحضرت لخطاب شرس موجع منه .. حينما اومأت له .. ولكنني جفلت
حينما ابتعد عني .. نزل الدرجات الثلاث وهو يتنفس بصوت مسموع
وصدى صدمته يتكرر من حولي .. راقبت مجموعتي وهي تبتعد .. اردت
التحرك واللاحاق بهم .. ولكن نبيل استقام فجأة .. التفت نحوي وعيناه
الذهبية متسعة بشكل مخيف .. بعدها تحرك نحوي ليقول بذهول كلي : "
هل رفضك .. ؟ "

جفلت .. ولم اقل شيء .. تذكرت سرمد في تلك اللحظة .. وقفنا عند باب
غرفته .. لهجته .. ونبذه لي .. تشوش وجه نبيل من امامي .. اجل لقد
رفضني .. واختار صديقتي .. ! هذا ما صرخ قلبي به .. فرأيت شبح
البتسامة على شفتي نبيل .. ربما توهمت .. ربما ..

سرعان ما اتسعت الابتسامة لتصبح اكبر .. واكبر .. بعدها اخذ
يضحك .. وكأنني اخبرته بنكته .. ! : " آه يا فاتن .. لا تعرفين كم انزاح جبل

الهم من كاهلي .. واشرقت عيونه بفرحة عميقة ..صادقة : " اذن فقد رفضك .. وخطبت لشقيقه .. انها اخبار سارة بالفعل .. " .

تلعثمت : " أ ..خبار سارة ؟ " .

نظر الى وجهي بتمعن .. كان البشر يطفو على نظراته : " أجل ، إنها اخبار سارة لعينة .. " وتنفس بارتياح كلي .. انه ليس نبيل .. ابدا لم يكن نبيل الذي عرفته ... ! .

" أنا اشكر القدر على هذه الصدفة الجميلة .. " وعاد يتنفس وهو يوماً لنفسه : " بالفعل .. بعد هذا اليوم سأكون قادرا على الماضي .. " وقد فعلها .. تحرك مارا من جانبي وتوقف عند الباب : " عالما بأن كل يوم ستقضينه انت بتعاسة هو يوم جديد مشرق بالنسبة لي .. " . وابتسم لي كابتسامة منال الكريهة .. ابتسامة شامته هزنتي من الاعماق .. ثم اختفى داخل المطعم .

لدقيقة كاملة لم استطع التحرك من مكاني .. اخرستني كلماته وشلنتني عن الحركة تماما .. نظرتة الشامته وابتسامته السعيدة .. اختفاه داخل المطعم بكل سهولة .. تلك اللحظة فقط ادركت بأنى امرأة تستحق كل هذه التعاسة .. لقد خسرت نبيل .. منال .. وسرمد .. ولكن الأكثر من ذلك .. فأنا خسرت نفسي .. انا امرأة محطمة لا تستحق تضحية علاء النبيلة لي .. اردت الاتصال به يومها لأخبره باعتذاري بأنى انسحب .. وبأن ذهابي للسماوة يكفي لأن يشفي كل الجروح .. سحقا لكرامتي .. والتي لأجلها آذيت اقرب الناس الي ... ! .

وليتني فعلت حقا .. ليتني اتصلت به ، ففي اليوم التالي ودعت زملائي في المركز بعد ان انهيت معاملة الانفكاك وكنت قضيت ليلة سيئة مع

نرجس والفتيات .. بقيت لساعتين في غرفة نرجس لا نعرف ماذا نفعل
كي نخفف على بعضنا مرارة الوداع .. كنا ساعة نبكي .. ثم
نضحك .. وننتذكر ايامنا الأولى ونعود للبكاء والعناق .. نرجس لم تظهر
مشاعرها على الدوام معي .. ولكن في ذلك اليوم كانت ترتجف من
الألم .. اذ لو رحلت انا .. من سيبقى لها في الدار ..؟ في تلك الليلة
اظهرت لي عاطفتها .. حضنتني وهي تتوسل بي ان اؤجل الانفكاك ولو
يوما واحدا .. ولكني كنت عمياء .. وحتى في اليوم التالي هربت من دون
ان اراها على الفطور وذهبت للمركز .. قضيت الساعة الاخيرة لي في
وحدة الحشوات ثم خرجت مع عاصفة من دموع الوداع والاماني
الطيبة والغصات المخنوقة .. وفي البهو المقابل لوحدة الحشوات
صدمتني رؤية سرمد .. تدفقت دموع جديدة الى عيني وانا اراه يبتسم
بتحبيب لمنال الواقعة الى جانبه .. الممتلئة بغرور وثقة .. كانا مثاليان في
وقفتها .. يبدوان وكأنهما في عالم خاص .. ابتسامة المحبين التي تألقت
بينهما طعننتني تماما .. الم يستطع سرمد الانتظار ليوم واحد فقط .. يتأكد
فيه من ذهابي حتى يستطيع المجيء براحته كل يوم ؟ .. اشحت بوجهي
عنهما .. مضى شهر كامل لم اراه ولم اسمع صوته .. ورؤيته في اللحظة
هذه .. وانا اودع الديوانية قسوة لا احتملها قط .. سحبت روحي بقوة
واكملت سيرتي في الممر وفي يدي اوراق انفكاكي ..

" فائن !!" .

هل تخيلت صوت سرمد .. ام نفسي المريضة أملت ان يناديني
فعلا .. يوقف هربي الوشيك ..

" فائن .. " اقترب الصوت اكثر .. لقد ناداني حقا .. تجمد الدم في
عروقي .. هل انا قادرة على الالتفات نحوه ؟ .. بأي قلب أواجه ندائه ..؟

لقد كانت رؤية نبيل البارحة محطمة بالنسبة لي ..ولكن رؤية سرمد..في لحظة مغادرتي كانت الاصعب والاشد مرارة ..وكلمات نبيل تتردد في بالي ..رفضك ..لقد رفضك ..!

لا اعرف كيف التفت ..وواجهته بوجه جامد ..وشكرت ربي لأنني ملكت تلك الشجاعة المزيفة ..فهو لم يكن وحده ..منال تبعته ووقفت الى جانب منه ..ربما لتتأكد من انهيار التام برؤيته ..لتبتهج روحها بسعادة خالصة ..تعلن انتصارها الكلي وحصولها على قلب سرمد .

" مرحبا .. " سلمت عليه بتكاف ..وأنا اتطلع الى وجهه الاسمر الخشن وقد عاد الى اوجه ..بحلاقة ذقنه الجديدة وأناقة ملبسه ..نظرته التي لازالت تزلزلني منذ الطفولة ..كان حب حياتي ..وروحي وعمري الماضي والآت ..هذا ما همس لي قلبي الغني وأنا اتطلع اليه ..!

" كيف حالك ..؟ " خرج صوته برقة فائقة ..

" بخير " اختصرت كل الكلمات بيننا ..واختلست النظر الى منال..كانت واقفة تتطلع بنا بفضول كلي .

ارتبكت حينما سمعته يسأل بود : " لماذا كنت تبكين ؟ " .

لماذا ..؟..لا اعرف حقا ..؟

قوة نظراته جعلتني غير قادرة على النطق ..منذ متى وسرمد يسحق ارادتي في الكلام ؟..لطالما وقفت في وجهه وتكلمت ..واستمعت الى سخريته واستهزائه المتواصل بي ..ومع هذا لم اصمت ولم أجبن..فلماذا العشق يجعلنا ضعفاء حقا ؟..

اخفضت بصري وقلت بصعوبة : " هل هناك شيء ؟ " .

ما كان علي ان اسأل ..ولكني اردت التنفس والابتعاد عنهما ..

اشار الى منال : " احتاج لجلسة تنظيف فقط .. " او مأت وانا اتتبع نظرتة الودية لمنال .

فتحت فمي لأخبرهما بأنني لا اود ان اعطلهما وبأنني سأذهب لأن السائق بانتظاري ولكن سرمد تقدم خطوة نحوني : " هل يمكننا التكم ؟ " .

لا اعرف من تفاجأ اكثر .. أنا أم منال .. والتي التفت نحوها وتابع بلهجة رسمية : " دكتورة أسمحين لنا ..بضع دقائق وسألحقك للوحدة .. " .

لم تستطع منال قول شيء ..راقبت تخرج وجهها وانطفاء النور في عينيها ..للحظة فقط شعرت بالشفقة نحوها ..اردت ان اخبرها بأن حديثنا لن يغير شيء وبأن سرمد لا يزال يراك ست الحسن والجمال ..ولكنها استأذنت منا بصوت مخنوق واتجهت الى وحدة التنظيف ..

بقينا لوحدها فأشار لي ان نخرج الى الممر الجانبي ..وشكرته في داخلي..اردت استنشاق الهواء ، تطلعت بخاتم خطبتي وأنا اشعره كالحبل يخنق رقبتني ..ماذا فعلت يا فاتن ؟

لم اظن ان لقاءنا سيكون بتلك الطريقة ..وأنا اودع كل شيء هنا ..لم استعد لوداعه قط ..

ما ان تواجها مرة ثانية اخذ يقول بلهجة عتاب خفيفة : " أوصل بنا الحد ان نلتقي ولا نسلم على بعض ؟ " .

انت من اردت هذا ..أنت من رميت قلبي من على سفح الجبل ..وتحطمت ..انا الان امرأة محطمة .

" انا مستعجلة ..".

" للمغادرة ؟.. لقد رأيت سائق السيارة في الخارج " .

اومأت ولم اقل شيء .

" هل ستذهبين بمفردك للسماوة ؟".

ألم يكن في منزله ؟..

نفيت بهزة من رأسي : " سنمر على علاء في البيت " .

حان دوره ليصمت .. تجرأت على رفع رأسي .. فرأيتَه ينظر نحو يدي.. أتراه تذكر لتوه بأني امرأة مخطوبة ؟..

" يليق خاتم جدتنا بيدك " خرج صوته أبخا .. وبان عليه الكدر للحظة : " ستكون سعيدة لأنك حققت وصيتها " .

لم احقق وصيتها .. لقد اتبعت غياب قلبي فقط .. اردت ان اخبره بالحقيقة .. بأن خطوبتنا شكلية فقط ولكن شيء ما الجمني .. ربما من نظرتَه التي طالت علي .. اكثر من المعتاد .. بدا وكأنه يلتهم كل تفاصيل وجهي .. متلهفا لأن ارد عليه بشيء .

" ان هذا ما اراده الجميع " .

اوماً بعد عدة ثواني .. بدا سرمد متردداً .. وكأن شيء به تغير .. بدا هادئاً، لم يتكلم معي بأية لهجة ساخرة متهمكة .. بدا مثل سرمد الذي ظننت انه قد يكنّ لي شيء ما .. في تلك الفترة التي لازالت ورود قلبي تخفق لها .

" اعتذر لأنني لم احضر الخطبة .. كنت مشغولا ..".

قاطعته بلهجة مقفلة: " هل هناك شيء تود قوله ؟". لا اريد اية اعدار لعدم حضوره .. لا يهمني لو إن علاقته بمنال ازدادت واصبحت اكثر قوة ومتانة ..!

" كلا .." وتابع بلهجة حانية اذابت جليد قلبي : " هل ستكونين بخير ؟".
" لماذا ؟".

لو بقينا اكثر .. سيدفعني للبكاء .

" لأنك ذاهبة الى مكان جديد طبعاً .. لا تعرفين احد هناك " .

هزرت رأسي : " وهنا لم يبق لي احد أعرفه .." حينما تطلع بي متسائلاً رفعت رأسي : " سأكون بخير .. لا بد وان اتعرف على ناس جدد " .

اوماً : " ابقى على اتصال ببيت جدك .." حينما قال ذلك .. تمنيت لو اصفعه ..

" أنا مخطوبة لأبن خالتي .." رأيته يجمد فتابعت بلهجة متهمكة : " بالطبع سأبقى على اتصال بهم " .

توقعت ان يقول شيء .. أي شيء .. يبدد الوجد الذي اندفع في داخلي وانا ارى النور في عينيه ينطفأ .. بعدها تحرك عدة خطوات وقال لي بلهجة لم استطع تمييزها ...: " رافقتك السلامة " .

اردت ان اتشبث به .. لا تذهب .. منال التي تنتظرك في وحدة التنظيف يمكنها الانظار الى الابد ولكن لا تتخل عني .. كتمت شهقة في داخلي وصحت : " سرمد ..".

توقف عند الباب .. لم يلتفت نحوي .. أخذت نفسا عميقا وعيناى تلوزان
لرؤية وجهه مرة أخرى : " لقد قرأت المقال .. " تابعت بلهجة صادقة :
كان مثيرا للشجن وأنا سعيدة لأن دم رفيقك لن يذهب هدرا " .
حرك رأسه مومنا ثم دخل المركز .. وكانت هذه .. هي المرة الأخيرة
التي أراه .

الفصل الثاني والاربعون

الرميثة

تنبض الحياة في تلك المدينة الصغيرة ، تكتسح شوارعها الباهتة بالباعة المتجولين ..سوقها القديم الذي اصبح مكاني الآمن ..فقد عينت في مركز الغربي الواقع في منطقة شعبية من الرميثة ، امر كل يوم من الباعة والمحلات الباهتة ..والنساء التي لا تشبع من التسوق نهارا ومساء ..في فترة وجيزة فقط عرفت كطبيبة اسنان في المركز والكل احترم هذا الشيء ، وجدت في المركز غربتي التي تمنيتها ..نفيت هناك ..وقطعت كل جذور الماضي ..ومع هذا لم استطع الا احبها ..فهي احتوتني حينما كنت بحاجة للاحتواء ..وواستتي ..وداوت كل جروحي..بالرغم من ان ذاكرتي لم تمت ابدا .

في دار مستشفى الرميثة الذي استقرت به تعرفت على زميلة لي في مركز صحي آخر من أهالي الحلة ..اسمها هبة مع ابنها الصغير علي..هبة اصبحت الهبة من السماء بعد فراقني المر لصديقتي ..فلجأت لها في الوقت الذي لم يتبق لي احدهم ..فكن نذهب الى السماوة سوية ونعود سوية ..نرتب الاجازات معا ..ونجلس في اوقات العصر نتسامر مع بعض ..نحاول قضاء وقت غربتنا بأي طريقة ..ونتلطف لنزولنا كل خميس ..متعبات ..الا أنا متشوقات لرؤية احبابنا ..

مرورنا في الديوانية كل اسبوع يهيئ جراحي ..وتختض ذاكرتي بكل من فارقتهم ..حتى هبة ..صديقتي الجديدة انتبهت لي مرة وقالت لي : " لماذا يتغير وجهك حينما نمر من هنا ؟" .

بمرور الوقت استطعت اخبارها بكل شيء .. في البداية كنت التزم الصمت وهي احترمت هذا الشيء .. ولكن في ايام الشوق التي تصيبني ..ومرارة اللوم تتملكني اجد نفسي افضي لها بهمومي ..لقد طلب مني سرمد شيء واحد ان لا انقطع عن بيت جدي ..ولكني ..لم افعل ذلك فقط ..فعلت الاسوأ ..بدلاً من ان تتعزز العلاقات بيننا ..بدأ كل شيء بالانهيار في يوم مغادرتي الى السماوة ..فبعد ساعات فقط من تواجد سرمد في مركزنا ..اختفى تماما ..اتصل علاء به لعدة مرات ولم يستطع الوصول اليه ..مرت أيام لم يستطع احدهم اقتفاء اثره ..ولم اعرف هذا الا بعد مضي عشرة ايام على اختفائه .. هرعت الى بيت جدي استعلم منهم الاخبار ووجدت علاء في حالة لا يحسد عليها ..يشعر بالقلق والهم على عكس المرة التي رأيتها به حينما احتجز سرمد واختفى اثره فالكل يعلم بغيباه ..وينتظرون أملين ان تصلهم اخبار من مكان ما ..كل الاصدقاء اللذين تواصل معهم علاء كانوا يجهلون مكانه ..ولو اني عرفت بذلك منذ البداية لحاولت الاتصال به برقمه الخاص بي ولكن بمرور الايام اغلقت كل اجهزته ..بعد ذلك لجأ علاء الى مراكز الشرطة وابلغ عن اختفائه ..وتواصل مع كل منظمات الهجرة التي عمل بها ..وجمعية حقوق الانسان ولم يعلم احدهم شيء عنه ..انتشرت المقالات عنه ..والاشاعات تقول بأنه مختطف ..ولكن مع انهيار حزب نائب المحافظة وفصائح ملفات الفساد المتعلقة به ..تم اخماد تلك الشائعات فلم يعد يملك الحزب ادنى سلطة لإخضاع احدهم ..وقد ذهبت الى المركز التخصصي في احد الايام وتكلمت مع سامي ..رشوته بمبلغ بسيط ليدلني بأية معلومات ولكنه لم يقل سوى : " دكتورة ..الم اخبرك بأن تحذريه من نشر المقال ؟" ..وبعدها طلب مبلغ خيالي لقاء البحث عنه واستحصال اية معلومات من

الآخرين..ولكني رفضت وغادرت المركز بالرغم من الحاحه ومحاوله
تقليل المبلغ الذي طلبه .

شهران مرا ..وتبعهم ثالث ورابع ..ولا اثر لسرمد ..اختليت في غرفتي
في دار المستشفى ..اتأمل فيما سأفعله بعد نزولي في نهاية
الاسبوع..ذهابي الى بيت جدي لا يزيدني الا وجع وألما ..وأنا ارى
انهيار خالتي سعاد ودموع خالتي نجاح ..كأبة قيصر وعزوفه عن فعل
شيء ..وغضب علاء الذي يزداد اسبوعا بعد آخر ..لقد فشل في ايجاد
شقيقه ..واخذ يلقي اللوم على السياسة والجمعية ..ثم لام الدرب الذي
سلكه ورماه في التهلكة ..وحينما لم يجد شيء آخر ليلمه رأني يومها بعد
عودتي من الرميثة ..كنت لا ازال ارتدي الخاتم ..ولكن قلبي لايزال في
حداد مستمر ..وادركت يومها بأن علاء ..بغضبه وقلقه وتوتره ..لم يعد
يهمه ذلك الخاتم الذي يزين اصبعي ..فأخذ يلومني واعتبر خطوبتنا
احدى المسببات لاختفاء سرمد ..وحينما سألته عن صديقتي منال..وبأنها
ربما تعرف عنه شيء ..قال لي بلهجة غاضبة نافرة : " صديقتك تلك
آخر من رآه في المركز ..وهو لم يتواصل معها قط ..".

" لم يتواصل معها ..؟ كيف ذلك لقد كانا يتصلا ..".

قاطعني بتبرم : " لم يتوصلا قط ..افهمي ذلك يا فاتن ..لقد تكلمت معها
منذ يوم اختفاه واخبرتني بأنها تفاجأت حينما اتصل بها وطلب موعد
لعمل جلسة تنظيف " .

شعرت بالدموع تلسعني ..أكنت متوهمة اذن ؟.

" أجل ..لقد رأيته يومها ..".

نظر الي علاء بحدة : " رأيته ..؟ لماذا لم تخبريني ؟".

" لم اظن ان لقاءنا يعني شيء .. لقد كان فعلا متجه لعمل جلسة تنظيف ولكنه تحدث معي قبلها " .

اقترب مني علاء متلهفا : " ماذا قال .. ؟ هل شعرت من كلامه شيء ؟ " .

حركت رأسي نافية : " كلا ، كان هادئا .. بالرغم من .. " واخذت نفسا عميقا ودموعي تفيض : " بالرغم من انه اخبرني بأن خاتم جدتنا يليق بيدي .. ولكنني شعرت .. " وعادت الدموع تنزل .. سمعت صوت علاء يحثني بألم : " شعرت بماذا .. ؟ " .

" بأنه يتعذب من رؤيتهما هكذا .. " وفردت يدي .. وبرز الخاتم بوضوح .. واكتنز صوتي بألم مرير : " انا لم أفهم شيء .. يومها قال لي ان ابقى على تواصل مع البيت هنا وظننت انه نسي بأننا مخطوبان .. " .

نظرت إليه فرأيت العذاب في عينيه : " أترين الآن ماذا فعلت .. ؟ .. ماذا اجبرتني على فعله ؟ .. أترين الآن كم آلمه امر خطوبتنا ؟ " .

استنكرت وانا انشج بالبكاء : " لماذا اذن لم يقل شيء .. لم يغضب أو يحاول حتى منعنا ؟ .. لقد اراد هذا الشيء لأنه يعلم بأن حياته ستكون بخطر .. " .

صفق علاء يديه مع بعض : " وماذا استفدنا الآن .. لا نستطيع حتى اقتفاء اثره .. " .

واخذ يدور في غرفته بغضب وهو يستغفر ربه .. كل تحذيرات سرمد بشأن عدم اخبار علاء بما يحصل له لم تعد لها ذات معنى .. اخبرته يومها بكل شيء .. بكل الاسرار التي باح بها سرمد وعن سامي والحزب وقضية العشيرة التي احتجزته .. اخبرته حتى عن كلام نبيل

المسيء له ورأيت تغير وجه علاء وصدمته مما سمعه مني ..تخاذل وجلس على السرير وبقي صامتا لدقائق ..يحاول استيعاب كلامي..بعدها تذكرت شيء : " ماذا عن مفكرته ؟" وقمت واقفة : " ربما تجد شيء ..هل تفحصتها ؟".

سرعان ما خيب أمني : " كلا ، المفكرة غير موجودة في غرفته " .

قلت له بأمل : " وهذا يدل على شيء ما ..اليس كذلك ؟ هو دوما يتركها حينما يسافر ..لا بد وأنها ..".

زجرني بغضب : " فائن ..دعي المفكرة ..أخبرتك بأنها غير موجودة..". وعاد يستغفر ربه فعدت اجلس على السرير ..شبكت يدي مع بعض ومسحت دموعي ..علينا ان نكون اقوياء ..وأن نتقبل مصيره مهما كان : " ماذا ستفعل لاحقا ؟".

هز رأسه ..بدا ضائعا ..متعبا ..خائب الأمل ..: " لا أعلم ..منظر والدتي يؤلمني يا فائن ..وأنا .." واخذ نفسا عميقا : " أنا عاجزا تماما " .

مددت يدي ومسكت ذراعه ، علاء سندي ..وتمنيت ان اكون سنده في تلك اللحظة ..ان انتشله من ضياعه ..أن اطيّب خاطره ..أن اطمأن قلبه الجميل بسلامة سرمد ..انتبه هو الى يدي المشبوبة بذراعه ..وحدق مطولا بها ..بعدها رفع بصري وقال لي : " لن ينجح الأمر يا فائن ..".

كنت اعلم أنها النهاية ..ولكني لم اكن شجاعة لأن ابادر ..انتهت اللعبة وتركت كلاً منا مريرين : " الأمر الذي لا احتمله بأنه غادر عنا وهو مفطور القلب ..في تلك الفترة .." وغامت عيناه بالعذاب : " لم تتوقف والدتي عن ذكر حفلة الزفاف بعد دورة السنة لوفاة جدتنا ..ذكرت الفساتين والمدعوين وغرفة النوم ..حتى اقترحت ان تكبر الطابق

العلوي هذا ..وتجعله كشقة صغيرة ملائمة لنا ..كل تلك الخطط استمع لها هو ..وكنت اشعر بأني اخونه ..واطعنه في ظهره ..منظره .." وعاد يتنفس بألم : " نظرة عيناه لازلت اذكرها ..ولكني اعود وافكر بك ..وبألمك ..وبكرامتك واحتياجك لي ..لقد كنت عاجزا بينكما يا فاتن ..ولم اعرف ماذا افعل ..تمنيت .." ونزع خاتم خطبته الفضي اللون ووضع بيدي : " تمنيت لو إنه عندما يرى الخاتم في يدي أن يأتي ويحطم وجهي أو يقلب البيت رأسا على عقب ..يهدد كل من يحاول اخذك منه ..تمنيت ان يفعل ذلك ..يخبر امي بأنه يستحق العيش بسلام ..معك ..ربما سيأمل هو بتكبير المنزل على راحته ..أو ربما يبني لك البيت الذي تحلمين به ..يسعى جاهدا لأن يجعلك عروسه ..".

قبضت يدي على الخاتم واغمضت عيني ودموعي لا تتوقف عن الانهيار ..سمعته يأخذ نفسا مرتجفا وتابع بعدها : " لا تخبري أي احد بأني رفضت اكمال خطبتنا ..اخبريهم بأنك انت من فسخ الخطبة ..لا اريد ان يأتي اي كلام بالباطل حولك ..هل فهمت ؟".

هزرت رأسي وبقيت لدقائق ابكي ..فكان ان حضني بين ذراعيه وقبل رأسي بسرعة خاطفة : " أعذريني يا فاتن ..لأجله ..لا استطيع اكمال الخطبة ..يجب أن تكوني حرة حينما يعود .." ورفع رأسي متمسكا بي ..مانحا اياي امل في انتظاره : " أسمعيني يا فاتن ..كوني حرة لأجله ..لأنه حينما يعود سأضع بنفسني السلاح فوق رأسه وأقوده اليك ..".

ثم خرج من الغرفة وتركني استعيد زمام أنفاسي ..

ولكن الامر الذي لم نضعه في الحسبان هو الامتناع الكلي والرفض القاطع من خالتي وعائلي ..رفضوا كلاهم فسخ الخطبة وفي تلك

الظروف ..خالتي سعاد اتهمتني بأني لا اقدر حالتها المأساوية وخالتي نجاح القت علي محاضرة طويلة عن خطورة التمسك بعنادي في ظرف كهذا ..تدخلت عائلتي في الأمر ..وقفوا ضدي في البداية ..ولكنهم رضخوا بعد تمسكي الشديد بقراري ..الخطبة فسخت ..والعلاقات ساءت ..رفضتني خالتي سعاد ..وخاصمتني خالتي نجاح ..حتى قيصر الحبيب انقلب ضدي وأخبرني بأني لا اقدر فعلا ظرفهم وبأني في الوقت الذي علي ان اقف الى جانب محنتهم بصفتي خطيبة اخيه وابنة خالتهم قمت بتدمير العلاقات بين الشقيقات ..وبالتدريج ما عادت امي تتحمل اللوم المستمر لخالتي سعاد ومحاضرتها المتعلقة بي وبشأن تربيته وبأنهم منحوني الدلال وافسدوا تربيتي ..وبأني ناكرة الجميل ..خاتنة لوصية جدتي ..وشيء فشيء لم تعد والدتي تذهب لهم ..وأنا ولأني لم استطع اقناع اي طرف بقراري انزويت الى الرميثة ..مدينتي الآمنة .

وبالتدريج لم استطع البقاء عندهم ..لم اتحمل كل ذلك اللوم مع اني استحق ذلك ، قلبت الامور تماما ..لم اعد مدلتهم ..ولست عزيزة عليهم ..نبذت من بيت جدي لأني خالفت وصية جدتي .ومهرها الذي رددته الى خالتي سعاد احرق كل الصلات بيننا ..أخذته واخبرت والدتي بأنها لا تود مني ان اعود مرة ثانية الى المنزل ..وقرارها ذاك لم يتدخل احد به ..حتى علاء ..لم استنجد به ..لأني اعرف بأني لا استحق العودة ..فانشغلت في دوامي وحرمت من رؤية بيت جدي مرة ثانية .

لفترة طويلة لم استطع التخلي عن عادة الاتصال برقم سرمد الخاص بي، لم يخبو الامل في داخلي يوما ..اتخيل دوما بأنه في مكان ما ..يرتب اموره حتى يعود ..وان لم يستطع علاء وضع السلاح وتهديده سأقوم

بذلك بدوري ..كنت اشعر بالذنب لأنني لم اهتم في لقاءنا الأخير بل حاولت ان اقسو بالكلام معه ..ظننت بأن علاقته بمنال كانت تعني شيء..ولم اتصور للحظة بأن منال قامت بترتيب ذلك كي تبعدني عنه .

املي في عودته دفعني لرؤية لقاءاته وقراءة كل مقالاته لعدة مرات وقمت بتنزيل الاعداد في حاسوبي وشيء فشيء اصبحت من قراء الصحف والمقالات السياسية الساخرة ..وبتطور التكنولوجيا في ذلك الوقت وانتشار مواقع التواصل الاجتماعي افتتحت مجالات وظهرت مهارات كتابية ..وكتبت اول مقال عن الوضع الصحي في الدوائر والمستشفيات ..وبعدها كتبت عن اسلوب التعايش في القرى البسيطة وخاصة وان تنسبي لأماكن نائية من مدينة الرميثة ..وقرى بعيدة لا تملك وسائل للعيش الرغيد ..والوضع الصحي المتردي بهم ، واول مقال نشرته أرسلته الى صحيفة الساعة ..الصحيفة الأولى التي جذبتني الى عالم سرمد ولم اصدق حينما قبل المقال اذ ارسلوا لي في البريد الالكتروني واخبروني بأنهم سعيون بالتواصل معي ..وهذا حفزني على كتابة العديد من المقالات الصحية والمتصلة بشكل غير مباشر بالوضع السياسي ..تردي احوال البلاد في تلك الفترة شجعتني على كتابة مقالات جريئة ونشرت العديد منها في الصحف ..ولكني كنت اعود الى صحيفة الساعة ..وكان شيء يشدني اليها ..كانت من رائحة سرمد ..ولم اقا على مقاومتها او تركها في فترة ما .

واصبح لي عمود خاص في الصحيفة ، حينما عرض رئيس التحرير ذلك علي لم اصدق فرحتي ..فكنت اكتب بحماس وتوق ..ولهفتي في صدور المقال كانت ايما لهفة ..تمنيت ان اشارك الآخرين فرحتي بذلك..كنت اتخيل ردة فعل سرمد لو أننا كتبنا في ذات الصحيفة وذات العدد ..أكان سيشجعتني أم انه سيقول لي بلهجته الساخرة التي

اشتقت .. (اتركى الكتابة لأصحابها !) .. ساعد تطور اسلوبي تعييني كمديرة للمركز الصحي بعد أن اثبت جدارتي في القيادة لكوني نائبة المدير السابق والذي ارتحل لإكمال دراسته في بغداد .. بقاءى المتواصل في الرميثة جعلني امد جذوري بها فانتعشت حياتي .. واصبح لدي هدف وغاية .. كنت أكتب واتواصل مع الآخرين كمديرة وكطبيبة اسنان .. وفي وقت العصر كنت اعمل في عيادة التأمين الصحي و اخدم الناس وكونت اسمي خلال سنوات التدرج والتي امتدت بعد ان اصبحت ممارسة .. لم ابحت عن طريقة للنقل الى الحلة مع ان اكثر الطبيبات اللواتي عملن معي عدن الى مدنهن .. ولكني لم استطع العودة .. التزمت بعملتي وبكتابتي .. ونلت العديد من كتب الشكر وعرض علي ان اكون مديرة للقطاع الصحي في الرميثة فرفضت لأن المسؤولية ستكبر فاكتفيت بما لدي .. ورضيت بما وصلت اليه ..

عودة هبه الى الحلة اثرت بي كثيرا .. وعدت لأشعر بالوحدة والغربة بالدار مع اني تعرفت الى عدد مذهل من الطبيبات والصيديات .. وما ان اخبرت عائلتي بذلك حتى حثني والذي على التقديم للنقل ما دام الأمر متاح .. ولأن غربتي طالت قدمت مرغمة لأجل عائلتي التي اشتاقت لعودتي للحلة .. فتخليت عن منصبي في المركز بعد خدمة ثلاث سنوات .. وخلال اشهر فقط قبلت معاملة النقل في الوزارة وودعت الرميثة والتي عشت فيها زهاء الأربع سنوات النصف .. بالإضافة الى السنة والنصف من عمر اقامتي في الديوانية عدت للحلة بعد غياب لست سنوات .. عدت في شهر الشتاء والذي كسى قلبي ببرود .. فالواقع الصحي في الحلة صدمني تماما .. لم الق ذات المعاملة ولم يقدم احدهم اي تقدير لسنوات خدمتي .. عدت لأعمل كطبيبة اسنان عادية في المركز ، أما في دائرة الصحة فأختلف الكادر تماما .. هناك في المناطق

الجنوبية كان الطبيب يقدر ويكرم بينما هنا اصبح يعامل بازدراء وكأن
الموظف الجالس خلف المكتب وفي يده معاملة لطبيب ما يجعله يملك
الحق في التقليل من شأنه والتصرف ببرود معه ..

فرحة ابي وامى بعودتي انستني غربتي الجديدة ..وفي داخلي شعرت
بأن الأبنة الصغيرة الوحيدة لديهم قد كبرت واصبح لديها كيانها الخاص
واستقلالها ..وبمساعدهم استطعت فتح عيادة ثم شراء سيارة واصبحت
اعتمد على نفسي في كثير من الامور الحياتية ..وبالرغم من غصة
والدتي وامنيتهما في ان تراني عروس الا انها لم تفتح معي اي موضوع
لأنى كنت ارفض رفضا تاما ..كانت تظن بأنى لم اتجاوز ما حصل لي
في الديوانية ونبت بيت جدي وقطع كل الصلات بينهم ..ومع هذا فوالدتي
كانت تتواصل مع خالتي نجاح بينما بقت خالتي سعاد مصرة على
المقاطعة حتى بمرور السنوات ..وحتى في عرس قيصر لم توجه لنا
دعوة الامر الذي احزن والدتي وجعلني اشعر بالذنب ..فأنا كنت السبب
في تلك القطيعة ..وانا التي ابتعدت ..ولم اتواصل حتى مع علاء
..تمنيت ان تشفى الجروح بمرور الزمن ..ولكن غصة غياب سرمد لم
يتجاوزها احد قط ..تكلمت جراحنا حقا ...!

بعد سنتان ..

تعنيم

كان البرد شديد والهواء زمهرير ، يعصف على الأبواب ويحرك زجاج
النوافذ الغير ثابت ، وكأنه يوصل رسالة شتائية تنبأ بطقس معتم تماما ،
تلبدت السماء بالغيوم وتوشحت الشمس بغطاء وكأنها تعبت من اهدار

اشعتها الباهتة على طقس شتائي متكامل الأطراف . فدلفت متعبة تنتظر هطول الليل كي يعفيها من دورها الغير مجدي .

كنت أشارك الجو بتعتيمة الكلي ، فقد دلفت إلى غرفتي أغلق الأنوار وأشعل الدفاية ليعم المكان بالدفء ثم تلحفت بفراشي وغرقت بين طياته، وكتمت على نفسي الثلج بأهات وأخذت أنصت إلى العاصفة الشتائية التي تهدر حولي ، كنت أكره الشتاء ..فهو يذكرني بجو المدرسة الطفولي والإجبار اليومي على الخروج من المنزل ..ترك الفراش الهانئ بالدفء والذهاب إلى المدرسة ، تضع والدتي فوق لفات من الألبسة لكي تقيني من البرد فأبدو في النهاية وكأني دب قطبي..بالكاد أستطيع المشي ، وهناك ..كان علي تمرين اصابع يدي الثلجة للبدء بالكتابة الصفية وأنا أتأمل مضي الوقت كي أعود إلى بيتي حيث الدفء الأسري التام .

ذكرياتي عن طفولتي كانت تتسم بشتاء قارس كهذا ، كرزت على اسناني أذكر أيام مرت بي وأنا أشعر وكأن البرد ملتصق بحنايا قلبي ، لم يعد ينبض كما أعرفه ..فقد أصابه الصقيع ككل شيء من حولي ..وقد فكرت حقا ما فائدة قلبي إن كان يضخ بدماء مثلجة إلى عروقي ..إلى كلي؟!.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة عصرا حينما رن هاتفي بوصول رسالة بريدية حاولت تجاهلها ، فأنا لم أعد أعبأ بكثرة الرسائل البريدية من كافة الإعلانات إلى الرسائل الشبه توسليه من صديقاتي واللائني غبت عنهن ..لقد كنت اشعر بالتعب من كل شيء ..لم يعد يهمني دوري في الحياة ، افضل العيش في روتين ممل عوضا عن اهدار وقتي في انتظار مالم يحصل إطلاقا .

ثم مددت يدي نحو هاتفي الخليوي وتقلبت في فراشي أضمه معي وأنا أفكر في كيفية انتزاع يومي الكئيب من أفكاري المشوشة ثم أخذ هاتفي يرن بوصول رسالة بريدية أخرى فشعرت بالغضب فجأة وسرعان ما فتحت هاتفي لأقلب الرسالتين ثم شعرت بشيء يهتز بداخلي ، وكأن العاصفة أصابتني تماما ، فانقضت من مكاني أعاجل فتح أحدهما وقد شل تفكيري تماما .

كان تعتيم الغرفة مناسبة تماما لتلك الكلمات التي ومضت أمام عيني فقد برزت بوضوح تعلن عن تخليها لذلك الصمت الأبدي وقد قرأت :

" فأتن ، لا تتوقفي عن الكتابة ..لم أر مثل شغفك " .

وفقط .

الخاتمة

العودة الى الطريق الذي ظننت بأني لن اشتاق للمرور به بعد سنوات من الغربة في المحافظات جعلت يدي ترتجف اثناء قيادتي للسيارة ..لم استطع اخبار امي سبب ذهابي للديوانية الحقيقي ..اخبرتها بأني احتاج لبعض المعلومات الخاصة بإضبارتي الصحية ..وحدها دقات قلبي كانت لتقضحني ..تمسكت بالمقود جيداً وانا استدير في الشوارع التي حفظتها ..ذكريات مرت في بالي ..ذكريات لطفولتي ومراهقتي وسنوات الإقامة التي كانت من اجمل ما عشته في حياتي ..استقلالي كطبيبة اسنان ابتداءً منذ ان عينت في الديوانية قبل ثمان سنوات وها انا الآن اعود بعد سنوات الغربة والنبذ ..أعود الى المنزل الذي ولدت فيه ..والقلب الذي يصرخ بحب معبوده عاد لينبض من جديد .

(سرمد على قيد الحياة !!) .

كتبت لعلاء ذلك لحظة ان قرأت الرسالة البريدية ..اتصل بي بعدها ..منذ سنوات لم استمع لصوته الحبيب ..ابتعدت وانشغلت وتناسيت ..ولكن قلبي فاض بدموع الاشتياق فبكيت لدقيقة كاملة وانا استمع لصوته المتلهف الغير مصدق ..كيف عرفت ..ولماذا انا متأكدة ..أخبرته بأني سأتي الى منزله لأن الامر يحتاج للكثير من التفكير والبحث والاستفسار عن سبب اختفاءه ..وهكذا سافرت في اليوم التالي وقلبي يتراقص فرحاً وروحي تكاد تطير ..اما ارتجافي فهذا لأنني كنت متوترة من لقاء علاء وتفسير ما قرأته في رسالة البريد الالكتروني ..اتصل بي في الصباح ليتأكد بأني قادمة فأخبرته بأني كذلك ..وماهي الا دقائق واستدرت بالسيارة الى الطريق المألوف ..ثم دخلت شارع بيت جدي

وتسارعت دقات قلبي وازداد توترتي وارتباكتي .. عالمة بأني قد لا ألقى
أي ترحيب من خالتي سعاد .. ولكن رؤية علاء المنتظر في الباب
جعلتني أتخلى عن حذري فركنت السيارة قربه ونزلت وأنا أخذ أنفاس
متوترة ..

لم يتغير علاء .. بوجهه المليح ولحيته الخفيفة .. الشيب وحده من فضح
علامة تقدمه بالسن .. وتغضنات وجهه التي ازدادت من أسى انتظار
لشقيق ظن الجميع بأنه فارق الحياة منذ سنوات .. فرحة رؤيته لي أنسته
بأننا افترقنا والود ما عاد بيننا .. اقترب مني ومسك يدي مرحباً .. وهو
يقول لي : " فائن .. لو اننا لسا في الشارع لحضنتك ودرت بك الدنيا .. " .

تدفقت الدموع .. دموع التوتر والفرح برؤيته فأدخلني للمنزل وهناك
حضنني برفق وعيونه تشاركني بتأثري .. مضى علينا الكثير من
السنوات ولكننا حينما تقابلنا عدت وشعرت بأن علاء سندي .. شقيقي
الذي تمنيت ..

" لم أخبر أي أحد بقدمك .. أردت التأكد مما ستقولينه .. " وضغط على
يدي برفق : " فائن لقد أعدت الحياة الي ليلة البارحة .. ولم أصبر .. كددت
أسافر الى الحلة فقط لكي أتأكد من الرسالة " .

وقادني من الحديقة الداخلية ... توقفت للحظات أتأمل المكان وشعرت
بأن السنين مرت .. وشخنا جميعاً غير أن بيت جدي لم يتغير مازال
صامدا بالرغم من النكبات التي مرت عليه ..

" أين البقية ؟ " . دخلت الى المطبخ وحاولت السيطرة على افكاري
.. فرؤية المطبخ كانت تدفعني دوما الى ذلك اليوم الذي هرعت فيه الى

المنزل لأتكلّم مع سرمد بينما كان جالسا هو لاهيا عن حياته
الخطرة..ولو انه استمع لي يومها ..أكان سيحصل ما حصل؟ .

" امي وخالتي عند بيت قيصر ..سيأتون بعد قليل .." . وأشار الى بيت
قيصر المجاور لهم ..سألته عن صحة الجميع فأخبرني بأنهم
بخير..وحيثما سألته عن قيصر ضحك ...:" انت تعرفين .. لا نصدق انه
تزوج واستقر اخيرا !"

ابتسمت وقلبي يرتجف ..كيف ستكون ردة فعله لو انه علم بوجودي هنا.
فأنا اذكر المرة الاخيرة في بيت جدي حينما أعدنا المهر اليهم..نظرته
المحتقرة لي كانت تهزني على الدوام ..

قدم لي كأس من الماء ثم اجلسني على كرسي المائدة وأخبرني بحزم :"
الآن علينا ان لا نتسارع في تفسير ما قرأته ..كيف أنت متأكدة من انه
على قيد الحياة .."

اخرجت جهازتي واظهرت له رسائل البريد الالكتروني ..كان قلبي
يرتجف حينما اذكر تلك الكلمات ..فتحت الرسالة وجعلته يقرأ .

(فاتن ..لا تتوقفي عن الكتابة ..لم ار مثل شغفك) .

تمسك علاء بالهاتف : " انا لا افهم حقا .." ظهرت الحيرة عليه ..فأخذت
نفسا عميقا وقلت له وعيناوي مغرقتان بالدموع : " اقرأ العنوان ..عنوان
البريد "

اخذ علاء يقرأ العنوان ببطء : " وردة ..بت شرين .." ورفع بصره
نحوي وتهجأ الاسم المكتوب بالإنكليزية بشكل اصح : " وردة
تشرين ؟"

اومأت له ومسحت دموعي : " الم تفهم ؟ ..لطالما لقبني سرمد بالوردة ..وفي مرتين او اكثر سماني بوردة تشرين ..لأنني ولدت في تشرين الثاني ..!" .

هز علاء رأسه : " ماذا عنت الرسالة اذن .. عن الكتابة ؟" .

فسرت له بصوت مرتجف : " هذا لأنني كنت اكتب في الصحف على مر السنين الماضية ..كتبت مقالات في صحيفة الساعة ..هي ذاتها الصحيفة التي كتب بها سرمد مقالاته .." وتابعت وانا انظر إليه وقد تغيرت معالم وجهه : " ولكني منذ سنتين توقفت ..خاصة بعد انتقالي للحلة ودوامي بها وانشغالي بعيادتي ...لم اعد استطيع الكتابة ابدا وكأني فقدت قدرتي .. واغلق عمودي فيها ..أترى يا علاء .." وتابعت بلهفة : " لابد وأنه قرأ مقالاتي ..وتابع كل ما كتبت ..أنها اشارة الى انه سرمد..لا احد غيره لقبني بالوردة .." .

ضم علاء الهاتف بيديه وأخذ يتنفس بعدم تصديق : " إن كان على قيد الحياة لماذا لم يتوصل الينا ؟ ..لماذا اختفى كل تلك السنين ..؟" وترك الجهاز على الطاولة وانتبهت ليديه المرتجتين فمددت يدي لأضغط عليهما : " لابد وانه يملك اسبابه ..نحن لا نعلم انه اختطف او احتجز أو حتى هاجر ..هذه الرسالة مدتنا بالأمل " .

" هل حاولت ارسال شيء للعنوان ؟" .

نفيت : " كلا ، العنوان لا يقبل اعادة ارسال اي رسالة اليه .." .

اخذ علاء يدور في المطبخ وهو يفكر : " الا يمكننا عرض الرسالة على خبير ما ..ربما نستطيع كشف المكان الذي ارسلت اليه " .

وافقته : " ربما .. ولكن ألا تظن بأن سرمد كان ليخبرني بالمكان في الرسالة ... لقد ارسلها وهو يعلم بأننا لن نستطيع الوصول الى شيء .. ربما اراد فقط ان يخبرنا بأنه على قيد الحياة " .

تأوه علاء .. وعاد ليقف قربي متنفسا بعدم تصديق : " أنا لم اتوقف عن الأمل بعودته قط .. ولا احد منا فعل ذلك .. مرت علينا اوقات يأسنا ولجأنا للقضاء والمحاكم .. ولكن كل شيء خبا بمرور السنوات .. لم نملك اية ادلة ولم نتقي اي اثر .. " .

قلت بهدوء : " لقد عمل جاهدا ليخفي اثره .. ولا اعرف الآن كيف سنصل اليه .. " .

نظر إلي علاء للحظة ثم اخبرني بأن انتظره بينما دخل هو الى الداخل وعاد بعد دقائق وبيده شيء .. وضعه على الطاولة امامي واهتزت الصورة

شهقت غير مصدقة : " أنها المفكرة ! " والتفت اليه : " اين وجدتها .. ؟ " .

سحب علاء الكرسي ليجلس عليه للحظة : " وجدناها في غرفة جدتي المغلقة منذ سنوات .. قبل شهر تقريبا من زواج قيصر " .

" ماذا تفعل في غرفة جدتي ؟ " وتأملت في مفكرة سرمد والتي لطالما شعرت بفضول كبير للاطلاع عليها ورؤية كل اسراره ..

" ربما تركها هو .. عالما بأن غرفة جدتنا ستبقى مغلقة على الدوام .. " .

مددت يدي نحوها .. هل اتجرأ على الدخول الى عالمه لأول مرة .. اغمضت عيني وانا اتخيله جالسا على سريره يكتب فيها وأنا انتظر بنفاذ صبر عند الباب اتساءل متى ينوي تركها ويلتفت الي ؟ ..

" فائن .. اصعدي الى غرفته واطلعي عليها .. ربما تجددين شيء ما .. ".
التفت اليه بعدم ثقة : " ماذا لو عادت خالتي سعاد .. وجودي غير مرحب به ابدا " .

ابتسم ... وشعرت بالدفء في قلبي .. لطالما اشعرتني ابتسامته كذلك ..
" اتركي والدتي علي .. لقد استطعت ارجاع الفرحه الى قلبي بعد كل تلك السنوات .. وأمي لو علمت بأي دليل على سلامة سرمد ستغير رأيها " .

أمن الممكن ان تفعل ذلك ..؟ ..

وبقلب متلهف لعالم سرمد .. صعدت الى غرفته وأنا أتأمل أن اجد في المفكرة ما سيقوم بإذابة الجليد في قلبي ويعيد الحياة لروحي .

عند باب الغرفة اغمضت عيني .. تخيلت للحظة بأنني سأجده هناك .. جالسا على السرير مانحنا لبعضنا الخصوصية .. السجارة في فمه .. القوة والحزم ينضحان من شخصيته .. ولكن الغرفة كانت فارغة .. السرير موضب كما هو والمكتب الفارغ معد لاستقباله .. بدت الغرفة كما تركتها وكأن خالتي سعاد حافظت على الروح فيها .. جلست على السرير ووضعت المفكرة في حضني .. " سرمد .. " ناجيته بقلب مشتاق مجروح .. كم مرت الايام بنا .. مريرة موحجة .. كنت كالमित بغيا به .. كالوردة الذابلة العطشة لحنانه ... الآن وبسبب كلمات قصيرة رقدت على سريريه وقلبي يموج بالأمل .. الماضي يقف خلفي .. والحياة في تلك المفكرة كانت تشدني اليها .. فتحتها برفق وانا اكافح دموعي وتأثري الشديد ..

الصفحات الاولى ملئ بتواريخ عديدة وعناوين لموكلين سبق وان عمل معهم ..مررت بصفحات عديدة لخطط عمله كمحامي وقضاياه الخاصة ثم وصلت الى الصفحات التي خط بها قصة عادل ..ومقالاته التي خست قضيته ..ثم قلبت اوراق عديدة بلهفة محمومة بعدها وصلت الى القسم الآخر ..القسم الذي اظهر شخصيته الخفية عني ..اختلف الخط ايضا ونوع القلم وكأنه لم يود كتابة كل تلك القصائد الا ليجعلها شيء مميز بعيدا عن خربشته تلك وفوضى قضاياه ...لم تبين القصائد وكأنها موجهة لشخص ما ..بعضها بالفصحى والبعض الآخر باللغة العامية ..كانت القصائد غزلية بشكل عام ..قرأته منها ما اعجبني وجذبني الى اسلوبه ..لماذا لم ينشر شيء منها؟ ..توقف بصري على احداها ..حين برزت كلمة الوردة واضحة .. التاريخ يعود لما يقارب العشر سنوات ..او اكثر ..ربما منذ قبلت في السنة الأولى من كليتي..تلهفت عيناى لقراءة كلماتها ..ثم قرأت القصيدة الأخرى ..والتي بعدها ..وكلها كانت لأجل الوردة ..وصلت الى القصيدة التي اشار اليها علاء ..كتبت منذ اشهر تعييني الأولى في المركز التخصصي ..امتلات عيناى بالدموع وأنا اقرأ الكلمات وكأنها كتبت لأجلي فعلا ..ترجمتها مثل ما اخبرني علاء ..وفهمت ماذا كان يقصد حينما بان اسمي في نهاية القصيدة النثرية ..وكانت هذه ترجمتها :

كالقمر في ليلة مظلمة

أنت تشعين

ترقصين على أوتار قلبي

وبه تعبتين

تهبين قلبك لمن ..؟

لا تعرفين ..

سكنت القلب منذ الأزل

فاتنتي .. ألا تفهمين ..؟

حبة قلبي أنت

حتى حين ..!

ثم لا شيء بعدها .. لم يكتب ما يشير الى مكان تواجده .. أو حتى اية
مذكرات ،، تأملت الصفحات الفارغة بعد ذلك .. ثم تذكرت كلمات علاء
عن بطاقات التهئة الخمس .. وماذا عن شريط التسجيل القديم .. بحثت
كالمحمومة عنه في كل المفكرة فلم اجد شيء .. خرجت من الغرفة
ونزلت مسرعة الى الاسفل .. لم انتبه للأصوات الموجودة .. ما ان
اصبحت في المطبخ حتى تفاجأت بعودة خالتي الى البيت .. شهقت
خالتي نجاح غير مصدقة بينما توقفت خالتي سعاد عن الكلام وحدقت
بي بصدمة .. ويبدو علاء الجالس على المائدة لم يخبرهم بعد عن
تواجدي في بيتهم .. ربما ليمنحني الخصوصية التامة في انهاء اطلاعي
على المفكرة ..

" مرحبا .. أسفة لأنني لم أخبركم بمجيئي .. " ابتدأت اقول بلهجة متوترة
.. لا اعرف كيف ستكون ردة فعلهم بعد صدمتهم الاولى .. هل ستنقي
خالتي سعاد مصرة على المقاطعة ..؟

" أمي .. خالتي .. قبل ان تقولوا شيء .. في الحقيقة أنا التي دعوتها الى
هنا .. " تحدث علاء بصوته الرزين : " علينا ان نضع الماضي

خلفنا.. لازلنا انا وهي نكن الود لبعض ولا يمكن ان يستمر الأمر بتلك المقاطعة .." وتابع بلهجة حازمة : " مضت السنين ولم يقتنع احد برأي في ضرورة نبذ الخلافات ..ربما لأننا انشغلنا باختفاء سرمد ..ولكن الحياة تستمر .." ونظر الي بحنان مطلق : " فائن جاءت اليوم بنية طيبة..وفي جعبتها بعض الاخبار السارة .." ..

تحركت الى الامام ولكني توقفت وانا ارى وجه خالتي سعاد الواجم المستنكر ..لن تتقبل عودتي ابدا ..لازالتم لم تسامحني على فسخ خطوبتنا انا وعلاء ..وعن عدم تحقيق وصية جدتي ..اما خالتي نجاح فطالما كانت البذرة الطيبة الحنونة ..رأيت عيناها الملهوفة الدامعة وتحديث هي اولا : " فائن ..كم كبرت يا حبة عين جدتك ... " ..ذاب الجليد بيننا وهرعت لعناقها ..تلقفتني غير مصدقة ..تعانقنا وامتزجت دموعنا ..واخذت تتمتم : "مرت السنين من دونك مريرة ..كم اشتقت لهذه الرائحة .." واستنشقت رائحة شعري وضمتني اليها وهي تتابع : " لم ننسك قط ..فراقك مر مثل فراق سرمد يا حبة قلبنا ... " ..

علي ان اتعلم ان اخطو الخطوة الأولى.. لن اصبح مثل الآخرين ..لن انتظر حتى تمر السنين ويأخذني الندم واللوم لأنني لم افعل شيء ..

سألتني عن حالي ووضعني ..ولمعت عيناها بفخر وأنا اخبرها بأنني حاليا اعمل في عيادتي الخاصة ..ومن جانبي شعرت بخالتي سعاد تتحرك وتتشاغل في فعل شيء ..فتركتم خالتي نجاح وتوقفت عندها ..وضعت يدي على كتفها وقلت بصوت مرتجف مختنق من الدموع : " خالتي ..أتمنى ان تكوني قادرة على مسامحتي يوما ما .." وتمسكت بمفكرة سرمد ..ارثه الذي تركه مخبأ ..نظرات علاء المشجعة واللهفة والأمل في عيني خالتي نجاح الدامعتين مدنتي بالجرأة لأقول : "

خالتي .. " التفتت نحوى .. وجهها لايزال صلبا .. انا اعلم انى خذلتها .. واهنتها .. ولكن عيناها اللامعة الدامعة اخبرتني شيء .. لقد تأثرت برويتى بالرغم من أنها لا تستطيع مسامحتى بسهولة .. اخذت نفسا عميقا وقلت لها بلهجة واثقة ابشرها بالخبر الذى تنتظره كل ام مفاجوة بفقدان ولدها ..

" خالتي .. سرمد على قيد الحياة .. لقد ارسل لى البارحة رسالة وأنا الآن تأكدت فعلا بأنه كذلك " .

كانت هذه مهمتى وغايتى .. بعد الصقيع الذى لامس قلبى .. على ان اذيبه ببحثى الدؤوب عن سرمد .. الدليل الآخر الذى مدنى به هو اختفاء بطاقات التهئة وشريط التسجيل .. لا بد وانه اخذهما معه ظانا بأننا لن نكتشف شيء لو قرأنا المفكرة .. فهما سيدلان الآخرين إلى .. وهو اراد ان يبقى حبه طى الكتمان .. طى الماضى الذى هجره .. محتفظا بالشىء الوحيد المتبق منى ..

مصالحتى مع بيت جدى مدتنى بأمل كبير فى اعادة كل الصلات المفتقة بين امى وخالتي .. قىصر الحبيب استطعت التواصل معه عنوة بعد ان صاحبت زوجته اللطيفة الجميلة .. عادت العزائم والولائم لبيت جدى .. نزعت خالتي سعاد السواد الذى ظلت تلبسه طوال تلك السنين بوفاة جدتنا وغياب سرمد .. علينا ان نجده بطريقة ما .. بالرغم من صعوبة ذلك وبالرغم من اننا لا نملك اى دليل على مكان تواجده ..

عدت الى سابق عهدى .. حاولت التواصل مع صديقاتى .. مع البنات اللواتى تركن اثرا عميقا فى نفسى .. على التصالح مع الماضى بأى ثمن .. نرجس .. زهرتى التى لم افقدها قط انتقلت الى بغداد مع زوجها احمد وطفليها الاثنى الولد والبنت بعد معاناة من الدوام فى اقضية مدينة

الديوانية ..سمية تداوم الآن مع زوجها مؤيد في ذات المركز ..وقد
انجبت ولدين هما قرّة عينهما ..سوسن كذلك ..بعد صعوبة العيش في
الساوة تدبرت هي وزوجها الدكتور احمد فاروق النقل الى بغداد ..وقد
اصبح لديها ولدين ايضا ..ريهام ..امي وحبيبتى تزوجت بعد سنين
واصبح لديها ابراهيم ..هند ..الجميلة الهادئة اصبح لديها ولد وبنت..
داليا لازالت تحارب الحياة مستقلة بذاتها وقد هاجرت مع عائلتها الى
امريكا وهي تحاول معادلة شهادتها لكي تقدر على مزاوله المهنة
هناك..

اما منال ..فبعد ان انقطعت السبل بيننا ..لم نستطع التواصل كل تلك
السنين ..سألت عنها في دائرة الصحة فأخبروني بأنها قدمت معاملة
للتنقل الى بغداد ..بينما لم تعد مع والدتها تسكن في ذات منزلهم ..لازلت
حتى هذه اللحظة ابحت عنها متألمة أن اعيد صلاتي بها حتى وأن
كسرت الصداقة ..لابد وأن هناك شيء بقى للترميم ..

اما نبيل ..وقصتنا الموجهة ..تمنيت لو استطعت الاعتذار منه بأي
طريقة ..آمله بأنه بمرور السنين استطاع مسامحتي والمضي في حياته
كما أحب ان يمضي فيها ..

رأيتّه مرة في مرقد الأمام الحسين (ع) ..كنت بحاجة للدعاء
والراحة..هناك في حضرة الامام استراحت روحي الهائجة ..فدعوت
..وأملت أن يرد سرمد سالما إلينا ..وحيثما انهيت دعائي وقع بصري
على عائلة صغيرة لا تبعد عني سوى خطوات ..طفل صغير بعمر
السنين تقريبا في حضن والدته بينما توقف والده الى الجانب يحاول
استمالته واضحاكه بينما كان الصغير يتمنع ويختبأ في عباءة
والدته..منظر الطفل الباسم بعينيّه الشقية الماكرة ارسل الدفء الى

قلبي..وحيثما ظهر جانب من وجه والده ذو الشعر الذهبي الداكن والعينان اللامعة التي لا تخص رجلا سوى نبيل ..انتشر الدفء اكثر..كان مبتسما ..يحاول اثارة اهتمام صغيره وكأنه الشيء الأهم في الحياة كلها ..منظره ذاك لم استطع نسيانه قط ..وحيثما تحرك ليبتعد مع عائلته لم استطع ان اشيخ ببصري عنهم ..وهو انتبه لي في النهاية..عينيه التي تخللت الصدمة فيهما وهو يميزني بعد كل تلك السنين ..نظرتي اليه وابتسامتي السعيدة لرؤيته هكذا وقد تجاوزني وبني حياته واستقر في مدينته كما حلم ان يستقر.. وقبل ان يختفي عن نظري ..التفت الي اخيرا ..رد لي الابتسامة الودية وكأننا زملاء قدامى ثم اوما لي بعدها مودعا ..

اخبرني علاء في مرة من المرات ان نلجأ للطريقة الوحيدة التي حفزت سرمد على النطق بعد سنوات الصمت ..علي ان اعود للكتابة والنشر في ذات الصحيفة فهو لابد وان يستطيع قراءتها والاطلاع على ما كتبت .. كانت املي الوحيد ..وهكذا عدت وتواصلت مع الناشر ووفر لي عمودي الخاص وقد رحب بعودتي مخبرا اياي بأن الكثير من افتقد لأسلوبي الخاص في الكتابة ..احترت كثيرا في مقالتي الاولى ..ارادتها ان تكون مميزة ..مناسبة لعودتي ..بعدها جعلت الكلمات تتساب من قلبي ..لقد كان سرمد هاجسي الأوحـد ..وملهمي في الكتابة ..وهكذا كتبت لأجله في النهاية ..ونشرت كلماتي في العدد الجديد ..ظهر اسمي واضحا كما اردت ..والرسالة التي اردت ايصالها له ..

(مازال طعم مرارة غيابك في فمي ..أتذوقه كل يوم وفي كل غد..أستشف من شروق الشمس أغنية باتت منذ آخر أيامي هناك ..لم أو من قط بأنك كالفلفل الحارق ..شهـي المنظر ..لاسع المذاق ..وكنت أتناول وجودك كالمخدر ..فباتت أيامي باهتة ..حتى في لقياك

وغيابك..حتى في صورك التي ركنتها في عتمة ذاكرتي ..لازلت
تطاردني ..وذنبك ..معلق في رقبتى ..!

لا شيء يمت لي بصلة ، أدركت يوما بأني ما عدت تلك التي تعرفها
..وبأني لست سوى ذكرى عابرة تأجج بريقها صدفه في ركن مزوي
من حياتك ..أدركت أشياء عدة يومها ..وليتني لم أدركك انت..!

(.....)

فاتن سلام نورالدين

طبيبة اسنان /بابل

انتهت

الجمعة ٢٢/٩/٢٠١٧

حبة القلب

رواية

إيناس جاسم الشمري



الطبعة الأولى

1442 هـ - 2020 م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com